خاتم النبيين صلى الله عليه وآله

الإدارة . الثقافة البيانية . المبادئ

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

خاتم النبيين صلى الله عليه وآله

الإدارة . الثقافة البيانية . المبادئ

تأليف

السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم

دار الهلال

طباعة. نشر. توزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين.

وبعد فقد طلب مني بعض الإخوان، ممن يهمه تثقيف المؤمنين بالثقافة الدينية السليمة قبل مدة ليست بالبعيدة، أن أتشرف بالكتابة عن شخصية نبينا العظيم صلى الله عليه وآله، أداءً لشيء من حقه، عسى أن ينتفع بها المؤمنون، الذين هم في غفلة عن كثير من الحقائق الشريفة التي تزيد المؤمن إيماناً بقضيته.

وقد امتنعت من ذلك لشعوري بعظم المسؤولية فيه، والعجز عن الإحاطة بمقامه الرفيع. فالنبي صلى الله عليه وآله أفضل الخلق، وأرفعهم شأناً، فلا يتسنى لي الإحاطة بشخصيته واستيعابها. بل ربما ينتهي بي الأمر إلى التقصير في حقه، وتحمل مسؤولية ذلك.

لكن كلما زدت امتناعاً زاد الأخ المذكور إصراراً. وانتهى بي الأمر أخيراً إلى التردد بين الإقدام والإحجام، وبقيت أعاني من الحالة المذكورة. ولم أجد مخرجاً من ذلك إلا اللجأ للاستخارة، حيث سبق مني الرجوع إليها في كثير من المنعطفات الهامة، ولمست بركتها. وكانت الاستخارة في ذلك مشجعة إن لم تكن ملزمة.

ونتيجة لذلك توكلت على الله ضارعاً إليه في العون والتسديد.

وشرعت في محاولة متواضعة لست على ثقة من نجاحي فيها.

هذا وفي الحقيقة أن نبينا العظيم صلى الله عليه وآله في غنى عن ذلك بعدما ثبت بالأدلة القاطعة التي تكفلت بها كتب العقائد ـ ومنها كتابنا (أصول العقيدة) ـ نبوته وعصمته. إذ ليس بعد النبوة والعصمة شيء.

غير أن ذلك لا يزيد عن معلومة إجمالية لا تسلط الضوء على مميزاته الشخصية، خصوصاً في حق غير المؤمنين بنبوته ممن لا يريد النظر في أدلة العقائد، ولا يهمه أمرها.

وكذا الحال فيما يتعلق بدلائل صدقه في دعواه النبوة من المعاجز والمؤيدات ونحوها. فإنه من شأن كتب العقائد. وقد ذكرنا كثيراً من ذلك في الكتاب المذكور.

ومثل ذلك ما تضافرت به النصوص من رفعة مقامه في الملأ الأعلى، وفي عالم الأنوار والأشباح. فإنه وإن كان الأهم في سموّ شخصيته صلى الله عليه وآله ورفعة مقامه، إلا أن ذلك لا يتناسب مع الاهتمامات المعاصرة، التي هي الأقرب للمادية ولما يقرب منها من المرتكزات الوجدانية التي يدركها الإنسان بطبعه، وإن كان قد يكابر، فينكرها تنظيرياً، خروجاً عن مقتضى فطرته التي تتوثب، ويلجأ إليها لا إرادياً عند الأزمات.

ومن هنا نقتصر في حديثنا على الجانب المادي المنظور، والجانب الوجداني الذي تقضي به المرتكزات الإنسانية العامة.

كما أن حديثنا هذا وإن كان الغرض منه بيان مقام النبي صلى الله عليه وآله وتقييم شخصيته حسبما يتيسر لنا، إلا أنه يستبطن توجيه الإنسان ـ مجتمعاً وأفراداً ـ نحو الأفضل، وتحفيز النفس نحو دواعي الخير الكامنة في قرارة

الوجدان الإنساني. وبذلك يكون حديثنا تربوياً توجيهياً، خصوصاً للمؤمن، الذي يفترض أن يكون النبي صلى الله عليه وآله أسوة له، كما قال الله عز وجل: **﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾**[1].

ونسأل الله سبحانه وتعالى العون والتسديد. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) سورة الأحزاب الآية: ٢١.

تمهيد

قد يتساءل الباحث عن مدى نجاح النبي ﷺ في مشروعه وما حقّقه على الأرض لدعوة الإسلام. خصوصاً مع ما عليه المسلمون اليوم من الضعف والوهن والاختلاف والتناحر، والتبعية للغير، إلا من عصم الله عزّ وجل.

هذا ومن الظاهر أن المؤمن وإن كان على بصيرة من نجاحه ﷺ كاملاً في هدفه وما أرسل به، ولو بتسديد الله تعالى له، لإيمانه بقدرة الله تعالى أولاً، وبعصمة النبي ﷺ ثانياً، إلا أن ذلك لا يزيد عن إعتقاد إجمالي.

أما هدفنا هنا فهو إيضاح ذلك بنحو من التفصيل يزيد المؤمن إيماناً وبصيرة، ويسهل عليه محاورة المشكك والمنكر، ويمنعهما من الإستهوان والتهريج غير المسؤول.

لكن ذلك لا يكون منا باستعراض سيرته ﷺ، فقد تكفلت ذلك كتب الحديث والتاريخ والعقائد والسيرة بتفصيل قليل النظير.

بل نحاول التركيز على بعض النكات الهامة الدخيلة في قيام كيان الإسلام وبقائه، وتحدّيه للثقافات الأخرى، مهما بلغت من قوة ثقافية ومادية، ودعَمَها إعلامٌ مكثف مشبوه موجه بقوة، ربما أغفَلَ عن سلبياتها

وإن كانت تلك السلبيات من الوضوح بحدّ لا مجال معه للإنكار.

ومقدمة للحديث عن ذلك ينبغي التعرض لأمرين:

الأمر الأول: في تحديد وظيفة الأنبياء والمرسلين (صلوات الله على نبينا وآله وعليهم) الأساسية.

من الظاهر أن معرفة فشل الإنسان ونجاحه تتفرع على معرفة وظيفته وهدفه الذي يسعى لتحقيقه. وحينئذ نقول:

الاختلاف وغلبة الباطل سنة بشرية

إن القران المجيد قد استعرض حال البشر في الدنيا، وكشف عن واقعهم، في آيات كثيرة. قال الله عزّ وجل: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[2] ونحوه في غير موضع من الكتاب المجيد. وقال جلّ شأنه: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾[3].

كما أكّد تعالى على قلّة المؤمنين والمهتدين والصالحين. قال عزّ من

---

(١) سورة البقرة الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ٣٦.

(٣) سورة يوسف الآية: ١١٨-١١٩.

قائل: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]، وقال عزّ وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٥]... إلى غير ذلك مما يدلّ على أن الاختلاف أولاً، وقلّة المؤمنين ثانياً، سنّة بشرية ثابتة.

وعلى ذلك جرت النصوص الكثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. وهو الذي يؤكده الواقع المنظور للبشرية في عصورها المتعاقبة مهما أغرقت في القدم حتى عصرنا هذا. وقد استعرض الكتاب المجيد كثيراً من مفردات ذلك في الأمم السابقة والعصور الماضية.

اختلاف المسلمين وقلة المهتدين منهم

بل أكد النبي صلى الله عليه وآله على ذلك في أمته خاصة. وأنها ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، واحدةٌ في الجنة والباقي في النار[٦]. وأنها ستسير على سنن

(١) سورة سبأ الآية: ١٣.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧.

(٣) سورة سبأ الآية: ٢٠

(٤) سورة يوسف الآية: ١٠٣.

(٥) سورة يس الآية: ٦-٧.

(٦) الكافي ج:٨ ص:٢٢٤ كتاب الروضة حديث:٢٨٣. الخصال ص:٥٨٥. كفاية الأثر ص:١٥٥. سنن ابن ماجة ج:٢ ص:١٣٢٢ كتاب الفتن: باب افتراق الأمم. السنة لابن أبي عاصم ص:٧ ذكر الأهواء المذمومة. مسند أبي يعلى ص:٦٢ الباب السابع: ذم الفرق جملة والأمر بهجرتهم. وغيرها من المصادر.

من كان قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع[١]، وأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً[٢]، وأن بعض أصحابه أو كثيراً منهم سيذادون عن الحوض، لارتدادهم على أدبارهم القهقرى[٣]، وقوله صلى الله عليه وآله: «لتنقض عرى الإسلام عروة عروة، كلما نقضت عروة تشبث الناس بالتي بعدها، فأولهن نقض الحكم وآخرهن الصلاة»[٤]... إلى غير ذلك.

ومرجع ذلك إلى أن الاختلاف وغلبة الضلال سنّة في البشر حتى في المسلمين منهم، وأنه لا مناص عن ذلك.

---

(١) المسترشد للطبري ص:٢٢٩. الإفصاح ص:٥٠. تفسير العياشي ج:١ ص:٣٠٣. ونحوه في عيون أخبار الرضا ج:٢ ص:٢١٨. صحيح البخاري ج:٤ ص:١٤٤ كتاب بدء الخلق. صحيح مسلم ج:٨ ص:٥٧ كتاب العلم: باب اتباع سنن اليهود والنصارى. مسند أحمد بن حنبل ج:٢ ص:٣٢٧ مسند أبي هريرة. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٢) عيون أخبار الرضا ج:٢ ص:٢١٨. كمال الدين وتمام النعمة ص:٦٦، ٢٠١. الغيبة للنعماني ص:٣٣٦-٣٣٧. صحيح مسلم ج:١ ص:٩٠ كتاب الإيمان: باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. مسند أحمد بن حنبل ج:١ ص:١٨٤ مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص. سنن الترمذي ج:٤ ص:١٢٩ أبواب الإيمان: باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. وغيرها من المصادر.

(٣) كتاب سليم بن قيس ص:٢٧٠. وهو مروي عند الجمهور. صحيح البخاري ج:٧ ص:٢٠٨ كتاب الرقاق. المصنف لعبد الرزاق ج:١١ ص:٤٠٦-٤٠٧ باب الحوض. مسند الشاميين ج:٣ ص:١٦ في ما رواه الزبيدي عن الزهري عن محمد بن علي بن الحسين بن علي. علل الدارقطني ج:٧ ص:٢٩٩. تاريخ دمشق ج:٨ ص:١٠٨-١٠٩ في ترجمة إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن زبريق. وغيرها من المصادر الكثيرة جداً.

(٤) الأمالي للشيخ الطوسي ص:١٨٦، واللفظ له. المجازات النبوية للشريف الرضي ص:٣٤٥. مسند أحمد ج:٥ ص:٢٥١. مجمع الزوائد ج:٧ ص:٢٨١. صحيح ابن حبان ج:١٥ ص:١١١. وغيرها من المصادر.

الوعد الإلهي بغلبة الحق أخيراً

نعم يظهر من قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[١] أن خاتمة هذه السنّة البشرية غلبة الحق والهدى وشموليتهما.

وهو الذي وُعدنا به عند ظهور قائم آل محمد (عجّل الله تعالى فرجه الشريف). وبه فسّرت الآية الشريفة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[٢].

الرسالاتُ الدينية لا تغيّرُ السننَ البشرية

ومن المعلوم أن إرسال الرسل ـ ومنهم نبينا العظيم صلى الله عليه وآله ـ لا يقتضي تغيير السنن البشرية. وذلك يرجع إلى أن الهدف من إرسالهم ومعيار نجاحهم ليس هو تعميم صلاح الناس واهتدائهم، بحيث يتجسّد الدين عملاً، ويعمّ العدل في الأرض، بل إبلاغ الناس بدينهم وإيضاح معالمه، وبيان أحكام الله تعالى وما فرض عليهم عقيدة وعملاً ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾[٣].

قال الله عز وجل: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾[٤] وقال عزّ اسمه: ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[٥] وقال تعالى: ﴿**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ**

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٥.

(٢) تفسير القمي ج:٢ ص:٧٧. مرآة العقول ج:٣ ص:٢١. الإرشاد ج:٢ ص:٣٤٠.

(٣) سورة الأنفال الآية: ٤٢.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٧٢.

(٥) سورة النساء الآية: ١٦٥.

الْمُبِينُ﴾[١] وقال جلّ اسمه: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾[٣]... إلى غير ذلك.

على الأنبياء الاهتمام بإصلاح البشر

نعم على الأنبياء وأوصيائهم (صلوات الله عليهم) بل على كل أحد الاهتمام باستصلاح البشر، وحملهم على أداء ما عليهم، وتفاعلهم بدعوة الدين وتجسيدها في سلوكهم، بالموعظة الحسنة، ترغيباً وترهيباً. مع إشعارهم بصدق الداعي فيما يدعو إليه ـ بتطبيقه على نفسه وتفاعله به ـ وبحبّه لهم، واهتمامه بخيرهم وسعادتهم. وتحببه لهم بتواضعه، وحسن خلقه. فإن لذلك أعظم الأثر في تصديقهم له وتقبّلهم منه وتفاعلهم بقوله وعمله. وبعد ذلك كلّه ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[٤].

قال عزّ من قائل: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[٥]. وقال عزّ وجل: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٦]. وقال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[٧]. وقال جلّ شأنه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ**

---

(١) سورة النحل الآية: ٣٥.

(٢) سورة الرعد الآية: ٧.

(٣) سورة الشورى الآية: ٤٨.

(٤) سورة الكهف الآية: ٢٩.

(٥) سورة النحل الآية: ١٢٥.

(٦) سورة النمل الآية: ٢١٥.

(٧) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1]. وقال تعالى حاكياً عن شعيب: **﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾**[2]... إلى غير ذلك.

وعلى ذلك فالمعيار في نجاح الرسل والأنبياء (صلوات الله عليهم) ـ بعد العلم بعدم تقصيرهم جميعاً لعصمتهم ـ وضوح تبليغهم وسعته من حيثية سعة رقعته وطول أمده، تبعاً لسعة رسالاتهم وأمدها.

يجب على ولي الأمر إقامة حكم الله في الأرض إذا أمكن

نعم يجب عليهم، وعلى جميع أولي الأمر الذين جعلهم الله تعالى أولياء على الناس، وعهد إليهم إدارة أمورهم، أن يقيموا حكم الله في الأرض، وينشروا العدل مع تيسر ذلك لهم، لوجود الأنصار بالمقدار المناسب للمطلوب.

كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها...»[3].

لكن ذلك كلّه ليس هو الوظيفة الأساسية لهم، التي أرسلوا من أجلها، والتي تكون معياراً في مدى نجاحهم، بل هو ـ كسائر جهات الإصلاح ـ يتوقف على توفر شروطه، من دون أن يكون له دخل في

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) سورة هود الآية: ٨٨.

(٣) نهج البلاغة ج١ ص٢٦.

وظيفتهم الأساسية كأنبياء ومرسلين، فضلاً أن يزاحمها أو يقدم عليها.

ويناسب ذلك ما في حديث أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: لما حضر النبي صلى الله عليه وآله الوفاة نزل جبرئيل عليه السلام. فقال له جبرئيل: يا رسول الله، هل لك في الرجوع؟ قال: لا، قد بلغت رسالات ربي. ثم قال له: يا رسول الله أتريد الرجوع إلى الدنيا؟ قال: لا، بل الرفيق الأعلى.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله للمسلمين وهم مجتمعون حوله: أيها الناس [إنه] لا نبي بعدي، ولا سنة بعد سنتي. فمن ادعى ذلك فدعواه وبدعته في النار. ومن ادعى ذلك فاقتلوه ومن اتبعه فإنهم في النار. أيها الناس أحيوا القصاص، وأحيوا الحق. ولا تفرقوا، وأسلموا وسلّموا تسلموا ﴿**كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾»[1].

فإنه كالصريح في أن وظيفته صلى الله عليه وآله التبليغ. وأنه قد قام به كاملاً من دون أن يبقى شيء من وظيفته، ليبقى في الدنيا من أجله.

لا ينبغي فصل النبي صلى الله عليه وآله عن أهل البيت عليهم السلام

الأمر الثاني: يأتي منا ـ إن شاء الله تعالى ـ في غير موردٍ الاستشهاد على ما يحمله النبي صلى الله عليه وآله من مبادئ سامية بما ورد عن الأئمة من أهل بيته عليهم السلام في سلوكهم وتعاليمهم. وقد يبدو ذلك خروجاً عن موضوع بحثنا من الحديث عن شخص النبي الكريم صلى الله عليه وآله.

لكنه ليس كذلك. إذ لا مجال لفصل النبي صلى الله عليه وآله في جهوده ونجاحه

---

(١) أمالي الشيخ المفيد ص:٥٣ المجلس:٦ حديث:١٥، واللفظ له. كتاب من لا يحضره الفقيه ج:٤ ص:١٢١ باب: ما يجب من إحياء القصاص حديث:١.

عن الأئمة من أهل بيته عليهم السلام، لأنهم أوصياؤه، الوارثون لعلمه، والحافظون لعهده، والناطقون عنه، والمنفذون لتعاليمه. من دون أن يستقلوا عنه في شيء من ذلك.

وقد أكّد هو صلى الله عليه وآله وهم عليهم السلام على ذلك قولاً وعملاً في نصوص وحوادث لا تحصى كثرة، تضمنتها كتب العقائد والمناقب.

كما أن مبنى إمامتهم وخلافتهم له صلى الله عليه وآله ووجوب الاهتداء بهديهم على ذلك. ولولاه لم يكونوا أئمة، ولم تجب طاعتهم. إذ الطاعة في الإسلام لله عز وجل ولرسوله لا غير.

ولذا نرى كثيراً أن المضمون الواحد يروى عنهم تارة على أنه قولهم، ويروى عنهم أخرى على أنهم راوون له عن النبي صلى الله عليه وآله بلفظه أو بمضمونه ومعناه. وكثيراً ما يستشهدون على ما يقولون ويفعلون بأن ذلك قد ورد عنه صلى الله عليه وآله. وربما ذكروا حديثه أو فعله وسيرته.

بل هم عليهم السلام يتشرّفون به صلى الله عليه وآله ويفتخرون بالأخذ عنه، والاهتداء بهديه، والتبعية له، وإحياء سنته، وتنفيذ تعاليمه، من دون أن ينفردوا عنه بشيء.

فسيدهم وأبوهم أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) ـ مع قوة شخصيته، واعتداده بواقعه، واستقلاله بما عنده من دون أن يرجع إلى غيره ـ كان يتشرّف بالانتساب للنبي صلى الله عليه وآله والعيش في ظله، والتبعية له، فيقول عليه السلام: «إنما أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله»[1] وقال: «أنا من أحمد كالضوء من الضوء»، كما

(١) الكافي ج١ ص٩٠ باب الكون و المكان حديث:٥. التوحيد ص:١٧٤.

في الحديث الآتي ونحوه في ذلك غيره[١].

وقال عليه السلام في خطبته القاصعة: «وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنفني إلى فراشه، ويُمسّني جسده، ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشيء، ثم يلقمنيه. وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل.

ولقد قَرَن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به. ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشم ريح النبوة.

ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت: يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى، إلا أنك لست بنبي. ولكنك وزير، وإنك لعلى خير...»[٢].

وقال عليه السلام باعتزاز: «ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أني لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعة...»[٣].

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص:٦٠٤ المجلس:٧٧ حديث:١١.

(٢) نهج البلاغة ج٢ ص١٥٧-١٥٨.

(٣) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٧٢.

وقد أصرّ الأئمة (صلوات الله عليهم) على رفعة مقام النبيﷺ، وأنه الواسطة فيما أفاضه الله تعالى عليهم وما خصهم به من كرامة. من دون أن يكون لهم دخل في تشريفه وكرامته، بل شرفهﷺ وكرامته من الله تعالى مباشرة من دون واسطة.

حديث تكسير الأصنام

والنصوص عنهم في ذلك كثيرة. إلا أن اللافت للنظر منها حديث محمد بن حرب الهلالي. قال: «سألت جعفر بن محمدعليه السلام فقلت له: يا ابن رسول الله في نفسي مسألة أريد أن أسألك عنها. فقال: إن شئت أخبرتك بمسألتك قبل أن تسألني، وإن شئت فسل... فقلت له: يا بن رسول الله فأخبرني بمسألتي. قال: أردت ان تسألني عن رسول اللهﷺ لِمَ لم يطق حمله عليعليه السلام عند حطّ الأصنام من سطح الكعبة مع قوته وشدته وما ظهر منه في قلع باب القموص بخيبر، والرمي به إلى ورائه أربعين ذراعاً، وكان لا يطيق حمله أربعون رجلاً. وقد كان رسول اللهﷺ يركب الناقة والفرس والحمار، وركب البراق ليلة المعراج، وكل ذلك دون علي في القوة والشدة.

قال: فقلت له: عن هذا والله أردت أن أسألك يا ابن رسول الله، فأخبرني. فقال: إن علياًعليه السلام برسول الله تشرف، وبه ارتفع، وبه وصل إلى أن أطفأ نار الشرك، وأبطل كل معبود من دون الله عز وجل.

ولو علاه النبيﷺ لحطّ الأصنام لكانعليه السلام بعلي مرتفعاً وتشريفاً [وشريفاً][1] وواصلًا إلى حطّ الأصنام. ولو كان ذلك كذلك لكان أفضل

(١) معاني الأخبار ص:٣٥١.

منه. ألا ترى أن علياً عليه السلام قال: لما علوت ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله شرفت وارتفعت حتى لو شئت أن أنال السماء لنلتها.

أما علمت أن المصباح هو الذي يهتدى به في الظلمة، وانبعاث فرعه من أصله، وقد قال علي عليه السلام: أنا من أحمد كالضوء من الضوء... فالنبي صلى الله عليه وآله إمام ونبي، وعلي عليه السلام إمام ليس بنبي، ولا رسول. فهو غير مطيق لحمل أثقال النبوة...»[١].

وقال ابن أبي الحديد في حديثه عن أمير المؤمنين عليه السلام : «وإذا تأملت أحواله في خلافته كلها وجدتها هي مختصرة من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته، كأنها منتسخة منها في حربه وسلمه، وسيرته وأخلاقه، وكثرة شكايته من المنافقين من أصحابه والمخالفين لأمره. وإذا أردت أن تعلم ذلك علماً واضحاً فاقرأ سورة براءة، ففيها الجمّ الغفير من المعنى الذي أشرنا إليه»[٢].

فإذا كان هذا حال سيد أئمة أهل البيت وأبوهم أمير المؤمنين عليه السلام فكيف يكون حال بقية الأئمة من ولده عليهم السلام؟!، ولاسيما مع تصريحهم بأن لمحمد وعلي (صلوات الله عليهما وآلهما) فضلهما[٣]، اعترافاً منهم بأفضليتهما منهم.

وفي حديث زرارة: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لولا أنا نزداد

---

(١) علل الشرائع ج:١ ص:١٧٣-١٧٥ باب ١٣٩ العلة التي من أجلها لم يطق أمير المؤمنين عليه السلام حمل رسول الله صلى الله عليه وآله لما أراد حط الأصنام من سطح الكعبة.

(٢) شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:١٢٩.

(٣) الكافي ج:١ ص:٢٧٥ باب: في أن الأئمة (صلوات الله عليهم) في العلم والشجاعة والطاعة سواء حديث:٣. وقد تكرر ذلك في مصادرنا كثيراً.

لأنفدنا. قال: قلت: تزدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أما إنه إذا كان ذلك عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم على الأئمة، ثم انتهى الأمر إلينا»[١]. وقريب منه حديثا عبد الله بن بكير وأبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام[٢].

وفي حديث يونس عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام: «ليس يخرج شيء من عند الله عز وجل حتى يبدأ برسول الله صلى الله عليه وآله، ثم بأمير المؤمنين عليه السلام، ثم بواحدٍ بعد واحد، لكيلا يكون آخرنا أعلم من أولنا»[٣].

وفي حديث محمد بن سليمان الديلمي مولى أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه سليمان قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك سمعتك وأنت تقول غير مرة: لولا أنّا نُزاد لانفدنا. قال: أما الحلال والحرام فقد والله أنزله الله على نبيه بكماله ولا يزاد الإمام في حلال ولا حرام. قال: فقلت: فما هذه الزيادة؟ قال: في سائر الأشياء سوى الحلال والحرام. قال: قلت: فتزادون شيئاً يخفى على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: لا، إنما يخرج الأمر من عند الله فيأتيه به الملك رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول: يا محمد، ربك يأمرك بكذا وكذا. فيقول: انطلق به إلى عليّ. فيأتي علياً عليه السلام فيقول: انطلق به إلى الحسن. فيقول: انطلق به إلى الحسين. فلم يزل هكذا ينطلق. واحد بعد واحد حتى يخرج إلينا. قلت: فتزادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: ويحك، كيف يجوز أن يعلم الإمام شيئاً لم يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام من قبله»[٤].

---

(١) الكافي ج:١ ص:٢٥٥ باب: أنه لولا أن الأئمة عليهم السلام يزدادون لنفد ما عندهم حديث:٣.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص:٤٠٩ المجلس:١٤ حديث: ٦٧، ٦٨.

(٣) الكافي ج:١ ص:٢٥٥ باب: أنه لولا أن الأئمة عليهم السلام يزدادون لنفد ما عندهم حديث:٤.

(٤) بصائر الدرجات ص:٤١٣، واللفظ له. الاختصاص ص:٣١٣.

وفي حديث أبي حمزة الثمالي، قال: «قال علي بن الحسين عليهما السلام: لعن الله من كذّب علينا... كان علي عليه السلام والله عبداً لله صالحاً، أخو رسول الله. ما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله صلى الله عليه وآله الكرامة من الله إلا بطاعته لله»(١).

وفي حديث الحسين الرازي: «حدثني من سمع الرضا عليه السلام يقول: الحمد لله الذي حفظ منا ما ضيع الناس، ورفع منّا ما وضعوه، حتى لقد لُعِنّا على منابر الكفر ثمانين عاماً، وكُتمت فضائلنا، وبُذلت الأموال في الكذب علينا. والله تعالى يأبى لنا إلا أن يُعلي ذكرنا ويبيّن فضلنا.

والله ما هذا بنا، وإنما هو برسول الله صلى الله عليه وآله وقرابتنا منه، حتى صار أمرنا وما نروي عنه أنه سيكون بعدنا من أعظم آياته ودلالات نبوته»(٢).

والإنصاف أن وضوح ذلك يغني عن إطالة الكلام فيه.

جهود خواص أصحاب النبي صلى الله عليه وآله والأئمة

ولا يعني ذلك أن نتجاهل جهود خواصّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وأصحاب أهل بيته عليهم السلام. فإنهم (رضوان الله تعالى عليهم) بمواقفهم المشرفة وتبليغهم الأجيال، كلٌّ في وقته، وبحسب ما يتيسر له، قد قاموا بجهود مشكورة في خدمة الحقيقة التي جاء صلى الله عليه وآله بها. ولولا جهودهم ـ مضافاً إلى الدعم الإلهي ـ لضاعت تلك الحقيقة وانطمست معالمها، كما ضاعت معالم الأديان السابقة.

---

(١) اختيار معرفة الرجال ج:١ ص:٣٢٤.

(٢) عيون أخبار الرضا ج:٢ ص: ١٧٥ باب السبب الذي من أجله قبل علي بن موسى الرضا عليه السلام ولاية العهد من المأمون حديث:٢٦.

تميز الأئمة عليهم السلام

إلا أن الأئمة عليهم السلام قد ورثوا تعاليم النبي صلى الله عليه وآله، وعملوا على إبقاء صوتها مسموعاً على الأمد البعيد في ضوء ما عهده صلى الله عليه وآله لهم. فهم عليهم السلام بقابلياتهم الفذّة قد استوعبوا كل ما جاء صلى الله عليه وآله به وحمّله الله عز وجل إياه، ونفذوه على النحو الأكمل.

وكانت نتيجة جهوده صلى الله عليه وآله وجهودهم عليهم السلام خلود الدعوة، رغم المعوقات الكثيرة والقوى الهائلة التي حاولت طمسها وإخفات صوتها.

أما غيرهم فقد أدى ما يسعه وما تيسر له، من دون أن يتحمل مسؤولية إبقاء الدعوة وخلودها، واستيعاب ما تتضمنه من معارف.

وحيث انتهى الكلام في هذين الأمرين فالحديث:

تارة: فيما قام به النبي صلى الله عليه وآله من جهد مادي إداري أو نحوه، وما حققه على الأرض، من أجل نشر الإسلام وإسماع العالم رسالته ودعوته. وهو من شؤون التبليغ الذي تقدم أنه وظيفته الأساسية.

وأخرى: فيما يحمله صلى الله عليه وآله من ثقافة بيانية سليمة رفيعة المستوى، غريبة عن ثقافة مجتمعه الذي عاش فيه.

وثالثة: فيما يحمله من مبادئ سامية يسعد بها المجتمع الإنساني.

وذلك يكون في ضمن مباحث ثلاثة.

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المبحث الأول
في جمهده المادي إداريًا أو نحوه

المبحث الأول
في جهده المادي إدارياً أو نحوه

والكلام في ذلك **تارة**: فيما قام به من جهد لصالح الإسلام بإطاره العام، كدولة قامت في رقعة كبيرة من الأرض يُحسب لها حسابها، وتُسمع دعوتها، وقد فرضت احترامها وهيبتها، وما استتبع ذلك من تقبل الكثير لها، ودخولهم في الإسلام، حتى انتشر الإسلام كدين عالمي، تقوم الحجة به على الناس في الأرض. بغضّ النظر عن اختلاف المسلمين فيما بينهم، وتعدد فرقهم.

وأخرى: في جهوده لصالح الإسلام الحقّ المتمثل بخط أهل البيت صلوات الله عليهم، والمبتني على إمامتهم الدينية بأخذ الدين عقيدة وعملاً منهم، والدنيوية بإيكال أمر إدارة المسلمين لهم، والإقرار بولايتهم، ووجوب طاعتهم.

ولكلّ منهما فصل يخصّه.

الفصل الأول
في جهود النبي صلى الله عليه وآله لصالح الإسلام بكيانه العام

من المعلوم حال العرب قبل البعثة في تدابرهم وتشتتهم وتفرق كلمتهم، ووهنهم وضعفهم، واحتقار الأمم لهم.

وقد أوضح ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالقاصعة، حيث قال: «فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام. فما أشدّ اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال.

تأمّلوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يحتازونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق وخضرة الدنيا، إلى منابت الشيح، ومهافي الريح، ونكد المعاش.

فتركوهم عالة مساكين إخوان دبر ووبر، أذلّ الأمم داراً، وأجدبهم قراراً، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظلّ ألفة يعتمدون على عزِّها، فالأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة. في بلاء أزل، وإطباق جهل، من بنات موءودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة»[1].

---

(١) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٥٢-١٥٣.

ونحوه قول سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها الكبرى: «وكنتم على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونُهزة الطامع، وقَبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القَدّ، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم»[1].

وقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله بحكمته وحسن إدارته وتسديد الله تعالى له أن يجعل من هذه الأمة أمة موحدة، تنهض بنشر الإسلام في مدّة قصيرة، بنحو تتقبله الشعوب المختلفة، وتدخل فيه أفواجاً، وتتبناه عن قناعة كاملة. حتى صار ديناً عالمياً لا يخصّ أمة معينة.

محافظة الإسلام على اللغة العربية

لكن مع ذلك بقي محافظاً على اللغة العربية في تراثه من كتابه المجيد الخالد والأحاديث الشريفة عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته عليهم السلام ـ الذين أخذوا منه، وينطقون عنه، كما سبق ـ بمضامينها المختلفة في الأحكام والأخلاق والأدعية والزيارات وغيرها، من دون أن يؤثر ذلك على هويته العالمية وعموميته.

خلود اللغة العربية بالإسلام

بل ذلك التراث الرفيع صار سبباً لبقاء اللغة العربية الفصحى محفوظة بصيغتها هذه القرون الكثيرة. حيث يسهل على الأجيال مهما تعاقبت فهم تراثها العريق من صدر الإسلام حتى اليوم. وهو أمر تفقده كثير من اللغات أو كلّها.

---

(١) الاحتجاج ج:١ ص:١٣٥-١٣٦ في ذكر ما احتجت به فاطمة عليها السلام على أبي بكر.

كما تفقده الأديان الأخرى، حيث صار تراثها معرضاً للتحريف والتشويه، لعدم انتشاره بلغته الأصلية، ليظهر ما وقع من التحريف فيه بمرور الزمن، واختلاف المصالح والطوارئ.

سموّ شخصية النبي صلى الله عليه وآله

هذا وقبل الحديث عن جهود النبي صلى الله عليه وآله في ذلك علينا أن لا نغفل ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه المتقدم في مقدمة هذا البحث من أن الله تعالى قرن بنبيه صلى الله عليه وآله مذ كان فطيماً مَلَكاً يسلك به الطريق لمكارم الأخلاق، حيث ظهر ذلك عليه قبل بعثته، وعُرِف في قومه بالصادق الأمين[1].

حتى إنه صلى الله عليه وآله أوصى حين هاجر للمدينة أمير المؤمنين عليه السلام بأن يؤدي ما عنده من أمانات للمشركين الذين كانوا يعادونه، وقد خرج من مكة على غفلة هارباً منهم[2]. وكان لذلك أعظم الأثر في احترام قومه له قبل بعثته، وقبل أن يصدع برسالته.

اعتراف المشركين بصدقه صلى الله عليه وآله حجة عليهم

بل حتى بعد ذلك، فإن استئمانهم له، بعد أن أعلن دعوته التي عادوه من أجلها، شاهدٌ بأنهم بقوا على الإيمان بصدقه وأمانته، وأنه صلى الله عليه وآله لم يتغير

---

(١) لاحظ الطبقات الكبرى ج:٣ ص:٢٢، وتاريخ دمشق ج:٣ ص:٢٢، وأنساب الأشراف ج:١ ص:٢٦١، وكنز الفوائد ص:٨١، ومرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج:٢٦ ص:٣٧٠، شرح نهج البلاغة ج:١٤ ص:٦٩، وغيرها من المصادر.

(٢) طبقات ابن سعد ج:٣ ص:٢٢ في ترجمة علي بين أبي طالب. أنساب الأشراف ج:١ ص:٢٦١-٢٦٢ أمر الهجرة. تاريخ دمشق ج:٤٢ ص:٦٩ في ترجمة علي بن أبي طالب. أسد الغابة ج:٤ ص:١٩ في ترجمة علي بن أبي طالب. مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ص:٣٦٥ خبر علي عليه السلام ومخرجه من مكة وما فضله الله به.

عما كان عليه.

فالعداء في الحقيقة ليس له، بل لرسالته لا غير، لأنها تضرّ بمصالحهم. وذلك بنفسه حجة له صلى الله عليه وآله عليهم. وقد يشير لذلك قوله عز وجل: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ**﴾[1].

شواهد إيمان المشركين بصدقه في دعوته

ويناسب ذلك ما عن المغيرة بن شعبة. قال: «أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أني أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وآله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي جهل: يا أبا الحكم هلمّ إلى الله وإلى رسوله. إني أدعوك إلى الله. فقال أبو جهل: يا محمد هل أنت منتهٍ عن سبّ آلهتنا؟! هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت. فوالله إني لو أعلم أن ما تقول حق ما تبعتك. فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله. وأقبل عليّ. فقال: والله إني أعلم أن ما يقول حقّ، ولكن بني قصيّ قالوا: فينا الحجابة. فقلنا: نعم. قالوا: فينا الندوة. قلنا: نعم. قالوا: فينا اللواء. قلنا: نعم. قالوا: فينا السقاية. قلنا: نعم. ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكّت الركب قالوا: منا نبي. فلا والله لا أفعل»[2].

وما عن أبي يزيد المدني: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله لقي أبا جهل فصافحه

---

(١) سورة الأنعام الآية:٣٣.

(٢) السيرة النبوية ج:٤ ص:١٩١ حديث النبي صلى الله عليه وآله حيث خاصمه المشركون. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٢ ص:٢٠٧ باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لا يشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان.

أبو جهل. فقيل له في ذلك. فقال: والله إني لأعلم أنه صادق. ولكنا متى كنا تبعاً لعبد مناف؟!»[١].

وقال السدّي: «التقى أخنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب قط. ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟!»[٢].

وما روي أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وآله: «ما نتهمك ولا نكذبك، ولكنا نتهم الذي جئت به ونكذّبه»[٣].

وقيل: إن الحرث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي صلى الله عليه وآله: «إنا لنعلم أن قولك حق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا، ولا طاقة لنا بالعرب. فنزل قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾»[٤].

ومن شواهد سموّ شخصيته صلى الله عليه وآله أيضاً أن زيد بن حارثة قد استُرِقّ في

---

(١) مجمع البيان ج:٤ ص:٤٢. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ج:٢٦ ص:١٠٧. الكشف والبيان تفسير الثعلبي ج:٤ ص:١٤٤. ونحوه ما في المصنف ابن أبي شيبة ج:٨ ص:٤٧٧.

(٢) مجمع البيان ج:٤ ص:٤٢-٤٣. أمالي الشريف المرتضى ج:٤ ص:١٧٤ المجلس:٧٧. تفسير الطبري ج:٧ ص:٢٤٠.

(٣) مجمع البيان ج:٤ ص:٤٣. تفسير الطبري ج:٧ ص:٢٤٠. تفسري الثعلبي ج:٤ ص:١٤٥.

(٤) مناقب آل أبي طالب ج:١ ص:٤٧ فصل: في ما لاقى النبي من الكفار. مجمع البيان ج:٧ ص:٤٤٩. تفسير مقاتل بن سليمان ج:٢ ص:٥٠١. تفسير القرطبي ج:١٣ ص:٣٠٠.

الجاهلية، فاشترته خديجة الكبرى أم المؤمنين عليها السلام، وأهدته لرسول الله صلى الله عليه وآله، ثم جاء أبوه ليأخذه، فطلب من أبي طالب أن يكلم رسول الله صلى الله عليه وآله في أن يبيعه إياه أو أن يفاديه أو يعتقه، فكلّم أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هو حرّ، فليذهب كيف يشاء.

فقام حارثة فأخذ بيد زيد، فقال له: يا بني اِلحق بشرفك وحسبك. فقال زيد: لست أفارق رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً. فقال له أبوه: فتدع حسبك ونسبك، وتكون عبداً لقريش. فقال زيد: لست أفارق رسول الله صلى الله عليه وآله ما دمت حيّاً. فغضب أبوه، فقال: يا معشر قريش، اشهدوا أني قد برئت منه، وليس هو ابني. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني. فكان يدعى زيد بن محمد[1]. وذلك قبل إلغاء التبني في الإسلام.

وقريب منه ما ذكره الشيخ المفيد في قصة زواج رسول الله صلى الله عليه وآله من جويرية بنت الحارث. قال: «ثم كان من بلائه عليه السلام ببني المصطلق، ما اشتهر عند العلماء، وكان الفتح له عليه السلام في هذه الغزاة، بعد أن أصيب يومئذ ناس من بني عبد المطلب، فقتل أمير المؤمنين عليه السلام رجلين من القوم وهما مالك وابنه، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وآله منهم سبياً كثيراً فقسمه في المسلمين.

وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار... وكان الذي سبى جويرية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فجاء بها إلى النبي صلى الله عليه وآله فاصطفاها النبي عليه السلام.

فجاء أبوها إلى النبي عليه السلام بعد إسلام بقية القوم، فقال: يا رسول الله،

---

(١) تفسير القمي ج:٢ ص:١٧٢ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ من سورة الأحزاب في ضمن صحيح جميل عن أبي عبد الله عليه السلام.

إن ابنتي لا تسبى، إنها امرأة كريمة؟ قال: اذهب فخيرها. قال: أحسنت وأجملت. وجاء إليها أبوها فقال لها: يا بنية لا تفضحي قومك. فقالت له: قد اخترت الله ورسوله... فأعتقها رسول اللهﷺ وجعلها في جملة أزواجه»[1].

وبعد الحديث عن ذلك فالكلام في جهود النبيﷺ لخدمة الإسلام بكيانه العام يكون في مقامين:

(١) الإرشـــاد ج:١ ص:١١٨، واللفظ له. مناقب آل أبي طالب ج:١ ص:١٧٣ فصل في غزواته. كشف اليقين ص:١٣٦.

المقام الأول
فيما حققه وهو في مكة
من حين تحمّله رسالة ربه إلى هجرته

من الظاهر أنه صلى الله عليه وآله قد فاجأ أهل مكة بدعوةٍ **أولاً**: تتناقض مع ثقافتهم الدينية السائدة، وتبتني على اقتلاعها من جذورها، استهواناً بها، واحتقاراً لها، وتبكيتاً عليها، مع ما لها في نفوسهم من مزيد الاحترام، بما لها من عمق تاريخي، لأنها هي ثقافة الآباء والأجداد، ودينهم المفروض قدسيته في نفوسهم.

وثانياً: تبتني على إلغاء ثقافتهم الاجتماعية المبتنية على الامتيازات القبلية المتجذرة في نفوسهم قروناً طويلة. وهي المنشأ الوحيد لقوتهم وتماسكهم فيما بينهم. مع امتيازهم عن غيرهم ممن يحيط بهم من العرب بسيادة الحرم الذي له موقعه في نفوس من أحاط بهم منهم، خصوصاً بعد حادثة الفيل.

وثالثاً: تقضي ـ بمقتضى الوضع الطبيعي مع قطع النظر عن التشريع، وقبل الإعلان عنه ـ امتياز بني هاشم عليهم بالنبوة التي لا تعدِلها مكرمة، والتي تقضي بتبعية غيرهم لهم مهما كان شأنه.

ورابعاً: تتناقض مع جميع الثقافات السائدة في العالم المحيط بهم والتي يكنّون لها الاحترام، والمزيد من الهيبة بما تملكه من سلطان وسطوة، فهم يخشونها، ولا يدور في خلدهم أن يناظروها، فضلاً عن أن يحتكّوا بها، ثم يكتسحوها وينتصروا عليها، كما وعدهم به النبي صلى الله عليه وآله من بدء الدعوة.

حيث قام صلى الله عليه وآله على الحجر فقال: «يا معشر قريش، يا معشر العرب. أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وآمركم بخلع الأنداد والأصنام. فأجيبوني، تملكوا بها العرب، وتدين لكم العجم، وتكونوا ملوكاً في الجنة»[1].

موقف أبي طالب وأبي لهب

ومن الطبيعي أن ذلك كله يحمل قريشاً على رفض دعوته، والوقوف في وجهها، ومحاولة القضاء عليها في مهدها. وحاولوا منعه وراجعوا أبا طالب، ليكفّه عنهم مراراً.

كما أن النبي صلى الله عليه وآله لما دعا بني هاشم لينذرهم خاصة قال له أبو لهب: «هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصّباة. واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة، وأن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك. وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثبت بطون قريش وتمدهم العرب. فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشرٍّ مما جئتهم به»[2].

---

(١) تفسير القمي ج:١ ص:٣٧٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿**فاصدع بما تؤمر**...﴾، واللفظ له. إعلام الورى ج:١ ص:١٠٦ في ذكر مبدأ المبعث. الطبقات الكبرى ج:١ ص:٢١٧.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٦١ في ذكر أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله بإظهار دعوته، واللفظ له. أنساب الأشراف ج:١ ص:١١٨ في ذكر محمد صلى الله عليه وآله ينذر عشيرته. إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج:١ ص:١٩٩ في أحداث السنة الرابعة والأربعون من مولد النبي صلى الله عليه وآله.

ولما جمعهم صلى الله عليه وآله مرة أخرى فأخبرهم برسالته، قال له أبو طالب: «ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشدّ تصديقنا لحديثك. وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون. وإنما أنا أحدهم. غير أني أسرعهم إلى ما تحب. فامض لما أمرت به. فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك...». فقال أبو لهب: «هذه والله السوءة. خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم». فقال أبو طالب: «والله لنمنعه ما بقينا»[1].

إصرار النبي صلى الله عليه وآله على دعوته وتجاهله للمثبطات

ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يعبأ بذلك كلّه، وأصرّ على الدعوة لربّه وإعلان رسالته، بما يستلزمها من عيب آلهتهم، وتسفيه أحلامهم، والاحتجاج عليهم ومحاولة إقناعهم، مؤيداً بالقرآن المجيد ـ المتميز بجاذبيته مضموناً وبياناً ـ وما ظهر على يديه صلى الله عليه وآله من المعاجز الشاهدة بصدقه، وبما أوتي من خُلقٍ عالٍ، وصدق لهجة، وهيمنة على من يتحدّث معه.

حتى إنهم كانوا يحذّرون من الحديث معه والاستماع له، لأنه ـ كما يقولون ـ يسحر من يحدّثه بكلامه[2]. ولاسيّما أن دعوته مطابقة للفطرة وتستسيغها النفوس السليمة بطبعها.

وقد أثارهم ذلك. خصوصاً بعد أن بدأ الإسلام يدخل في المجتمع

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٦١ في ذكر أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله بإظهار دعوته، واللفظ له. أنساب الأشراف ج:١ ص:١١٨ في ذكر محمد صلى الله عليه وآله ينذر عشيرته. إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج:١ ص:١٩٩ في أحداث السنة الرابعة والأربعون من مولد النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٣٧ الفصل السابع: في ذكر عرض رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه على القبائل.

المكي ويشيع بينهم، بنحو ينذر بتفكك ذلك المجتمع، الذي قد سبق أنه عمدة قوتهم.

تعيين وصيه في بدء الدعوة

أما النبي صلى الله عليه وآله فقد كان ماضياً في طريقه بإصرار، بل كان على ثقة من انتصاره. وكان يعلن ذلك دائماً.

ومن مظاهر ذلك اهتمامه بتعيين وصيّه وخليفته في يوم الدار عندما أُمر بأن ينذر عشيرته الأقربين، وانتهى الأمر بتعيين أمير المؤمنين عليه السلام[1]، على ما رواه المؤرخون وأهل الحديث، وذكرنا ذلك في كتابنا (أصول العقيدة) في أول الكلام في أدلة إمامة أمير المؤمنين عليه السلام. ومن الظاهر إن الإعداد لمستقبل الدعوة فرع الثقة بنجاحها.

---

(١) **فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعاني النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين... فاصنع صاعاً من طعام... واجمع لي بني عبد المطلب... ففعلت ما أمرني به، ثم دعوتهم... ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به. قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه. فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم. فأحجم القوم عنها جميعاً. فقلت وإني لأحدثهم سناً...: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه. فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له. قال: فقام القوم يضحكون، فيقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع**». الكامل في التاريخ ج:٢ ص: ٦٢-٦٣. ذكر أمر الله تعالى نبيه بإظهار دعوته. واللفظ له. تاريخ الطبري ج:١ ص: ٥٤٢-٥٤٣. ذكر الخبر عما كان من أمر النبي صلى الله عليه وآله عند ابتداء الله تعالى ذكره إياه بإرسال جبرئيل له بوحيه. شرح نهج البلاغة ج:١٣ ص:٢١٠. وغيرها من المصادر.

الهجرة للحبشة

وضاقت قريش بالإسلام، واشتدت على المسلمين. وقد أشار النبي صلى الله عليه وآله على المسلمين نتيجة ذلك بالهجرة للحبشة، وروي أنه قال لهم: «إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه»[1].

فخرج منهم جماعة مع جعفر بن أبي طالب عليه السلام. ثم تتابعوا، وطال ببعضهم المكث. وآخرهم رجوعاً جعفر مع من بقي منهم بعد حرب خيبر.

محاولة قريش إقناع النجاشي بإرجاع المسلمين

وقد جهدت قريش في إقناع النجاشي ملك الحبشة بإخراجهم من بلاده، وتسليمهم لقريش، فباءت بالفشل الذريع.

فقد أرسلوا عمرو بن العاص السهمي وعمارة بن الوليد المخزومي أخا خالد بن الوليد إلى النجاشي، ومعهم هدايا له. فوردوا على النجاشي، فدخلوا عليه، ودفعوا له الهدايا، وقال عمرو: أيها الملك إن قوماً منّا خالفونا في ديننا وصاروا إليك، فردهم إلينا.

فبعث النجاشي إلى جعفر فأحضره، فقال: يا جعفر إن هؤلاء يسألونني أن أردكم إليهم. فقال: أيها الملك سلهم أنحن عبيد لهم؟ فقال عمرو: لا، بل أحرار كرام. قال: فسلهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟ قال: لا، ما لنا عليهم ديون. قال: فلهم في أعناقنا دماء يطالبوننا بها؟ فقال

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ج:٤ ص:١٩٣ حديث الهجرة الأولى إلى الحبشة. السنن الكبرى للبيهقي ج:٩ ص:٩ كتاب السير: باب الإذن بالهجرة.

عمرو: لا، ما لنا في أعناقهم دماء، ولا نطالبهم بذحول. قال: فما تريدون منّا؟ قال عمرو: خالفونا في ديننا ودين آبائنا، وسفهّوا آلهتنا، وأفسدوا شبابنا، وفرقوا جماعتنا، فردهم علينا، ليجتمع أمرنا.

فقال جعفر: أيها الملك خالفناهم لنبي بعثه الله فينا، أمرنا بخلع الأنداد، وترك الاستقسام بالأزلام. وأمرنا بالصلاة والزكاة، وحرّم علينا الظلم والجور وسفك الدماء بغير حلّها، والزنا والربا والميتة والدم. وأمرنا بالإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

فقال النجاشي: بهذا بعث الله عيسى بن مريم. ثم قال النجاشي: يا جعفر: أتحفظ مما أنزل الله على نبيك شيئاً؟ فقرأ عليه سورة مريم عليها السلام. فلما بلغ إلى قوله: ﴿**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا**﴾[1] بكى النجاشي وقال: إن هذا هو الحق. وامتنع من تسليمهم لهما[2].

وقيل: إن عمرو بن العاص لما خرج من عنده قال: لأرمينهم بما يبيد خضراءهم. فلما كان من الغد قال للنجاشي: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيماً. فأرسل النجاشي فسألهم عن قولهم في المسيح. فقال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، وقال: ما عدا عيسى ما قلت هذا العود. وقال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون. ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم. وردّ هدية

---

(١) سورة مريم الآية: ٢٥- ٢٦.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ص:١١٥-١١٦.

قريش، وقال: ما أخذ الله الرشوة مني حتى آخذها منكم، ولا أطاع الناس فيّ حتى أطيعهم فيه[١].

وكان ذلك من بوادر قوة الإسلام عقائدياً. وقد أزعج ذلك قريشاً. ولاسيما أن ذلك قد يحصل مع غير النجاشي، فيدعم النبي صلى الله عليه وآله ضدهم.

وبقي المسلمون في الحبشة في خير دار. ثم رجعوا تدريجاً بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله. وآخر من رجع جعفر ومن بقي معه بعد صلح الحديبية وفتح خيبر، كما سبق.

تعقد الأمور على قريش

وتعقدت الأمور على قريش وقد قال لهم النضر بن الحارث: «يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أشلتم له نبله بعد. لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة. حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم قلتم: ساحر. ولا والله ما هو بساحر. قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن. ولا والله ما هو بكاهن. وقد رأينا الكهنة وحالهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر. ولا والله ما هو بشاعر. ولقد روينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه وقريضه. وقلتم: مجنون. ولا والله ما هو مجنون. ولقد رأينا

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٨١ ذكر إرسال قريش إلى النجاشي في طلب المهاجرين. السيرة النبوية لابن هشام ج:١ ص:٢٢٤-٢٢٥ ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة. مسند أحمد بن حنبل ج:١ ص:٢٠٣ في حديث عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:٣١٠. سير أعلام النبلاء ج:١ ص:٤٣٣ أخبار النجاشي. وغيرها من المصادر.

الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش انظروا في شأنكم. فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم»[١].

وقد كان النضر بن الحارث هذا معادياً لرسول الله صلى الله عليه وآله ومؤذياً له. وقد حاول أن يشغل الناس عن سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله ـ من قرآن ومواعظ ـ ويجاريه. فقد كان قدم الحيرة وتعلم أحاديث فارس ورستم واسفنديار. فإذا جلس رسول الله صلى الله عليه وآله مجلساً يذكّر فيه بالله تعالى، ويحذّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمه تعالى وقوارعه، خلفه في مجلسه إذا قام، وقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلموا فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟[٢].

وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ**﴾... فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي. وكان راوياً لأشعار الناس وحديثهم[٣].

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ج:٤ ص:١٨١-١٨٢ حديث النبي عليه السلام حين خاصمه المشركون، واللفظ له. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٢ ص:٢٠١ باب اعتراف قريش بما في كتاب الله من الإعجاز. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله والثلاثة الخلفا ج:١ ص:١٩٠ ذكر المبعث. وغيرها من المصادر.

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق ج:٤ ص:١٨١-١٨٢ حديث النبي عليه السلام حين خاصمه المشركون، واللفظ له. تفسير الطبري ج:١٨ ص:٢٤١-٢٤٢. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله والثلاثة الخلفا ج:١ ص:٢١٣ ذكر الحديث عن إسلام عمر بن الخطاب.

(٣) تفسير القمي ج:٢ ص:١٦١ في تفسير الآية الشريفة في أوائل سورة لقمان. تفسير الثعلبي ج:٧ ص:٣١٠ في تفسير الآية. شعب الإيمان ج:٤ ص:٣٠٥. التبيان في تفسير القرآن ج:٨ ص:٢٧١ في تفسير الآية. تفسير السمعاني ج:٤ ص:٢٢٥-٢٢٦ في تفسير الآية. وغيرها من المصادر الكثيرة.

حديث عتبة بن ربيعة مع النبي ﷺ

وعن محمد بن كعب: «حدثت أن عتبة بن ربيعة كان سيداً حليماً قال ذات يوم وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس وحده في المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكلمه أموراً لعله أن يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة بن عبد المطلب ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون و يكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم فكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يابن أخي إنك منّا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان والنسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم. فرَّقْتَ به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرْتَ من مضى من آبائهم. فاستمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك أن تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. فقال: يابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت إنما تريد شرفاً شرفناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد ملكاً ملكناك. وإن كان هذا الذي يأتيك رأياً تراه ولا تستطيع أن ترده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. ولعل هذا الذي يأتي شعر جاش به صدرك، فإنكم ـ لعمري ـ يا بني عبد المطلب تقدرون منه على ما لا يقدر عليه أحد.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال رسول الله ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع مني. قال: أفعل. فقال رسول الله ﷺ: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا فمضى رسول الله صلى الله عليه وآله يقرؤها عليه. فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى بيده خلف ظهره معتمداً عليها يستمع منه، حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السجدة، فسجد فيها. ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه... فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط. والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا الكهانة. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه. فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. فقال: هذا رأي لكم فاصنعوا ما بدا لكم»[1].

تفكير قريش جدياً في حلّ مشكلتهم مع النبي صلى الله عليه وآله

وأخذت قريش تفكّر بجدية في أمر النبي صلى الله عليه وآله بعد أن تعقّدت الأمور عليها، وأصبحت تواجه مشكلة حقيقية لا تعرف كيف تخرج منها. واتضح لهم عدم الجدوى في تكذيب النبي صلى الله عليه وآله والسخرية منه، ورميه بالجنون والسحر والكهانة ونحوها، وأن ذلك لا ينفع في منع انتشار الإسلام في المجتمع المكي، وتزايد قوته تدريجاً، بنحو تخشى من نتائجه.

---

(١) السيرة النبوية لابن إسحاق ج:٤ ص:١٨٧-١٨٨ حديث النبي عليه السلام حين خاصمه المشركون، واللفظ له. المناقب والمثالب ص:١١٣-١١٥ عروض قريش. تفسير البغوي ج:٤ ص:١١٠-١١١. تاريخ دمشق ج:٣٨ ص:٢٤٦-٢٤٧ في ترجمة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:١ ص:١٣٩-١٤٠ ذكر ما لقي رسول الله صلى الله عليه وآله. وغيرها من المصادر.

وقد فاوضوا عمّه أبا طالب بما له من موقع اجتماعي متميز في مكة، وفي بني هاشم خاصّة. وراجعه أبو طالب، فلم يثنه ذلك عن موقفه، حتى قال: «يا عمّاه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ـ حتى يظهره الله أو أهلك فيه ـ ما تركته، فقال له أبو طالب: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»[1].

إصرار أبي طالب على دعم النبي صلى الله عليه وآله ونصره وانبهاره به

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن أبا طالب قد أصرّ على نصره، ومنع قريش من إيذائه، فضلاً عن قتله، وحمّل بني هاشم مسؤولية ذلك، فاستجابوا له حمية وعصبية قبلية، أو إيماناً بالدعوة وقياماً بالواجب.

بل يبدو من أحاديث أبي طالب وكثير من شعره أنه كان مبهوراً بشخص النبي صلى الله عليه وآله، ولا ينظر إليه كيتيم ربّاه صغيراً، ثم صار في حاجة لحمايته في صراعه مع قريش، بل ينظر إليه كرمز يجب الدفاع عنه مهما كلّف ذلك من ثمن، خصوصاً قوله في قصيدته اللامية الطويلة:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأراملِ
يطوف به الهلّاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضلِ
كذبتم وبيت الله يُبزى محمد[2] ... ولما نصاصع دونه ونقاتلِ

---

(١) الكامل في التاريخ ج٢ ص٦٤. ونحوه في تفسير القمي ج:٢ ص:٢٢٩.

(٢) هكذا رواه في لسان العرب. وقال: «قال شمر: معناه يُقهر ويُستذل...» وقريب منه في جمهرة اللغة ونهاية ابن الأثير ومجمع البحرين. ورواه بعضهم: «نُبزى محمداً». ولم يتيسر لنا توجيهه إلا أن يكون نصب «محمد» بنزع الخافض، وأن المراد: نبزى. في محمد ورواه في إعلام الورى: «يبزى محمداً». وهو أشكل.

ونسلمه حتى نصرّع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائلِ

وفيها يقول:

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها وشيناً لمن عادى وزين المحافلِ
فأيده رب العباد بنصره وأظهر ديناً حقّه غير باطلِ[1]

فإن هذا بكلام التابع في حق المتبوع أشبه منه بكلام المتبوع في حق التابع. وما ذلك إلا لهيمنته صلى الله عليه وآله وفرض شخصيته، وقوة تأثيره في نفوس الآخرين ممن لا عقدة تمنعه من ذلك، أو لأمر غيبي كان يعلمه أبو طالب عليه السلام فيه، كما يأتي منه.

بعض شواهد إيمان أبي طالب عليه السلام

وروي ذلك عن أئمتنا بطرق متعددة. كحديث عبد الله بن مسكان: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إن فاطمة بنت أسد جاءت إلى أبي طالب لتبشره بمولد النبي صلى الله عليه وآله. فقال أبو طالب: اصبري سبتاً أبشرك بمثله إلا النبوة. وقال: السبت ثلاثون سنة. وكان بين رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ثلاثون سنة»[2]، وغيره. ومثله ما يأتي عند التعرض لجرأة قريش على النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاة أبي طالب عليه السلام.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٢٦-١٢٧. السيرة النبوية لابن هشام ج:١ ص:١٧٦-١٨٠. شرح نهج البلاغة ج:١٤ ص:٧٩-٨٠. ولاحظ الغدير في الكتاب والسنة والأدب ج:٧ ص:٣٣٨-٣٤٢.

(٢) الكافي ج:١ ص:٤٥٢ باب: مولد أمير المؤمنين صلوات الله عليه، واللفظ له. معاني الأخبار ص:٤٠٣ حديث:٦٨. مناقب آل أبي طالب ج:١ ص:٣١.

المواجهة بين قريش وبني هاشم

وانتهى الأمر أخيراً إلى المواجهة بين بني هاشم وسائر قريش. ثم محاصرة بني هاشم في شعب أبي طالب، وتحالف قريش ضدهم، وشدّة التضييق عليهم. مع التوجه بالتعذيب والافتنان للمستضعفين من المسلمين ممن لا عشيرة لهم تمنعهم بمقتضى الأعراف القبلية السائدة بينهم.

وهن قريش أمام النبي صلى الله عليه وآله

وهو مؤشر على وهن قريش أمام النبي صلى الله عليه وآله ودعوته، حيث لم يستطيعوا أن ينفّسوا عن عقدة الفشل الذي يعانون منها إلا بتعذيب المستضعفين من المسلمين.

وانتهى بهم الأمر أخيراً إلى أن مات ياسر أبو عمار بالتعذيب، وقَتل أبو جهل سمية زوجته أم عمار، لأنها أغلظت له. وهي أول شهيدة في الإسلام[1]. وكان قتل النساء، بل إيذاؤهن عاراً في الجاهلية.

كما ذكر أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لعسكره بقوله: «ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم... إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات. وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر أو الهراوة، فيعير بها وعقبه من بعده»[2]. وقد انتهى حصار بني هاشم بالوضع المعروف تاريخياً.

---

(١) الكامل في التاريخ ج٢ ص٦٧، في ذكر تعذيب المستضعفين من المسلمين. أنساب الأشراف ج:١ ص:١٧٩-١٨٠، في ذكر المستضعفين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٢) نهج البلاغة ج٣ ص١٥.

جرأة قريش على النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاة أبي طالب

وبعد ذلك بقليل توفي أبو طالب، وخديجة عليها السلام. فعظم ذلك على النبي صلى الله عليه وآله. وتجرأت قريش عليه بعد ذلك، واشتدت في إيذائه. وفي حديث عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لما توفي أبو طالب نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا محمد اخرج من مكة فليس لك فيها ناصر. وثارت قريش بالنبي صلى الله عليه وآله، فخرج منها هارباً حتى جاء إلى جبل بمكة يقال له الحجون، فصار إليه»[1].

فإن بني هاشم وإن لم يتركوا حماية النبي صلى الله عليه وآله. ولاسيما أن أبا طالب ـ كما عن مقاتل ـ بلغه أن قريشاً قالت: لئن مات أبو طالب ليجمعن قبائل قريش كلها على قتل النبي صلى الله عليه وآله، فجمع بني هاشم وأحلافهم من قريش فأوصاهم به، وقال: «إن ابن أخي كما يقول. أخبرنا بذلك آباؤنا وعلماؤنا. إن محمداً نبي صادق، وأمين ناطق. وإن شأنه أعظم شأن، ومكانه من ربه أعلى مكان، فأجيبوا دعوته، واجتمعوا على نصرته، وارموا عدوه من وراء حوزته، فإنه الشرف الباقي لكم مدى الدهر». وأنشأ يقول:

أوصي بنصر النبي الخير مشهده ... علياً ابني وعم الخير عباسا
وحمزة الأسد المخشي صولته ... وجعفراً أن تذودوا دونه الناسا
وهاشماً كلها أوصي بنصرته ... أن يأخذوا دون حرب القوم أمراسا
كونوا فدى لكم نفسي وما ولدت ... من دون أحمد عند الروع أتراسا
بكل أبيض مصقول عوارضه ... تخاله في سواد الليل مقباسا[2]

---

(١) الكافي ج:١ ص:٤٤٩ باب مولد النبي صلى الله عليه وآله ووفاته.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج:١ ص:٥٥-٥٦ فصل في استظهاره صلى الله عليه وآله بأبي طالب.

لكن ذلك لا ينافي أن تكون لهيبة أبي طالب أثر هام في تهيب قريش إيذاء النبي صلى الله عليه وآله، وجرأتهم عليه بعد وفاة أبي طالب عليه السلام.

وعلى كل حال فقد بقي رسول الله صلى الله عليه وآله مصرّاً على موقفه في دعوته لدينه، وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، من دون أي تلكؤ.

أمره صلى الله عليه وآله المؤمنين بالصبر

كما أنه كان يحاول حمل المسلمين على الصبر، ليعدّوا أنفسهم لمشاكل المستقبل التي وعدهم الله تعالى بها في محكم كتابه، حيث قال: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ**﴾[1].

حتى قال خباب بن الأرت: «يا رسول الله ادعُ لنا» قال: «إنكم لتعجلون. لقد كان الرجل من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد، ويشق بالمنشار، فلا يردّه ذلك عن دينه. والله ليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على عنزه»[2].

عرض النبي صلى الله عليه وآله نفسه على قبائل العرب

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله يعرض نفسه على قبائل العرب، طالباً منهم أن يمنعوه حتى يبلّغ رسالة ربه. لكنه لم يرَ منهم إلا الاستهوان والعنت،

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٢٤ في النذارة، واللفظ له. السنن الكبرى للبيهقي ج:٩ ص:٥ كتاب السير: باب مبتدأ الخلق. مسند أبي يعلى ج:١٣ ص:١٧٤ حديث خباب بن الأرت. المعجم الكبير للطبراني ج:٤ ص:٦٢ مسند خباب بن الأرت: في ما أسنده إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن خباب، وغيرها من المصادر.

حتى إنه لما أيس من نصر ثقيف له رجع، فروي أنهم قعدوا له صفَّين، فكان لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوه بالحجارة، فخلص منهم ورجلاه تسيلان من الدماء[1].

وقال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر.. وحدثني محمد بن صالح.. ويزيد بن رومان وغير هؤلاء أيضاً قد حدثني قالوا: أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته مستخفياً ثم أعلن في الرابعة فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنة وذي المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلّغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة، وأبو لهب وراءه يقول لا تطيعوه، فإنه صابئ كاذب، فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد ويؤذونه، ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك، حيث لم يتبعوك ويكلمونه ويجادلونه ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول: اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا فكان من سمي لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ ودعاهم وعرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة ومحارب بن خصفة وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس وبنو نضر وبنو البكاء وكندة وكلب والحارث بن كعب وعذرة والحضارمة فلم يستجب منهم

---

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٢ ص:٤١٦ جماع أبواب المبعث: باب عرض النبي ﷺ على قبائل العرب. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٥٦. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٣٣-١٣٤ الفصل السابع عرضه ﷺ نفسه على قبائل العرب. مجمع البيان ج:٩ ص:١٥٤.

أحد»[١].

الهجرة للمدينة

وأخيراً هيّأ الله سبحانه وتعالى له الأنصار في المدينة المنورة، فاقتنعوا بدعوته وعاهدوه على أن يمنعوه، وينصروه، فأمر المسلمين بمكة بالهجرة إليها، فأخذوا يتسللون مهاجرين إليها تدريجاً.

ولم يهاجر النبي صلى الله عليه وآله بنفسه حتى أمره الله تعالى حين تآمرت عليه قريش وعزمت على قتله ـ بعد أن أعياها أمره وضاقت به ـ بما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[٢]. وأفاضت في بيان تفاصيله كتب التأريخ والسير. ويأتي منّا في الفصل الثاني شيء من الحديث عنها.

محصّلة جهود النبي صلى الله عليه وآله قبل الهجرة

وكانت المحصّلة لجهوده صلى الله عليه وآله قبل الهجرة في مدة تقرب من عشر سنين.

أولاً: مواجهة مجتمع قريش في مكة بإعلان دعوته الشريفة بشجاعة وإصرار، مع ما سبق من جهات مناقضتها لمفاهيمهم وثقافتهم السائدة منذ مدة طويلة، وللواقع المنظور لهم في موازين القوى المادية.

وثانياً: إرباك المجتمع المكي وانشقاقه على نفسه، نتيجة تقبل جماعة كبيرة لدعوته واعتناقهم الإسلام، وهم منبثون فيهم على اختلاف بطونهم.

---

(١) الطبقات الكبرى ج:١ ص:٢١٧. نهاية الإرب في فنون الأدب ج:١٦ ص:٣٠٢-٣٠٣.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٣٠.

وثالثاً: خروج الإسلام إلى الحبشة بهجرة من هاجر من المسلمين إليها واقتناع ملكها به في الجملة، بحيث خابت قريش في محاولتها استرجاع المسلمين. وهو مؤشر على قوة الإسلام، كما سبق.

ورابعاً: تهيئة المسلمين للثبات والصبر على الأذى في سبيل دينهم وعقيدتهم، من دون أن يتعجّلوا بردود فعل مضادة، قد تشوّه صورتهم وتضخّم من قبل المشركين، بحيث تغفل الناس عن ظلامتهم وعن عدوان المشركين عليهم.

وروي أن جماعة من المسلمين ممن لقوا الأذى من قريش استأذنوا النبي صلى الله عليه وآله في قتالهم، فأبى عليهم. وبه فسر قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾[1].

قال الشيخ الطبرسي قدس سره: «قال الكلبي: نزلت في عبد الرحمن بن عوف الزهري والمقداد بن الأسود الكندي وقدامة بن مظعون الجمحي وسعد بن أبي وقاص. كانوا يلقون من المشركين أذى شديداً وهم بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة، فيشكون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويقولون: يا رسول الله ائذن لنا في قتال هؤلاء، فإنهم قد آذونا. فلما أمروا بالقتال وبالمسير إلى بدر شقّ على بعضهم، فنزلت هذه الآية»[2].

---

(١) سورة النساء الآية: ٧٧.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ج:٣ ص:١٣٤ في تفسير الآية الشريفة، واللفظ له. مرآة العقول

وخامساً: إقناع الأنصار بدعوته صلى الله عليه وآله الشريفة، ثم تبنيهم لها بعد أن أيس صلى الله عليه وآله من إقناع قريش ـ كجماعة موحدة متماسكة لها هيبتها ـ بها.

تبني الأنصار الدعوة مع شعورهم بفداحة الثمن

كل ذلك مع شعور الأنصار بفداحة الثمن الذي يتعرضون لدفعه. حتى قال لهم العباس بن نضلة الأنصاري عند بيعة العقبة الثانية:

«يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود. فإن كنتم ترون أنكم إذا أُنهكت أموالكم مصيبةً وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن. فهو والله خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة» قالوا: «فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله؟» قال: «الجنة»[1].

وذكر اليعقوبي أن بيعة الأنصار تمت على أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم. وعلى أن يحاربوا معه الأسود والأحمر، وأن ينصروه على القريب والبعيد. وشرط صلى الله عليه وآله لهم الوفاء بذلك والجنة[2].

في شرح أخبار آل الرسول ج:٢٦ ص:٤٥٦. التفسير الكبير للطبراني ج:٢ ص:٢٦٣. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٣٤١. تفسير الثعلبي ج:٣ ص:٣٤١. وغيرها من المصادر.

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٩٩-١٠٠ ذكر بيعة العقبة الثانية، واللفظ له. أسد الغابة ج:٣ ص:١٠٨-١٠٩ في ترجمة العباس بن عبادة بن نضلة. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٩٣. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج:٣ ص:٣٧ ذكر الحوادث التي كانت في سنة ثلاث عشرة من النبوة: ذكر العقبة الثانية. دلائل النبوة ج:٢ ص:٤٥٠ باب ذكر العقبة الثانية. وباختصار في الإصابة في معرفة الصحابة ج:٣ ص:٥١١ في ترجمة العباس بن عبادة بن نضلة.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٣٨ عند الكلام في قدوم الأنصار مكة.

وذكر الشيخ الطبرسي قدس سره أنها تمت على أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم. قالوا: فما لنا بذلك؟ قال: الجنة. تملكون بها العرب في الدنيا، وتدين لكم العجم، وتكونون ملوكاً[1].

وصية أبي طالب للنبي صلى الله عليه وآله بالهجرة

هذا وقد ذكر بعض المؤرخين أن أبا طالب عليه السلام أوصى النبي صلى الله عليه وآله حين موته بالهجرة للمدينة، وأنه قال له: «يا ابن أخي إذا أنا مت فائت أخوالك من بني النجار، فإنهم أمنع الناس لما في بيوتهم»[2].

ولعل وصيته هذه كانت بعد أول لقاء مع الأنصار، فإن اللقاء المذكور كان قبل الهجرة بمدة غير قصيرة ربما تكون قبل وفاة أبي طالب، وكان سبباً لتوجه أبي طالب لهم، والتفاته لأهميتهم.

كما قد يكون لوصيته هذه الأثر لتشجيع النبي صلى الله عليه وآله على استمرار التفاوض مع الأنصار والثقة بهم. وإن كان الله عز وجل هو المرشد والمسدد الحقيقي له صلى الله عليه وآله. فهو وراء كل شيء. وكفى به دليلاً ومرشداً وهادياً.

وبذلك انتهت بجهود النبي صلى الله عليه وآله مرحلة هامة من مراحل الإسلام. حيث أصبح حقيقة ثابتة تتبناه أمة، وتحاول نشره في الأمم. وهو مع ذلك يحرج قريشاً، لأنه قد يقطع عليها طريق تجارتها للشام.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٤٢ في الفصل السابع في ذكر عرض رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه على قبائل العرب...

(٢) سير أعلام النبلاء ج:١٠ ص:٦٦٥ في ترجمة محمد بن سعد، واللفظ له. الطبقات الكبرى ج:٣ ص:٥٤٣ في ترجمة أوس بن خولي. تاريخ دمشق ج:٦٦ ص:٣٢٤، ٣٣٨ في ترجمة أبو طالب بن عبد مناف. تاريخ الإسلام ج:١ ص:٢٣٣ وفاة أبي طالب وخديجة. وغيرها من المصادر.

المقام الثاني
في جهود النبي صلى الله عليه وآله بعد الهجرة المباركة

وقد مرّ صلى الله عليه وآله بمرحلتين:

المرحلة الأولى
ثبات المسلمين أمام التحديات

هاجر النبي صلى الله عليه وآله إلى المدينة وقد شاع الإسلام فيها، لينشئ أمة موحدة من قبائل متعددة تتبنى الإسلام وتدعو له. لكن هذه الأمة تعاني من أمرين:

مشكلة اليهود

الأول: اليهود الذين كانوا يمنّون أنفسهم بأن تكون النبوة فيهم، وقد هاجروا من الشام للحجاز وللمدينة بالخصوص لما تضمنته تعاليمهم من أنها مهاجر نبي يُبعث.

ولولا ذلك لا يتضح الوجه في تواجدهم في هذه المنطقة، مع أنهم كانوا في بلاد أطيب هواء، وهي كثيرة الخيرات والبركات.

وقد أكّد ذلك القرآن المجيد في آيات كثيرة. ولاسيما قوله: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى**

الْكَافِرِينَ﴾[١]، وغير ذلك من الآيات الشريفة، واستفاضت به النصوص.

وقد أوضح ما ذكرنا بتفصيل حديث أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «في قول الله عز وجل: **﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**. فقال: كانت اليهود تجد في كتبها أن مهاجر محمد ما بين عَير وأُحُد[٢]، فخرجوا يطلبون الموضع، فمروا بجبل يسمى حداد، فقالوا: حداد وأحد واحد، فتفرقوا عنده، فنزل بعضهم بتيماء، وبعضهم بفدك، وبعضهم بخيبر.

فاشتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابي من قيس، فتكاروا منه، وقال لهم: أمرّ بكم ما بين عير وأحد. فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنا بهما. فلما توسط أرض المدينة قال لهم: هذا عير وهذا أحد، فنزلوا عن ظهر إبله. وقالوا: قد أصبنا بغيتنا، فلا حاجة لنا في إبلك، فاذهب حيث شئت.

وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر: إنا قد أصبنا الموضع فهلموا إلينا. فكتبوا إليهم: إنا قد استقرت بنا الدار، واتخذنا الأموال. وما أقربنا منكم. فإذا كان ذلك فما أسرعنا إليكم. فاتخذوا بأرض المدينة الأموال.

فلما كثرت أموالهم بلغ تبّع، فغزاهم، فتحصنوا منهم، فحاصرهم. وكانوا يرقّون لضعفاء أصحاب تبّع، فيلقون إليهم بالليل التمر والشعير، فبلغ ذلك تبع فرقّ لهم، وآمنهم. فنزلوا إليه. فقال لهم: إني قد استطبت بلادكم، ولا أراني إلا مقيماً. فقالوا له: إنه ليس ذلك لك. إنها مهاجر نبي،

---

(١) سورة البقرة الآية: ٨٩.

(٢) وهما جبلان في طرفي المدينة المنورة.

وليس ذلك لأحد حتى يكون ذلك. فقال لهم: إني مخلف فيكم من أسرتي من إذا كان ذلك ساعده ونصره. فخلف عندهم حيين الأوس والخزرج.

فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود. وكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا وأموالنا.

فلما بعث الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وآله آمنت به الأنصار، وكفرت به اليهود. وهو قول الله عز وجل: ﴿**وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾»[1].

عقدة الحسد والتكبر عند اليهود

وعلى كل حال لم يمنعهم من الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله إلا عقدة الحسد والتكبّر، عن أن يخضع بنو إسحاق بن سارة الحرة لبني إسماعيل بن هاجر الأمة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ...**﴾[2]، وغيره.

بل زادوا على ذلك فادّعوا أنهم شعب الله المختار، كما هو المعلوم من حالهم، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[3]. وقوله عزّ

(١) الكافي ج:٨ ص:٣٠٨-٣١٠ حديث: ٤٨١.

(٢) سورة البقرة الآية: ٩٠-٩١.

(٣) سورة البقرة الآية: ٩٤.

وجل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

ومن الطبيعي أن ذلك كما يمنعهم من الإيمان بالنبيﷺ يحملهم على زرع الألغام في طريقه، واستغلال نقاط الضعف في المجتمع الإسلامي الناشئ التي يأتي التعرض لها. وقد أتعبوه كثيراً.

عقد المعاهدات مع قبائل اليهود

وقد حاول النبيﷺ أن يتغلب على ذلك نسبياً بعقد معاهدات بينه وبين قبائل يهود المدينة الجاثمين في عقر داره، ويسعون دائماً لإثارة المشاكل له، وهي قبائل قينقاع والنضير وقريظة.

وقد استفاد من هذه المعاهدات مؤقتاً بتحجيم إزعاجهم له نسبياً، وبعد ذلك في التخلص منهم قبيلة فقبيلة، بسبب نقضهم لها، كما تضمنه القرآن المجيد، وحفلت به كتب الحديث والتاريخ. وصفت له المدينة.

ولم يبق منهم إلا يهود خيبر وفدك وغيرهما، الذين هم بعيدون عنها، وإن كانوا يتآمرون عليه ما وجدوا لذلك سبيلاً. وكان لهم أعظم الأثر في حرب الأحزاب، كما يأتي.

مشكلة الانقسامات الداخلية في المسلمين

الثاني: المشاكل الداخلية في المجتمع الإسلامي الناشئ، نتيجة الانقسامات القبلية بين مهاجرينَ وافدينَ ـ على اختلاف بطونهم وقومياتهم ـ وأنصار استضافوهم وأحسنوا إليهم وآثروهم على أنفسهم وإن كان بهم

(١) سورة الجمعة الآية: ٦.

خصاصة.

كما أن الأنصار بين أوس وخزرج مسبوقَين بأضغان متجذرة، نتيجة حروب كثيرة، كما هو حال جميع عرب الجزيرة ممن لا توحدهم دعوة ولا سلطة.

والنبي صلى الله عليه وآله وإن جهد في أن يوحّد الكل في ظّل الإسلام، مؤكداً ـ تبعاً للكتاب المجيد ـ على أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وأنهم إخوة، وعلى نبذ الفوارق بينهم، إلا أنه لم يتسنّ له اقتلاعها من جذورها، بل كان يحاول تجاوزهم لها في ظاهر الأمر، وتخفيف وقعها إذا أثيرت. وبقيت في قرارة نفوسهم، كالجمر تحت الرماد.

انفجار مشكلة الانقسامات في المسلمين بوفاة النبي صلى الله عليه وآله

ولذا انفجرت هذه العقد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله في السقيفة، فكانت الأطراف المتنازعة فيها تلجأ إلى مصالحها الدنيوية وإلى هذه الفوارق وتثيرها، ليقوى كل طرف ويفوز بهدفه بسبب ما يمتلك منها، من دون إشارة لما حكم الله تعالى في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله.

وفي معتبر عبد الرحيم القصير: «قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن الناس يفزعون إذا قلنا: إن الناس ارتدّوا. فقال: يا عبد الرحيم إن الناس عادوا بعد ما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله أهل جاهلية. إن الأنصار اعتزلت فلم تعتزل بخير. جعلوا يبايعون سعداً، وهم يرتجزون ارتجاز الجاهلية: يا سعد أنت المرجا وشعرك المرجل وفحلك المرجم»[1].

(١) الكافي ج:٨ ص:٢٩٦ حديث:٤٥٥.

وأخيراً استطاع أبو بكر أن ينهي صراعه مع الأنصار من طريق هذه الفوارق، وإثارة الضغائن بين الأطراف. قال الجاحظ عن أحداث السقيفة:

«قال أبو بكر رحمه الله: نحن أهل الله، وأقرب الناس بيتاً من بيت الله، وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إن هذا الأمر إن تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الأوس، وإن تطاولت له الأوس لم تقصر عنه الخزرج. وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسى، وجرحى لا تداوى. فإن نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي أسد، يضغمه المهاجري ويجرحه الأنصاري. قال ابن دأب: فرماهم والله بالمسكتة». يعني: فرماهم بما أفحمهم وسكتوا عن جوابه[1].

وفي حديث أنس بن مالك أنهم لم يفرغوا من دفن رسول الله حتى أنكروا قلوبهم[2]. قال في فتح الباري: «يريد أنهم وجدوها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة والصفاء والرقة، لفقدان ما كان يمدهم به من

---

(١) البيان والتبيين ج:٣ ص:١٩٩. التذكرة الحمدونية ج:٧ ص:١٦١.

ومن اللافت للنظر أنه لم يذكر تاريخياً ـ فيما أعلم ـ أن أبا بكر أو غيره ممن حضر السقيفة من مؤيديه احتج على الأنصار بنص النبي صلى الله عليه وآله بالخلافة لقريش في الحديث المشهور: «الأئمة من قريش». ولعله لأن التذكير بنص النبي صلى الله عليه وآله قد ينتهي بالتذكير بنصه صلى الله عليه وآله على أمير المؤمنين وأهل بيته (صلوات الله عليهم). وبذلك يقضى على مشروع قريش.

ولذا لما فازت قريش وتم لها ما أرادت من خروج الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام لغيرهم من بطون قريش، بدأت تحتج بالحديث المذكور، وتنكر على الأنصار تصديها لمخالفته تأكيداً لحقها في الخلافة التي فازت به. شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:٢٤، ٢٩، ٣٠، ٣٨.

(٢) الأحاديث المختارة ج:٤ ص:٤١٩ في ما رواه جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت. سنن ابن ماجة ج:١ ص:٥٢٢ كتاب الجنائز: باب ذكر وفاته ودفنه. مصنف ابن أبي شيبة ج:٧ ص:١٣٣ كتاب الزهد: كلام أنس بن مالك رضي الله عنه. مسند أحمد ج:٣ ص:٢٢١، ٢٦٨ في مسند أنس بن مالك رضي الله عنه. سنن الترمذي ج:٥ ص:٥٨٨ كتاب المناقب: باب في فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم. صحيح ابن حبان ج:١٤ ص:٦٠١ في ذكر إنكار الصحابة قلوبهم عند دفن صفي الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصححه.

التعليم والتأديب»[١].

ولما جاء أهل اليمن في خلافة أبي بكر، وسمعوا القرآن، فأخذوا يبكون، قال أبو بكر: «هكذا كنا، ثم قست القلوب»[٢].

وعلى كل حال كثيراً ما كان هذا المجتمع المسلم نتيجة ذلك يتعرض في حياة النبي ﷺ للفتن بين الأطراف لأدنى مناسبة. وكثيراً ما يثيرها اليهود والمنافقون، خصوصاً رأس النفاق في المدينة عبد الله بن أُبيّ، الذي كان قومه قبل الهجرة ينظمون له الخرز ليتوجوه، ويرى أن رسول الله قد سلبه ملكاً[٣].

ولكن النبي ﷺ استطاع ـ بحكمته وخُلُقه السامي وهيمنته وتسديد الله عز وجل له ـ أن يوحّد هذا المجتمع لصالح الإسلام وتحت رايته، فخاض به حروباً كثيرة ظهرت فيها قوة الإسلام، وبوادر صدق النبي ﷺ فيما كان يدعيه ويؤكد عليه من أن أمره سوف يتم. كما ظهرت فيها سلبيات ذلك المجتمع، التي كان الغيب يتدارك آثارها. على ما يظهر مما يأتي عند استعراض بعضها إن شاء الله تعالى.

وكان أهم تلك الحروب مع قريش التي كان تحاول القضاء على

---

(١) فتح الباري ج:٨ ص:١٤٩.

(٢) حلية الأولياء ج:١ ص:٣٤ في ترجمة أبي بكر. تاريخ الخلفاء ص:٩٨ فصل فيما روي عن الصديق رضي الله عنه من الآثار الموقوفة قولاً.

(٣) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٩٣ في ذكر غزوة بني المصطلق من خزاعة. تاريخ ابن خلدون ج:٢ ق:١ ص:٢٩٢. السيرة النبوية لابن هشام ج:٢ ص:٤٢٣ نبذ من ذكر المنافقين. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ج:١ ص:٣٠٨. السيرة النبوية عيون الأثر ج:١ ص:٢٩٢. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٣٣٩.

النبي صلى الله عليه وآله وعلى دعوته الشريفة، وتستريح منه. وقد قادت ضدّه حروباً ثلاثة كانت لها أهميتها في الإسلام، وفي بلورة وضع المسلمين.

وقد تخللتها حروب ومشاكل أخرى ليست بتلك الأهمية، وإن كان لها الأثر في صمود الإسلام والمسلمين أمام التحديات الذي هو المهم في هذه المرحلة.

حرب بدر

الحرب الأولى: حرب بدر. وكانت في غاية الأهمية، بل هي نقطة تحول في وضع المسلمين.

رفع معنويات المسلمين

أولاً: لأنها رفعت معنويات المسلمين، حيث كان كثير منهم لا يريدون القتال، كما يشهد به قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾[1].

بل كان بعضهم يكرهون الخروج إلى بدر، كما يشهد به قوله تعالى: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ**

(١) سورة النساء الآية: ٧٧.

يَنظُرُونَ﴾[١].

ففي حديث أبي عمران أسلم: «سمعت أبا أيوب الأنصاري يقول: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت فقال: ما ترون فيها؟ لعل الله يغنمناها ويسلمنا. فخرجنا، فسرنا يوماً أو يومين، فقال: ما ترون فيهم؟ فقلنا: يا رسول الله ما لنا طاقة بقتال القوم، إنما خرجنا للعير. قال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى: **﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾**. فأنزل الله تعالى: **﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾**»[٢]

ولما ذكر لهم رسول الله ﷺ أن الله وعده في خروجه العير ـ أي غنيمة الأموال ـ أو النفير ـ يعني الانتصار في حربهم مع قريش ـ ودّوا أن يغنموا العير ولا يبتلوا بالقتال، كما يشهد به قوله تعالى: **﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ...﴾**[٣].

ولما واجهوا قريشاً كانوا يهابون قتالهم لما لهم من الهيبة في نفوسهم، بل نفوس العرب عامة. وعن ابن عباس وابن إسحاق أن ذلك خبر من الله عز وجل عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو، وكان جدالهم نبيُ الله ﷺ أن قالوا: لم يعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا لطلب العير[٤].

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٥-٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ج:٥ ص:١٦٥٩ في تفسير الآية الشريفة. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٣٨٥.

(٣) سورة الأنفال الآية: ٧.

(٤) تفسير الطبري ج:٩ ص:٢٤٤ في تفسير قوله تعالى: **﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾**.

وهو المناسب لقول أبي بكر حين استشار النبيﷺ أصحابه في القتال: «يا رسول الله إنها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، ولا ذلّت منذ عزّت. ولم نخرج على هيئة الحرب»[١].

وقال عمر: «يا رسول الله، إنها والله قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبداً، ولتقاتلنك، فاتهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته»[٢].

كسر شوكة قريش

وثانياً: لأنها كسرت شوكة قريش، حيث قتلت الطبقة العليا منهم، ممن كانت له الرئاسة والتقدم فيهم، ولم يستلم القيادة أبو سفيان في بقية الحروب إلا لفقدهم، لأنه دونهم.

ويناسبه قول أسيد بن أبي إياس محرضاً قريشاً على أمير المؤمنينعليه السلام:

في كل مجمع غاية أخزاكم ... جَذَع أبرّ على المذاكي القرّحِ
لله درّكمُ ألّما تنصفوا؟! ... قد ينصف الحرّ الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الذي أفناكمُ ... ذبحاً وقتلة قعصة لم تذبح
أعطوه خرجاً واتّقوا بضريبة ... فعل الذليل وبيعة لم تربح

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم في تفسير الآية الخامسة والسادسة من سورة الأنفال.

(٢) المغازي ج:١ ص:٤٨ بدر القتال. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٣ ص:١٠٧ باب سياق قصة بدر. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٣٨٦. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:١ ص:٣٢٧ غزوة بدر الكبرى. الدر المنثور ج:٣ ص:١٦٦. تاريخ الإسلام ج:٢ ص:١٠٦ ذكر عزوة بدر من مغازي موسى بن عقبة. إمتاع الأسماع ج:١ ص:٩٣ المشورة قبل بدر. شرح نهج البلاغة ج:١٤ ص:١١٢. وغيرها من المصادر.

أين الكهول؟ وأين كل دعامة في المعضلات؟ وأين زين الأبطح؟
أفناهم قعصاً وضرباً يفتري بالسيف يعمل حدّه لم يصفح[1]

وقول الأسود في مقطوعة له في رثاء قتلى بدر:

وبكي إن بكيت على عقيل وبكي حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمي جميعاً وما لأبي حكيمة من نديد
على بدر سراة بني هصيص ومخزوم ورهط أبي الوليد
ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا[2]

كما أنهم فقدوا سبعين، وأسر منهم سبعون. بينما لم يقتل من المسلمين أكثر من أربعة عشر، وقيل أقل من ذلك، حتى قيل تسعة.

كشف حال المسلمين

وثالثاً: لأنها كشفت واقع كثير من المسلمين حيث اهتموا بالأسر، ولم يتوجهوا للقتل والفتك بالمشركين، رغبة في المال أو حذراً من مجاهرة

---

(١) الإرشاد ج:١ ص:٧٧-٧٨. ونحوه مع اختلاف في الترتيب تاريخ دمشق ج:٤٢ ص:٨، وأسد الغابة ج:٤ ص:٢٠، والفصول المختارة ص:٢٩٢.

والمراد بذلك أن العرب في الحرب كثيراً ما كان المقاتل منهم إذا سيطر على قرينه لم يضربه بحدّ السيف ويقتله، بل يضربه بصفحة السيف عرضاً، ويكتفي بذلك، لإظهار غلبته له وانتصاره عليه، ويصفح عنه، ليشكر قرينه له ذلك. أما أمير المؤمنين عليه السلام فلم يفعل ذلك، بل كان يضرب قرينه بحدّ السيف ويجهز عليه بغضاً له، لعداوته لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله. وهو الإثخان الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾. سورة الأنفال الآية: ٦٧.

(٢) أنساب الأشراف ج:١ ص:١٦٩ في أمر الأسود بن المطلب بن عبد العزى.

قريش بالعداء والإيقاع بهم. بينما ظهر الجِدّ من قليل منهم في الإثخان وقتل المشركين.

ومن الطريف أن عبد الرحمن بن عوف قد غنم أدراعاً، فمرّ بأمية بن خلف وابنه علي، فقالا له: نحن خير لك من هذه الأدراع، فطرح الأدراع، وأخذ بيده ويد ابنه.

فقال له أمية: من الرجل المعلّم بريشة نعامة في صدره؟ قال: حمزة بن عبد المطلب. قال أمية: هو الذي فعل بنا الأفاعيل.

ورآى بلال أمية، وكان يعذبه بمكة، فيضجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ويقول: لا تزال على هذا حتى تفارق دين محمد. فيقول بلال: أحد أحد.

فلما رآه بلال قال: أمية رأس الكفر! لا نجوت إن نجا. ثم صرخ: يا أنصار الله رأس الكفر رأس الكفر أمية بن خلف. لا نجوت إن نجا. فأحاط بهم المسلمون، وقتل أمية وابنه علي. وكان عبد الرحمن يقول: «رحم الله بلالاً ذهبت أدراعي، وفجعني بأسيريّ»[1].

وقد رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس من الأسر، فقال له: «لكأنك تكره ذلك يا سعد!». فقال: «أجل يا رسول الله. أول وقعة أوقعها الله بالمشركين. كان الإثخان أحب إليّ من

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٢٧-١٢٨ ذكر غزوة بدر الكبرى، واللفظ له. الثقات لابن حبان ج:١ ص:١٧٣-١٧٤. تاريخ الطبري ج:٢ ص:١٥٣ أحداث السنة الثانية من الهجرة: ذكر وقعة بدر الكبرى. السيرة النبوية لابن هشام ج:٢ ص:٤٦١-٤٦٢. وغيرها من المصادر الكثيرة.

استبقاء الرجال»[١].

وكأن الله عزّ وجلّ عاتبهم على ذلك في قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

وحيث لم يتقدم منه تعالى النهي عنه صريحاً لم يكن ليعاقبهم عليه، واكتفى بعتابهم على ما كشف ذلك من حالهم واهتمامهم بكسب المال. كما قد يشير إليه قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٣].

التنبيه لمفاد آية الإثخان

ومن الغريب ما قيل من نزول الآيات المذكورة تأنيباً على استبقاء الأسرى وأخذ الفداء منهم، وعدم قتلهم، في تفاصيل كثيرة وخلاف شديد.

مع أن الذي عاتب الله عزوجل عليه المسلمين هو أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان، كما سبق في حديث سعد بن معاذ مع النبي صلى الله عليه وآله، لا في استبقاء الأسرى بعد أسرهم. وهو المناسب لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٢٦ ذكر غزوة بدر الكبرى، واللفظ له. الثقات لابن حبان ج:١ ص:١٦٩. تاريخ الطبري ج:٢ ص:١٥١ أحداث السنة الثانية من الهجرة: ذكر وقعة بدر الكبرى. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٦٧.

(٣) سورة الأنفال الآية: ٦٨ -٦٩.

كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...﴾[1]. بل التعبير بالإثخان في الأرض ظاهر في كون القتل في سعة الأرض وساحة المعركة، لا في مكان حبسهم وأسرهم.

ولاسيما أن في الأسرى نفراً من بني هاشم الذين نهى النبي صلى الله عليه وآله قبل الحرب عن قتلهم، لأنهم أُخرجوا كرهاً[2]، فكيف يقتلهم بعد أن وضعت الحرب أوزارها وأسروا؟!. ولكن تعمد تشويه الحقائق بالأخبار المكذوبة يُغفِل عن التروي والنظر في مفاد الآية الشريفة وما يناسبها.

تدخل الغيب في الحرب

ورابعاً: لظهور تدخل الغيب لصالح الإسلام، حيث استفاضت النصوص التاريخية ـ تبعاً للكتاب المجيد ـ في نزول الملائكة ومشاركتها في الحرب، ومشاركة الشيطان لصالح المشركين، ثم انهزامه بسبب الملائكة.

كما ظهر بها صدق النبي صلى الله عليه وآله فيما كان يَعِد به في مكة وبعد ذلك، من الوقيعة بقريش، واستجابة دعائه فيهم[3].

---

(١) سورة محمد الآية:٤.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٢٨ ذكر غزوة بدر الكبرى. أنساب الأشراف ج:٤ ص:٢ أمر العباس بن عبد المطلب بن هاشم وولده. الطبقات الكبرى ج:٤ ص:١١. دعائم الإسلام ج:١ ص:٣٧٦. فتح الباري ج:٧ ص:٢٤٧. المصنف لابن أبي شيبة ج:٨ ص:٤٨١. تفسير القرطبي ج:٨ ص:٤٩. الطبقات الكبرى ج:٤ ص:١٠. الأمالي للشيخ الطوسي ص:٣٤٢. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٣) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٣ ص:٤٥ وما بعدها باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وآله على المشركين قبل التقاء الجمعين وبعده.

وخامساً: لأن المسلمين بسببها أصبحوا قوة يحسب لها حسابها في المنطقة حيث استطاعوا كسر هيبة قريش بما لها من مكانة في نفوس العرب. وغنموا المال الكثير في الحرب، وفي فداء الأسرى. وللمال أهميته في رفع معنويات الناس.

وتتمة للحديث في ذلك ظهر **أولاً**: اهتمام النبي ﷺ بتثقيف المسلمين، حيث اكتفى من بعض أسرى بدر بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، على ما يأتي في المبحث الثاني.

وثانياً: ترفعه ﷺ عن الانتقام والتزامه بالضوابط الإنسانية التي أقرتها رسالته الشريفة، فقد كان في جملة الأسرى سهيل بن عمرو، فقال عمر للنبي ﷺ: «يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً» فقال ﷺ: «لا أمثل به، فيمثل الله بي وإن كنت نبياً»[١].

حرب أحد

الثانية: حرب أحد. ولم يكن هدف المشركين منها القضاء على المسلمين، كما كان في حرب بدر، لعدم ثقة قريش بنفسها بعد بدر، وإنما كان الهدف منها الثأر لقتلى بدر[٢]. ولذا أسرعوا بالانسحاب والرجوع إلى مكة بعد أن تحقق لهم ذلك بوجه غير متوقع، وبخطأ من بعض المسلمين

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج:٢ ص:٤٧٦ أمر سهيل بن عمرو، واللفظ له. المغازي للواقدي ج:١ ص:١٠٧. تاريخ الطبري ج:٢ ص:١٦٢. تاريخ الإسلام ج:٢ ص:٦٨. البداية والنهاية ج:٣ ص:٣٧٨. السيرة النبوية ابن سيد الناس ج:١ ص:٣٥١. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٤٥٥. وغيرها من المصادر.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٤٩. ذكر غزوة أحد. الثقات لابن حبان ج:١ ص:٢٢١.

حيث تركوا موقعهم الذي عينه رسول الله صلى الله عليه وآله لهم، وأكّد عليهم أن لا يغادروه مهما كانت النتائج. وذلك رغبة منهم في الغنيمة، على ما يأتي.

وما كان التعجيل من قريش بالانسحاب إلا لخوفهم من كرّة المسلمين عليهم، وفتكهم بهم، فيضيع عليهم الانتصار المؤقت الذي كسبوه[١].

وقد حاول النبي صلى الله عليه وآله أن يدركهم، فوجدهم قد أسرعوا بالرجوع إلى مكة[٢]، خوفاً من كرّته عليهم وفتكه بهم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[٣]. وقد استفاد المسلمون من حرب أُحُد أمرين:

دوافع الإقدام على الشهادة

أحدهما: أن من المعلوم دينياً أهمية ثواب الشهادة، إلا أن العلم المذكور **تارة**: يبلغ حدّ التجلّي والوضوح، حتى كأنه يرى عياناً، كما هو الحال في أهل البصائر، كالأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) ومن يتفاعل بهم ومعهم من الخواص الخلّص. وهم يقدمون عليها لا يمنعهم شيء من وجوه التخذيل والإغراء مهما بلغ.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٨٣ غزوة حمراء الأسد. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٣ ص:٢١٣-٢١٤ باب سياق قصة خروج النبي صلى الله عليه وآله إلى أحد وكيف كانت الوقعة. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٤٠.

(٢) المغازي ج:١ ص:٣٢٦-٣٢٧ ما نزل من القرآن بأحد. السيرة النبوية لابن هشام ج:٣ ص:٦١٥-٦١٦. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢١٢ غزوة أحد. تفسير القمي ج:١ ص:١٢٤-١٢٥. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٨٣-١٨٤ غزوة حمراء الأسد. وغيرها من المصادر.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٧٢.

وأخرى: لا يتجلّى ذلك. وحينئذٍ يمنعهم منها تعلقهم بالحياة وزينتها من أهل ومال وجاه ومنصب وغيرها.

نعم الانتصار الظاهر نتيجة الشهادة من أسباب ضعف تعلّق الإنسان بالحياة وزينتها، حيث يشعر بأن مصيبة الموت لم تذهب هدراً، بل تحقق في مقابلها شيء على الأرض، فترتفع المعنويات، ويتجلّى بسببها ثواب الشهادة، فيرغب فيها لذلك. كما قد يتعرض لذلك من لم يؤمن بالشهادة والثواب الأخروي، فيسهل عليه اقتحام الحرب واحتمال الموت. بأمل الفخر بالانتصار الظاهر.

ومن القريب أن ذلك هو الذي حصل لكثير من المسلمين بعد الانتصار الباهر الذي حصل في بدر، حيث توقعوا أنه سيتكرر ببركة الإسلام، فاستسهلوا مواجهة قريش، ورغبوا في الشهادة، لتحقيق نصر مماثل له.

ولذا أصروا على النبي صلى الله عليه وآله وطلبوا منه الخروج، ولقاء المشركين خارج المدينة، وكان رأيه البقاء وقتال المشركين فيها. واستجاب لهم، فخرج إلى أحد[1].

واقتضت حكمة الله تعالى أن يمرّوا بهذا الامتحان العسير، ليظهر أن تمنّيهم للشهادة ليس حبّاً خالصاً لها، بل حبّاً للانتصار الذي كانوا يتوقعونه.

ولذا اندفعوا أولاً في الحرب، وانتصروا فعلاً. فلما أفلت منهم ما حصّلوه من الانتصار ـ نتيجة تفريط بعضهم كما سبق ويأتي ـ انهارت

(١) إعـلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٧٦ في غزوة أحد. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٥٠ في ذكر غزوة أحد.

معنوياتهم، وفرّوا هاربين حبّاً بالحياة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**﴾[1].

فكانت ثمرة ذلك تنبيههم لواقعهم، وأن عليهم أن لا يغترّوا بالانتصار والمظاهر، بل يأخذوا بعين الاعتبار جميع المحتملات حتى غير المحتسبة، ولا يندفعوا كما اندفعوا قبل وقوع هذه الحرب.

ولذا لم يذكر تأريخياً تكرر نظير ذلك الاندفاع منهم بعد أُحد.

نعم حصل نظيره بعد النبيﷺ في حروب الإسلام خارج الجزيرة العربية حين توالت الانتصارات الكاسحة، وأعقبتها الغنائم الكثيرة. والله عزوجل أعلم بالنوايا والأهداف التي دفعتهم لذلك.

ومن المعلوم أن لهذا الأمر أهميته الكبرى في المستقبل الطويل الذي سوف يمرّ به الإسلام والمسلمون.

انكشاف واقع المسلمين

ثانيهما: كشف واقع المسلمين، وأن بعضهم يفتقد الانضباط الذي هو أساس الدين، فيخالف صريحاً أوامر النبيﷺ، ويترك موقعه الذي عيّنه له، حبّاً بالغنيمة، لنفاقهم، أو لضعف إيمانهم.

قال الشيخ الطبرسي: «فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله: أنسيتم قول رسول اللهﷺ. أما أنا فلا أبرح موقفي الذي عهد إليّ فيه رسول الله ما عهد. فتركوا أمره وعصوه بعد ما رأوا ما يحبون، وأقبلوا على الغنائم. فخرج كمين المشركين وعليهم

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤٣.

خالد بن الوليد، فانتهى إلى عبد الله بن جبير، فقتله. ثم أتى الناس من أدبارهم، ووضع في المسلمين السلاح، فانهزموا. وصاح إبليس لعنه الله: قتل محمد. ورسول الله صلى الله عليه وآله يدعوهم في أخراهم: أيها الناس إني رسول الله. وإن الله قد وعدني النصر، فإلى أين الفرار؟! فيسمعون الصوت ولا يلوون على شيء»(١).

كما يشير لذلك قوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ**﴾(٢).

وعن ابن مسعود أنه قال: «ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يريد الدنيا حتى نزلت فينا آية أُحد: ﴿**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾»(٣).

يبدو أن الأمر انتهى ببعض المسلمين للردة أو قاربها

بل قد يبدو من بعض نصوص التأريخ أن الأمر انتهى ببعضهم في حرب أحد إلى الردّة أو شبه الردّة. قال ابن الأثير: «وانتهى أنس بن

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٧٧ في ذكر غزوة أحد.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٢، ١٥٣.

(٣) تفسير ابن كثير ج:١ ص:٤١٤ في تفسير قوله تعالى: ﴿**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا**...﴾ من سورة آل عمران في الحديث عن معركة أحد، واللفظ له. مجمع الزوائد ج:٦ ص:٣٢٧-٣٢٨ كتاب التفسير: في تفسير الآية من سورة آل عمران. تفسير الطبري ج:٤ ص:١٣٠ في تفسير الآية من سورة آل عمران. تفسير القرطبي ج:٤ ص:٢٣٧ في تفسير الآية من سورة آل عمران.

النضر عم أنس بن مالك إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم. فقال: ما يحبسكم؟ قالوا: قد قتل النبيﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟! موتوا على ما مات عليه. ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتِل. فوجد به سبعون ضربة وطعنة. وما عرفته إلا أخته. عرفته بحسن بنانه»[١].

وقال الطبري: «وفشا في الناس أن رسول اللهﷺ قد قتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أُبي، فيأخذ لنا أمنة من أبي سفيان. يا قوم إن محمداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم. قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قتل فإن ربّ محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد. اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شدّ بسيفه فقاتل حتى قتل»[٢].

وقد يشير لذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُم...**﴾[٣].

بينما ظهر بذلك أيضاً رفعة مقام آخرين ومواساتهم وصبرهم وقوة بصيرتهم، كعبد الله بن جبير ومن بقي معه، فقد جعله رسول اللهﷺ على الرماة، وقال له: «انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا. واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا»[٤].

وقال ابن الأثيرعند ذكر بدء الحرب: «واقتتل الناس قتالاً شديداً،

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٥٦ ذكر غزوة أحد، واللفظ له. البداية والنهاية ج:٤ ص:٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٠١، في ذكر غزوة أحد. الثقات لابن حبان ج:١ ص:٢٢٨-٢٢٩.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٤٤.

(٤) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٥٢ ذكر غزوة أحد، واللفظ له. السيرة النبوية لابن هشام ج:٣ ص:٥٨٦. البداية والنهاية ج:٤ ص:١٧.

وأمعن في الناس حمزة وعلي وأبو دجانة في رجال من المسلمين. وأنزل الله نصرة على المسلمين، وكانت الهزيمة على المشركين. وهرب النساء مصعدات، ودخل المسلمون عسكرهم ينهبون...».

وقال أيضاً: «وكان الذي قتل أصحاب اللواء علي. قاله أبو رافع قال: فلما قتلهم أبصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة من المشركين، فقال لعلي: احمل عليهم. ففرقهم وقتل فيهم. ثم أبصر جماعة أخرى، فقال له: [احمل عليهم] فحمل عليهم وفرقهم وقتل فيهم. فقال جبرائيل: يا رسول الله هذه المواساة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنه مني وأنا منه. فقال جبرائيل: وأنا منكما. قال: فسمعوا صوتاً: لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي»[1].

وظهور القسمين من المسلمين أمر له أهميته لصالح الدعوة الحقّة في المستقبل القريب والبعيد، حيث قدّر لدعوة الإسلام الخلود والبقاء. لما له من الأثر البالغ في قيام الحجة على المسلمين في تعاملهم، بعضهم مع بعض، كمجتمع وكأفراد.

غزوة بدر الموعد

هذا ومما يلحق بحرب أحد غزوة بدر الموعد. فقد ذكرنا أن حرب أحد لم ترفع معنويات المشركين، ولم تكسر هيبة المسلمين في نفوسهم، لما سبق من إسراعهم في الانسحاب.

ولاسيما أن أبا سفيان لما انسحب قال: موعدكم العام المقبل، ولم يكن يريد الهجوم على المدينة، بل في بدر الصفراء. فلما قرب الموعد ندم. وطلب

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٥٤، في ذكر غزوة أحد.

من نعيم بن مسعود الأشجعي أن يخذل المسلمين، على أن يعطوه عشرين أو عشرة من الإبل[١]. ولما قدم نعيم المدينة أشاع أن قريشاً قد جمعت الجموع بما لا قِبَل للمسلمين به. وأرعب ذلك بعض المسلمين[٢]، وكادت المؤامرة تتم.

لكن رسول الله صلى الله عليه وآله أصرّ على الخروج لبدر في العام الثاني، فخرج ومعه من معه من المسلمين تنفيذاً للموعد وقد تزودوا مع ذلك ببضائع.

أما أبو سفيان فقد رجع قبل أن يصل بدراً، ظناً منه أن نعيماً خذّل المسلمين فامتنعوا من الخروج. وصار ذلك سبباً للسخرية به ممن لم يخرج معه من قريش حتى قيل: سمي الجيش الخارج معه بجيش السويق. إشارة إلى أنه لم يقم بشيء إلا أكل السويق[٣].

فانتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بدر ولم يجد قريشاً، وكان هناك سوق، فباعوا ما معهم من البضائع وربحوا ربحاً كثيراً.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾[٤]. وهو المروي عن الإمام أبي جعفر

---

(١) تفسير القمي ج:١ ص:١٥١. التبيان في تفسير القرآن ج:٢ ص:٦٠٠. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٥٧٩ غزوة بدر الآخرة. المغازي للواقدي ج:١ ص:٣٢٧. تفسير ابن البغوي ج:١ ص:٣٣٨. وغيرها من المصادر.

(٢) تفسير القرآن العظيم للطبراني ج:٢ ص:١٦٢ـ١٦٣. المغازي للواقدي ج:١ ص:٣٢٧.

(٣) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٧٥ عند ذكر غزوة بدر الثانية.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٧٣، ١٧٤.

الباقر عليه السلام[١]، والمحكي عن مجاهد وعكرمة[٢].

وذكره اليعقوبي[٣] والبلاذري[٤] أيضاً. وقد زاد ذلك في رفع معنويات المسلمين، كما كان وهناً على قريش.

حرب الأحزاب

الثالثة: حرب الأحزاب. وكان الهدف منها إنهاء المسلمين والقضاء عليهم. وكان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أجلى بني النضير أتوا خيبر. فلما قدموها خرج حيي بن أخطب وكنانة بن أبي الحقيق اليهودي وغيرهما حتى أتوا مكة، فدعوا أبا سفيان بن حرب وقريشاً إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وآله، وأعلموهم أنهم يدٌ لهم عليه، فسرّ أبو سفيان بذلك وعاقدهم على ما دعوا إليه. ثم أتت اليهود غطفان فجعلوا لهم تمر خيبر سنة على أن يعينوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله، فأنعموا لهم بذلك. وأجابوهم إليه، ثم أتوا بني سليم بن منصور فسألوهم مثل ذلك فأنجدوهم. وساروا في جميع العرب ممن حولهم فنهضوا معهم، وكانت قريظة قد امتنعت من المظاهرة على النبي صلى الله عليه وآله، وفاءً بمعاهدتهم معه. فلم يزل بهم حيي وأصحابه حتى نقضوا المعاهدة، وخرجوا معهم[٥].

---

(١) مجمع البيان ج:٢ ص:٤٤٩ في تفسير الآية الشريفة.

(٢) السنن الكبرى للنسائي ج:٦ ص:٣١٧ في تفسير الآية. معاني القرآن للنحاس ج:١ ص:٥١١. المنتظم في تاريخ الأمم ج:٣ ص:٢٠٥-٢٠٦. دلائل النبوة ج:٣ ص:٣١٨.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٦٧ في ذكر الغزوات التي لم يكن فيها قتال.

(٤) أنساب الأشراف ج:١ ص:٣٣٩-٣٤٠ في غزوة بدر الموعد.

(٥) أنساب الأشراف ج:١ ص:٤٢٧-٤٢٨. تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٥٢ في وقعة بني قريظة. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٨٠ في ذكر غزوة الأحزاب. وغيرها من المصادر.

ولم تكن قريش على ثقة بنفسها في القضاء على المسلمين بعد ما سبق، إلا أن دعم اليهود وتعهدهم بمعاونتها على ذلك مع ما تعرفه عنهم من مكر ودهاء وشدة العداء للنبي صلى الله عليه وآله كل ذلك رفع معنوياتها، وأطمعها فيه.

وأقبلت الأحزاب التي تبلغ عشرة آلاف في أقل ما قيل، وقيل أكثر، حتى أنهاهم البعض إلى بضع وعشرين ألفاً[1]. وأخيراً زحفت نحو المدينة، وعسكرت حولها، فقد منعهم من دخولها الخندق. وكان قد نصح بحفره سلمان الفارسي رضي الله عنه. حين بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله تهيؤ الأحزاب لقصده. فتحرز منهم به. ولم يكن بينهم وبين المسلمين إلا الرمي بالسهام. وكان من أشدّ الأمور على المسلمين نقض بني قريظة حلفهم مع النبي صلى الله عليه وآله، لعدم الحاجز بينهم وبين المسلمين، كما كان الخندق حاجزاً بينهم وبين المشركين، بل يسهل عليهم التحرش بالمسلمين متى أرادوا.

كتاب أبي سفيان للنبي صلى الله عليه وآله وجوابه له

وقد اغتر أبو سفيان بذلك الجيش، واعتقد أنه سيقضي على النبي صلى الله عليه وآله وعلى الإسلام، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: «باسمك اللهم. أحلف باللات والعزى وساف ونائلة وهبل، لقد سرت إليك أريد استئصالكم. فأراك قد اعتصمت بالخندق، وكرهت لقاءنا. ولك مني يوم كيوم أحد». وبعث بالكتاب مع أبي أسامة الجشمي. فقرأه على النبي صلى الله عليه وآله أبي بن كعب.

---

(١) البدء والتاريخ ج:٤ ص:٢٢١. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٦٢٩ غزوة الخندق. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:٧٩ فصل: في استجابة دعواته عليه السلام. تاريخ الإسلام ج:٢ ص:٢٨٤ غزوة الخندق. التنبيه والإشراف ص:٢١٦ ذكر السنة الخامسة.

وكتب رسول الله صلى الله عليه وآله في جوابه: «قد أتانا كتابك. وقديماً غرك يا أحمق بني غالب وسفيههم بالله الغَرور. وسيحول الله بينك وبين ما تريد، ويجعل لنا العاقبة. وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وساف ونائلة وهبل يا سفيه بني غالب»[١].

وطال الأمر، واشتد الحال بالمسلمين، وفرّ بعضهم، وزلزلوا زلزالاً شديداً، كما تضمنته سورة الأحزاب، وأطالت في تفاصيله كتب الحديث والسيرة والتاريخ.

حسم المعركة بقتل أمير المؤمنين عليه السلام عمرو بن ودّ

وأخيراً بعد حصار قارب الشهر ـ على ما رواه غير واحد من المؤرخين[٢] ـ انتهى نشاط الأحزاب العسكري إلى عبور نفر من المشركين الخندق، أعظمهم شأناً وأهيبهم في النفوس عمرو بن عبد ودّ العامري.

وطلب عمرو البراز متحدياً للمسلمين وضاق الأمر بعامة المسلمين مع ضمان النبي صلى الله عليه وآله الجنة لمن يبرز إليه. فبرز إليه أمير المؤمنين عليه السلام، وقتله وقتل بعض من معه، وفرّ الباقون، في تفاصيل لا يسعنا التعرض لها، تضمنتها كتب السيرة والتاريخ. وكان قتله سبباً في كسر شوكة الأحزاب ووهنهم. فهي حدث فاصل، كما يناسبه قول النبي صلى الله عليه وآله حين برز أمير المؤمنين عليه السلام لعمرو: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[٣].

---

(١) أنساب الأشراف ج:١ ص:٤٢٨-٤٢٩ غزوة الخندق. النزاع والتخاصم للمقريزي ص:٥٧. سبل الهدى والرشاد ج:٤ ص:٣٩١. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٦٥٧.

(٢) التنبيه والإشراف ص:٢١٦. السيرة النبوية لزيني دحلان ج:٢ ص:١٣١.

(٣) شرح نهج البلاغة ج:١٩ ص:٦١. إرشاد القلوب ج:٢ ص:٢٤٤. ينابيع المودة ج:١

وقول جابر بن عبد الله الأنصاري حين خرج مع أمير المؤمنين عليه السلام لينظر ما يكون منه ومن عمرو: «والله ما شبهت يوم الأحزاب وتخاذل المشركين بعده إلا بما قصه الله تعالى من قصة طالوت وجالوت في قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾»[١]. ونحوه حكي عن يحيى بن آدم[٢].

وقول حذيفة عنه عليه السلام: «لعمله في ذلك اليوم أعظم أجراً من عمل أصحاب محمد إلى يوم القيامة»[٣]. وقول أبي بكر بن عياش: «لقد ضرَب علي عليه السلام ضربة ما كان في الإسلام ضربة أعز منها ـ يعني: ضربة عمرو بن عبد ود ـ ولقد ضُرب علي عليه السلام ضربة ما كان في الإسلام أشأم منها ـ يعني: ضربة ابن ملجم لعنه الله ـ »[٤].

وأنشدت أخت عمرو مقطوعة شعر تقول فيها:

ذلّت قريش بعد مقتل فارس فالذلّ مهلكها وخزي شامل

ص:٢٨١. وغيرها من المصادر.

(١) شرح نهج البلاغة ج:١٩ ص:٦٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج:٣ ص:٣٤ في قتل عمرو بن عبد ود.

(٣) إرشاد القلوب ج:٢ ص:٢٤٥ واللفظ له. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٣٧٩-٣٨٠ غزوة الأحزاب. الإرشاد ج:١ ص:١٠٣ مبارزته عليه السلام لعمرو بن عبد ود العامري. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ج:٢ ص:١٤.

(٤) الإرشاد ج:١ ص:١٠٥ مبارزته عليه السلام لعمرو بن عبد ود العامري، واللفظ له. المناقب لابن شهرآشوب ج:٣ ص:١٣٨ فصل في قتاله عليه السلام في يوم الأحزاب. شرح نهج البلاغة ج:١٩ ص:٦١.

ثم قالت: «والله لا ثأرت قريش بأخي ما حنّت النيب»[١].

انسحاب المشركين بتوجيه الله تعالى الريح عليهم

ثم تدخل الغيب ضد المشركين لصالح المسلمين، كما قال الله عز وجل: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾[٢]. وكانت نتيجة ذلك انسحاب المشركين شرّ انسحاب، كما قال تعالى: ﴿**وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾[٣].

وفي حديث أبان بن عثمان عمن حدثه عن أبي عبد الله قال عليه السلام: «قام رسول الله صلى الله عليه وآله على التل الذي عليه مسجد الفتح في غزوة الأحزاب في ليلة ظلماء قرّة. فقال: من يذهب فيأتينا بخبرهم، وله الجنة؟ فلم يقم أحد. ثم أعادها، فلم يقم أحد. فقال أبو عبد الله عليه السلام بيده: وما أراد القوم؟! أرادوا أفضل من الجنة؟! ثم قال: من هذا؟ قال: حذيفة. فقال: أما تسمع كلامي. منذ الليلة ولا تكلّم. أقبرت؟ [اقترب. خ ل] فقام حذيفة، وهو يقول: القُرّ[٤] والضّرُ ـ جعلني الله فداك ـ منعني أن أجيبك. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: انطلق حتى تسمع كلامهم، وتأتيني بخبرهم. فلما ذهب قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده. وقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا حذيفة لا تُحدِث

---

(١) الإرشاد ج:١ ص:١٠٨-١٠٩ مبارزته عليه السلام لعمرو بن عبد ود العامري، واللفظ له. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:١٩٩ فصل في غزواته عليه السلام.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٩.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٢٥.

(٤) القُر بالضم: البرد.

شيئاً حتى تأتيني. فأخذ سيفه وقوسه وحجفته. قال حذيفة: فخرجت وما بي من ضر ولا قُر. فمررت على باب الخندق، وقد اعتراه المؤمنون والكفار.

فلما توجه حذيفة قام رسول الله ﷺ، ونادى: يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين. اكشف همي وغمي وكربي. فقد ترى حالي وحال أصحابي. فنزل عليه جبرئيل عليه السلام فقال: يا رسول الله. إن الله عز ذكره قد سمع مقالتك ودعاءك. وقد أجابك، وكفاك هول عدوك. فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه، وبسط يديه، وأرسل عينيه، ثم قال: شكراً شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي.

ثم قال رسول الله ﷺ: قد بعث الله عز وجل عليهم ريحاً من السماء الدنيا فيها حصى، وريحاً من السماء الرابعة فيها جندل.

قال حذيفة: فخرجت فإذا أنا بنيران القوم. وأقبل جند الله الأول ريح فيها حصى. فما تركت لهم ناراً إلا أذرتها، ولا خباء إلا طرحته، ولا رمحاً إلا ألقته، حتى جعلوا يترسون من الحصى. فجعلنا نسمع وقع الحصى في الأترسة. فجلس حذيفة بين رجلين من المشركين.

فقام إبليس في صورة رجل مطاع في المشركين، فقال: أيها الناس، إنكم قد نزلتم بساحة هذا الساحر الكذاب. ألا وإنه لن يفوتكم من أمره شيء، فإنه ليس سنة مقام. قد هلك الخف والحافر، فارجعوا. ولينظر كل رجل منكم من جليسه. قال حذيفة: فنظرت عن يميني، فضربت بيدي، فقلت: من أنت؟ فقال: معاوية. فقلت للذي عن يساري: من أنت؟ فقال: سهيل بن عمرو.

قال حذيفة: وأقبل جند الله الأعظم، فقام أبو سفيان إلى راحلته، ثم صاح في قريش: النجاء النجاء. وقال طلحة الأزدي: لقد زادكم [رادكم] محمد بشر. ثم قام إلى راحلته، وصاح في بني أشجع: النجاء النجاء. وفعل عيينة بن حصن مثلها، ثم فعل الحارث بن عوف المرّي مثلها، ثم فعل الأقرع بن حابس مثلها. وذهب الأحزاب.

ورجع حذيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره الخبر. وقال أبو عبد الله عليه السلام: إنه كان ليشبه يوم القيامة»[1].

القضاء على بني قريظة

وأعقبه القضاء على بني قريظة، لنقضهم العهد في أحلك الظروف التي مرت بالنبي صلى الله عليه وآله وبالمسلمين. وقد حاصرهم النبي صلى الله عليه وآله شهراً أو دونه، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، لأنهم كانوا حلفاءه في الجاهلية، فكان المأمول منه أن يخفف عنهم. فحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وتسبى الذراري والنساء، وتقسم الأموال[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[3].

وقتل معهم حيي بن أخطب لأنه هو الذي حملهم على نقض عهدهم

---

(١) الكافي ج:٨ ص:٢٧٧-٢٧٩ حديث:٤٢٠.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٨٦ ذكر غزوة بني قريظة. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٩٦ غزوة الخندق.

(٣) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٨٦ ذكر غزوة بني قريظة. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٩٦ غزوة الخندق.

مع رسول الله ﷺ وكانوا قد امتنعوا أول الأمر ـ كما سبق ـ وعاهدهم أنه إن عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا رسول الله ﷺ أن يدخل معهم في حصنهم حتى يصيبه ما يصيبهم. فلما انسحبت الأحزاب جاء ودخل في حصنهم[١].

ولما أرادوا قتله قال لرسول الله ﷺ: «والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكن من يَخذل اللهُ يُخذل». ثم قال للناس: «إنه لا بأس بأمر الله. كتاب وقدر، وملحمة كتبت على بني إسرائيل»[٢].

وأسلم ثلاثة منهم، فلم يقتلوا[٣].

وصية ابن حواش لليهود

وعن ابن عباس قال: «لما دعا رسول الله ﷺ بكعب بن أسد ليضرب عنقه، فأخرج ـ وذلك في غزوة بني قريظة ـ نظر إليه رسول الله ﷺ فقال له: يا كعب. أما نفعك وصية ابن حواش الحَبر الذي أقبل من الشام، فقال: تركت الخمر والخمير، وجئت إلى البؤس والتمور، لنبي يبعث. هذا أوان خروجه. يكون مخرجه مكة، وهذه دار هجرته. هو الضحوك القتال، يجتزئ بالكسيرات والتمرات، ويركب الحمار العاري، في عينه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه، ولا يبالي بمن يلاقي، يبلغ سلطانه

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٨٠ في غزوة الخندق، وص:١٨٦ في غزوة بني قريظة.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٨٦ ذكر غزوة بني قريظة، واللفظ له. الإرشاد ج:١ ص:١١١-١١٢. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:٢ ص:٥٥ غزوة بني قريظة. تفسير الثعلبي ج:٨ ص:٢٨. تفسير البغوي ج:٣ ص:٥٢٣. تفسير الخازن ج:٣ ص:٤٢١. وغيرها من المصادر.

(٣) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٨٧ في غزوة بني قريظة.

منقطع الخفّ والحافر. قال كعب: قد كان ذلك يا محمد. ولولا أن اليهود تعيرني أني جبنت عند القتل لآمنت بك. ولكني على دين اليهودية، عليه أحيى، وعليه أموت. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قدموه واضربوا عنقه. فقدم، وضرب عنقه»[١].

وقد تضمن القرآن المجيد قصة بني قريظة قال جل شأنه: ﴿**وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾[٢].

ثمرة غزوة الأحزاب

وكانت محصّلة حرب الأحزاب أموراً أربعة:

أولها: ظهور قوة الإسلام، وأن أعداءه من العرب عاجزون عن القضاء عليه. وظهر تدريجاً صدق النبي صلى الله عليه وآله فيما كان يخبر به من أول البعثة الشريفة من أن أمره لابد أن يظهر. وقد روي أن النبي صلى الله عليه وآله قال بعد قتل عمرو بن عبد ودّ ومن معه، أو بعد انسحاب الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»[٣].

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة ج:١ ص:٢٩١ باب:١٩ خبر دواس بن حواش المقبل من الشام حديث:١.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) الإرشاد ج:١ ص:١٠٥-١٠٦. مجمع البيان ج:٨ ص:١٣٦. صحيح البخاري ج:٥ ص:٤٨ كتاب المغازي: باب غزوة الخندق وهي الأحزاب. مسند أحمد ج:٤ ص:٢٦٢، ج:٦ ص:٣٩٤. المعجم الكبير للطبراني ج:٧ ص:٩٨. وغيرها من المصادر الكثيرة.

وقال عمرو بن العاص: «لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني. فقلت لهم: تعلموا والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً...»[١].

ثانيها: القضاء على بني قريظة، وهم آخر من بقي من اليهود في المدينة. وبذلك صفت المدينة للمسلمين، وتخلّصت من اليهود الذين كانوا بؤرة للشغب، وإثارة المشاكل.

ثالثها: غنيمة المسلمين أموال بني قريظة وأراضيهم الزراعية وغيرها، وحتى نساءهم وذراريهم، حيث انتفعوا بأثمانهم. وكانوا في حاجة للمال.

رابعها: ظهور النفاق والتخاذل والهلع من جماعة كبيرة، كما تضمنه الكتاب المجيد في سورة الأحزاب.

وكذا ظهور الثبات وقوة الإيمان من آخرين، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾[٢]. وقوله عز وجل: ﴿**مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**﴾[٣].

وإذا خفيت أسماء أولئك وهؤلاء أو بعضهم على أجيال المسلمين

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج:٣ ص:٧٤٨ في إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، واللفظ له. مسند أحمد ج:٤ ص:١٩٨. الأحاديث الطوال ص:٣٩. شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:٣١٨. تاريخ دمشق ج:٤٦ ص:١٢١ في ترجمة عمرو بن العاص. وغيرها من المصادر.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٢٢.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٢٣.

اللاحقة أو أغفلت، نتيجة انحراف السلطة ومن جرى على خطها، ومحاولتها إخفاء الحقيقة وتحريفها، فهي لم تخف على الحاضرين. وقد أخبر بعضهم بها بعد ذلك.

وكان في ذلك عون للباحث المنقب ممن يهمه معرفة الحقيقة وكشفها للأجيال. وذلك مكسب عظيم للإسلام الحق ولمن يهمّه الوصول للحقيقة، والتعرّف عليها، إقامة للحجة.

وتبعت الأحزاب حروب أخرى وسرايا ليست بتلك الأهمية، وكان النصر فيها للمسلمين. وانتهى الأمر إلى الاعتراف بهم وبالإسلام كأمر واقع لا سبيل للقضاء عليه، بل بدأ التفكير في كيفية التعامل معه. وبهذا انتهى الكلام في المرحلة الأولى، وهي مرحلة ثبات الإسلام والمسلمين أمام التحديات.

المرحلة الثانية

وهي مرحلة توسّع الإسلامٍ وتثبيت قوته واعتراف الآخرين به رسمياً كحقيقة قائمة

وذلك بتحركه واحتكاكه بهم.

عمرة الحديبية

وتبدأ هذه المرحلة بعمرة الحديبية. فقد خرج رسول الله ﷺ محرماً، وساق معه البدن، معلناً أنه خرج محرماً لا محارباً. وفي هذا إحراج لقريش.

لأنها إن سمحت له اعترفت به وبالإسلام والمسلمين، وأن لهم أن يستفيدوا من حقهم في الحج والعمرة، وهي ترى ذلك وهناً عليها.

وإن منعته كانت **أولاً**: معتدية في صدّها عن العمرة من أرادها من غير حرب. وقد أوجب ذلك انشقاق صفوفها. حيث جاء الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، فلما رآه النبي ﷺ قال: هذا من قوم يعظمون البدن، فابعثوا الهدي في وجهه. فلما رأى الهدي رجع إلى قريش، ولم يصل إلى النبي ﷺ، فقال: يا قوم قد رأيت ما لا يحل صده، الهدي في قلائده. فقالوا: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك. فقال: والله ما على هذا حالفناكم، أن تصدوا عن البيت من جاء معظماً له. والذي نفسي بيده لتُخلنَّ بين محمد وبين البيت أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا: مه. كفّ عنا يا حليس نأخذ

لأنفسنا[١].

وثانياً: أنها تجعل للنبي صلى الله عليه وآله الحق في حربها، وقد هددهم بها، وله قدرة عليها بما كان معه من عدد وعدّة لا يستهان بها وقد شعرت أنه في موقع القوة.

بيعة الرضوان

وبهذه المناسبة أرسل إليهم عثمان بن عفان، ليبلغهم أنه يريد العمرة، ولم يأتهم محارباً. واحتبسته قريش، وبلغ المسلمين أنه قد قتل، فدعا النبي صلى الله عليه وآله المسلمين لبيعته، فبايعوه تحت الشجرة على أن يناجز القوم. ثم أتى الخبر أن عثمان لم يقتل[٢].

وإلى هذه البيعة يشير قوله تعالى: ﴿**لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[٣]. ولذا سميت بيعة الرضوان.

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٠٢ ذكر عمرة الحديبية، واللفظ له. المغازي للواقدي ج:١ ص:٥٩٩-٦٠٠ غزوة الحديبية. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٦٩٦. السيرة النبوية ج:٣ ص:٧٧٧-٧٧٨. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢٧٦ ذكر خبر عن عمرة النبي صلى الله عليه وآله. ونحوه في الكافي ج:٨ ص:٣٢٣.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٠٣ ذكر عمرة الحديبية. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢٧٩ ذكر خبر عن عمرة النبي صلى الله عليه وآله. المعارف لابن قتيبة ص:١٦٢ يوم الخندق ما بعده. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:٢ ص:١١٩ غزوة رسول الله صلى الله عليه وآله الحديبية. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج:١ ص:٤٠٠ غزوة الحديبية. وغيرها من المصادر.

(٣) سورة الفتح الآية: ١٨- ١٩.

قريش تستعطف النبي صلى الله عليه وآله

وأخيراً ضرعت قريش للنبي صلى الله عليه وآله إليه طالبة إحسانه، كما استفاضت بذلك النصوص وكتب السيرة والتاريخ.

ففي صحيح معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: «فأرسلوا إليه عروة بن مسعود... فقالوا: يا رسول الله هذا عروة بن مسعود قد أتاكم وهو يعظم البدن. قال: فأقيموها. فأقاموها. فقال: يا محمد مجيء من جئت؟ قال: جئت أطوف بالبيت، وأسعى بين الصفا والمروة، وأنحر هذه الإبل، وأخلي عنكم عن لحمانها. قال: لا واللات والعزى ما رأيت مثلك ردّ عما جئت له. إن قومك يذكّرونك الله والرحم أن تدخل عليهم بلادهم بغير إذنهم، وأن تقطع أرحامهم، وأن تجرّئ عليهم عدوهم... فرجع إليهم، فقال لأبي سفيان وأصحابه: لا والله ما رأيت مثل محمد ردّ عما جاء له»[1].

وكان عروة حين جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يرمق أصحاب النبي فكان صلى الله عليه وآله لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش، فقال: «يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه. وإني والله ما رأيت ملِكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه. ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً. فروا رأيكم»[2].

---

(١) الكافي ج:٨ ص:٣٢٣-٣٢٦ حديث:٥٠٣.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج:٣ ص:٧٧٩، واللفظ له. مسند أحمد ج:٤ ص:٣٢٤ حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان بن الحكم رضي الله عنه. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٦٩٩. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:٢ ص:١١٨ غزوة رسول الله صلى الله عليه وآله الحديبية. وغيرها من المصادر.

وعن ابن عباس: «أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين رجلاً، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وآله، ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً. فأخذوا أخذاً، فأتي بهم رسول الله صلى الله عليه وآله، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم. وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وآله بالحجارة والنبل»[1].

لكن ذلك كله لم يحملهم على السماح لهم بالعمرة. وأرسلوا سهيل بن عمرو أيضاً. قال أبو عبد الله عليه السلام في تتمة حديث معاوية بن عمار السابق: «فأرسلوا إليه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله فأثيرت في وجوههم البدن، فقالا: مجيء من جئت؟ قال: جئت لأطوف بالبيت وأسعى بين الصفا والمروة، وأنحر البدن، وأخلي بينكم وبين لحمانها. فقالا: إن قومك يناشدونك الله والرحم أن تدخل عليهم بلادهم بغير إذنهم، وتقطع أرحامهم، وتجرّئ عليهم عدوهم...».

صلح الحديبية

وأخيراً أحسن النبي صلى الله عليه وآله إلى قريش، ورضي في ضمن معاهدة أن يرجع عنها، على أن يعتمر في العام القابل، حيث رأت أن ذلك يحفظ لها كرامتها. لكنها أعطت في مقابل ذلك أموراً:

الأول: وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين. وبذلك أمن صلى الله عليه وآله منها، وأخذ حريته في نشر الإسلام والدعوة له في الجزيرة العربية وخارجها بعد أن صار له قوة يحسب له حسابها.

الثاني: أن للمسلمين في داخل مكة أن يتمتعوا بحريتهم، فيظهروا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج:٣ ص:٧٧٩، واللفظ له. السيرة الحلبية ج:٢ ص:٧٠٥. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢٧٨ ذكر خبر عن عمرة النبي صلى الله عليه وآله. وغيرها من المصادر.

إسلامهم ويعبدوا الله علانية.

الثالث: أن من أراد أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ دخل، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل. فدخل بنو بكر في حلف قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ. وكان بين عبد المطلب وخزاعة حلف قديم[١]. فكان هواها مع رسول الله ﷺ.

وفي هذين الشرطين قوة لصالح الإسلام في داخل مكة بين ظهراني قريش، حيث يتيسر لمن يريد الإسلام من قريش أن يسلم، ويأخذ حريته هو ومن كان أسلم سابقاً. كما أنهم يقوون بمن دخل في حلف النبي ﷺ.

نعم استغلت قريش لين النبي ﷺ وتسامحه معها، فاشترطت شرطاً قد يبدو فيه نحو من الإجحاف عليه ﷺ، وهو أن من جاءهم ممن مع رسول الله ﷺ لم يردّوه عليه. ومن جاء رسول الله ﷺ منهم من غير إذن وليه ردّه عليهم. فرضي ﷺ به. وقد أثار ذلك حفيظة بعض المسلمين، أو كثيراً منهم جهلاً بعواقب الأمور.

حيث إن هؤلاء النفر، بعد أن أرجعهم رسول الله ﷺ، وفاء بشرطه، تمرّدوا على قريش وتجمّعوا بناحية ذي المروة، على ساحل البحر على طريق قريش إلى الشام، فضيّقوا على قريش يعترضون عليهم طريقهم إلى الشام، ويمنعونهم[٢]، من دون أن يكون رسول الله ﷺ مسؤولًا عنهم، لأنه ردّ بعضهم، ولم يأتِهِ الآخرون.

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٩٠ ذكر فتح مكة.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٠٦ في ذكر صلح الحديبية. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:٢ ص:٦٠٢ في غزوة الحديبية.

فأرسلت قريش للنبي صلى الله عليه وآله يناشدونه الله والرحم أن يرسل إليهم، فمن أتاه فهو آمن، وأنهم تنازلوا عن هذا الشرط. ففعل. وأضيف ذلك لإحسانه صلى الله عليه وآله إليهم في الرضا بالرجوع عن العمرة ذلك العام.

إنكار بعض المسلمين على النبي صلى الله عليه وآله

وفي حديث أبي سعيد: «قال عمر: لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي صلى الله عليه وسلم مراجعة ما راجعته مثلها قط»[١].

وفي حديث آخر: فقال عمر: «اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي، وما ألوت عن الحق». وفيه: «قال: فرضي رسول الله وأبيت، حتى قال لي: يا عمر تراني رضيت وتأبى»[٢].

وعن سهل بن حنيف أن عمر قال: «يا أيها الناس اتهموا رأيكم... فلو رأيتني يوم أبي جندل ولو أجد أعواناً على رسول الله لأنكرت»[٣].

بل يبدو أن بعض المسلمين أنكر الصلح رأساً، وكان يريد دخول مكة وإتمام العمرة فيها، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وعدهم ـ تبعاً لرؤيا رآها ـ أنهم يدخلون المسجد الحرام محلقين ومقصرين، فلما وقع الصلح استنكروا

---

(١) فتح الباري ج:٥ ص:٢٥٤. نيل الأوطار ج:٨ ص:٢٠٠ باب جواز مصالحة المشركين على المال وإن كان مجهولاً. المسترشد في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ص:٥٣٩.

(٢) فتح الباري ج:٥ ص:٢٥٤.

(٣) المعجم الكبير ج:٦ ص:٩٠ في ما رواه أبو وائل شقيق بن سلمة عن سهل بن حنيف، واللفظ له. المعجم الصغير ج:٢ ص:٦ من اسمه محمد. الفتن لنعيم بن حماد ج:١ ص:٥١ ما يستحب من خفة المال والولد في الفتن. تاريخ بغداد ج:٤ ص:٣٣٩ ذكر من اسمه أحمد واسم أبيه الحجاج: في ترجمة أحمد بن الحجاج الشيباني الذهلي. وبقية مصادره تجدها في رحاب العقيدة ج:١ ص:٧١.

ذلك، إما لأنهم أنفوا من التنازل، أو لأنهم حسبوا أن النبي ﷺ أخلفهم وعده. مع أن النبي ﷺ لم يعدهم دخول مكة في خروجهم ذلك للعمرة، بل وعدهم بدخولها على الإجمال بسبب خروجه ذلك.

وكان الأمر كما ذكر، حيث إن خروجه ﷺ في عمرة الحديبية، ثم معاهدته فيها لقريش، كانا سبباً في عمرة القضاء في العام الثاني. ثم كانا مفتاحاً لفتح مكة، لأن الله تعالى يعلم أن قريشاً سوف تنقض شروط الصلح، فيكون ذلك مبرراً لدخوله ﷺ لها عنوة وفتحها رغماً عليهم، وبتقصير منهم.

وفي الحديث: «فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ. قال: فأتيت النبي ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟. قال: إني رسول الله، ولست أعصي ربي، وهو ناصري. قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى. فخبرتك أنك تأتيه العام. قال [قلت.ظ]: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به... قال عمر بن الخطاب: فعملت في ذلك أعمالاً. يعني: في نقض الصحيفة»[1].

عصيان المسلمين أمر النبي ﷺ بالتحلل من العمرة

ولما تم عقد الصلح أمر رسول الله ﷺ المسلمين بأن يتحللوا من

(١) صحيح ابن حبان ج:١١ ص:٢٢٤ــ٢٢٥ كتاب السير: باب الموادعة والمهادنة: ذكر ما يستحب للإمام استعمال المهادنة بينه وبين أعداء الله .. ، واللفظ له. ورويت بألفاظ متقاربة في المصنف لعبد الرزاق ج:٥ ص:٣٣٩ كتاب المغازي: غزوة الحديبية. ولاحظ بقية المصادر في رحاب العقيدة ج:١ ص:٧٠.

إحرام العمرة بالنحر ثم الحلق. فلم يفعلوا[١]. وفي رواية أبي المليح: «فاشتد ذلك عليه فدخل على أم سلمة، فقال: هلك المسلمون. أمرتهم أن يحلقوا فلم يفعلوا»[٢]. فنحر هو ﷺ وحلق، فرجعوا إلى أنفسهم وفعلوا[٣] خضوعاً للواقع.

قال ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ. فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون»[٤].

وقال أيضاً: «فحدثني عبد الله بن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس، قال: حلق رجال يوم الحديبية وقصّر آخرون، فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: يرحم الله المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: والمقصرين. فقالوا: يا رسول الله فِلِمَ ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: لم يشكوا»[٥].

---

(١) صحيح البخاري ج:٣ ص:١٨٢ كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. صحيح ابن حبان ج:١١ ص:٢٢٥ كتاب السير: باب الموادعة والمهادنة ذكر ما يستحب للإمام استعمال المهادنة بينه وبين أعداء الله .. . المصنف لعبد الرزاق ج:٥ ص:٣٤٠ كتاب المغازي: غزوة الحديبية. وغيرها من المصادر.

(٢) فتح الباري ج:٥ ص:٣٤٧.

(٣) صحيح البخاري ج:٣ ص:١٨٢ كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. صحيح ابن حبان ج:١١ ص:٢٢٥ كتاب السير: باب الموادعة والمهادنة ذكر ما يستحب للإمام استعمال المهادنة بينه وبين أعداء الله .. . المصنف لعبد الرزاق ج:٥ ص:٣٤٠ كتاب المغازي: غزوة الحديبية. وغيرها من المصادر.

(٤) السيرة النبوية لابن إسحاق ج:٢ ص:٤٦٢ قصة أبي جندل بن سهيل.

(٥) السيرة النبوية لابن إسحاق ج:٢ ص:٤٦٣ فيمن شهدوا على الصلح.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

قصة ثمامة بن أثال الحنفي

هذا وقد سبق من قريش أن ضرعوا للنبي صلى الله عليه وآله أيضاً وطلبوا إحسانه حين منعهم ثمامة بن أثال ميرتهم ومنافعهم من اليمامة.

ففي صحيح زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: «أن ثمامة بن أثال أسرته خيل النبي صلى الله عليه وآله وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اللهم أمكني من ثمامة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إني مخيرك واحدة من ثلاث: أقتلك، قال: إذاً تقتل عظيماً. أو أفاديك. قال: إذاً تجدني غالياً. أو أمنّ عليك. قال: إذا تجدني شاكراً. قال: فإني قد مننت عليك. قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله. وقد والله علمت أنك رسول الله حيث رأيتك. وما كنت لأشهد بها وأنا في الوثاق»[2].

وذكر ابن عبد البر ـ في حديث رواه ـ أنه كان سيد أهل اليمامة، وأنه أسر وهو يريد العمرة. فلما أسلم ذهب لها. فلما قدم مكة جاءه المشركون فقالوا: يا ثمامة صبوت وتركت دين آبائك. قال: لا أدري ما تقولون، إلا

---

(١) سورة الفتح الآية: ٦.

(٢) الكافي ج:٨ ص:٢٩٩-٣٠٠. وقريب منه في صحيح البخاري ج:٥ ص:١١٧-١١٨ كتاب المغازي: وفد بني تميم. مسند أحمد بن حنبل ج:٢ ص:٤٨٣ مسند أبي هريرة. سنن أبي داود ج:١ ص:٦٠٥ كتاب الجهاد: باب الأسير ينال منه ويضرب ويقرن. السنن الكبرى للبيهقي ج:٦ ص:٣١٩ كتاب قسم الفيء والغنيمة: جماع أبواب تفريق القسم: باب ما جاء في من الإمام على من رأى من الرجال البالغين من أهل الحرب. وغيرها من المصادر الكثيرة.

أني أقسمت برب هذه البنية لا يصل إليكم من اليمامة شيء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً عن آخركم. وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة.

فلما حبس ذلك عنهم، وأضرّ بهم كتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها. وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا، وأضرّ بنا. فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل. فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وآله أن خلّ بين قومي وبين ميرتهم[1].

وهو كما يكشف عن نبل النبي صلى الله عليه وآله في تعامله معهم. ولا سيما أنهم قد جمعوا قريباً جيش الأحزاب للقضاء عليه صلى الله عليه وآله وعلى المسلمين، كذلك يكشف عن خبثهم ونكرانهم الجميل في تعاملهم معه، حيث لم يشكروا له ذلك، بل صدوه عن العمرة، مع أن الله عزوجل جعل البيت الحرام لعموم الناس سواء العاكف فيه والباد.

خفة ضغينة قريش على النبي صلى الله عليه وآله

وعلى كل حال فقد كان تسامح النبي صلى الله عليه وآله في صلح الحديبية وإحسانه سبباً في خفّة ضغينة قريش، ورجعوا لأنفسهم بعد أن خفّت عقدة العداء السابق، وبدأوا يفكرون في الدخول في الإسلام، إيماناً به، أو اهتماماً بأن يكسبوا منه بعد أن ظهرت قوته وعلّوه يوماً بعد يوم، كما تقدم من عمرو بن العاص، وحصل من غيره.

وفي صحيح معاوية بن عمار المتقدم: «وما كانت قضية أعظم بركة

---

(١) الاستيعاب ج:١ ص:٢١٣-٢١٥ في ترجمة ثمامة بن أثال. تفسير الآلوسي ج:١٨ ص:٥٥. السيرة الحلبية ج:٣ ص:١٧٣. وقريب منه في أسد الغابة ج:١ ص:٤٤٧ في ترجمة ثمامة بن أثال. والطبقات الكبرى ج:٥ ص:٥٥ في ترجمة ثمامة بن أثال. نصب الراية ج:٤ ص:٢٤٤.

منها. لقد كاد أن يستولي على أهل مكة الإسلام»[١].

وفي طريقه ﷺ راجعاً من الحديبية إلى المدينة نزلت سورة الفتح ـ على ما رواه غير واحد[٢] ـ فقرأها على المسلمين. وبيّن لهم مكاسب صلح الحديبية.

وقد كان من نتائج هذا الصلح أيضاً فرض هيبتة النبي ﷺ في المنطقة، لما لقريش من الهيبة والأهمية فيها، وكانوا ينتظرون حاله معها وموقفها منه، فتنازلُها له وصلحُها معه بمعاهدة ملزمة كشف عن قوة غير متوقعة. ومن هنا بادر ﷺ بأمرين:

حرب خيبر

الأول: أنه ﷺ توجه لخيبر من أجل إنهاء مشكلة اليهود في المنطقة، وكانوا يثيرون المشاكل له. وقد سبق أن التحق بهم كثير ممن كان في المدينة من يهود بني قينقاع وبني النضير الذين منهم حيي بن أخطب وكان له ولغيره منهم دور مؤثر في حرب الأحزاب.

وفتح ﷺ حصونهم واحداً بعد واحد في حرب طويلة الأمد حتى أنهاهم، وغنم ما فيها من مال وسلاح، وهما كثيران جداً في مقاييس تلك الأيام. والحديث فيها طويل لا يسعنا الدخول فيه. ومن أراده فليرجع إلى المصادر المعروفة.

---

(١) الكافي ج:٨ ص:٣٢٦-٣٢٧ حديث:٥٠٣.

(٢) صحيح مسلم ج:٥ ص:١٧٦. كتاب الجهاد والسير: باب صلح الحديبية بالحديبية. السنن الكبرى للبيهقي ج:٩ ص:٢٢٢ كتاب السير ومبتدأ الخلق: باب نزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ.

وقد يظهر فيها وهن بعض أصحابه في القتال. وكان فتح آخر حصن من حصونها وأهمها قد تمّ على يد أمير المؤمنين عليه السلام بصورة لافتة للنظر، حيث قتل أعظم أبطالهم مرحب، وقلع باب الحصن ورمى به، كما هو مشهور. وإن حاول البعض تجاهله.

ثم فتح صلى الله عليه وآله وادي القرى، وهو إلى الشام أقرب. وصالحه أهل فدك بغير قتال. وبذلك بسط صلى الله عليه وآله نفوذه في منطقة واسعة باتجاه الشام.

كتب النبي صلى الله عليه وآله للملوك

الثاني: أنه صلى الله عليه وآله كتب إلى الملوك المحيطين بالحجاز، بل حتى بعض البعيدين عنه ـ كالمقوقس في مصر ـ يدعوهم إلى الإسلام، وخصوصاً إلى كسرى وقيصر ملكي الإمبراطوريتين الكبيرتين اللتين لهما المكانة والهيبة العظمى في نفوس العرب. وهما محيطتان بالجزيرة العربية تقريباً، ولهما نفوذ مباشر رسمي في كثير من مناطقها. وكان لذلك وقعه في نفوسهم مما زاد في هيبتهم له وسهّل عليه وعلى المسلمين من بعده الاستيلاء على بلادهم.

وقد أسلم بعضهم، كالنجاشي[1]، والمنذر بن ساوى والي البحرين من قبل الفرس ومن معه من العرب، ودفع غيرهم ممن في البحرين الجزية[2].

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١١٩ الهجرة إلى الحبشة. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٢٢. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢١٣ ذكر مكاتبة النبي الملوك. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:٢ ص:٣٢٩-٣٣٠. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٢ ص:٣٠٩ باب ما جاء في كتاب النبي صلى الله عليه وآله إلى النجاشي. الثقات لابن حبان ج:٢ ص:٩. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢٩٤. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢١٥ ذكر مكاتبة النبي الملوك. نصب الراية ج:٦ ص:٥٦٢. تفسير مقاتل بن سليمان ج:١ ص:١٣٧. تفسير الثعلبي ج:٢ ص:٢٣٥، ج:٤ ص:١١٧-١١٨.

كما أسلم باذان والي اليمن بعد أن تبيّن له صدق النبي صلى الله عليه وآله فيما أخبر به مبعوثي باذان من قتل إبرويز كسرى الفرس ـ الذي مزّق كتاب النبي صلى الله عليه وآله، حيث قتله ابنه شيرويه ـ وأسلم من كان معه من الفرس في اليمن، وهم الذين عرفوا بالأبناء[١].

أما المقوقس والي مصر من قبل الروم فقد احترم كتاب النبي صلى الله عليه وآله، وبعث إليه بهدايا وجوارٍ منها مارية أم ابنه ابراهيم[٢].

وكذلك احترم أيضاً كتاب النبي صلى الله عليه وآله هرقل ملك الروم، لكنه لم يسلم ولم يدفع الجزية، لرفض بطارقة الروم ذلك. وقد اضطره موقفهم لمواجهة الإسلام بعد ذلك[٣].

حديث هرقل مع أبي سفيان

لكنه قبل ذلك أحضر أبا سفيان، وكان يتّجر في الشام بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، وسأله عن النبي صلى الله عليه وآله قال أبو سفيان: «فصغّرت

الطبقات الكبرى ج:١ ص:٢٦٣. صبح الأعشى ج:٦ ص:٣٥٣-٣٥٤. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:٢ ص:٣٣٣. السيرة الحلبية ج:٣ ص:٣٠٠. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(١) الطبقات الكبرى ج:١ ص:٢٥٩-٢٦٠ ذكر بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام وما كتب به رسول الله صلى الله عليه وآله لناس من العرب وغيرهم. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢١٥ ذكر مكاتبة النبي الملوك. تاريخ دمشق ج:٢٧ ص:٣٥٧ في ترجمة عبد الله بن حذافة. وغيرها من المصادر.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢١٠-٢١١ ذكر مكاتبة النبي الملوك. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢٨٩. الاستيعاب ج:١ ص:٣١٤ في ترجمة حاطب بن أبي بلتعة اللخمي. تخريج الأحاديث والآثار ج:٢ ص:٤٣٤. الثقات لابن حبان ج:٢ ص:١٠. أسد الغابة ج:١ ص:٢٦٦. المحبر ص:٩٨. وغيرها من المصادر.

(٣) الكامل في التاريخ ج٢ ص٢١١ في ذكر مكاتبة النبي الملوك. الثقات لابن حبان ج:٢ ص:٨.

له شأنه، فلم يلتفت إلى قولي، وقال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو أوسطنا نسباً. قال: هل كان من أهل بيته من يقول مثل قوله؟ قلت: لا. قال: فهل له فيكم ملك سلبتموه إياه؟. قلت: لا. قال: فمن اتبعه منكم؟ قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث مع الغلمان والنساء. قال: فهل يحبّه من يتبعه ويلزمه أو يقليه ويفارقه؟ قلت: ما تبعه رجل ففارقه. قال: فكيف الحرب بينكم وبينه؟ قلت: [سجال] يدال علينا وندال عليه. قال: هل يغدر؟ قال: فلم أجد شيئاً أغمز به غيرها. قلت: لا. ونحن منه في هدنة، لا نأمن غدره. قال: فما التفت إليها.

قال أبو سفيان: فقال لي هرقل: سألتك عن نسبه فزعمت أنه من أوسط الناس. وكذلك الأنبياء. وسألتك هل قال أحد من أهل بيته مثل قوله، فهو متشبه به، فزعمت أن لا. وسألتك هل سلبتموه ملكه، فجاء بهذا لتردوا عليه ملكه، فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين. وكذلك أتباع الرسل. وسألتك عمن يتبعه أيحبه أم يفارقه، فزعمت أنهم يحبونه ولا يفارقونه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه. وسألتك هل يغدر، فزعمت أن لا. ولئن صدقتني ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين. ولوددت أني عنده فأغسل قدميه. انطلق لشأنك.

قال: فخرجت وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى، وأقول: أيْ عباد الله! لقد أَمِرَ أمر ابن أبي كبشة. أصبح ملوك الروم يهابونه في سلطانهم»[1].

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢١٢ ذكر مكاتبة النبي الملوك، واللفظ له. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج:٣ ص:٢٧٥. تاريخ دمشق ج:٢٣ ص:٤٣٠ في ترجمة صخر بن حرب بن أمية. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢٩١. التذكرة الحمدونية ج:٩ ص:١٦٥-١٦٦ أبو سفيان بعد الحديبية. دلائل النبوة ج:٤ ص:٣٨٣. وغيرها من المصادر.

وفي السنة الثانية من صلح الحديبية اعتمر رسول الله ﷺ عمرة القضاء، تنفيذاً لأحد بنود صلح الحديبية، كما تقدم، وأكّد ذلك هيبته في نفوس قريش.

قدوم وفود العرب ومنهم وفد نجران على النبي ﷺ

وقد قدمت على النبي ﷺ وفود العرب، إما ابتداءً، لشعورهم بعلوّ دعوته، أو بعد أن كتب إليهم يدعوهم للإسلام. وهي كثيرة لا يسعنا استقصاؤها. ونقتصر على وفد نجران، لأنه وفد رجال دين، يحملون ثقافة دينية سائدة تدعمها امبراطورية ذات شأن. وهم يخاصمون في الدين.

فقد كتب النبي إلى نصارى نجران ـ وهي من المراكز الدينية المسيحية ـ : «بسم الله. فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. أما بعد ذلكم فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد. فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام»[1].

فقدم عليه وفدهم بضعة عشر رجلاً من أشرافهم وثلاثة نفر يتولون أمورهم: العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم لا يصدرون إلا عن رأيه وأمره، واسمه عبد المسيح. والسيد، وهو ثمالهم وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم. وأبو حارثة بن علقمة الأسقف، وهو حبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وله فيهم شرف ومنزلة. وكانت ملوك الروم قد بنت

(١) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٨١ في كتاب النبي ﷺ، واللفظ له. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٥ ص:٣٨٥ باب وفد نجران وشهادة الأساقفة لنبينا ﷺ. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص:٥٤.

له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم من علمه واجتهاده في دينهم. فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وقت العصر، ولباسهم الديباج وثياب الحبرة على هيئة لم يقدم بها أحد من العرب، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله، فسلموا عليه، فلم يرد عليهم السلام، ولم يكلمهم.

فانطلقوا يتتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانا معرفة لهم، فوجدوهما في مجلس من المهاجرين. فقالوا: إن نبيكم كتب لنا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه، فلم يرد سلامنا ولم يكلمنا، فما الرأي؟

فقالا لأمير المؤمنين علي عليه السلام: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ قال: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ثم يعودوا إليه. ففعلوا ذلك، فسلموا، فرد عليهم سلامهم. ثم قال: والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم[1].

وجادلوه في أمر المسيح. فلما سألوه عنه قال: هو عبد الله ورسوله. فقالوا: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟ فنزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[2]. فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المباهلة،

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٥٤-٢٥٥ فصل في قدوم وفد نجران. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٥ ص:٣٨٦-٣٨٧ باب وفد نجران وشهادة الأساقفة لنبينا صلى الله عليه وآله. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص:٥٥.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٥٩-٦١.

فاستنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك[١].

فلما رجعوا إلى رحالهم قال لهم الأسقف: «انظروا فإن كان محمد غدا بولده وأهل بيته فاحذروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه وأتباعه فباهلوه».

الخروج للمباهلة

قال أبان: حدثني الحسن بن دينار عن الحسن البصري، قال: «غدا رسول الله صلى الله عليه وآله آخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة عليها السلام، وبين يديه علي عليه السلام. وغدا العاقب والسيد بابنين على أحدهما درتان كأنهما بيضتا حمام. فحفوا بأبي حارثة. فقال أبو حارثة: من هؤلاء معه؟ قالوا: هذا ابن عمه، زوج ابنته، وهذان ابنا ابنته، وهذه بنته أعزّ الناس عليه وأقربهم إلى قلبه.

وتقدم رسول الله صلى الله عليه وآله فجثا على ركبتيه. فقال أبو الحارثة: جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة. فكعّ ولم يقدم على المباهلة. فقال له السيد: ادن يا أبا حارثة للمباهلة. فقال: لا. إني لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة. وأنا أخاف أن يكون صادقاً، فلا يحول والله علينا الحول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء»[٢].

وذكروا أنهم لما رأوهم قالوا: «هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها»[٣]. وزاد بعضهم فيه: «فلا تبتهلوا فتهلكوا، ولا يبقى

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج:٢ ص:٣٠٩.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٥٥-٢٥٦ فصل في قدوم وفد نجران. تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٨٢-٨٣ كتاب النبي. مجمع البيان في تفسير القرآن ج:٢ ص:٣٠٩.

(٣) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٩٣ ذكر وفد نجران مع السيد والعاقب، واللفظ له. مجمع البيان في تفسير القرآن ج:٢ ص:٣١٠. التفسير الكبير للطبراني ج:٢ ص:٦٤. السيرة الحلبية ج:٣

على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة»[١].

قبول الوفد بالجزية

وأخيراً قالوا: يا أبا القاسم: إنا لا نباهلك، ولكن نصالحك. فصالحهم النبي صلى الله عليه وآله على ألفي حلة من حلل الأواقي قيمة كل حلة أربعون درهماً جياداً. وكتب لهم بذلك كتاباً، وقال لأبي حارثة الأسقف: «لكأني بك قد ذهبت إلى رحلك وأنت وسنان، فجعلت مقدمه مؤخره» فلما رجع قام يرحل راحلته، فجعل رحله مقلوباً، فقال: «أشهد أن محمداً رسول الله»[٢].

وكان ذلك انتصاراً للنبي صلى الله عليه وآله والإسلام دينياً وعقائدياً يضاف لانتصاراتهما المادية والعسكرية التي حصلت في هذه الفترة القصيرة.

تنبيه هام حول المباهلة

وفي تتمة الحديث عن هذه الحادثة يحسن التنبيه لأمر. وهو أن اللافت للنظر اقتصار النبي صلى الله عليه وآله فيمن باهل بهم على هؤلاء النفر بما فيهم ابنته

ص:٢٣٦. تفسير الكشاف للزمخشري ج:١ ص:٤٣٤. تفسير الثعلبي ج:٣ ص:٨٥. وغيرها من المصادر.

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج:٢ ص:٣١٠، واللفظ له. التفسير الكبير للطبراني ج:٢ ص:٦٤. السيرة الحلبية ج:٣ ص:٢٣٦. تفسير الكشاف للزمخشري ج:١ ص:٤٣٤. تفسير الثعلبي ج:٣ ص:٨٥. وغيرها من المصادر.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٥٦-٢٥٧ فصل في قدوم وفد نجران، واللفظ له. ونحوه ما عدا المقطع الأخير في إمتاع الأسماع ج:٢ ص:٩٥ المباهلة، والإرشاد ج:١ ص:١٦٨-١٦٩ قدوم وفد النصارى على رسول الله صلى الله عليه وآله، والكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٩٣ ذكر وفد نجران مع العاقب والسيد، وتاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٨٣ كتاب النبي، وغيرها من المصادر.

المخدرة سيدة النساء عليها السلام وإخراجها إلى مكان المباهلة المعرض لاستشراف الرجال الأجانب ـ مع أنه لم يكن في وفد نجران نساء ـ والإمامان الحسنان، وهما صبيان دون العاشرة.

حيث لا مجال لتفسير ذلك بأنهم أهل بيته وخاصته، ليظهر أنهم أعز الناس عليه، فمباهلته بهم دليل على ثقته بصدقه، وإلا لم يفرط بهم، كما قيل. إذ يكفي في ذلك اقتصاره على نفسه الشريفة التي هي أعز الأنفس عليه. بل الاقتصار على هؤلاء النفر، وترك عمه العباس الذي كان يحترمه، وهو أكبر سناً منه صلى الله عليه وآله ومشارك لهم عليهم السلام في القرب النسبي، وإظهاره صلى الله عليه وآله أنهم أحب إليه منه أمر محرج له صلى الله عليه وآله جداً، ومثير للنقد والاستنكار اجتماعياً وعائلياً.

كما لا مجال لتفسير ذلك بتميزهم عليهم السلام بقوة بصيرتهم وإيمانهم بصدق الدعوة، بحيث يتعرضون من أجل إثباتها لخطر المباهلة. فإن ذلك مما يقطع بحصوله لكثير من خاصة الصحابة، كسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري والمقداد بن الأسود الكندي ـ الذي ورد عنه صلى الله عليه وآله أنهم من الذين تشتاق لهم الجنة[1] ـ وغيرهم.

تميز أهل البيت عليهم السلام بالمباهلة

ومن القريب أن يكون الاقتصار على هؤلاء النفر لأن تبعيتهم للنبي صلى الله عليه وآله ليست كتبعية غيرهم من المؤمنين مهما بلغ شأنهم، بل هي تبعية

(١) الخصال ص:٣٠٣. الاختصاص ص:١٢. تاريخ دمشق ج:٦٠ ص:١٧٦، ١٧٧ في ترجمة المقداد بن عمرو. أسد الغابة ج:٢ ص:٣٣١ في ترجمة سلمان الفارسي. المعجم الكبير للطبراني ج:٦ ص:٢١٥ في ترجمة سلمان الفارسي. مجمع الزوائد ج:٩ ص:٣٠٧ باب فضل المقداد بن الأسود. مسند أبي يعلى ج:٥ ص:١٦٦. كنز العمال ج:١٣ ص:٢٥٦ جامع الصحابة. حلية الأولياء ج:١ ص:١٤٢ في ترجمة عمار بن ياسر. وغيرها من المصادر.

تبتني على مشاركتهم له صلى الله عليه وآله في حمل الدعوة والرسالة الخاتمة، وتحمّل مسؤوليتها والحفاظ عليها وإبقاء صوتها مسموعاً ما بقيت الدنيا.

فهي نظير تبعية هارون لموسى عليهما السلام، حيث قال الله عز وجل حاكياً عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾[١].

ويناسبه قول النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»[٢]. وقوله صلى الله عليه وآله عنه عليه السلام: «إنه مني وأنا منه»[٣]. وقوله صلى الله عليه وآله: «فاطمة بضعة مني»[٤]، وقوله صلى الله عليه وآله: «حسن مني وأنا منه...»[٥]، وقوله صلى الله عليه وآله: «حسين مني وأنا من حسين»[٦]. وقوله صلى الله عليه وآله عنهم

---

(١) سورة طه الآية:٢٩-٣٢.

(٢) صحيح البخاري ج:٥ ص:١٢٩ كتاب المغازي: باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، واللفظ له، ج:٤ ص:٢٠٨ كتاب فضائل الصحابة: باب مناقب علي بن أبي طالب. صحيح مسلم ج:٧ ص:١٢٠، ١٢١، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم: باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه. صحيح ابن حبان ج:١٥ ص:١٥-١٦ باب إخباره صلى الله عليه وآله عما يكون في أمته من الفتن والحوادث: ذكر نفي المصطفى صلى الله عليه وآله كون النبوة بعده إلى قيام الساعة. وغيرها من المصادر كما في رحاب العقيدة ج:٢ ص:٢٠٧.

(٣) المعجم الكبير للطبراني ج:١ ص:٣١٨ في ما حدث به عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه، واللفظ له. تاريخ الطبري ج:٢ ص:١٩٧ في ذكر غزوة أحد. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٥٤ في ذكر غزوة أحد. الكافي ج:٨ ص:١١٠ الحديث:٩٠. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٤) صحيح البخاري ج:٤ ص:٢١٠ كتاب بدء الخلق: باب مناقب المهاجرين وفضلهم. صحيح مسلم ج:٧ ص:١٤١ كتاب الفضائل: باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها السلام. مسند أحمد بن حنبل ج:٤ ص:٥ حديث عبد الله بن الزبير بن العوام. وغيرها من المصادر الكثيرة جداً.

(٥) بشارة المصطفى ص:٢٤٨.

(٦) صحيح ابن حبان ج:١٥ ص:٤٢٨ كتاب إخباره صلى الله عليه وآله عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم

جميعاً: «هم مني وأنا منهم»[١].

وقول الصديقة سيدة النساء في خطبتها الكبرى: «وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص»[٢].

وقول أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه إلى معاوية: «فإنا صنائع ربنا والناس بعد صنائع لنا»[٣].

فإنما أشركهم النبي صلى الله عليه وآله معه في المباهلة وطلب منهم خاصة التأمين على دعائه فيها، لتكون المباهلة من جميع حملة الدعوة المتبنين لها والمسؤولين عنها في التبليغ بها وحمايتها وخلودها.

نظير قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٤]. فإن القول قد نسب في الآية الأولى لموسى عليه السلام، ونسب الدعاء في الآية الثانية له ولأخيه

بذكر أسمائهم أجمعين: ذكر الحسن والحسين سبطي رسول الله صلى الله عليه وآله. سنن الترمذي ج:٥ ص:٣٢٤ باب مناقب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب والحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام. سنن ابن ماجة ج:١ ص:٥١ باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: فضل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب عليهم السلام. مسند أحمد بن حنبل ج:٤ ص:١٧٢ حديث يعلى العامري. المصنف لابن أبي شيبة ج:٧ ص:٥١٥ كتاب الفضائل: ما جاء في الحسن والحسين عليهما السلام. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(١) الأمالي للشيخ الطوسي ص:٤٥٢، واللفظ له. معاني الأخبار ص:٥٦. وغيرهما.

(٢) الاحتجاج ج:١ ص:١٣٥. راجع فاجعة الطف الملحق الأول ص:٥٩٨.

(٣) نهج البلاغة ج:٣ ص:٣٢.

(٤) سورة يونس الآية:٨٨-٨٩.

هارون عليهما السلام معاً، وما ذلك إلا لأن هارون كان معه يؤمن على دعائه في هذه الدعوة الهامة.

وفي حديث الفيض بن المختار الطويل عن أبي عبد الله عليه السلام المتضمن النص بالإمامة على ابنه أبي إبراهيم موسى عليه السلام. قال أبو عبد الله عليه السلام له: «يا فيض إن أبي كان إذا أراد أن لا ترد له دعوة أقعدني على يمينه، فدعا وأمنت. فلا ترد له دعوة. وكذلك أصنع بابني هذا...»[1]. وقريب منه غيره.

ولعل هذا هو المنشأ لكون موالاتهم عليهم السلام شرطاً في الإيمان، والصلاة عليهم معه متممة للصلاة عليه، مع النهي عن الصلاة البتراء[2].

ويظهر أن تميز هؤلاء النفر (صلوات الله عليهم) كان مفروغاً عنه عند المسلمين حين المباهلة. ولذا لم يظهر من أحد منهم العتب على النبي صلى الله عليه وآله لتمييزهم وتخصيصهم بالمباهلة، خصوصاً بعد أن انتصر النبي صلى الله عليه وآله في الحادثة، وأحجم وفد نجران عن المباهلة.

بينما كان يظهر منهم فيما سبق الإحراج له صلى الله عليه وآله فيما هو دون ذلك. فحينما حاصر رسول الله صلى الله عليه وآله الطائف بعث علياً عليه السلام في خيل وأمره أن يكسر كل صنم وجده، ففعل. فلما رجع وهو صلى الله عليه وآله بعد محاصر لأهل الطائف ينتظره. فلما رآه كبّر وأخذه بيده وخلا به. فروى جابر بن عبد الله، قال: «لما خلا رسول الله صلى الله عليه وآله بعلي بن أبي طالب عليه السلام يوم الطائف أتاه عمر

---

(١) اختيار معرفة الرجال ص:٣٠٣ في ترجمة الفيض بن المختار، واللفظ له. الإمامة والتبصرة لعلي بن بابويه ص:٦٧ باب في إمامة موسى بن جعفر عليهما السلام حديث:٥٦. إثبات الوصية للمسعودي ص:١٨٨ في أحوال الكاظم عليه السلام منذ مولده.

(٢) الصواعق المحرقة ص:١٤٦. جواهر العقديـــن في فضل الشرفين ج:٢ ص:٤٩. ينابيع المودة ج:١ ص:٣٧.

بن الخطاب فقال: أتناجيه دوننا، وتخلوا به دوننا؟! فقال: يا عمر ما أنا انتجيته، بل الله انتجاه...»[١]. ولعل ذلك لما وعده الله تعالى أن يعصمه من الناس قبل حادثة غدير خم.

غزوة مؤتة واحتكاك النبي صلى الله عليه وآله بالروم[٢]

وتلا ذلك غزوة مؤتة، حيث ظهر استعداد النبي صلى الله عليه وآله لمواجهة الروم. وبذلك هيّأ المسلمين لمواجهتم. وإن لم تنجح، حيث تراجع جيش المسلمين بعد قتل القادة الثلاثة جعفر، ثم زيد، ثم عبد الله بن رواحة.

وعن ابن كعب بن مالك قال: «حدثني نفر من قومي حضروا يومئذ، قالوا: لما أخذ خالد اللواء انكشف الناس فكانت الهزيمة، وقتل المسلمون، وأتبعهم المشركون، فجعل قطبة بن عامر يصيح: يا قوم يقتل الرجل مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً، يصيح بأصحابه فما يثوب إليه أحد. هي الهزيمة

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٣٥ في غزوة الطائف. الإرشاد ج:١ ص:١٥٣.

وفي سنن الترمذي ج:٥ ص:٣٠٣ عن جابر قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علياً يوم الطائف فانتجاه. فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عمه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما انتجيته ولكن الله انتجاه». وقريب منه في كتاب السنة لابن أبي عاصم ص:٥٨٤.

(٢) لم يتضح لنا بعد النظر في كثافة الجيش الذي واجه جيش المسلمين شيء يركن إليه في سبب هذه الغزوة غير ما ذكرناه من إظهار النبي صلى الله عليه وآله عزمه على الاحتكاك بالروم وتهيئة المسلمين لذلك، إما للتنبيه لقوة الإسلام وتصميمه على التوسع، أو لرد فعل على اعتداء حصل من الروم أو أتباعهم.

ولإظهار هذا التصميم أهميته في تهيب الروم للمسلمين، خصوصاً بعد ما سبق من تنبؤ هرقل نفسه غلبة الإسلام على ما تحت قدميه. حيث يكون هذا الإصرار أمارة على البدء بما تنبأ به، وذلك يضعف معنوياته حتى لو لم ينتصر الإسلام في هذه المعركة.

ولا يسعنا في هذه العجالة تفصيل الكلام فيما قيل في ذلك وتقييمه رفضاً أو قبولاً.

ويتبعون صاحب الراية منهزماً»[١].

واستقبل المسلمون الجيش يحثون عليه التراب، ويقولون: «يا فرار فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله»[٢].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن العاص: «ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يخرج. كلما خرج صاح به الناس: يا فرار، فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته فما يخرج»[٣].

هذا وقد أكّد النبي صلى الله عليه وآله عزمه على مواجهة الروم بغزوة تبوك ـ كما يأتي ـ ثم بمحاولة إرسال جيش أسامة قبيل وفاته.

فتح مكة

وبعد غزوة مؤتة بقليل تمّ للنبي صلى الله عليه وآله فتح مكة ـ بعد أن نقضوا بعض بنود معاهدة صلح الحديبية ـ بوجه أذهل قريشاً، وانهارت أمامه.

وذلك أن حقد قريش وأحلافها على النبي صلى الله عليه وآله أعماها وأغفلها عن

---

(١) المغازي للواقدي ج:٢ ص:٧٦٣ غزوة مؤتة. تاريخ دمشق ج:٤٩ ص:٣٣٧ في ترجمة قطبة بن عامر. الإصابة في تمييز الصحابة ج:٥ ص:٣٤٠ في ترجمة قطبة بن قتادة العذاري.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج:٣ ص:٨٣٦ غزوة مؤتة. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٢٣ ذكر الخبر عن غزوة مؤتة. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٤ ص:٣٧٤ باب ما جاء في غزوة مؤتة. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٣٨ ذكر غزوة مؤتة. وغيرها من المصادر.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج:٣ ص:٨٣٦ غزوة مؤتة. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٤ ص:٣٧٧ باب ما جاء في غزوة مؤتة. أسد الغابة في معرفة الصحابة ج:٥ ص:٦٣٥ في ترجمة زوجة سلمة. وغيرها من المصادر.

قوته التي اضطرتهم لمعاهدته قريباً في صلح الحديبية، والتي جعلت له الحق في الوقيعة بهم إن غدروا.

وقد وقع بين بني بكر الذين دخلوا مع قريش في صلح الحديبية، وخزاعة التي دخلت مع النبي ﷺ في الصلح المذكور، شرّ بلغ حدّ القتال.

وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بسلاح ودواب، وقاتل منهم جماعة مختفين، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو[1].

فلما غدرت قريش ونقضت العهد خرج عمرو بن سالم الخزاعي ثم الكعبي حتى قدم على رسول الله ﷺ فذكر ذلك في مقطوعة شعر، قال فيها:

لا همّ إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

مشيراً بذلك إلى ما تقدم من حلف خزاعة مع عبد المطلب. ثم اندفع إنشاده إلى أن قال:

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذلّ وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هجّدا
فقّتلونا ركعاً وسجدا

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٣٩ في ذكر فتح مكة. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٢٤ ذكر الخبر عن فتح مكة. السيرة الحلبية ج:٣ ص:٤. تفسير الثعلبي ج:١٠ ص:٣١٩. تفسير الخازن ج:٤ ص:٤٨٧. وغيرها من المصادر.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قد نُصِرتَ يا عمرو بن سالم. ثم عرض لرسول الله صلى الله عليه وآله عنان من السماء. فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب[١].

محاولة أبي سفيان تجديد العهد والزيادة في المدة

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليجدد العهد خوفاً ويزيد في المدة»[٢].

وفي حديث عيسى بن عبد الله القمي عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: لما انتهى الخبر إلى أبي سفيان ـ وهو بالشام ـ بما صنعت قريش بخزاعة أقبل حتى دخل على رسول الله. صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد احقن دم قومك، وأجر بين قريش، وزدنا في المدة. قال: أغدرتم يا أبا سفيان؟ قال: لا. قال: فنحن على ما كنا عليه. فخرج فلقي أبا بكر، فقال: يا أبا بكر أجر بين قريش. قال: ويحك، وأحد يجير على رسول الله صلى الله عليه وآله؟! ثم لقي عمر. فقال له مثل ذلك. ثم خرج فدخل على أم حبيبة، فذهب ليجلس على الفراش، فأهوت إلى الفراش فطوته. فقال: يا بنية أرغبة بهذا الفراش عني؟ قالت: نعم. هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وآله، ما كنت لتجلس عليه وأنت رجس مشرك.

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٤٠ في ذكر فتح مكة، واللفظ له. السيرة النبوية لابن هشام ج:٤ ص:٨٥٤-٨٥٥ ذكر الأسباب الموجبة المسير إلى مكة وذكر فتح مكة. أسد الغابة ج:٤ ص:١٠٤-١٠٥ في ترجمة عمرو بن سالم بن كلثوم. إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج:١ ص:٤٨٦-٤٨٧. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٤١ في ذكر فتح مكة، واللفظ له. إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج:١ ص:٤٨٧. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٢٥ ذكر الخبر عن فتح مكة. الثقات لابن حبان ج:٢ ص:٣٧. السيرة الحلبية ج:٣ ص:٦. السيرة النبوية لابن هشام ج:٤ ص:٨٥٥ ذكر الأسباب الموجبة المسير إلى مكة وذكر فتح مكة. وغيرها من المصادر.

ثم خرج فدخل على فاطمة. فقال: يا بنت سيد العرب تجيرين بين قريش، وتزيدين في المدة، فتكونين أكرم سيدة في الناس؟ قالت: جواري في جوار رسول الله. قال: فتأمرين ابنيك أن يجيرا بين الناس؟ قالت: والله ما يدري ابناي ما يجيران من قريش.

فخرج فلقي علياً عليه السلام، فقال: أنت أمسّ القوم بي رحماً، وقد اعتسرت عليّ الأمور، فاجعل لي منها وجهاً. قال: أنت شيخ قريش تقوم على باب المسجد، فتجير بين قريش، ثم تقعد على راحلتك وتلحق بقومك. قال: وهل ترى ذلك نافعي؟ قال: لا أدري. فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت بين قريش. ثم ركب بعيره وانطلق.

فقدم على قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما ردّ عليّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد عنده خيراً، ثم جئت ابن الخطاب فكان كذلك. ثم دخلت على فاطمة فلم تجبني، ثم لقيت علياً فأمرني أن أجير بين الناس، ففعلت. قالوا: هل أجاز محمد؟ قال: لا أدري. قالوا: ويحك لعب بك الرجل. أوَ أنت تجير بين قريش؟!»[1].

كتاب حاطب لقريش يخبرهم بعزم النبي صلى الله عليه وآله على المسير إليهم

ثم أزمع رسول الله صلى الله عليه وآله على المسير إلى مكة، وقال: «اللهم خذ العيون على قريش حتى نأتيها في بلادها»[2]. لكن حاطب بن أبي بلتعة كتب إلى قريش يخبرهم بوقت خروجه صلى الله عليه وآله مع سارة مولاة أبي لهب، فخرجت على

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢١٧-٢١٨ فصل في ضمن الكلام في غزوة الفتح.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢١٦ فصل عند الكلام في غزوة الفتح، واللفظ له. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:٢٠٦ فصل في غزواته عليه السلام.

غير الطريق لئلا يعثر عليها. وكان في ذلك إفساد تدبير النبي صلى الله عليه وآله وخطته في الحرب لولا أن نزل جبرئيل على النبي صلى الله عليه وآله فأخبره بأمرها، فبعث صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام ومعه الزبير ليأخذا الكتاب منها، وأدركاها. فأنكرت أشد الإنكار، وهددها أمير المؤمنين عليه السلام بالقتل فأخرجت الكتاب فأخذه منها وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فأرسل صلى الله عليه وآله على حاطب فأنبّه، ثم قال: «قد عفوت عن جرمك، فاستغفر ربك، ولا تعد لمثل هذه ما حييت»[1]. كما نزل صدر سورة الممتحنة تأنيباً له على ذلك.

وهذه إحدى السلبيات من الصحابة التي كان النبي صلى الله عليه وآله يعاني منها ويتجاوز عنها لصالح رسالته، كما يأتي توضيحه إن شاء الله تعالى في الفصل الثاني.

وأخيراً سار رسول الله صلى الله عليه وآله بجيش يبلغ عشرة آلاف، ففاجأ قريشاً في عقر دارهم. وكان قد نهى عن قتل من لا يقاتل إلا أفراداً معدودين، عفا عن بعضهم بعد ذلك، كما هو شأنه وخلقه.

وكان أبو سفيان قلقاً، وهو رئيس قريش في تلك الظروف، فخرج ليلاً يتطلع فرأى نيران الجيش، فأنكرها. وكان العباس قد جاء مهاجراً فلقي رسول الله صلى الله عليه وآله في الطريق. فقال العباس: «هو والله هلاك قريش إلى آخر الدهر إن دخلها رسول الله عنوة. قال: فركبت بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله البيضاء، وخرجت أطلب الحطابة أو صاحب لبن، لعلي آمره أن يأتي قريشاً، فيركبون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يستأمنون إليه. إذ لقيت أبا سفيان وبديل بن

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢١٦ فصل عند الكلام في غزوة الفتح، واللفظ له. الإرشاد ج:١ ص:٥٨-٥٩.

ورقاء وحكيم بن حزام، وأبو سفيان يقول لبديل: ما هذه النيران؟ قال: هذه خزاعة. قال: خزاعة أقل وأقل من أن تكون هذه نيرانهم، ولكن لعل هذه تميم أو ربيعة.

لقاء العباس أبا سفيان

قال العباس: فعرفت صوت أبي سفيان، فقلت: أبا حنظلة. قال: لبيك فمن أنت؟ قلت: أنا العباس. قال: فما هذه النيران فداك أبي وأمي؟ قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وآله في عشرة آلاف من المسلمين. قال: فما الحيلة؟ قال: تركب في عجز هذه البغلة، فأستأمن لك رسول الله صلى الله عليه وآله. فأردفته خلفي»[1].

قال العباس: «فجلست عند رأس رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: بأبي أنت وأمي، أبو سفيان وقد أجرته. قال: أدخله، فدخل فقام بين يديه. فقال صلى الله عليه وآله: ويحك يا أبا سفيان أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأوصلك وأرحمك. أما والله لو كان معه إله لأغنى عني يوم بدر ويوم أحد. وأما أنك رسول الله فوالله إن في نفسي منها لشيئاً. قال العباس: يضرب والله عنقك الساعة أو تشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله. قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله تلجلج بها فوه»[2]. فبات عند العباس، وأمره رسول الله صلى الله عليه وآله أن يأتي به في الغد.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢١٩-٢٢٠ فصل عند الكلام في غزوة الفتح، واللفظ له. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٣٠ ذكر الخبر عن فتح مكة. تاريخ دمشق ج:٢٣ ص:٤٤٨-٤٤٩ في ترجمة صخر بن حرب بن أمية. الأغاني ج:٦ ص:٥٢٧-٥٢٨ ذكر أبي سفيان وأخباره ونسبه.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٠-٢٢١ فصل عند الكلام في غزوة الفتح.

فنظر أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو يتوضأ وأيدي المسلمين تحت شعره، فلا تصيب قطرة يد رجل منهم إلا مسح بها وجهه. فقال: «يا لله إن رأيت كاليوم قط كسرى ولا قيصر». وغدا به العباس بعد الصلاة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله كما أمره. فقال: «يا رسول الله إني أحب أن تأذن لي إلى قومك فأنذرهم وأدعوهم إلى الله ورسوله، فأذن له. فقال للعباس: كيف أقول لهم؟ فبين لي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: تقول لهم: من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً رسول الله، وكفّ يده فهو آمن. ومن جلس عند الكعبة ووضع سلاحه فهو آمن. فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فلو خصصته بمعروف. فقال عليه السلام: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قال أبو سفيان: داري؟ قال: دارك. ثم قال: من أغلق بابه فهو آمن. ولما مضى أبو سفيان قال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل من شأنه الغدر، وقد رأى من المسلمين تفرقاً. قال صلى الله عليه وآله: فأدركه وأحبسه في مضايق الوادي حتى يمر به جنود الله»[1].

وفعلاً مرت به الجنود كتيبة بعد كتيبة وآخرها رسول الله صلى الله عليه وآله في الأنصار يحمل رايته صلى الله عليه وآله سعد بن عبادة، فقال: يا أبا حنظلة:

اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل [تسبى] الحرمة

يا معشر الأوس والخزرج ثاركم يوم الجبل [يعني: يوم أحد]. فترك أبو سفيان العباس، وسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ غرزه [وهو ركابه] وقبلها، ثم قال: بأبي أنت وأمي أما تسمع ما يقول سعد؟ وذكر له قوله.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٠-٢٢٢ فصل عند الكلام في غزوة الفتح، واللفظ له. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:٢٠٧ فصل في غزواته عليه السلام. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٤٦-٣٤٧. وغيرها من المصادر.

فقال صلى الله عليه وآله: «ليس مما قال سعد شيء». ثم قال لعلي عليه السلام: «أدرك سعداً فخذ الراية منه، وأدخلها إدخالاً رفيقاً». فأخذها عليه السلام وأدخلها كما أمر.

إرعاب أبي سفيان كسر معنويات قريش

وكان لإرعاب أبي سفيان أعظم الأثر في تحطيم معنويات قريش. فقد أسرع أبو سفيان إلى مكة، وقد سطع الغبار من فوق الجبال، وقريش لا تعلم، فاستقبلته قريش وقالوا: ما وراءك، وما هذا الغبار؟ فقال: محمد في خلق، ثم صاح: يا آل غالب، البيوت البيوت، من دخل داري فهو آمن. ولما أنكرت عليه زوجته هند قال: «ويلك إني رأيت ذات القرون، ورأيت فارس أبناء الكرام، ورأيت ملوك كندة وفتيان حمير يسلمن آخر النهار. ويلك اسكتي فقد والله جاء الحق ودنت البلية». وأسلمت هي أخيراً فيمن أسلم من النساء[1].

كيفية دخول النبي صلى الله عليه وآله مكة

ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكة، ولما وصل إلى ذي طوى وقف على راحلته، وهو معتجر ببرد خز أحمر وقد وضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن أسفل لحيته ليمس واسطة الرحل[2]. ولم يقاتله إلا نفر معدودون رجعوا مخذولين.

وكان في ذلك **أولاً**: حفظ حرمة البيت الشريف والحرم. **وثانياً**:

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٢-٢٢٣ فصل عند الكلام في غزوة الفتح، واللفظ له. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:٢٠٧-٢٠٨ فصل في غزواته عليه السلام. مجمع البيان في تفسير القرآن ج:١٠ ص:٤٧٢. وغيرها من المصادر.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٤٦-٢٤٧ ذكر فتح مكة. والاعتجار: لفّ العمامة على الرأس.

شعور قريش بإحسانه إليها لعفوه عنها.

فقد دخل صناديد قريش الكعبة، وهم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم[١]. فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله البيت، وقال: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج».

إحسان النبي صلى الله عليه وآله لقريش وعفوه عنهم

ثم قال صلى الله عليه وآله: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فعفا عنهم، وكان الله قد أمكنه منهم. وكانوا له فيئاً، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء»[٢].

وكان صلى الله عليه وآله قد قال: «ألا لبئس جيران النبي كنتم. لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وفللتم، ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني...»[٣]. فخرج القوم كأنما نشروا من القبور[٤]. واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر

---

(١) إعلام الورى ج:١ ص:٢٢٥ فصل في ضمن الكلام في غزوة الفتح.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٥٢ ذكر فتح مكة، واللفظ له. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٥ فصل عند الكلام في غزوة الفتح. الثقات ج:٢ ص:٥٥-٥٦. السيرة النبوية ج:٤ ص:٨٧٠ عفو رسول الله عن قريش. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٣٧ ذكر الخبر عن فتح مكة. وغيرها من المصادر.

(٣) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٦ فصل عند الكلام في غزوة الفتح، واللفظ له. تفسير جوامع الجامع ج:٣ ص:٨٦٦.

(٤) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٦ فصل عند الكلام في غزوة الفتح. إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج:١ ص:٥٠٥. الدر المنثور ج:٤ ص:٣٤. السنن الكبرى للبيهقي ج:٩ ص:١١٨ باب فتح مكة. تفسير المراغي ج:١٣ ص:٣٦. وغيرها من المصادر.

دخلوا من أسفل مكة وأخطأوا الطريق، فقتلوا[١].

ثم أمر بمسح الصور التي فيها وتكسير الأصنام على ما هو معروف مشهور. وقد تقدمت الإشارة إليه في أوائل الكتاب. وصدّق الله عز وجل وعد رسوله ﷺ لأبي سفيان في جواب كتابه المتقدم في حرب الأحزاب قبل أقل من ثلاث سنين.

وهكذا تم فتح مكة بخسائر قليلة تكاد لا تذكر. وكانت نتيجتها **أولاً**: قوة الإسلام، لموقع قريش في نفوس العرب. **وثانياً**: انتشار الإسلام في مكة. **وثالثاً**: شعور قريش بإحسانه إليها في عفوه عنها. **ورابعاً**: انتشار الإسلام في القبائل التي هي حول مكة. على ما ذكر مفصلاً في كتب التاريخ والسيرة النبوية.

غزوة هوازن وثقيف

ولما بلغه تجمع هوازن في حنين قصدهم. وكانت معركة حامية الوطيس، تم الانتصار فيها بعد انخذال المسلمين وفرارهم. ذكرها الله عز وجل في كتابه المجيد، وأشار لبعض تفاصيلها بقوله: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾[٢].

وذلك أنه لما تم فتح مكة بصورة مفاجئة ولم يكونوا قد استعدوا وأعدوا له خشيت هوازن بحنين أن يغزوهم رسول الله ﷺ حيث لا عهد

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٦-٢٢٧ فصل عند الكلام في غزوة الفتح.

(٢) سورة التوبة الآية: ٢٥-٢٦.

بينه وبينهم يمنعه من غزوهم بعد أن رأوا منه صلى الله عليه وآله الجِدّ والاجتهاد في تطهير المنطقة، بل الأرض كلها، من الشرك، وفي نشر الإسلام. فقالوا: نغزوه قبل أن يغزونا. واجتمع معهم بعض قبائل ثقيف فأقبلت معهم من الطائف. وكان رئيسهم مالك بن عوف النصري. وكان قد ساق معه المال والعيال والذرية، وكان قال لهم: يا معشر هوازن إنكم أحدّ العرب وأعدّها. وإن هذا الرجل لم يلق قوماً يصدقونه القتال. فإذا لقيتموه فاكسروا جفون سيوفكم، واحملوا عليه حملة رجل واحد[1].

خروج هوازن لمواجهة المسلمين

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وكان مع هوازن دريد بن الصمة خرجوا به شيخاً كبيراً يتيمنون برأيه. فلما نزلوا بأوطاس قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس. ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وذراريهم. قال: فأين مالك؟ فدعي مالك له فأتاه. فقال: يا مالك أصبحت رئيس قومك. وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام. ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وثغاء الشاة؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. قال: ويحك لم تصنع شيئاً. قدمت بيضة هوازن في نحور الخيل. وهل يرد وجه المنهزم شيء؟! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه. وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.

---

(١) إعـلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٨ فصل عند الـكلام في غزوة حنين. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:٢١٠ فصل في غزواته عليه السلام.

فقال: إنك قد كبرت وكبر عقلك. فقال دريد: إن كنت قد كبرت فتورث غداً قومك ذلاً بتقصير رأيك وعقلك. هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه...»[١].

وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله قاصداً حنين في اثني عشر ألف، عشرة آلاف كانوا معه في فتح مكة وألفين من أهل مكة فيهم من لم يسلم، طمعاً في الغنيمة، فقال بعض أصحابه: لن نغلب اليوم من قِلّة. فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله. وهو ما سبق في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾.

انهزام المسلمين وثبات النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري أنه قال: «فسرنا حتى إذا استقبلنا وادي حنين كان القوم قد كمنوا في شعاب الوادي ومضائقه. فما راعنا إلا كتائب الرجال بأيديها السيوف والعمد والقني، فشدوا علينا شدة رجل واحد. فانهزم الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد»[٢].

وانحاز النبي صلى الله عليه وآله وأحاط به نفر من بني هاشم ومعهم أيمن ابن أم أيمن. وهو الذي قُتل من بينهم. وقصد نفر من المشركين النبي صلى الله عليه وآله لقتله،

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٢٩-٢٣٠ فصل عند الكلام في غزوة حنين، واللفظ له. الأغاني ج:١٠ ص:٢٦١ أخبار دريد بن الصمة ونسبه. المغازي للواقدي ج:٢ ص:٨٨٦-٨٨٧ غزوة حنين. المناقب ج:١ ص:٢١٠ فصل في غزواته عليه السلام. تاريخ دمشق ج:١٧ ص:٢٣٨ في ترجمة دريد بن الصمة. وغيرها من المصادر.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٣٠ فصل عند الكلام في غزوة حنين، واللفظ له. السيرة النبوية لابن هشام ج:٤ ص:٨٩٣. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٦٢ ذكر غزوة هوازن بحنين. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٤٧ ذكر الخبر عن غزوة رسول الله صلى الله عليه وآله هوازن بحنين. مجمع الزوائد ج:٦ ص:١٧٩ باب غزوة حنين. وغيرها من المصادر.

فقتل أمير المؤمنين عليه السلام جمعاً وتدخل الغيب في منعه صلى الله عليه وآله منهم على تفاصيل كثيرة أسهب فيها المؤرخون، لا يسعنا التعرض لها.

تدخل الغيب وتراجع المسلمين وانهزام هوازن

وأخيراً تدخل الغيب في نصر المسلمين، كما سبق في الآيات الشريفة، وتراجع المسلمون بعد فرارهم واشتد القتال.

قال سلمة بن الأكوع: «ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب، ثم استقبل به وجوههم، وقال: شاهت الوجوه. فما خلى الله منهم إنساناً إلا ملأ عينه تراباً بتلك القبضة. فولوا مدبرين. واتبعهم المسلمون فقتلوهم، وغنمهم الله نساءهم وذراريهم وشاءهم وأموالهم»[1].

غنيمة النبي صلى الله عليه وآله أموال هوازن وذراريهم

وفي حديث محمد بن الحسن بن زياد عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: سبى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم حنين أربعة آلاف رأس [يعني: من النساء والذراري] واثني عشر ألف ناقة سوى ما لا يعلم من الغنائم»[2].

وافترق المشركون المنهزمون فرقتين، فأخذت الأعراب ومن تبعهم أوطاس، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم أبا عامر الأشعري في جمع من المسلمين

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٣٢ فصل عند الكلام في غزوة حنين، واللفظ له. إمتاع الأسماع ج:٥ ص:٦٨ رميه صلى الله عليه وآله وجوه المشركين كفاً من تراب فملأ أعينهم. دلائل النبوة للأصبهاني ج:٣ ص:١١٣٠. دلائل النبوة للبيهقي ج:٥ ص:١٤٠ جماع أبواب فتح مكة: باب رمي النبي صلى الله عليه وآله وجوه الكفار ... وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٣٣ فصل عند الكلام في غزوة حنين، واللفظ له. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:٢١١ فصل في غزواته عليه السلام.

وتم الفتح فيهم للمسلمين. وأخذت ثقيف ومن تبعهم ـ ومنهم مالك بن عوف رئيس هوازن ـ الطائف، وتحصنوا بحصنها.

حصار الطائف

وخلف رسول الله صلى الله عليه وآله الأنفال والأموال والسبايا بالجعرانة. وقصد الطائف فامتنعت بحصنها. فحاصرها، وأقام حولها. وبعث السرايا للقبائل التي هي قرب الطائف يدعوهم للإسلام، وأمرهم بكسر الأصنام. فمنهم من أجاب وأسلم، ومنهم من حورب حتى أسلم.

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله عن حصار الطائف ولم يحاربهم. لكنهم أسلموا وجاءه وفدهم مسلمين[1]. بعد أن أسلمت هوازن ـ كما يأتي ـ وانتشر الإسلام فيما حولها، وعمّ المنطقة بسبب السرايا الكثيرة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وآله كما سبق، وبدأ المسلمون الذين حولهم يغيرون عليهم. وسألوه أن يبقي صنمهم ولا يهدمه إلى مدة من الزمن فأبى. ثم سألوه أن يعفيهم من الصلاة، فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه. وأخيراً أسلموا.

إعطاء النبي صلى الله عليه وآله غنائم هوازن للمؤلفة قلوبهم

ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله عن حصار الطائف رجع إلى الجعرانة، وقسم القسم الأكبر من الغنائم في المؤلفة قلوبهم، من قريش وغيرهم من قبائل العرب، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، أو أعطاهم القليل. وقد أثار ذلك الأنصار وغيرهم. على ما يأتي التعرض له في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٣٦ فصل عند الكلام في غزوة الطائف.

إسلام هوازن وإرجاع السبايا لهم

وقدم عليه بالجعرانة وفد هوازن وقد أسلموا. فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله لنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك. فامنن علينا منّ الله عليك.

وقام خطيبهم زهير بن صرد، فقال: «يا رسول الله، إنا لو ملحنا الحارث بن أبي شمر أو النعمان بن المنذر، ثم ولي منا مثل الذي وليت لعاد علينا بفضله وعطفه، وأنت خير المكفولين. وإنما في الحظائر خالاتك وبنات خالاتك وحواضنك وبنات حواضنك اللاتي أرضعنك. ولسنا نسألك مالاً. إنما نسألكهن».

وكان صلى الله عليه وآله قد قسم منهن ما شاء الله. وبعد حديث طويل ردهن لهم[١].

وكلم في مالك بن عوف رئيس هوازن، وكان قد فرّ فيمن فرّ إلى حصن الطائف، فقال: إن جاءني فهو آمن. فأتاه فردّ عليه ماله. وأعطاه مائة من الإبل، كما أعطى كثيراً من المؤلفة قلوبهم[٢].

ثمرة حرب حنين

وكانت نتيجة حرب حنين **أولاً**: إسلام هوازن. وهي قبيلة لها أهميتها

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٣٩-٢٤٠ فصل عند الكلام في غزوة الطائف. ونحوه في أسد الغابة ج:٢ ص:٢٠٨ في ترجمة زهير بن صرد. إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج:١ ص:٥٥٢-٥٥٣. الاستيعاب ج:٢ ص:٥٢٠-٥٢١ في ترجمة زهير بن صرد. السيرة النبوية لابن هشام ج:٤ ص:٩٢٥-٩٢٦ أمر أموال هوازن وسباياها. وغيرها من المصادر.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٠-٢٤١ فصل عند الكلام في غزوة الطائف. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٤٩.

في المنطقة. **وثانياً**: أنها صارت مدينة ومقرّة بإحسان رسول الله ﷺ إليها في إرجاع سباياها وحفظ كرامتها. وذلك له الأثر في ولائها للنبي ﷺ. **وثالثاً**: الغنائم الكثيرة التي بذلها للمؤلفة قلوبهم، لتحبب الإسلام لهم. **ورابعاً**: إسلام بعض المشركين بسبب ما ظهر من تدخل الغيب والنصر الإلهي للإسلام في الحرب المذكورة. **وخامساً**: ظهور حال كثير من المسلمين، حيث انهزموا تلك الهزيمة المنكرة، وتركوا النبي ﷺ معرضاً للقتل، كما سبق منهم في حرب أحد.

وكانت المحصلة بعد فتح مكة وحرب حنين وما كان معهما من السرايا أن هيمن الإسلام في منطقة كبيرة من الجزيرة العربية. وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة المباركة.

الاحتكاك بالروم في غزوة تبوك

وبعد أن استحكم فيها عاد للاحتكاك عسكرياً بالروم في غزوة تبوك. وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يوري عن مقصده في مغازيه ليغفل عدوه ويفاجئه. لكنه أعلن في هذه الغزوة عن مقصده، لبعد الطريق، وشدّة الحرّ، وقوة العدو، فأراد أن يعلم الناس على ماذا يقدمون.

وكان سببها أنه بلغه أن هرقل قد عزم على قصده في جيش عظيم من متنصرة العرب[1]. فخطب ورغّب في الجهاد. وكتب إلى قبائل العرب الكثيرة التي دخلت الإسلام يدعوهم إلى الجهاد. وسار في جيش عظيم، ليشعرهم بقوته وعزمه، لئلا يستهينوا به ويستضعفوه.

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٧٧ في ذكر غزوة تبوك. تفسير القمي ج:١ ص:٢٩٠ في تفسير آية ﴿**انفروا خفافاً**﴾ .. من سورة براءة. السيرة الحلبية ج:٣ ص:٩٩ غزوة تبوك.

ولبعد مقصده وطول مدة سفره استخلف على المدينة أمير المؤمنين عليه السلام، لحسن إدارته وشدة هيبته في نفوس المنافقين الذين يتربصون بالإسلام الدوائر. وقال له: «إنه لابد للمدينة مني أو منك»[١].

وأقام بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها[٢]. ولم يلق كيداً، حيث انصرف الروم عن حربه، وشغلوا ببعض المشاكل الداخلية عنها.

مكاسب الإسلام في غزوة تبوك

وأتاه بتبوك صاحب إيلة فصالحه على الجزية[٣]. وكتب لهم كتاباً والكتاب عندهم. وصالح أهل أذرح على مائة دينار في كل رجب[٤]. وصالح أهل جرباء على الجزية[٥]. وصالح أهل مقنا على ربع ثمارهم[٦].

---

(١) الإرشاد ج:١ ص:١٥٥ فصل في غزوة تبوك. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٤ غزوة تبوك. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:٢١٣ سنة تسع في رجب. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٤٩ غزوة تبوك.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٨١ غزوة تبوك. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٧٣ ذكر الخبر عن غزوة تبوك. السيرة النبوية لابن هشام ج:٤ ص:٩٥٣. السيرة الحلبية ج:٣ ص:١١٩. وغيرها من المصادر.

(٣) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٤ غزوة تبوك. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٨٠ غزوة تبوك. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٧٢ ذكر الخبر عن غزوة تبوك. السيرة لابن هشام ج:٤ ص:٩٥٢.

(٤) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٨٠ ذكر غزوة تبوك.

(٥) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٤ غزوة تبوك. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٨٠ غزوة تبوك. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٧٢ ذكر الخبر عن غزوة تبوك. السيرة لابن هشام ج:٤ ص:٩٥٢.

(٦) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٨١ غزوة تبوك. الطبقات الكبرى ج:١ ص:٢٩٠-٢٩١. فتوح البلدان ج:١ ص:٧١-٧٢ في ذكر تبوك وأيلة وأذرح ومقنا والجرباء.

وبعث أبا عبيدة إلى جمع من بني جذام مع روح بن زنباغ الجذامي، فأصاب منهم طرفاً وأصاب منهم سبايا. وبعث سعد بن عبادة إلى ناس من بني سليم وجموع من بلي. فلما قارب القوم هربوا[١].

وبعث النبي صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد مع جمع إلى الأكيدر صاحب دومة الجندل، وقال له: «لعل الله يكفيكه بصيد البقر فتأخذه» فأخذوه أسيراً وهو خارج من حصنه ليلاً مع جماعة لصيد بقر الوحش، وقتلوا أخاه حساناً[٢]. ففرّ من معه، ودخلوا الحصن، وأغلقوا بابه، فأخذوا على الأكيدر المواثيق إن أطلقوه أن يفتح لهم الحصن. فأطلقوه ودخل الحصن ففتحه لهم، ودخلوا معه الحصن. وأعطى ثمانمائة رأس وألفي بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح وخمسمائة سيف[٣]. وأقبل به خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فصالحه على الجزية[٤]. وكان الأكيدر نصرانياً من كندة[٥].

ورجع صلى الله عليه وآله إلى المدينة وقد أشعر الروم بقوته وعزمه على الاحتكاك

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٤ غزوة تبوك.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٤-٢٤٥ غزوة تبوك. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٤٩-٣٥٠ غزوة تبوك. الطبقات الكبرى ج:٢ ص:١٦٦ غزوة رسول الله تبوك. مختصر تفسير القمي لابن العتائقي ص:٢١٦. وغيرها من المصادر.

(٣) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٥ غزوة تبوك. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٥٠ غزوة تبوك. ونحوه في الطبقات الكبرى ج:٢ ص:١٦٦ غزوة رسول الله تبوك. مختصر تفسير القمي لابن العتائقي ص:٢١٦. وغيرها من المصادر.

(٤) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٥ غزوة تبوك. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٥٠ غزوة تبوك. الطبقات الكبرى ج:٢ ص:١٦٦ غزوة رسول الله تبوك. مختصر تفسير القمي لابن العتائقي ص:٢١٦. وغيرها من المصادر.

(٥) الطبقات الكبرى ج:٢ ص:١٦٦ غزوة رسول الله تبوك.

بهم في الوقت الذي كانوا فيه مشغولين بمشاكلهم الداخلية. وهو أمر له أهميته في فرض هيبة الإسلام عليهم. ولاسيما مع ما سبق في حديث هرقل مع أبي سفيان من توقعه أنه سوف يغلبه على ما تحت قدميه.

معاناة النبي صلى الله عليه وآله من قريش والمنافقين

نعم، عانى رسول الله صلى الله عليه وآله في هذه الغزوة من نشاط المنافقين، ومن قريش خاصة، بما لم يحصل له فيما سبق. ويظهر ذلك باستيعاب سورة براءة قال الله عز وجل: ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ**﴾[1].

والظاهر أن قريش أدركت بعد أن خفّت ضغينتها على الإسلام، ودخلت فيه، وانتشر في العرب وتتابعت انتصاراته ومكاسبه لهم ولغيرهم، أن الإسلام سبب لعزتها وكرامتها بين الأمم. فلا داعي لرفضه. لكنها تحاول أن تجعل سلطانه وتكريمه لها عامة. بينما ظهر لها أن النبي صلى الله عليه وآله بصدد حصر سلطانه وكرامته بأهل بيته، وأولهم أمير المؤمنين علي عليه السلام، وهي لا تطيق ذلك، على ما يأتي توضيحه في الفصل الثاني. وإن ما تقدم من قول النبي صلى الله عليه وآله: «إنه لابد للمدينة مني أو منك» مؤشر واضح على ذلك. فأشاعوا أنه خلفه استثقالاً له.

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الجرف لحقه علي عليه السلام وأخذ بغرز رجله وقال: يا رسول الله زعمت قريش أنك إنما خلفتني استثقالاً لي. فقال صلى الله عليه وآله: «طالما آذت الأمم أنبياءها. أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من

(١) سورة براءة الآية: ٦٤.

موسى؟» فقال عليه السلام: قد رضيت. قد رضيت. ثم رجع إلى المدينة[١].

محاولة المنافقين قتل النبي صلى الله عليه وآله

ولما كرّ رسول الله صلى الله عليه وآله راجعاً من غزوة تبوك كانت الجريمة الكبرى من منافقي قريش ومن تبعهم بمحاولة قتل النبي صلى الله عليه وآله، خوفاً من إعلانه استخلاف أمير المؤمنين عليه السلام وقطع الطريق عليهم، فتآمروا أن ينفروا ناقته ويطرحوه من العقبة.

فعن عروة قال: «ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً من تبوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من أصحابه، فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه. فلما غشيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر خبرهم. فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي، فإنه أوسع لكم. وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم العقبة وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا بذلك، استعدوا وتلثموا وقد همّوا بأمر عظيم.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه مشياً. وأمر عماراً أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة أن يسوقها.

فبينا هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم من ورائهم قد غشوهم. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع ومعه محجن، فاستقبل وجوه رواحلهم، فضربها ضرباً بالمحجن،

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٤ غزوة تبوك، واللفظ له. الإرشاد ج:١ ص:١٥٦ في غزوة تبوك. المناقب لابن شهرآشوب ج:١ ص:٢١٣ فصل في غزواته عليه السلام. قصص الأنبياء للراوندي ص:٣٤٩ غزوة تبوك.

وأبصر القوم وهم متلثمون. لا يشعر إنما ذلك فعل المسافر. فرعبهم الله عز وجل حين أبصروا حذيفة، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس.

وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ. فلما أدركه قال: اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار. فأسرعوا حتى استوى بأعلاها فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس.

فقال النبي ﷺ لحذيفة: هل عرفت يا حذيفة مَن هؤلاء الرهط أو الركب أحداً منهم؟ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان. وقال: كانت ظلمة الليل وغشيتُهم وهم متلثمون. فقال: هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله. قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي، حتى إذا اظلمت في العقبة طرحوني منها.

قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولون: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه. فسماهم لهما، وقال اكتماهم»[1].

وفي بعض النصوص أنه ﷺ قال: «أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»[2].

---

(١) دلائل النبـوة للبيهقي ج:٥ ص:٢٥٦-٢٥٧، واللفظ له. إعـلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٥-٢٤٦. الدر المنثور ج:٣ ص:٢٥٩. السـنن الكبرى للبيهقي ج:٩ ص:٣٢-٣٣. وغيرها من المصادر.

وزاد اليعقوبي أنه ﷺ قال لحذيفة: «نحّهم، وقل لهم: لتتنحن أو لأدعونكم بأسمائكم وأسماء آبائكم وعشائركم». تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٦٨ في ذكر الغزوات التي لم يكن فيها قتال.

(٢) تفسير ابن كثير ج:٢ ص:٣٨٦-٣٨٧.

والنصوص في أصل الحادثة وفي تفاصيلها كثيرة لا يسعنا استقصاؤها. ولا مجال لاتهام المعروف بالنفاق عبد الله بن أُبي وجماعته بهذه المؤامرة، لأنه تخلف أو رجع عن رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك، ولم يذهب معه[١].

وعن كتاب أبان بن عثمان: «قال الأعمش: كانوا اثني عشر، سبعة من قريش»[٢].

وفي حديث موسى بن بكر: «قال بعض أصحابنا لأبي عبد الله عليه السلام: علم رسول الله صلى الله عليه وآله أسماء المنافقين؟ فقال: لا. ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله لما كان في غزوة تبوك كان يسير على ناقته والناس أمامه. فلما انتهى إلى العقبة وقد جلس عليها أربعة عشر رجلاً ستة من قريش وثمانية من أفناء الناس، أو على هذا[٣]، فأتاه جبرئيل عليه السلام فقال: إن فلاناً وفلاناً وفلاناً قد قعدوا لك على العقبة، لينفروا ناقتك. فناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله: يا فلان ويا فلان ويا فلان أنتم القعود لتنفروا ناقتي؟ فكان حذيفة خلفه فلحق بهم [به] فقال: يا حذيفة سمعت؟ قال: نعم. قال: اكتم»[٤].

وقد ذكرنا في جواب السؤال الثاني من الجزء الأول من كتابنا (في **رحاب العقيدة**) بعض المؤشرات في نصوص الجمهور على تحديد هوية المتآمرين قد تنفع في التعرف على ذلك.

وعلى كل حال تتجلى عظمة شخصية النبي صلى الله عليه وآله، ومدى تسديد الله

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٧٨ في ذكر غزوة تبوك.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٤٦-٢٤٧ في حديث غزوة تبوك.

(٣) الشك من الراوي.

(٤) بحار الأنوار ج:٢١ ص:٢٣٣ باب غزوة تبوك وقصة العقبة حديث:١٠.

عز وجل له، حيث استطاع أن ينجز هذا الإنجاز العظيم مع معاناته من مجتمعه الذي كان يعمل معه. ويأتي إن شاء الله تعالى في الفصل الثاني الكثير مما يتضمن ذلك.

موقف النبي صلى الله عليه وآله من الفرس

أما الفرس فقد سبق أنه صلى الله عليه وآله قد كتب إلى واليهم في البحرين المنذر بن ساوى، فأسلم هو ومن في البحرين من العرب، ودفع غيرهم ممن في البحرين الجزية. كما أسلم واليهم في اليمن باذان وأسلم معه من في اليمن من الفرس ـ وهم الأبناء ـ ثم أسلم من في اليمن من العرب تدريجاً.

وفي ذلك نحو من الاحتكاك بهم وإن كان سلمياً، لما فيه من سلب مستعمرتين من مستعمراتهم.

سرية طيء

وزاد على ذلك أنه أرسل سرية بقيادة أمير المؤمنين إلى جبل طيء باتجاه العراق التابع لهم، فغنم وسبى وكسر صنمهم الفلس أو القلس، وأخذ سيفين كانا معلقين عليه ودفعهما لرسول الله صلى الله عليه وآله. وسبى فيمن سبى بنتاً لحاتم. وكان أخوها عدي بن حاتم نصرانياً قد فرّ إلى الشام، لأنهم نصارى مثله.

فلما أتى بها رسول الله صلى الله عليه وآله طلبت منه أن يمنّ عليها، فمنّ عليها وأطلقها. وأمرها أن تسأل علياً عليه السلام أن يحملها إلى أخيها، فلما سألته أمر عليه السلام لها بذلك وكساها، وأعطاها نفقة. فلما انتهت إلى أخيها أنّبته على تركها.

ثم قالت له: أرى أن تلحق بمحمد سريعاً، فإن كان نبياً كان للسابق

إليه فضله. وإن كان ملكاً كنت في عز وأنت أنت. فقدم على النبي صلى الله عليه وآله وآمن به، لما سمعه منه ورآه من حاله. على ما يأتي إن شاء الله تعالى من حديثه عنه صلى الله عليه وآله في آخر هذا الفصل، وفي المبحث الثالث عند الكلام في التواضع، وفي تواضعه صلى الله عليه وآله خاصة.

ثم قدم وفد طيء[١] وفيهم عدي بن حاتم[٢]. ولعله هو الذي جاء بهم بعد أن رأى من النبي صلى الله عليه وآله ما رأى. وفيهم أيضاً زيد الخيل[٣]. فأعجب به رسول الله صلى الله عليه وآله وسماه زيد الخير[٤].

هذا وطيء وإن لم يعرف عنها التبعية للفرس، إلا أنها في طريق العراق التابع لهم. وغزوها مؤشر على أن النبي صلى الله عليه وآله بصدد التوسع باتجاه العراق؟ ولاسيما مع وعده صلى الله عليه وآله في حرب الأحزاب بأن الإسلام سيستولي على الحيرة والمدائن، كما يأتي.

توفي النبي صلى الله عليه وآله وقد هيأ المسلمين للاحتكاك بالفرس والروم

وتوفي النبي صلى الله عليه وآله في أول السنة الحادية عشر للهجرة وقد هيّأ المسلمين للاحتكاك بالأمبراطوريتين الكبريين الفارسية والرومية.

بل شرع بذلك بمحاولة إرسال جيش أسامة بن زيد إلى حيث قتل

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٩٩ في أحداث سنة عشر. إعلام الورى ج:١ ص:٢٥١ عند الكلام في وفود العرب.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٥١ قدوم وفد طي على رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٣) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:٢٥١ قدوم وفد طي على رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٤) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٩٩ في أحداث سنة عشر من الهجرة. أسد الغابة ج:٢ ص:٢٤١ في ترجمة زيد بن مهلهل بن زيد. الأغاني ج:١٧ ص:١٦٠ أخبار زيد الخيل ونسبه. الإصابة ج:٢ ص:٥١٣ في ترجمة زيد الخيل بن مهلهل. وغيرها من المصادر.

أبوه، لولا أن تلكأ الجيش، لأسباب ذكرها المؤرخون، لسنا الآن في مقام التعرض لها.

وهذا بمجموعه إنجاز له أهميته الكبرى في هذه المدة القصيرة. حيث جعل صلى الله عليه وآله من العرب ـ الذين سبق وصفهم في كلام أمير المؤمنين والصديقة سيدة النساء فاطمة الزهراء (صلوات الله عليهما) بما سبق ـ أمة موحدة مهيأة لمواجهة الدول العظمى، ونشر الإسلام ـ بإطاره العام ـ بين شعوبها المختلفة، وتعريفها به.

وهو من صميم التبليغ به ـ الذي سبق أنه وظيفته صلى الله عليه وآله كنبي مرسل ـ بعد أن كانت رسالته الخاتمة عامة لجميع الأمم، كما قال الله عز وجل: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**[1].

بل لو لم يبادر المسلمون لذلك فلربما جرؤت الامبراطوريتان الكبريان على المسلمين، فغزياهما في عقر دارهم. وبذلك تنهار معنويات المسلمين. إذ ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا.

بل قد حاول هرقل في حياة النبي صلى الله عليه وآله الهجوم على المدينة بجيش يتألف من عرب الشام، وإن فشل في ذلك وشَغِل عنه، كما سبق في حرب تبوك.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٥٨.

انشغال السلطة بعد النبي صلى الله عليه وآله بالحروب الداخلية

نعم شغلت السلطة الجديدة بعد النبي صلى الله عليه وآله في مدة غير قليلة بالحروب الداخلية، لإحكام سيطرتها وسلطتها على المجتمع العربي الإسلامي فيما يسمى بحروب الردّة. ولما تمّ لها ذلك بعد خسائر فادحة بدأت تنظر في الغزو خارج الجزيرة العربية.

تشجيع أمير المؤمنين عليه السلام على غزو الروم

قال اليعقوبي: «وأراد أبو بكر أن يغزو الروم، فشاور جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فقدّموا وأخّروا. فاستشار علي بن أبي طالب، فأشار عليه أن يفعل، فقال: إن فعلت ظفرت. فقال: بشرت بخير»[1].

لكن ذلك لا يعني التزام السلطة ـ مهما كانت ـ بتعاليم النبي صلى الله عليه وآله والجري على طبق سيرته وتعاليمه فيها. وهي وحدها المسؤولة عما كان من سلبيات، ولا يتحمل النبي صلى الله عليه وآله ذلك بعد إجماع المسلمين على عدم كون تلك السلطات مجعولة منه صلى الله عليه وآله عدا ما كان في عهد أمير المؤمنين عليه السلام القصير، وقد قلّت في عهده الحروب الخارجية، لانشغاله بالحروب الداخلية بين المسلمين أنفسهم، نتيجة الفتن داخل الكيان الإسلامي. ويأتي في الفصل الثاني ما ينفع في المقام.

وبدأت الحروب الإسلامية خارج الجزيرة العربية، وتم الانتصار الكاسح على الإمبراطوريتين الفارسية والرومية في فترة زمنية قصيرة قياسية. واتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعاً كبيراً باتجاه الشرق إلى

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:١٣٢-١٣٣ في أيام أبي بكر. وقريب منه في الفتوح ج:١ ص:٨٠ ذكر كيفية الاستيلاء على بلاد الشام في خلافة الصديق رضي الله عنه.

الحيرة، ثم إلى بلاد فارس، ثم بلاد الخزر وما وراء النهر. وباتجاه الشمال والغرب إلى بلاد الشام، ثم مصر، ثم إفريقية، حيث ما يسمى اليوم بالمغرب العربي... إلى غير ذلك مما هو معلوم تاريخياً.

وانهارت السلطات الكثيرة في تلك المنطقة الكبيرة، كما انهارت ثقافاتها المختلفة أمام الثقافة الإسلامية الوافدة. حيث دخلت في الإسلام أفواجاً. كل ذلك بفضل جهود النبي صلى الله عليه وآله السابقة.

إخبار النبي صلى الله عليه وآله بامتداد رقعة الاسلام

واللافت للنظر أمران:

الأول: أن النبي صلى الله عليه وآله من يومه الأول، في أول نزول الوحي عليه، قبل أن يدعو قريشاً للإسلام، ذكر أن دينه سوف ينتصر وتتسع رقعته، كما تضمنت ذلك بعض النصوص.

ففي حديث عفيف الكندي قال: «كنت امرءاً تاجراً، فقدمت منى أيام الحج، وكان العباس بن عبد المطلب امرءاً تاجراً، فأتيته أبتاع منه وأبيعه. قال: فبينا نحن إذ خرج رجل من خباء يصلي، فقام تجاه الكعبة، ثم خرجت امرأة فقامت تصلي، وخرج غلام يصلي معه. فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ إن هذا الدين ما ندري ما هو. فقال: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه. قال عفيف: فليتني كنت آمنت به يومئذٍ، فكنت أكون ثانياً»[1].

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ج:١ ص:١٠٥ ذكر مبدأ المبعث. عدة العيون لابن البطريق ص:٦٣ علي عليه السلام أول من أسلم. السيرة النبوية لابن كثير ج:١ ص:٤٢٩ فصل في ذكر أول من أسلم. كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب ج:٢ ص:١١٣. وقريب منه في مسند أحمد

ولما صدع ﷺ بما أمِر ودعا للإسلام أخبرهم أنهم إذا أسلموا يملكون العرب، وتدين لهم العجم[١].

بل كان ﷺ يؤكد ذلك ويصرّ عليه حتى في الأزمات التي تمرّ عليه، والتي من شأنها أن تجعل الداعية في حالة من الإحباط واليأس. وذلك ثقة منه بنفسه ودعوته، ووعد الله تعالى له.

فحين أخذت قريش بمكة تعذب المستضعفين من المسلمين، قال خباب بن الأرت: «يا رسول الله ادعُ لنا». قال ﷺ: «إنكم لتعجلون. لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشط بأمشاط الحديد ويشق بالمنشار، فلا يردّه ذلك عن دينه. والله ليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على عنزه»[٢].

وقد تقدم أنه عند انهزام المسلمين في حرب أحد وتركِهم النبي ﷺ عرضة للقتل أنه ﷺ كان يدعو المسلمين ويقول: «أيها الناس إني رسول

ج:١ ص:٢١٠ مسند الفضل بن العباس، ومجمع الزوائد ج:٩ ص:١٠٣ كتاب المناقب باب قوله ﷺ من كنت مولاه فعلي مولاه، والاستيعاب ج:٣ ص:١٢٤٢ في ترجمة عفيف الكندي، وغيرها من المصادر الكثيرة.

(١) مناقب آل أبي طالب ج:١ ص:٥٣ فصل في استظهاره ﷺ بأبي طالب. مسند أحمد ج:١ ص:٢٢٧ مسند عبد الله بن العباس. سنن الترمذي ج:٥ ص:٤٤. المصنف لابن أبي شيبة ج:٨ ص:٤٤٢ في أذى قريش للنبي ﷺ وما لقي منهم. السنن الكبرى ج:٦ ص:٤٤٢. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٦٦. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٦٥ ذكر أمر الله نبيه ﷺ بإظهار دعوته.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٢٨ في النذارة، واللفظ له. إعلام الورى ج:١ ص: ١٢١-١٢٢ في ما لقي رسول الله ﷺ من أذى المشركين. وقريب منه في السنن الكبرى للبيهقي ج:٩ ص:٥ كتاب السير: باب مبتدأ الخلق. مسند أبي يعلى ج:١٣ ص:١٧٤ حديث خباب بن الأرت. المعجم الكبير للطبراني ج:٤ ص:٦٢ مسند خباب بن الأرت: في ما أسنده إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن خباب. أنساب الأشراف ج:١ ص:١٧٦ في ترجمة خباب بن الأرت.

الله، وإن الله قد وعدني النصر، فإلى أين الفرار؟!».

وفي غزوة الأحزاب حيث زُلزل المؤمنون زلزالاً شديداً ـ كما تقدم ـ ظهر في حفر الخندق صخرة كسرت المعول، فنزل النبي صلى الله عليه وآله إليها ومعه سلمان الفارسي فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعتها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة كذلك. ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وقد صدعها.

فسأله سلمان عمّا رأى من البرق، فقال صلى الله عليه وآله: أضاءت الحيرة وقصور كسرى في الضربة الأولى، وأخبرني جبرئيل أن أمتي ظاهرة عليها. وأضاء لي في الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها. وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها. فأبشروا، فاستبشر المسلمون.

وقال المنافقون: ألا تعجبون؟! يعدكم الباطل، ويخبركم أنه ينظر من يثرب الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا[1].

ويشير لذلك قوله عز وجل: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ**

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:١٧٩ ذكر غزوة الخندق وهي غزوة الأحزاب، واللفظ له. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٣ ص:٤١٩ باب ما ظهر في حفر الخندق من دلائل النبوة وآثار الصدق. مجمع البيان ج:٢ ص:٢٧٠. تفسير الطبري ج:٢١ ص:١٦٢. تفسير الثعلبي ج:٣ ص:٤١. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢٣٥ ذكر الخبر عن غزوة الخندق. الطبقات الكبرى ج:٤ ص:٨٣. وغيرها من المصادر الكثيرة. وباختصار في إعلام الورى ج:١ ص:١٩١-١٩٢. والتبرّز بتشديد الراء: الخروج إلى الفضاء لقضاء الحاجة.

مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[١].

والنصوص الواردة في ذلك كثيرة جداً، منها ما تقدم عند الكلام في القضاء على بني قريظة من حديثه مع كعب بن أسيد وتذكيره بكلام ابن حواش، وما يأتي في حديثه مع عدي بن حاتم.

ويدعمها القرآن المجيد في مثل قوله عز وجل: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾**[٢].

وكان لذلك أعظم الأثر في رفع معنويات المسلمين حين بدأت انتصارات النبي صلى الله عليه وآله في حياته، وأعقبتها انتصارات المسلمين بعد وفاته.

ففي قصة ورود عدي بن حاتم الطائي على النبي صلى الله عليه وآله وإسلامه بعد غزوة طيء المتقدمة، وهو لا يعلم أنه صلى الله عليه وآله نبي أو ملك، يقول عدي عنه صلى الله عليه وآله: «ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم. فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم. وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت، قال: فأسلمت.

وكان عدي يقول: قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة. والله لتكونن. قد

---

(١) سورة الأحزاب الآية: ١٢.

(٢) سورة الفتح الآية: ٢٨.

رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت. وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت. وأيم الله لتكونن الثالثة. ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه»[١].

ولما انتهى المسلمون إلى بهر سير غرب نهر دجلة مقابل إيوان كسرى رأوا الإيوان، فقال ضرار بن الخطاب: «الله أكبر. أبيض كسرى. هذا ما وعد الله ورسوله» وكبّر الناس معه[٢].

وكان ذلك ونحوه مشجعاً لهم على عبور نهر دجلة بخيولهم حتى انتهوا إلى الإيوان، فاستولوا عليه، وتمّ لهم فتح المدائن ـ التي هي عاصمة الامبراطورية الفارسية الكسروية ـ بطريقة فريدة ويسيرة نسبياً. أعقبت غنائم فوق حدّ الإحصاء.

وكان ذلك ونحوه محفزاً للمسلمين على الاستمرار في الحرب، والإكثار من الفتوح، وإسماع دعوة الإسلام، ثم اعتناق الشعوب المختلفة به في بقعة كبيرة من الأرض في مدة قصيرة قياسية.

إيمان الشعوب بالإسلام

الثاني: أن الإسلام وصل بالفتوح والقوة إلى الشعوب المتحضرة ذات الثقافات الدينية المختلفة على أيدي عرب الجزيرة. وهم أمة بدائية

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج:٤ ص:١٠٠٢ أمر عدي بن حاتم، واللفظ له. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٧٧ أحداث السنة التاسعة من الهجرة. تاريخ دمشق ج:٦٩ ص:٢٠١ في ترجمة سفانة بنت حاتم الطائية. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:٢ ص:٢٨٨. السيرة الحلبية ج:٣ ص:٢٥٨. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٨٦ ذكر غزو طيء وإسلام عدي بن حاتم.

(٢) تاريخ الطبري ج:٣ ص:١١٩ ذكر بقية خبر دخول المسلمين مدينة بهرسير. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٥٠٨ ذكر بهر سير. تجارب الأمم ج:١ ص:٣٥٣ بهرسير.

تحتقرها تلك الشعوب، ومع ذلك أخذ موقعه من تلك الشعوب في فترة قصيرة، فدخلت فيه أفواجاً، ولم تبق مدة طويلة حتى صار المسلمون من غير العرب أكثر من العرب.

مع اهتمام كثير منهم بثقافة الإسلام واعتزازهم بها، فكان منهم الفقهاء وحملة القرآن والمحدّثون. وكان منهم أيضاً الكثير من المتخصصين في فروع الثقافة المختلفة.

كما كان كثير منهم من ذوي البصائر والثبات، بحيث ضحّوا من أجله بأنفسهم عن قناعة كاملة، كميثم التمار وغيره.

حتى روى غير واحد أن الأشعث بن قيس تخطّى رقاب الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو على المنبر، وقد أحاط به الأعاجم، فقال: «يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك». فركض عليه السلام المنبر برجله وقال: «من يعذرني من هؤلاء الضياطرة[1]، يتمرغ أحدهم على فراشه تمرغ الحمار، ويهجر قوماً للذكر. أفتأمرونني أن أطردهم. ما كنت لأطردهم فأكون من الجاهلين. أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ليضربُنّكم على الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً»[2].

ولا نعني أن المجتمع العربي لم يُعن بالثقافة الدينية. فقد كان فيهم أيضاً الفقهاء والعلماء، كما صرّح به أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) نفسه

---

(١) هم الضخام الذين لا غناء عندهم. لسان العرب.

(٢) شرح نهج البلاغة ج:٢ ص:٢٨٤. ونحوه في مسند أبي يعلى ج:١ ص:٣٢٢ مسند علي بن أبي طالب. أمالي المحاملي ص:٢٠٠. الفائق في غريب الحديث ج:١ ص:٢٧٧. غريب الحديث لابن سلام ج:٣ ص:٤٨٤.

في خطبة له يعتب فيها على أهل الكوفة تخاذلهم عن نصرة الحق، مع اجتماع أهل الشام على نصرة الباطل، حيث يقول فيها:

«ولأنتم ـ على ما كان فيكم من تواكل وتخاذل ـ خير منهم، وأهدى سبيلاً. فيكم العلماء والفقهاء والنجباء والحكماء وحملة الكتاب والمتهجدون بالأسحار وعمار المساجد بتلاوة القرآن. أفلا تسخطون وتهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم والأشرار الأراذل منكم؟!»[1].

كما أنه قد ضحّى كثير منهم بنفسه في سبيل المبادئ الحقّة، كحجر بن عدي وجماعته، وشهداء الطف وغيرهم.

بل نعني أن الشعوب الأخرى حينما دخلوا في الإسلام أفواجاً، وتركوا أديانهم السابقة، تبنّى كثير منهم الثقافة الإسلامية، وضحّى آخرون في سبيل الحقيقة، لقناعتهم التامّة بالإسلام.

وبذلك تخلت تلك الرقعة الكبيرة من الأرض عن ثقافاتها المختلفة، واستبدلتها بالثقافة الإسلامية طوعاً في فترة زمنية قصيرة جداً.

اعتناق المغول الفاتحين الإسلام

وانعكس الأمر حين هاجم المغول بلاد الإسلام، ودخلوها عنوة، لضعف المسلمين وتفرقهم وانهيار معنوياتهم. ومن المعلوم أن المغول شعب جاهل غير مثقف أشدّ من العرب قبل الإسلام، إلا أنه بدلاً من أن تنهار الثقافة الإسلامية، دخل المغول الإسلام.

---

(١) شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:٩٩ في خطبة علي بعد مقتل محمد بن أبي بكر. الإمامة والسياسة ج:١ ص:١٣٦.

فقد سقطت بغداد عاصمة المسلمين الكبرى في وقته سنة ستمائة وستة وخمسين على يد هولاكو[١]، وأسلم ابنه أحمد سلطان وكان اسمه بيكدار أو بوكدار، أو حفيده خدابندا سنة ستمائة وإحدى وثمانين[٢].

وقد جدّد المغول بإسلامهم نشاط الإسلام، وأقاموا دولاً باسمه نشرت الإسلام في كثير من أنحاء المعمورة.

محاولة الاستعمار في العصر الحديث القضاء على الإسلام

وفي العصر الحديث حين دخل الاستعمار بلاد الإسلام بما لهم من قوة عسكرية هائلة، وثقافة مادية عالية، استطاعوا بها أن يجمّدوا ثقافتهم الدينية التي سادت في بلادهم قروناً كثيرة، وكانت هي القوة الفاعلة لهم في حروبهم الصليبية في القرون الوسطى، ومع ذلك كانت الغلبة أخيراً للثقافة المادية عندهم، وبقى الحال عندهم على ذلك حتى اليوم.

وكان مخططهم في اكتساح بلاد الإسلام هو العمل على نسيان المنطقة تاريخها مقدمة لتجريدها من عقيدتها ودينها، وتوجيهها الوجهة المادية الصرفة، كما كان هو الحال في بلادهم، التي هي المتحضرة بمنظورهم المادي الذي نجح في بلادهم.

وقد نشطوا في ذلك، وأعانهم واقع المسلمين المزري في وقته. وقد

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص:٢٧٠. الوافي بالوفيات ج:٢٩ ص:١٥٥. النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ج:٧ ص:٦٠ في أحداث سنة ٦٥٦. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٢) لاحظ المختصر في أخبار البشر ج:٤ ص:١٦ ذكر موت أبغا، وصبح الأعشى ج:٤ ص:٤١٨، ومآثر الإنافة في معالم الخلافة ج:٢ ص:١٢٧-١٢٨، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج:٧ ص:٣١٠، والوافي بالوفيات ج:٢٧ ص:٢٣٣ في ترجمة هولاكو ملك التتار.

سمعنا من شيوخنا، ورأينا في مذكرات بعضهم، ما يشهد بالإحباط واليأس الذي خيّم عليهم، نتيجة جهود الاستعمار الحثيثة بعد الحرب العالمية الأولى في صرف الناس عن دينهم.

فشل الاستعمار في محاولته المذكورة

لكن ذلك لم يدم طويلاً حتى استعاد الإسلام حيويته وفاعليته، وبدأت مظاهر نشاطه تظهر، واتسعت حتى وصلت إلى بلاد الغرب، نتيجة الهجرة المستمرة وتيسر المواصلات ووسائل الاتصال الثقافي، حتى صار العالم كالقرية الواحدة.

من دون فرق في ذلك بين الخط الإسلامي الأصيل المعتدل، والخط الإسلامي المشوّه المتطرف الذي قد ينتهي بالإرهاب بمراتبه المختلفة.

فإن الثاني وإن خرج عن الإسلام بتعاليمه القويمة، والإسلام يبرأ منه، إلا أن ذلك يكشف عن بقاء فاعلية الإسلام ـ بإطاره العام ـ وحيويته، وإن ساء استغلالها من قِبل بعض من يتبناه ويتخذه شعاراً له، ليظهر في الساحة، ويستقطب به الجماهير. نظير ما حصل في عصور الإسلام الأولى من الخوارج والقرامطة وغيرهم.

ظهور سلبيات الثقافة المادية

وبطول المدّة بدأت تظهر على الصعيد العالمي سلبيات الثقافة المادية الجوفاء ومخاطرها المدمرة، نتيجة تحلل مجتمعاتها عن القيم والأخلاق وعن الروابط العائلية، والأعراف الاجتماعية. وحتى عن بعض الروابط الغريزية التي لم يتحلل منها الحيوان.

وأصبح الفرد يعيش لوحده لا همّ له إلا تحصيل لذّاته من أقصر طرقها. ويعاني مشاكل الوحدة والاكتئاب والضجر الذي قد ينتهي بحب التغيير ولو إلى الأسوأ، أو بالانتحار أو باستعمال المخدرات، فراراً من الواقع المزري الذي يعيشه.

وبدأ كثير من المتعقلين منهم والباحثين يعترفون بذلك الواقع المزري الذي تعاني مجتمعاتهم منه، ويشعرون بخطره عليها، بل يتوقعون انهيارها نتيجة لذلك، من دون أن يجدوا حلًّا لمشكلاتهم.

أولاً: لسيطرة الإعلام المشبوه، وقوى الشرّ الخفية، التي تحاول تدمير شخصية الفرد، وتحويله إلى آلة منتجة. **وثانياً**: لعدم وجود عقيدة محكمة الأساس يلجؤون إليها، تجمع شملهم، وتحصّنهم من سموم الإعلام وقوى الشرّ المذكورين، وتحدّ من نشاطهما.

احترام الثقافة الإسلامية في الغرب

وأخذوا ينظرون لواقع المجتمع الإسلامي الأصيل ـ على سلبياته التي نعاني منها ـ نظرة الاحترام والإكبار، ويتحسّرون لحالهم. وقد صادف اللقاء المباشر بيننا شخصياً وبين جماعة منهم في فترات زمنية قريبة تجلّى لنا بسببه، وبما نقل لنا عن آخرين، ذلك منهم. بل أعلن بعض الباحثين ـ فيما بلغنا ـ أن العاقبة للإسلام، وعن فشل الثقافة المادية وتوقع انهيارها.

وما ذلك إلا لقوة الإسلام الذي جاء به نبينا العظيم ﷺ، وأقام كيانه بحكمته العالية، وجهوده الجبارة ـ التي سبق منا ذكرها، ويأتي بقية الكلام فيها إن شاء الله تعالى ـ وبما يحمله من مبادئ وقيم، يأتي الكلام فيها أيضاً بعونه عز وجل.

الفصل الثاني
في جهود النبي صلى الله عليه وآله لصالح الإسلام الحق[1]

من الظاهر أن رسالة النبي صلى الله عليه وآله لا تقتصر على الدعوة والتبليغ بالإسلام بكيانه العام الجامع بين الفرق المختلفة، والتي يكفّر بعضها بعضاً أو يحكم بضلاله، والذي انتهى إلى ما هو عليه اليوم من وضع مأساوي.

بل تختص رسالته بالإسلام الحق، والفرقة الناجية المنحصرة بخط أهل البيت (صلوات الله عليهم). وبالإسلام المذكور تنحصر السعادة في الدنيا، والفوز بالثواب والأمن من العقاب في الآخرة.

وعليه لا يكون المعيار في مدى نجاحه صلى الله عليه وآله نجاحه في قيام المجتمع الإسلامي بكيانه العام، كما تضمنه الفصل الأول، بل نجاحه في قيام الإسلام الحق.

ومن هنا قد يأتي التساؤل عن دور النبي صلى الله عليه وآله في إظهار الحقيقة، وفي الحفاظ على جوهر الإسلام القويم. وعما صنعه على الأرض في سبيل ذلك.

---

(١) هذا البحث مستل من الفصل الأول من خاتمة كتابنا (فاجعة الطف) مع تصرف يناسب وضع هذا الكتاب، وزيادات نافعة إن شاء الله تعالى.

توهم فشل النبي صلى الله عليه وآله في مشروعه

بل قد يتوهم بعض الناس فشله صلى الله عليه وآله ـ ولو نسبياً ـ في ذلك، حيث لم يتفاعل عامة المسلمين معه في عصره، ولم يستطع إصلاحهم، بحيث ينهضون بحمل الدعوة بواقعها وصفائها.

فكانت الغلبة للمنحرفين والمنافقين، مما أدى إلى انحراف مسار السلطة في الإسلام من بعده صلى الله عليه وآله، لعجزه عن إقناع المسلمين، بحيث يتأثرون بحديثه وسيرته ويتفاعلون معه تشريعاً وسلوكاً، ويتمسكون بتعاليم الإسلام، ويتأدبون بآدابه.

توهم ضعف إدارة النبي صلى الله عليه وآله

كما قد يصل الأمر إلى توهم ضعف إدارته صلى الله عليه وآله، وفقده السيطرة على المسلمين، بتغاضيه عن مواقف المنافقين، واهتمامه بكثرة المسلمين كيف كانوا، وعدم أخذه بالحزم والاحتياط في الأمور، حتى تسنى للمنافقين ما أرادوا، وانهار مشروعه بواقعه المشرف، حتى كاد يقضى عليه من بعده، لولا جهود أهل بيته عليهم السلام وخاصّة أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم).

وغاية ما استطاعوا ـ بسبب الانحراف الذي حصل ـ أن أقاموا لدعوة الحق أمة مغلوبة على أمرها، والكثرة الكاثرة من المسلمين على خلافها، قد رضوا بالإسلام المحرّف الخاضع للسلطة، والجاري على ما تريد في السلوك والتشريع، والتي انتهت أخيراً بالتخلي رسمياً عن تبني الإسلام كنظام حاكم.

بل أغرق كثير منهم في الإرهاب والوحشية، بنحو يعكس صورة سيئة عن الإسلام القويم ونبيه العظيم صلى الله عليه وآله ـ تشريعاً وسلوكاً ـ يستغلها

أعداؤهما، كما نراه هذه الأيام.

بل سبق أن حصل ذلك في فترات متعاقبة من تاريخ الإسلام الطويل. كما في بعض فرق الخوارج، وثورة صاحب الزنج، وفرقة القرامطة، وغيرها، على ما أشرنا إليه آنفاً.

التشنيع على الشيعة في دعوى انحراف السلطة

وربما يتغاضى بعض المتعصبين عن أدلة الإمامة المحكمة، وعن الواقع التاريخي المؤسف لكثير من الصحابة، وعن حال المسلمين المزري نتيجة انحراف السلطة في الإسلام، ثم يغرق في التشنيع على الطائفة المحقّة التي تتبنى خط أهل البيت (صلوات الله عليهم)، وتدعي انحراف مسار السلطة في الإسلام، وخفاء الإسلام الحق على جمهور المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وآله وخروجهم عن كثير من تعاليمه صلى الله عليه وآله.

وذلك بدعوى: أن ذلك طعن في شخصه صلى الله عليه وآله الكريم وتوهين له، حيث لم يستطع بعد جهوده المكثفة في تلك المدة الطويلة أن يصلح جماعة معتداً بها من أتباعه، تصلح لحمل دعوته القويمة بصفائها ونقائها، والمحافظة عليها، وتبليغها الأجيال اللاحقة.

بل لم يثبت على الحق في ذلك الوقت إلا قلة قليلة لا تتجاوز عدد الأصابع، ولا تستطيع الوقوف أمام الكثرة الكاثرة التي خفيت عليها تعاليم الإسلام القويم بحقيقتها الصافية، وانحرفت عنها.

رد الدعاوى المذكورة

والحديث في التعقيب على ذلك ودفع هذه الشبهات، وإيضاح

موقف النبي صلى الله عليه وآله ومدى جهوده ونجاحه في مشروعه، يحتاج إلى جهد قد لا ننهض به، ولا نؤدي حقه المناسب في هذه العجالة.

غير أنّا نحاول أن نؤدي ما يتيسر لنا بيانه هنا من ذلك بعد الاتكال على الله تعالى، وطلب العون والتسديد منه جل شأنه. وذلك ببيان أمور:

الوظيفة الأهم للنبي صلى الله عليه وآله

الأول: أن الأوهام المذكورة ناشئة عن عدم تحديد الأولويات في وظيفة النبي صلى الله عليه وآله الشرعية. حيث سبق في مقدمة هذا البحث بتفصيل أن أول وظائفه وأهمها ـ كما هو حال سائر الأنبياء عليهم السلام ـ ليس هو إصلاح الناس واهتداءهم، بحيث يتقبّلون تعاليم الدين، ويتمسّكون بها ويحافظون عليها، ولا يخرجون عنها. بل هو تبليغ الناس بما عليهم وإيضاح معالم دينهم، وبيان أحكام الله تعالى وما فرضه عليهم عقيدة وعملاً، وإقامة الحجة عليهم في جميع ذلك. ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. وقد سبق أن من المعلوم ـ من الكتاب المجيد والسنة والشريفة ـ قلة المهتدين والمؤمنين.

ومع ذلك كله بقي النبي صلى الله عليه وآله مصمماً على المضي في أداء وظيفته وتبليغ رسالته مهما كلفه ذلك من ثمن، ومهما كانت النتائج على أرض الواقع، نتيجة تقصير الناس أنفسهم، والسلبيات الكثيرة في المجتمع الإسلامي الذي كان يعمل معه صلى الله عليه وآله، من دون تقصير منه صلى الله عليه وآله في التبليغ وأداء الوظيفة.

حتى إنه صلى الله عليه وآله قال ـ كما في حديث العرباض بن سارية ـ : «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلا

هالك...»[١] مشيراً إلى وضوح الإسلام الحق نتيجة جهوده صلى الله عليه وآله في التبليغ، بحيث لا تحجبه الشبهات، والفتن التي هي كقطع الليل المظلم، ومحاولات التعتيم والتضليل مهما كانت.

وقال الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[٢].

فإنه صريح في أن ما حصل من خلاف في اليوم الأول من وفاة النبي صلى الله عليه وآله وما حصل بعد ذلك ويحصل، كله بعد البينة ووضوح الحجة، حيث يكون أحد الطرفين بمنزلة الكافر الذي يسودّ وجهه يوم القيامة، ولا يعذر في موقفه، وإن انتحل الإسلام، وانتسب له.

كما تضمنته كثير من الآيات الشريفة في حق الأمم السابقة. قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللهَ**

---

(١) مسند أحمد ج:٤ ص: ١٢٦ حديث العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم، واللفظ له. تفسير القرطبي ج:٧ ص:١٣٨. سنن ابن ماجة ج:١ ص:١٥ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين. المستدرك على الصحيحين ج:١ ص: ١٧٥ كتاب العلم. المجازات النبوية ص:٤٤٢. وغيرها من المصادر.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٠٥-١٠٧.

يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1].

ما يقتضيه كون الإسلام خاتم الأديان

الثاني: أن رسول الله صلى الله عليه وآله يمتاز عن بقية الأنبياء عليهم السلام بأن دينه خاتم الأديان وشريعته خاتمة الشرائع، فلابد من أن يكون التبليغ بها بواقعها المشرف بحيث يصل إلى الناس كلهم مهما امتدّ بهم الزمن وتعاقبت الأجيال، بحيث يؤمن عليها من الضياع، لوضوح حجتها وإن تغاضى فيها من تغاضى، أو كابر في إنكارها من أنكر.

وقد حصل ذلك منه صلى الله عليه وآله فعلاً بوجه لافت للنظر، كما يتضح بأدنى نظرة موضوعية في أدلة مذهب أهل البيت (صلوات الله عليهم) وحججه.

ويتجلى ذلك حين نرى المستبصرين ـ مهما امتدّ بهم الزمن وتعاقبت الأجيال ـ يفاجَؤون بوضوح الحقيقة، وقوة أدلتها، بل قد يشعرون بالغبن والغباء لغفلتهم عنها قبل استبصارهم.

كما أنهم يدركون إجرام علماء السوء وغيرهم ممن كان يحاول التعتيم عليها، وإغفال عامة المسلمين عنها، وتشويه واقعها، بحيث ينصرفون عن التعرف عليها وعن النظر في أدلتها.

ولذا يتميز شيعة أهل البيت (أعزهم الله تعالى) عن غيرهم بالانفتاح والدعوة للنظر في الأدلة والبحث عن الحقيقة بموضوعية وإنصاف، بعيداً عن التعصب.

بينما يجِدّ الآخرون في الانغلاق، والنهي عن الفحص، والتحذير

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٣.

من التعرف على الشيعة والاطلاع على واقع دعوتهم، فضلاً عن النظر في أدلتهم وثقافتهم. كل ذلك لثقة الشيعة بأنفسهم وقوة أدلتهم، بخلاف الآخرين.

ولم يحصل ذلك إلا بسبب جهود النبي صلى الله عليه وآله المكثفة في التبليغ، وبُعد نظره للمستقبل، وإحكام تخطيطه له، ولو بتسديد الله عز وجل له في ذلك.

دعوى أن النبي صلى الله عليه وآله كان في تقية

لكن في حديث سهل بن القاسم النوشجاني: «قال رجل للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله إنه يروى عن عروة بن الزبير أنه قال: توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وهو في تقية. فقال: أما بعد قول الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ فإنه أزال كل تقية بضمان الله عز وجل له، وبيّن أمر الله. ولكن قريشاً فعلت ما اشتهت بعده. وأما قبل نزول هذه الآية فلعله»[1].

وقد يثير هذا الحديث التساؤل عن سبب قول عروة بن الزبير ذلك مع عدم نقل ذلك عمن هو قبله ممن هو على رأيه في أمر الخلافة.

ولاسيما أن دعوى تقية النبي صلى الله عليه وآله في أمر الخلافة تستبطن دعوى أن ما حصل في أمر الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله مباشرة لم يكن هو الوجه الأمثل الذي يريده الله عز وجل، وإنما لم يفصح النبي صلى الله عليه وآله بالوجه الأمثل تقية، لعدم سماح الظروف به. ومن المعلوم أن ذلك على خلاف وجهة نظر عروة ومن هو على خطه ورأيه.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج:٢ ص:١٣٨ باب:٣٥ حديث:١٠.

دفع الدعوى المذكورة

لكن من الظاهر أن المسلمين الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وآله وعاشوا معه كانوا بعد وفاته على علم بأنه صلى الله عليه وآله لم يفارقهم حتى أوضح لهم أمر الخلافة وعيّن الخلفاء من بعده، إلا أنهم فريقان:

الأول: من تغافل عن ذلك وتعمّد الخروج عنه بالقهر والمغالبة، ثم ادعى عدم نصه صلى الله عليه وآله على ذلك، ليبرر موقفه، وكانت الغلبة له.

وعلى عهده تمت الفتوح وكسبوا الغنائم الكثيرة، وتتابعت انتصاراتهم، واتسعت رقعة الإسلام، ودخل الناس فيه أفواجاً. وكان ذلك سبباً لفرض ذلك الواقع على أنه هو الإسلام الحق، ولاحترام قياداته، والإعجاب بإنجازاتها.

ولاسيما مع تركيز السلطة على احترام الصحابة، وحسن الظن باختيارهم وإقرارهم المزعوم لما حصل.

كما كان ذلك سبباً لغفلة جمهور المسلمين ممن لم يعايش النبي صلى الله عليه وآله عن السؤال عن سبب إهمال النبي صلى الله عليه وآله أمر الخلافة وبيان ضوابطها، مع ما له من الأهمية الكبرى في مصير الإسلام على الأمد البعيد.

وبسبب غفلة جمهور المسلمين المذكورة نسبت الانتكاسة في أيام عثمان له بشخصه، لضعف إدارته، وسوء تصرفه وتصرف بطانته وخاصته، من دون أن يثير التساؤل عن وجه إهمال النبي صلى الله عليه وآله أمر الخلافة من بعده.

الفريق الثاني: من كان على بصيرة من عدم شرعية ما حصل، وتوقع النتائج المريعة له على الأمد البعيد. ولهم في ذلك تصاريح مختلفة.

منها قول الصديقة فاطمة الزهراء سيدة النساء عليها السلام في خطبتها الكبرى بعد أن تعرضت لأهمية القرآن المجيد وأنه عهد الله تعالى قدمه إليهم قالت في بيان ما تضمنه: «فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك... وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً للفرقة...».

ثم ذكرت موقف المنحرفين بعد النبي صلى الله عليه وآله واستماعهم لهتاف الشيطان، وقالت: «ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم. هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، ﴿**أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾. فهيهات منكم وكيف بكم وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة، وأوامره واضحة. وقد خلفتموه وراء ظهوركم. أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون ﴿**بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**﴾ ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾»[1].

كما أنها عليها السلام قد ساقت خطبتها الصغرى من أولها لآخرها لتبكيتهم على صرفهم الخلافة عن موقعها، وختمتها ببيان المآسي التي سوف تحدث نتيجة الانحراف المذكور، فقالت: «أما لعمري لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً وزعافاً مبيداً، هنالك ﴿**يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ**﴾، ويعرف البطالون [التالون.خ ل] غبّ ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً، واطمئنوا للفتنة جاشاً، وأبشروا بسيف صارم،

(١) الاحتجاج ج:١ ص:١٣١. لاحظ فاجعة الطف ملحق:١ ص:٥٩٥ وما بعدها.

وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم! وأنى بكم وقد عميت عليكم! ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾»[١].

ولقد حاول أمير المؤمنين عليه السلام التغيير واسترجاع حقه فلم يتسن له ذلك، لتقصير الناس في القيام بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوفاء بالعهود والمواثيق، كما يأتي الإشارة إلى شيء منه عند التعرض لموقف الأنصار من النبي صلى الله عليه وآله لإعطائه غنائم هوازن للمؤلفة قلوبهم.

ثم أسدل الستار على ذلك كله، وبقي محفوظاً في صدور الرجال، خوفاً من السلطة، ولم يطلع عليه الجمهور، بل كان من الجمهور ما سبق من الاعتقاد بأن الواقع الذي حصل هو الإسلام الحق.

ولما استلم أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة بدأ يثير انتباه الجمهور تدريجاً ويعلن عن حسم النبي صلى الله عليه وآله أمر الخلافة، وحصرها بأهل بيته (صلوات الله عليهم)[٢]. ومنها اهتمامه بالتنبيه لحديث الغدير على ما ذكره المحدثون.

لكن قِصَر مدة خلافته عليه السلام واستلام معاوية السلطة بعده، وانقياد الأمور له، وإعادته التحجير على السنة النبوية، وسعيه الحثيث لتشويه الحقائق لتقديس الأولين، والمنع من نشر فضائل أهل البيت عليهم السلام، كل ذلك صار سبباً في بقاء اعتقاد جمهور المسلمين الأعظم ترك النبي صلى الله عليه وآله أمر الخلافة، وغفلتهم عن سلبياته.

---

(١) الاحتجاج ج:١ ص:١٤٩ . وتوجد للخطبتين مصادر كثيرة ذكرناها في ملحق ١، ٢ من كتابنا فاجعة الطف، من أراد الاطلاع عليها راجعها.

(٢) كما في الخطبة الشقشقية وغيرها.

أما بعد معاوية فالتكالب على السلطة، والحروب الكثيرة في سبيلها، وأنهار الدماء التي جرت، وانتهاك الحرمات العظمى، مع وضوح أن الغرض من ذلك هو المصالح الشخصية من دون مبرر ديني، أثار انتباه جمهور المسلمين للمشكلة، وصار سبباً لشعورهم بالحاجة الماسة لحلّ النبي صلى الله عليه وآله لها، وحسمه لأمر الخلافة، تجنباً للمأساة القائمة التي يعيشونها.

وربما رجعوا إلى الوراء حتى حروب الجمل وصفين والنهروان. بل حتى الثورة على عثمان وقتله.

ولاسيما بعد خفوت بريق فتوح الإسلام الأولى وانتصاراته وغنائمه، بتطاول الزمان، وموت كثير ممن نَعِم بها، وضعف بريق الصحابة، لظهور الصراع بينهم في الحروب المذكورة، وموت أكثرهم، وظهور عدم اشتراك الباقين منهم في الصراع الأخير.

بل صارت سعة الدولة وقوتها في عهد المروانيين الذين عاصرهم عروة بن الزبير سبباً لمحنة كثير من الناس، حيث لا يجدون ملجأ يهربون إليه من السلطة، ليتجنبوا بطشها.

ومن الطريف ما ذكره المدائني. قال: «وكان إبراهيم النخعي هارباً من الحجاج مدة أيام، ثم ظهر بعده، فقيل له: أين كنت؟ قال: بحيث يقول الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوّت إنسان فكدت أطير»[1]

(١) وفيات الأعيان ج:٢ ص:٣٩ في ترجمة الحجاج بن يوسف. ومثله في مروج الذهب ج:٣ ص:١٧٢.

كل ذلك أوجب ثقة الجمهور بعدم شرعية الخلافة القائمة، وإلحاحهم في السؤال عن سبب عدم حسم النبي صلى الله عليه وآله مشكلة الخلافة، منعاً للمآسي والتداعيات المريعة التي صاروا يعانون منها، والتي تنبأت بها الصديقة فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها) في الأيام الأولى، على ما تقدم في خطبتها الصغرى.

وحيث كان عروة بن الزبير من الرموز الدينية عند الجمهور في ذلك الوقت، فمن الطبيعي سؤاله عن ذلك وإحراجه. كما أن نُصبه وعداءه لأمير المؤمنين عليه السلام ـ حتى إنه كان يصيبه الرمع ويفقد اتزانه عند ذكره عليه السلام[1] ـ يمنعه من بيان الحقيقة.

فاضطر للجواب بأن النبي صلى الله عليه وآله توفي وهو في تقية، لتعقد الأمور عليه، بنحو يرى أن في الإفصاح عن ذلك محاذير تضرّ برسالته الشريفة، فاضطر لترك ذلك.

---

(١) **فعن أبي جعفر الإسكافي أنه قال: «وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير أنه كان يأخذه الرمع عند ذكر علي عليه السلام، فيسبه ويضرب بإحدى يديه الأخرى، ويقول: وما يغني أنه لم يخالف إلى ما نهي عنه وقد أراق من دماء المسلمين ما أراق»**. شرح نهج البلاغة ج:٤ ص:٦٩. **و(الرمع) بالراء تحرك الأنف غضباً. وفي طبعة أخرى: (الزمع) بالزاي وهو الرعدة.**

ومن الطريف ما عن عامر بن أبي عامر البجلي عن يحيى بن عروة. قال: «كان أبي إذا ذكر علياً نال منه. وقال لي مرة: والله ما أحجم الناس عنه إلا طلباً للدنيا. لقد بعث إليه أسامة بن زيد: ابعث لي بعطائي. فوالله إنك لتعلم أنك لو كنت في فم أسد لدخلت معك. فكتب إليه: إن هذا المال لمن جاهد عليه. ولكن لي مالاً بالمدينة فأصب منه ما شئت. قال يحيى: فكنت أعجب من وصفه إياه بما وصفه ومن عيبه له وانحرافه عنه». شرح نهج البلاغة ج:٤ ص:١٠٢.

وأعان عروة على مدعاه في وقته تحجير الأولين على السنة النبوية وما سبق من جهود معاوية ومن هو على شاكلته من النواصب في تشويه الحقائق، والمنع من الإفصاح بالحق ممن عنده علم به.

وكان جواب الإمام الرضا عليه السلام قاطعاً مشفوعاً بالحجة، إذ بعد الأمر الشديد بالتبليغ، والأمن على الدعوة بتعهد الله عز وجل بالعصمة من الناس فما هو المبرر للتقية؟!. ولا سيما بعد قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾[1].

ويناسب ذلك خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم الغدير، فقد جمعت كثيراً مما نزل من الله عز وجل أو بلغ به النبي صلى الله عليه وآله متفرقاً في حق أمير المؤمنين عليه السلام مما يقتضي بعضه رجوع المسلمين له بعد النبي صلى الله عليه وآله وقيامه هو وذريته مقامه، وخلافتهم عليهم السلام له صلى الله عليه وآله، مع تأكيد وتوضيح لا مجال معهما للتحوير والتأويل[2]. ولولا طول الخطبة لكان من الحسن إثباتها. ثم تلتها أحداث تؤكد مضامينها لا يسعنا استقصاؤها. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

شروط قيام الدعوة وإسماع صوتها

الثالث: أن كل دعوة لا تنهض بنفسها وتقوم على ساقها، بحيث يُسمع صوتها، ويُتعرف عليها، ويُعلم أنها على حق أو باطل، إلا بأن تتبناها جماعة معتد بها تدعو إليها وتسعى في نشرها والتعريف بها.

وهذه الجماعة طبيعياً على أقسام ثلاثة:

---

(١) سورة المائدة الآية: ٣.

(٢) بحار الأنوار ج:٣٧ ص:٢٠٤-٢١٧ باب: ٥٢ في أخبار الغدير حديث: ٨٦.

أولها: أهل البصائر الذين يتبنونها بإصرار ويثبتون عليها، ويضحون في سبيلها، مهما كلفهم ذلك، ويصمدون أمام المغريات والمثبطات مهما بلغت من قوة وعنف.

ثانيها: من يقتنعون بها كحقيقة ثابتة، قناعة تامة، وقد يضحّون في سبيلها. لكنهم كثيراً ما ينهارون أمام المغريات والمثبطات، فيخذلونها أو يتخلّون عنها، بل قد ينقلبون عليها، ويجِدّون في محقها.

قال الله عز وجل: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾[2]. وشواهد ذلك في الدعوات الدينية وغيرها كثيرة لا تحصى.

ثالثها: المنافقون والانتهازيون الذين لا يؤمنون بالدعوة، بل همّهم من أول الأمر مصالحهم أين كانت. وهم قد يتربصون بالدعوة الدوائر، فيحرّفونها من أجل مصالحهم وأطماعهم، أو ينقلبون عليها علناً إذا لم تخدم مصالحهم أو صارت ضدها.

ومن الظاهر أن القسم الأول أقل القليل. وهم لو بقوا لوحدهم أعجز من أن ينهضوا بالدعوة، ويوصلوها لعموم الناس، ويبلّغوهم بها ويسمعوهم صوتها، فضلاً عن أن يقنعوهم بها. ولابد مع ذلك من الاستعانة بغيرهم من القسمين الآخرين.

---

(١) سورة الحج الآية: ١١.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٥.

ومن الظاهر أن تمييزهم وتمييز أحد القسمين الآخرين عن الآخر أمر متعذر غالباً. بل لو أمكن صاحب الدعوة ذلك ـ ولو بالاستعانة بالوحي الإلهي في الدعوات الدينية ـ لصَعُب عليه إعلانه، لأنه يكون مثاراً لاتهامه بالتحيّز من قِبَل بقية الأقسام، خصوصاً المغفّلين من القسم الثاني، ومثاراً للتهريج والتشنيع عليه، بحيث قد ينتهي الحال بسلب الثقة به، فيتعثر مشروعه، حتى قد ينتهي بالفشل، ويقضى عليه في مهده.

على أن الاقتصار على القسم الأول يضر بالدعوة، ويعيق انتشارها، لقلّتهم وضعفهم كما سبق، فلا محيص عن التغاضي عن الفوارق المذكورة.

ومن هنا لم تخلُ دعوة يراد لها التوسع والانتشار عن الأقسام الثلاثة. كما لم نرَ دعوة ـ حقاً كانت أو باطلاً، دينية أو غيرها ـ طُبِّقت من غير المعصوم على أرض الواقع بحدودها وبالنحو الكامل، كما يتضح ذلك بأدنى نظرة فاحصة في الدعوات الدينية وغيرها على مدى العصور الطويلة. وما ذلك إلا لتأثر من يقوم بتطبيقها بالضغوط الداخلية والخارجية، وبالمصالح والرغبات الشخصية.

بل قد يضطر المعصوم لذلك نتيجة الضغوط المذكورة. غاية الأمر أنه ـ بسبب عصمته ـ يحسن تمييز الأولويات، ويختار الأولى منها فالأولى، بنحو يؤمن عليه من الخطأ، ومن الاهتمام بمصالحه الشخصية.

لكن ذلك لا يستلزم اختلاط الأوراق، وخفاء معالم الحق وأهله على الأمد البعيد في الدعوات الحقة المرعية من الله عز وجل، بل تكفل تعالى ببيان ضوابط الحق وتعريض من يدخل في الدعوة للامتحان العسير الذي يميز الصادق في إيمانه الثابت عليه من غيره.

قال عز اسمه: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾[2].

ويناسب ذلك روايات الحوض الكثيرة الواردة في صحابة النبي صلى الله عليه وآله ومعاصريه الذين نحن بصدد الحديث عنهم. ولاسيما ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله حيث يقول صلى الله عليه وآله: «بينا أنا قائم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم. فقلت: أين؟ قال: إلى النار والله. قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى. ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم. قلت: أين؟ قال: إلى النار والله. قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى. فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم»[3].

قال في لسان العرب: «وفي حديث الحوض فلا يخلص منهم إلا مثل همل النعم. الهمل ضوال الإبل، واحدها هامل. أي: أن الناجي منهم قليل قلة النعم الضالة».

ظروف ظهور الإسلام

الرابع: من المعلوم أن دعوة الإسلام القويمة قد ولدت في مكة

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٢-٣.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٦٠.

(٣) صحيح البخاري ج:٥ ص:٢٤٠٤، ٢٤٠٦، ٢٤٠٧، ٢٤٠٨ كتاب الرقاق: باب في الحوض.

المعظمة التي لها حرمتها في الجزيرة العربية، ومن وسط قبيلة قريش التي ينظر لها العرب باحترام عظيم، لأنها من سلالة النبي المعظم إبراهيم الخليل (على نبينا وآله وعليه الصلاة السلام)، وكان لها سدانة البيت وسيادة الحرم. وتأكّد احترامهم لهم بعد واقعة الفيل.

ومن هنا كان من الطبيعي ما حصل من وقوف قبائل قريش في وجهها، ومقاومتهم لها بشراسة، لأنها تقتضي انفراد بني هاشم بالسيادة، وتقضي على كبرياء بقية قبائل قريش، وتلغي امتيازاتها، كما تقدم.

وقد اضطر رسول الله ﷺ من أجل ذلك إلى الهجرة للمدينة المنورة، بعد أن اقتنع الأنصار بدعوته، وانتشر الإسلام بينهم، وتعهدوا بالدفاع عنه ونصره.

وقد ضاقت قريش بذلك، فاشتد الصراع بينهم وبين النبي ﷺ. وقد انتصر عليهم ووترهم في حروب مصيرية قادوها ضده، حاولوا فيها القضاء عليه وعلى دعوته، والتخلص منه، فلم يفلحوا، وكانت العاقبة له حتى قضى على كبريائهم، وفتح مكة عنوة، ثم أتبع ذلك بالاستيلاء على حنين، حيث أخضع قبيلة هوازن. وتبع ذلك خضوع ثقيف واعتناقهم الإسلام، على ما سبق.

وبذلك كسر كبرياء أهم القبائل في جنوب الجزيرة العربية، وفرض هيبته على الجزيرة العربية. وفي فترة قصيرة تيسر له ﷺ الاستيلاء عليها بكاملها، فانتشر الإسلام فيها طوعاً وكرهاً، وإيماناً ونفاقاً. كما تقدم بتفصيل.

صلوح شعب الجزيرة العربية لنشر الإسلام

وكان هذا فتحاً عظيماً في تلك المدة القصيرة، ومكسباً مهماً، لأن العرب في الجزيرة كانوا شعباً كثير العدد، بعيداً عن الحضارة والرفاه والدعة، وكانوا في ضنك من العيش، لم يخلدوا إلى الراحة، ولم يألفوا الترف. وقد تقدّم من أمير المؤمنين وسيدة النساء عليهما السلام التعرّض لذلك، بل هو من الظهور بحدّ لا يخفى على أحد.

كما أنهم أيضاً قد ألفوا القتال والصراع، وكانت الحروب مستمرة بينهم، ولا يشتدّ حرصهم على الحياة، كما أشار إليه قوله عزّ وجلّ عن اليهود: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾[1].

ومن الطبيعي حينئذٍ أنهم إذا اتحدوا وجمعتهم دعوة الإسلام القويمة، ورفعت من معنوياتهم، يستطيعون ـ ولو بضميمة المدّ الإلهي ـ أن يحملوا الإسلام للشعوب المحيطة بهم، ويوصلوا دعوته إليها، وينشروها بينها ولو أدى ذلك للحروب والقتال.

وقد تقدم أن إيصال دعوة الإسلام للشعوب وإسماعهم إياها من تتمة التبليغ بالإسلام، كما تقدم أنه الوظيفة الأساسية للنبي صلى الله عليه وآله، وأنه المقدم على كل شيء. فلابد من أن يعدّ له عدته، ويهيئ له مقدماته بمحافظته على تماسك المجتمع الإسلامي المذكور.

تعقد الأمور في شعب الجزيرة العربية

لكن عرب الجزيرة ـ مع ذلك ـ لا يخرجون عن الأقسام الثلاثة

---

(١) سورة البقرة الآية: ٩٦.

المتقدمة، وأهل البصائر والثبات فيهم قلة قليلة على النحو الذي تقدم في الأمر السابق، والغالب عليهم القسمان الآخران.

ويزيد الأمر تعقيداً أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم ينشر الإسلام بهذه السعة وبهذه السرعة إلا بعد صراع مرير وحروب وتر فيها الأقربين والأبعدين.

ولاسيما قريش التي كانت قبل النبوة تحسد بني هاشم على ما كانوا يتميزون به من صفات حميدة ومواقف نبيلة، فرضوا بها احترامهم عليها وعلى العرب كافة.

ثم صارت فيهم النبوة التي هي: **أولاً**: شرف لا يعدله شرف، ثم هي تقضي ـ بمقتضى الوضع الطبيعي مع قطع النظر عن التشريع ـ بثبوت السلطة فيهم ووجوب الطاعة لهم.

وثانياً: تقضي على امتيازات قريش، لأنها تبتني على إلغاء كل امتياز بين المسلمين سوى التقوى كما تقدم.

حتى إن أبا سفيان لما مرّ بعد إسلامه ـ بالوجه المتقدم والمعروف ـ على سلمان الفارسي وجماعة من السابقين للإسلام، فقالوا: لم تأخذ سيوف الله من عدوّ الله مأخذها. قال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش؟! ولما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأبي بكر معاتباً: لعلك أغضبتهم. وأمره باسترضائهم[1].

وفي حديث سدير الصيرفي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام:

---

(١) صحيح مسلم ج:٧ ص:١٧٣ باب فيما جاء في فضائل سلمان وصهيب وبلال. مسند أحمد ج:٥ ص:٦٤ بـاب في حديث عمرو بن عائذ. شرح نهج البلاغة ج:١٨ ص:٣٨ في كتاب له عليه السلام إلى سلمان قبل أيام خلافته. وغيرها من المصادر الكثيرة جداً.

«قال: جلس جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ينتسبون ويفتخرون، وفيهم سلمان رحمه الله. فقال له عمر: ما نسبتك أنت يا سلمان وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً فهداني الله بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد صلى الله عليه وآله، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد صلى الله عليه وآله، فهذا حسبي ونسبي يا عمر، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله، فذكر له سلمان ما قال عمر وما أجابه. فقال رسول الله: يا معشر قريش، إن حسب المرء دينه، ومروءته خلقه. وأصله عقله. قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

ثم أقبل على سلمان رحمه الله، فقال له: يا سلمان إنه ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى الله. فمن كنت أتقى منه فأنت أفضل منه»[1].

حقد قريش على الإسلام وبني هاشم

ويضاف إلى ذلك أن قريشاً كانت من أشدّ القبائل ضدّ الإسلام، وقادت حروباً كثيرة معه. وخسرت نتيجة ذلك أكابرها وشخصياتها البارزة ذات المقام الرفيع فيها، حتى قال الشاعر بعد حرب بدر مقطوعة يحرض فيها قريشاً على أمير المؤمنين عليه السلام تقدمت عند الكلام في حرب بدر.

وخلّف ذلك ثارات كثيرة وأحقاداً عميقة، حتى قال عمر لابن عباس: «إنهم ينظرون إليكم نظر الثور إلى جازره»[2]. وحتى قالوا: إن

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ١٤٧ المجلس:٥ حديث:٥٤.

(٢) شرح نهج البلاغة ج:١ ص:١٩٠ في ذكر قصة الشورى. وأيضاً في ج:١٢ ص:٩ في كلام له عليه السلام في شأن عمر بن الخطاب. بحار الأنوار ج:٣١ ص:٧٦.

محمداً كنخلة نبتت في كناسة[١]. حقداً على بني هاشم بعد أن تعذر عليهم أن ينالوا من شخص النبي الكريم صلى الله عليه وآله.

عدم انسجام موقف الوحي من الخلافة مع واقع قريش

وذلك لا ينسجم مع الوحي الذي كان يسير باتجاه فرض احترام بني هاشم عامة[٢]، واصطفاء أهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) خاصة،

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج:٣ ص:٢٤٧ في قوله صلى الله عليه وآله: أنا خير خيركم قبيلاً، واللفظ له. سنن الترمذي ج:٥ ص:٢٤٣ في ذكر مناقبه صلى الله عليه وآله. إمتاع الأسماع ج:٣ ص:٢٠٥ في ذكر شرف أصله صلى الله عليه وآله وتكريم حسبه. كتاب سليم بن قيس ص:٢٣٥، ٣٧٩. الفضائل لشاذان بن جبرئيل القمي ص:١٣٤.

(٢) **احترام بني هاشم عامة، خصوصاً ذرية النبي صلى الله عليه وآله، لا يرجع إلى تميزهم بالفضل عند الله عز وجل، وإنما أفضل الناس عند الله أو أكرمهم أتقاهم، كما صرّح به الكتاب المجيد، واستفاضت به السنة الشريفة. بل لأن احترامهم مظهر لاحترام النبي صلى الله عليه وآله وتكريمه بسبب انتسابهم له. وبه يتم الشدّ العاطفي لشخصه الكريم.**

وتميزهم بذلك في أجيال المسلمين المتعاقبة مذكر به صلى الله عليه وآله وبرسالته القويمة مهما طال الزمن. وذلك من أسباب قوة الإسلام وخلود دعوته، وحيويته وفاعليته. وقد اعترف بذلك ـ فيما بلغنا ـ بعض الرموز الدينية من غير المسلمين ممن يتميز بثقافة رفيعة المستوى.

وتبعاً لذلك نرى تأثيرهم الفاعل في المجتمع المسلم:

أولاً: في التذكير بدعوة الإسلام الحقة على استمرار العصور وتعاقب الأجيال، حتى صارت قبورهم وآثارهم ومواسم ذكرياتهم ملجأ لذوي الحاجات، ووسيلة إلى الله عز وجل في حلّ مشاكل الناس وتنفيس كرباتهم واستجابة دعائهم... إلى غير ذلك مما يذّكر بالله عز وجل وبدينه القويم.

نظير ما ورد عن عمر بن الخطاب من أنه استسقى بالعباس عام الرمادة. فقد أخذ بيده وقال: «اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وآله وبقية آبائه وكُبر رجاله، فإنك تقول، وقولك الحق: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ فحفظتهما بصلاح آبائهما، فاحفظ اللهم نبيك صلى الله عليه وآله في عمه، فقد دلَونا به إليك مستشفعين مستغفرين».

وجعل الخلافة والإمامة فيهم، ووجوب موالاتهم ومودتهم والبراءة من أعدائهم.

وأولهم أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان محسوداً من قبل المسلمين من المهاجرين الأولين من قريش، لمواقفه المشهورة في حروب الإسلام، ومناقبه الكثيرة التي نوّه بها القرآن الكريم والنبي العظيم صلى الله عليه وآله. وكان بغضه والنيل منه وشتمه شائعاً بينهم[1].

الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٥٥٧ في ذكر القحط وعام الرمادة.

وثانياً: في تأثيرهم بسبب احترام الناس لهم في حلّ مشاكلهم فيما بينهم، وإصلاح ذات بينهم وتخفيف أزماتهم وما جرى مجرى ذلك. نرى ذلك عياناً ونعيشه وجداناً. وفي ذلك أيضاً تأكيد احترام النبي صلى الله عليه وآله والدين الذي جاء به.

نعم على بني هاشم، خصوصاً ذرية النبي صلى الله عليه وآله، أن يرعوا حرمة الانتساب إليه صلى الله عليه وآله في التزامهم الديني وتحلّيهم بمكارم الأخلاق وحميد الخصال. كما قال الله عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾. سورة الأحزاب الآية: ٣٠-٣١.

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام مع الشقراني مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال عليه السلام له: «يا شقراني إن الحسن من كل أحد حسن، ومنك أحسن، لمكانك منا. وإن القبيح من كل أحد قبيح، ومنك أقبح». وعظه على جهة التعريض لأنه كان يشرب. مناقب آل أبي طالب ج:٣ ص:٣٦٢. عنه في بحار الأنوار ج:٤٧ ص:٣٤٩-٣٥٠ باب أحوال أصحابه وأهل زمانه حديث:٥٠.

فإذا كانت نسبة الزوجية ونسبة الولاء له صلى الله عليه وآله تقتضيان مراعاة حرمة الانتساب، فكيف بنسبة الرحمية له، فضلاً عن نسبة البنوّة؟!.

(١) راجع: مجمع الزوائد ج:٩ ص: ١٢٩ كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام: باب منه جامع فيمن يحبه ومن يبغضه. مسند أبي يعلى ج:٢ ص:١٠٩ مسند سعد بن أبي وقاص. تاريخ دمشق ج:٤٢ ص:٢٠٤ في ترجمة علي بن أبي طالب. مسند البزار ج:٩ ص:٣٢٣ ما أسند

موقف قريش من أمير المؤمنين عليه السلام

ثم هو بعد ذلك العدوّ اللدود عند من أسلم بعد تلك الحروب من قريش، لكثرة من قتل منهم فيها ووترهم بهم. فهو عضيد النبي صلى الله عليه وآله من يومه الأول، ويده الباطشة وسيفه القاطع فيها بعد ذلك، خصوصاً في المواقع الحاسمة.

وتقدم عند الكلام في حرب بدر مقطوعة شعرية لأسيد بن أبي إياس يحرّض فيها قريشاً عليه، كما أشرنا إليه.

كما أنه هو عليه السلام الذي أفشل ـ بمقتضى الواقع المنظور لهم ـ مخططهم لقتل النبي صلى الله عليه وآله والتخلص منه، وذلك بمبيته عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله عند هجرته للمدينة المنورة، التي كانت مفتاحاً لانتصاره صلى الله عليه وآله عليهم وكسر شوكتهم[1].

أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله عن رسول الله.

(١) **بدأت هجرة المسلمين للمدينة المنورة بعد بيعة العقبة الأولى أو الثانية، فخرجوا إليها متفرقين، ولم يهاجر النبي صلى الله عليه وآله بنفسه إلا بعد أن تآمرت قريش عليه، على ما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾**. سورة الأنفال الآية: ٣٠.

وقرّ قرارهم أخيراً على قتله. وذلك بأن يختاروا من كل قبيلة واحداً منهم، فيجتمعون عليه فيضربوه ليلاً بأسيافهم ضربة رجل واحد. فلا يكون لبني هاشم طاقة بقتال جميع قريش. فأمره الله عز وجل بأن يهاجر للمدينة في الليلة التي اتفقوا على تنفيذ ذلك فيها، فخرج، وأمر أمير المؤمنين عليه السلام أن ينام على فراشه. أنساب الأشراف ج:١ ص:٣٠٧ في الهجرة.

قال اليعقوبي: «وإن الله عز وجل أوحى في تلك الليلة إلى جبرئيل وميكائيل: إني قضيت على أحدكما بالموت، فأيكما يواسي صاحبه؟ فاختار كلاهما الحياة. فأوحى الله إليهما: هلّا كنتما كعلي بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمد، وجعلت عمر أحدهما أكثر

ومن الطبيعي ـ مع كل ذلك ـ أن يسخطوا اتجاه الوحي الذي يجهد النبي صلى الله عليه وآله في تبليغه، ويحاولوا الالتفاف عليه والتخلص منه.

موقف الأنصار من أجل غنائم هوازن

وقد حصل من الأنصار ـ الذين أسلموا طوعاً، وكثر الثناء عليهم في الكتاب المجيد والسنة الشريفة، ورأوا الخير الكثير ببركة إسلامهم ـ نظير ذلك حين خصّ صلى الله عليه وآله المؤلفة قلوبهم من قريش وغيرهم بحصة كبيرة من غنائم حنين.

فعن أبي سعيد الخدري أنه قال: «لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أعطى من تلك الغنائم في قريش وقبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئاً وجدوا في أنفسهم، حتى قال قائلهم: لقي رسول الله قومه. فأخبر سعد بن عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، فقال له: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا

من عمر الآخر، فاختار علي الموت وآثر محمداً بالبقاء، ونام في مضجعه. اهبطا فاحفظاه من عدوه. فهبط جبرئيل وميكائيل فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه يحرسانه من عدوه، ويصرفان عنه الحجارة، وجبرئيل يقول: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب، من مثلك يباهي الله بك ملائكة سبع سماوات... وأتت قريش فراشه فوجدوا علياً عليه السلام فقالوا: أين ابن عمك...». تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٣٣-٣٤ في خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكة.

وقد روي أنه نزل في مبيت أمير المؤمنين عليه السلام في فراش النبي صلى الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ الله وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. أمالي الشيخ الطوسي ص:٤٤٦ مجلس:١٦ حديث:٩٩٦. أسد الغابة في معرفة الصحابة ج:٤ ص:٢٥ في ترجمة علي بن أبي طالب. وذكر في تفسير التبيان أنه مروي عن أبي جعفر عليه السلام ونسبه أيضاً إلى ابن شبة، وفي مجمع البيان إلى السدى.

والحديث في الهجرة المباركة طويل نكتفي منه بما ذكرنا.

من قومي. قال: فاجمع قومك لي في هذه الحضيرة. فجمعهم، فأتاهم رسول الله...» ثم ذكر حديثه العاطفي معهم بنحو أبكاهم حتى اخضلّت لحاهم ورضوا[١].

وفي صحيح زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال بعد ذكر إعطاء رسول الله صلى الله عليه وآله الغنائم لرؤساء قريش وغيرهم ليتألفهم: «فغضبت الأنصار، واجتمعت إلى سعد بن عبادة، فانطلق بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بالجعرانة، فقال: يا رسول الله أتأذن لي بالكلام؟ فقال: نعم. فقال: إن كان هذا الأمر من هذه الأموال التي قسمت بين قومك شيئاً أنزله الله رضينا، وإن كان غير ذلك لم نرض. قال زرارة: وسمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا معشر الأنصار، أكلكم على قول سيدكم سعد؟ قالوا: سيدنا الله ورسوله. ثم قالوا في الثالثة: نحن على مثل قوله ورأيه. قال زرارة: فسمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: فحطّ الله نورهم[٢]،

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٧١ ذكر قسمة غنائم حنين، واللفظ له. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٦١ ذكر غزوة رسول الله صلى الله عليه وآله هوازن بحنين. الدرر لابن عبد البر ص:٢٣٥ ذكر أخبار حنين وقسمة غنائمها. مسند أحمد بن حنبل ج:٣ ص:٧٦ مسند أبي سعيد الخدري. مجمع الزوائد ج:١٠ ص:٢٩ باب فضل الأنصار، والمغازي للواقدي ج:٢ ص:٩٥٦-٩٥٨.

(٢) **هذه الكلمة من الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر (صلوات الله عليه) تكشف عن مدى أهمية الردّ على النبي صلى الله عليه وآله ومحاذيره. ولاسيما مع تأكيد الكتاب المجيد على لزوم التسليم له. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...﴾ سورة الأحزاب الآية: ٣٦. وقال عز وجل: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾**. سورة النساء الآية: ٦٥.

فالأنصار الذين أسلموا طوعاً، وبايعوا النبي صلى الله عليه وآله على أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم، كما تقدم. كما بايعوه على السمع والطاعة وأن لا ينازعوا

. . . . . .

الأمر أهله ويقوموا بالحق حيث كان، ولا يخافوا في الله لومة لائم، كما في حديث عبادة بن الصامت. مسند أحمد ج:٣ ص:٤٤١ حديث عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه رضي الله عنهم، واللفظ له. السنن الكبرى للبيهقي ج:٨ ص:١٤٥ كتاب قتال أهل البغي: جماع أبواب الرعاة: باب كيفية البيعة. السنن الكبرى للنسائي ج:٤ ص:٤٢١ كتاب البيعة: البيعة على السمع والطاعة، ج:٤ ص:٤٢٢ البيعة على القول بالعدل، ج:٥ ص:٢١١-٢١٢ كتاب السير: البيعة. مسند ابن الجعد ص:٢٦١ شعبة عن سيار بن أبي سيار أبي الحكم العنزي. سير أعلام النبلاء ج:٢ ص:٧ في ترجمة عبادة بن الصامت. تذكرة الحفاظ ج:٣ ص:١١٣١ في ترجمة ابن عبد البر. تاريخ دمشق ج:٢٦ ص:١٩٦ في ترجمة عبادة بن الصامت. صحيح ابن حبان ج:١٠ ص:٤١٣ باب بيعة الأئمة وما يستحب لهم: ذكر البيان بأن النصح لكل مسلم في البيعة التي وصفناها كان ذلك مع الإقرار بالسمع والطاعة. مسند أبي عوانة ج:٤ ص:٤٠٧ بيان حظر منازعة الإمام أمره وأمر أمرائه ووجوب طاعتهم.

وهم أيضاً الذين قال النبي صلى الله عليه وآله لهم ـ كما في حديث العرباض بن سارية ـ: «وقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً...». مسند أحمد بن حنبل ج:٤ ص:١٢٦ حديث: العرباض بن سارية، واللفظ له. سنن ابن ماجة ج:١ ص:١٦ باب اتباع الخلفاء الراشدين المهديين. المستدرك على الصحيحين ج:١ ص:٩٦ كتاب العلم. المعجم الكبير ج:١٨ ص:٢٤٧ فيما رواه عبد الرحمن بن عمرو السلمي عن العرباض بن سارية، وص:٢٥٧ فيما رواه ابن جبير عن العرباض بن سارية. وغيرها من المصادر الكثيرة.

بل في رواية للطبراني أنه صلى الله عليه وآله قال: «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأطيعوا من ولّاه أمركم، ولا تنازعوا الأمر أهله...». المستدرك على الصحيحين ج:١ ص:٩٦ كتاب العلم: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، واللفظ له. المعجم الكبير للطبراني ج:١٨ ص:٢٤٨. تاريخ دمشق ج:٤٠ ص:١٧٧ في ترجمة عرباض بن سارية السلمي..

هؤلاء أنفسهم قد تعرضوا لخذلان الله تعالى، وحطّ الله نورهم بسبب ردّهم على النبي صلى الله عليه وآله.

وذلك منهم يشبه ـ في الجملة ـ ما صدر من ذي الخويصرة التميمي، حيث جابَه النبي صلى الله عليه وآله باستهتار بأنه صلى الله عليه وآله لم يعدل. وكانت عاقبته أنه صار من الخوارج، كما ذكره أهل

. . . . . .

الحديث والمؤرخون.

ونقتصر من ذلك على ما رواه الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد الخدري. قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسّم قسماً، إذ أتاه ذو الخويصرة ـ وهو رجل من بني تميم ـ فقال: يا رسول الله اعدل. فقال رسول الله ﷺ: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟! قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل.

فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه. فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم. يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم. يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء. ثم ينظر إلى نضيّه ـ وهو قدحه ـ فلا يوجد فيه شيء. ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء. قد سبق الفرث والدم. آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر. ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ. وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه. فأمر بذلك الرجل، فالتمس فوجد، فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته». صحيح البخاري ج:٤ ص:١٧٩ كتاب بدء الخلق: باب علامات النبوة، واللفظ له. صحيح مسلم ج:٣ ص:١١٢-١١٣ كتاب الزكاة: باب التحريض على قتال الخوارج. صحيح ابن حبان ج:١٥ ص:١٤٠-١٤١ باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن والحوادث: الإخبار عن خروج أهل النهروان على الإمام وشق عصا المسلمين. وغيرها من المصادر الكثيرة جداً.

أما الأنصار فربما يكون من مظاهر خذلانهم:

أولاً: أنهم أوقدوا في السقيفة ناراً كان ضوؤها لغيرهم. حيث حاولوا مسابقة قريش على الخلافة، فكانت النتيجة لصالح قريش، واعتبروا معتدين في محاولتهم، بمقتضى العرف العام، ولتصريح النبي ﷺ بأن الخلافة والإمامة في قريش.

ولو أنهم بدلاً من ذلك ـ وتفادياً لما حصل ـ سبقوا قريشاً فأصروا على الانتظار بالبيعة بالخلافة حتى يفرغ أمير المؤمنين عليه السلام من تجهيز رسول الله ﷺ، ثم تكون البيعة له عليه السلام ـ تنفيذاً لعهد رسول الله ﷺ الذي لم يغب عن ذاكرة المسلمين، لقرب العهد به، ولأنه عليه السلام أوسط قريش نسباً وأقربهم من رسول الله ﷺ، وأسبقهم سابقة وأعظمهم جهاداً في

. . . . . .

الإسلام ـ لكانوا أقوى حجة وأبعد عن العدوان. وقد قالت الأنصار أو بعضهم عند اشتداد النزاع: «لا نبايع إلا علياً». شرح نهج البلاغة ج:٢ ص:٢٢ حديث السقيفة. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٤٤٣ أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٣٢٥ حديث السقيفة وخلافة أبي بكر.

بل كان المهاجرون والأنصار لا يشكّون في علي عليه السلام وقال المنذر بن الأرقم: «لو طلبها ـ يعني علياً عليه السلام ـ لم ينازعه أحد». تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:١٢٣ في خبر سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي بكر.

وثانياً: أنهم تقاعسوا عن نصر أمير المؤمنين عليه السلام حينما حاول أن يسترجع حقه، فقد روى أنه عليه السلام طلب من أربعين رجلاً من المسلمين أو أكثر أن يأتوا إليه محلقين فلم يأت منهم إلا ثلاثة أو أربعة. ولاسيما أنه عليه السلام حمل الصديقة سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام مطالباً بنصره في استرجاع حقه.

وقد ناشدتهم واستنهضتهم لنصرها في خطبتها الكبرى، مذكرة لهم بأنهم الخيرة التي اختيرت لأهل البيت (صلوات الله عليهم)، وأن المرء يحفظ في ولده، فلم يفعلوا. كما أنها عليها السلام قد ساقت خطبتها الصغيرة مع نساء المهاجرين والأنصار لذم رجالهن، وبيان نقضهم العهد وتخاذلهم وتحذيرهم من مغبة ما فعلوا. ولما جاؤوها معتذرين نهرتهم وقالت: «إليكم عني، فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم».

وانتهى الأمر بهم إلى أن عمر لما عين من بعده الشورى بالوجه المعروف استدعى أبا طلحة زيد بن سهل الأنصاري. وقال: «يا أبا طلحة إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم». تاريخ الطبري ج:٣ ص:٢٩٤ قصة الشورى، واللفظ له. تجارب الأمم ج:١ ص:٤١٨ خلافة عثمان. التذكرة الحمدونية ج:٣ ص:٣٢٩ وصايا أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. الكامل في التاريخ ج:٣ ص:٦٧ ذكر قصة الشورى. **كما أمر عمر بقتل من خرج عن الشورى. وبذلك يكون من إعزازهم للإسلام قتلهم أمير المؤمنين عليه السلام إن خالف ما رسمه عمر في الشورى.**

نعم نصر كثير منهم أمير المؤمنين عليه السلام لما استلم السلطة. حتى إذا قتل خَفَت نورهم، ولم يبق مع أهل البيت عليهم السلام منهم إلا القليل.

. . . . . .

وثالثاً: أنه لم يخرج مع الإمام الحسين عليه السلام في نهضته المباركة منهم ومن أبنائهم إلا القليل، ولم يعرف بعد ذلك ولاؤهم لأهل البيت (صلوات الله عليهم).

بل يظهر من بعض الأحاديث أنهم لم يكونوا شيعة لهم عليهم السلام بعد الإمام الحسين عليه السلام. ففي حديث عنبسة بن مصعب: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أشكو إلى الله وحدتي وتقلقلي بين أهل المدينة حتى تقدموا وأراكم وآنس بكم. فليت هذه الطاغية أذن لي، فأتخذ قصراً في الطائف، فسكنته وأسكنتكم معي، وأضمن له أن لا يجيء من ناحيتنا مكروه أبداً». الكافي ج:٨ ص:٢١٥ حديث:٢٦١.

وفي حديث علي بن عبد العزيز: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: والله إني لأحب ريحكم وأرواحكم وزيارتكم. وإني لعلى دين الله ودين ملائكته. فأعينوا على ذلك بورع. أنا في المدينة بمنزلة الشعرة أتقلقل، حتى أرى الرجل منكم فأستريح إليه». المحاسن ص:١٦٣ كتاب الصفوة والنور والرحمة باب:٣١ حديث:١.

وروى أبو عمر النهدي قال: «سمعت علي بن الحسين يقول: ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يحبنا». شرح نهج البلاغة ج:٤ ص:١٠٤. الغارات ج:٢ ص:٥٧٣.

وعن عروة بن الزبير قال: «كنا جلوساً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فتذاكرنا أعمال أهل بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم، ألا أخبركم بأقل القوم مالاً، وأكثرهم ورعاً، وأشدهم اجتهاداً في العبادة؟ قالوا: من؟ قال: علي بن أبي طالب عليه السلام.

قال: فوالله إن كان في جماعة أهل المجلس إلا معرض عنه بوجهه، ثم انتدب له رجل من الأنصار، فقال له: يا عويمر، لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها. فقال أبو الدرداء: يا قوم إني قائل ما رأيت، وليقل كل قوم منكم ما رأوا. شهدت علي بن أبي طالب عليه السلام بشويحطات النجار وقد اعتزل من مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات النخل...». أمالي الشيخ الصدوق ص:١٣٧ المجلس:١٨ حديث:٩. روضة الواعظين ص:١١١.

وأبو الدرداء قد توفي سنة ثلاث وثلاثين. وهذا الحديث كان منه وأهل المدينة بعد لم يبعدوا عن عهد النبي صلى الله عليه وآله، وقد ورد منه في حق أمير المؤمنين عليه السلام ما ورد، وكان من مواقف أمير المؤمنين عليه السلام المشهورة ما كان. ومع هذا كان موقفهم منه عليه السلام ومن أهل البيت عليهم السلام بعد ذلك هكذا!.

. . . . . .

وروي أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لما أراد أن يرسل دعاته للدعوة إليهم قال: «لا أرى بلداً إلا وأهله يميلون عنّا إلى غيرنا. أما أهل الكوفة فميلهم إلى ولد علي بن أبي طالب. وأما أهل البصرة فعثمانية. وأما أهل الشام فسفيانية مروانية. وأما أهل الجزيرة فخوارج. وأما أهل المدينة فقد غلب عليهم حب أبي بكر وعمر، ومنهم من يميل إلى الطالبيين. ولكن أهل خراسان قوم فيهم الكثرة والقوة والجلد وفراغ القلوب من الأهواء». فبعث دعاته إلى خراسان. أنساب الأشراف ج:٤ ص:٨١ ترجمة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.

مع أن الأنصار هم الثقل الأكبر في المدينة المنورة، فلو كان الغالب عليهم التوفيق لولاء أهل البيت عليهم السلام لم يقل ذلك.

على أن أمير المؤمنين عليه السلام قد دعم الأنصار حينما هاجمتهم قريش بعد أن استتبت لهم الأمور، وبعد أن انتصروا عليهم في الصراع على الخلافة. شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:٢٣ وما بعدها من أخبار السقيفة... .

كما أن قريشاً لم تكرمهم حتى في الصدر الأول، فقد فضّل عمر المهاجرين عليهم في العطاء، ففرض للمهاجرين خمسة آلاف وللأنصار أربعة آلاف. المصنف لابن أبي شيبة ج:٧ ص:٦١٨ كتاب الجهاد وما قالوا في الفروض وتدوين الدواوين. السنن الكبرى للبيهقي ج:٦ ص:٣٥٠ كتاب قسم الفيء والغنيمة باب: التفضيل على السابقة والنسب. فتح الباري ج:٧ ص:٢٤٩. تاريخ دمشق ج:٣١ ص:١٠٤ في ترجمة عبد الله بن عمر. تاريخ الإسلام ج:٣ ص:٢٧٢-٢٧٣. وغيرها من المصادر. **ولم يكن لهم نصيب ظاهر في قيادة الجيوش وولاية الأمصار.**

أما بعد ذلك فقد اشتد الأمويون عليهم، واستخفوا بهم. وأخيراً أوقعوا بهم وبأهل المدينة عامة في واقعة الحرة المعروفة.

ومما يشهد بضعف كيان الأنصار وانحلال جمعهم، أن سعد بن عبادة لما امتنع من بيعة أبي بكر لم يجبر على البيعة خوفاً من تعصب الأنصار له. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٣٣١ حديث السقيفة وخلافة أبي بكر. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٤٥٩ ذكر الخبر عما جرى بين المهاجرين والأنصار في أمر الأمارة في سقيفة بني ساعدة. الإمامة والسياسة ج:١ ص:١٧ تخلف سعد بن عبادة رضي الله عنه عن البيعة.

وفرض الله للمؤلفة قلوبهم سهماً في القرآن»[1].

فإذا كان هذا موقف الأنصار من أجل الأموال، فكيف يكون موقف الحاسدين والموتورين القرشيين من العهد بالخلافة لأمير المؤمنين؟!.

كما أن النبي صلى الله عليه وآله قد عانى في المدينة قبل انتشار الإسلام مذ كان

لكن تضاءل أمره تدريجاً، حتى إنه لم يطق البقاء في المدينة، لانشغال الأنصار بالفتوح والغنائم، وضعف التعصب منهم له ضدّ الولاة. فذهب إلى حرّان، وقتل هناك، ولم ينتطح في دمه عنزان. ولو كان بقي له منهم من يتعصب له، ويحفظ كرامته وهيبته، لكان الأولى به أن يبقى في المدينة عزيزاً في قومه مهاباً في بلده، له وجه منظور في مقابل السلطة.

ومن القريب أن يكون ذلك كله لما سبق من الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام من أن الله حطّ نورهم، لردّهم على رسول الله صلى الله عليه وآله، وعدم تسليمهم ورضاهم بما قام به.

ويشير إلى أهمية ذلك ما تقدم من قول أمير المؤمنين عليه السلام باعتزاز: «ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أني لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعة قط...».

نهج البلاغة ج:٢ ص:١٧١.

ومن هنا يبدو رشد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، واحتياطها لنفسها، فإن أحد أعذارها في توقفها عن زواج رسول الله صلى الله عليه وآله منها أنها غيرى، وتخشى أن يبدو منها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ما يكره، فلم يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وعدها أن يدعو الله تعالى لها أن يذهب غيرتها.

الطبقات الكبرى ج:٨ ص:٩٠، ٩١ في ترجمة أم سلمة. السيرة الحلبية ج:٣ ص:٤١٠. مسند أحمد ج:٦ ص:٣٠٧ حديث أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وآله. السنن الكبرى للبيهقي ج:٧ ص:٣٠١ كتاب القسم والنشوز: باب الحال التي يختلف فيها حال النساء. سير أعلام النبلاء ج:٢ ص:٢٠٣-٢٠٥ في ترجمة أم سلمة أم المؤمنين. الإصابة ج:٨ ص:٣٤٣ في ترجمة هند بنت أبي أمية. وغيرها من المصادر الكثيرة.

فعلى المؤمن الرشيد التسليم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله في جميع أموره، والحذر من هفوات اللسان والجنان. ونسأل الله عز وجل العصمة والتسديد. إنه أرحم الراحمين. وولي المؤمنين. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) الكافي ج:٢ ص:٤١١ باب المؤلفة قلوبهم، حديث: ٢.

المجتمع الإسلامي صغيراً من إثارة الشقاق القبلي بين الأوس والخزرج[١]، وبين الأنصار والمهاجرين من قريش[٢].

فكيف صار الحال بعد انتشار الإسلام وكثرة المنافقين وضعاف الإيمان؟!.

ويزيد الواقع تعقيداً أمور:

فارق السن

أحدها: فارق السن، فإن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) كان في دور الشباب، ومن الصعب جداً تقدمه على من هو في طبقته، فضلاً عمن هو أسن منه من الكهول والشيوخ، في مجتمع قبلي لم يألف انحصار السلطة بعائلة خاصة والخضوع لها، وغضّ النظر عن مثل ذلك.

كما هو الحال في المجتمعات المتدينة أو المتحضرة التي تتقبل ذلك نتيجة نظام ديني أذعن له المجتمع تدريجاً واستحكم في نفوسهم. وهو الذي انتهى إليه الشيعة مع الأئمة عليهم السلام. أو نظام سلطوي فرض نفسه بالقوة، كما في الدول القائمة في تلك العصور، التي قد ينتهي بها الأمر إلى القبول بسلطة الصبيان والنساء من تلك العائلة، وإغفال المميزات من غيرها.

---

(١) صحيح البخاري ج:٥ ص:٥٨-٥٩ كتاب المغازي: باب حديث الإفك. مجمع الزوائد ج:٩ ص:٢٣٨ كتاب المناقب: باب حديث الإفك. المعجم الكبير ج:٢٣ ص:١٢٧ باب: عائشة بنت أبي بكر الصديق زوج رسول الله.

(٢) صحيح البخاري ج:٦ ص:٦٣ وما بعدها في تفسير سورة المنافقين. صحيح مسلم ج:٨ ص:١٩ باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً. تاريخ الطبري ج:٢ ص:٢٦٠ وما بعدها في ذكر غزوة بني المصطلق. وغيرها من المصادر الكثيرة.

ويناسب ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها، فتقول: إن وُلِّيَ عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وإن كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم»[١].

وما ينسب إلى المغيرة بن شعبة من قوله: «أتريدون أن تنظروا حبل الحبلة من أهل هذا البيت. وسّعوها في قريش تتسع»[٢].

خشونة أمير المؤمنين عليه السلام في ذات الله

ثانيها: ما عرف عن أمير المؤمنين عليه السلام من أنه خشن في ذات الله عز وجل، وأنه لا يهادن، ولا يحابي، ويتحرى الحق بحدوده، ولا يتجاوزه مهما كلفه ذلك.

ومن ذلك أنه لما رجع من اليمن بجيشه الذي معه، ليلتحق برسول الله صلى الله عليه وآله بمكة في حجة الوداع استخلف على جيشه رجلاً، وسبقهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة، وأخبره بما كان منه في ذهابه لليمن، فسرّ صلى الله عليه وآله بذلك. ثم أمره بأن يعود إلى جيشه، فيعجل بهم ليجتمعوا معه صلى الله عليه وآله في مكة.

فلما عاد إليهم وجدهم قد لبسوا الحلل التي جاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من اليمن، فأنكر ذلك على من استخلفه، وانتزعها منهم وشدها في الأعدال، فاضطغنوا ذلك عليه.

فلما دخلوا مكة كثرت شكايتهم منه، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله من نادى

---

(١) تاريخ المدينة ج:٣ ص:٩٣١، واللفظ له. تاريخ الطبري ج:٣ ص:٢٩٨ في ذكر قصة الشورى. الكامل في التاريخ ج:٣ ص:٧٢ في ذكر قصة الشورى.

(٢) شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:٤٣ في أخبار السقيفة، واللفظ له. أمالي الشيخ الطوسي ص:١٧٧ المجلس:٦ حديث:٥٠.

في الناس: «ارفعوا ألسنتكم عن علي بن أبي طالب، فإنه خشن في ذات الله عز وجل، غير مداهن في دينه»[١].

بل عن أبي سعيد الخدري قال: «اشتكى الناس علياً رضوان الله عليه، فقام رسول الله فينا خطيباً، فسمعته الناس يقول: أيها الناس لا تشكوا علياً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله، من أن يشكى»[٢].

وحاله عليه السلام في ذلك من الوضوح بحيث لا ينبغي إطالة الكلام فيه.

ومن المعلوم أن ذلك مما يضيق به عامة الناس، فضلاً عن الخاصة والنخب التي ترى لأنفسها مزية تقتضي الإثرة والتفضيل على عادي الناس. وهي التي كانت فاعلة في تلك الفترة.

تقدم أهل البيت عليهم السلام يبتني على اصطفائهم ورفعة مقامهم

ثالثها: أن تقدم أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته من بعده يبتني بمقتضى التشريع ـ الذي جهد النبي صلى الله عليه وآله في التبليغ به والتأكيد عليه ـ على الاصطفاء الإلهي، لتميّزهم بمميزات ذاتية، وفيض إلهي في العلم والخلق يتفرع على تميّز النبي صلى الله عليه وآله عن سائر الخلق. وهو الذي كان في بعض الأنبياء أو جميعهم.

---

(١) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد ج:١ ص:١٧٢-١٧٣ في الحديث عن حجة الوداع. وذكرت الواقعة بألفاظ مقاربة في تاريخ الطبري ج:٢ ص:٤٠٢ في ذكر وفد بني عامر بن صعصعة. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٣٠١ في ذكر بعث رسول الله صلى الله عليه وآله أمراءه على الصدقات. البداية والنهاية ج:٥ ص:٢٢٨ في آخر فصل من أخبار سنة ١٠. وغيرها من المصادر. واقتصر على الذيل المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله المتضمن لقوله: «ارفعوا ألسنتكم عن علي بن أبي طالب فإنه خشن في ذات الله» في المستدرك على الصحيحين ج:٣ ص:١٣٤ في النهي عن شكاية علي رضي الله عنه. مسند أحمد ج:٣ ص:٨٦ في مسند أبي سعيد الخدري.

(٢) السيرة النبوية لابن إسحاق ج:٢ ص:٦٦٩ في موافاة علي رضي الله عنه في قفوله من اليمن.

كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

فأمير المؤمنين عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله بمنزلة هارون من موسى، وهو أخوه ووصيه ووارث علمه وباب مدينة حكمته. وأهل بيته عليهم السلام جميعاً من شجرة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن طينته، خلقهم الله عزّ وجل أنواراً محدقين بعرشه، وهم خيرة الله تعالى من خلقه، منّ على خلقه بهم، بهم يرزقون ويرحمون، وهم الشفعاء والوسائط بينه تعالى وبين خلقه... إلى غير ذلك مما استفاضت به نصوص الخاصة والعامة.

ويبدو ذلك من النبي صلى الله عليه وآله عملياً في مواقف، منها تخصيصهم بمباهلته معهم علماء نصارى نجران، كما تقدم. ومنها حصر آية تطهير أهل البيت بنفسه الشريفة وبهم.

وقد أشارت إليه الصديقة سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام بقولها في خطبتها الكبرى: «وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص»[٢].

كما صرح به أمير المؤمنين بقوله في كتابه إلى معاوية: «فدع عنك من مالت به الرمية، فإنا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا»[٣]. والحديث في ذلك طويل لا تسعه هذه العجالة، ويسهل على كل باحث التوسع فيه بالرجوع للمصادر المتوفرة.

واستلام أهل البيت عليهم السلام السلطة بناء على هذه الثقافة سوف يؤدي

---

(١) سورة آل عمران الآية:٣٣-٣٤.

(٢) الاحتجاج ج:١ ص:١٣٥. وراجع فاجعة الطف الملحق رقم:١.

(٣) نهج البلاغة ج:٣ ص:٣٢.

إلى تركزها في نفوس المسلمين. وهو أمر لا تطيقه قريش. وإذا سكتت عنه أو أقرت به على مضض في حق النبي صلى الله عليه وآله، لأنه فرض نفسه بالترغيب والترهيب، فهي لا تطيق الإقرار به لأهل بيته عليهم السلام، بنحو يؤكد دواعي منعهم من ذلك.

ويناسب ما ذكرنا ما عن عبد الله بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام: «أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما النخل. فقال الأنصاري سرح الماء يمرّ، فأبى عليه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري، وقال: يا رسول الله أن كان ابن عمتك! فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر[1]، ثم أرسل الماء إلى جارك. واستوعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للزبير حقه ـ قال أبو جعفر: والصواب: استوعب ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأي أراد فيه الشفقة له وللأنصاري. فلما أحفظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأنصاري استوعب للزبير حقه في صريح الحكم. قال: فقال الزبير: ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**...﴾ الآية»[2].

---

(١) الجَدْر: أصل الجدار، والجمع جدور.

(٢) تفسير الطبري ج:٥ ص: ٢١٨-٢١٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾، واللفظ له. صحيح البخاري ج:٣ ص:١١١ في باب سكر الأنهار ح٢٣٥٩. باب شرب الأعلى قبل الأسفل ص:٧٧ حديث:٢٣٦١. وص:٧٦ باب شرب الأعلى إلى الكعبين حديث:٢٣٦٢. صحيح مسلم ج:٤ ص:١٣٢٩ باب وجوب اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم. المستدرك على الصحيحين ج:٣ ص:٣٦٤ باب مناقب الزبير بن العوام وقال: هذا صحيح الإسناد. تفسير الرازي ج:١٠ ص:١٦٣ في تفسير الآية.وقال: «وليس هذا هو

فإذا كان اتهام النبي صلى الله عليه وآله بالتحيز لقرابته يصدر منهم لهذا الأمر مع عدم أهميته. فكيف يكون الحال في مثل الخلافة، مع ما سبق من أهميتها وأهمية لوازمها وما يترتب عليها؟!.

موت كثير من أهل البصائر وتكاثر غيرهم

وكلما امتد الزمن زاد الأمر تعقيداً. **أولاً**: لقتل كثير من أهل البصائر والثبات في حروب الإسلام في حياة النبي صلى الله عليه وآله، لأنهم الأكثر إقداماً والأبعد عن الفرار. كما أنه قد مات بعضهم.

وثانياً: إسلام كثير من المنافقين وضعاف الإيمان وذوي المصالح، وانتقالهم للمدينة المنورة، التي هي مصدر القرار ومركز العمل والنشاط. ولاسيما من قريش الذين وترهم الإسلام وأمير المؤمنين عليه السلام خاصة.

وقد انضموا لذوي المصالح والأطماع وللحاسدين لأمير المؤمنين عليه السلام من المهاجرين الأولين من قريش وربما من غيرهم أيضاً. وبذلك قامت جبهة قوية يجمعها هدف واحد، وهو إقصاء أهل البيت عليهم السلام، ومنعهم عن استلام السلطة بعد النبي صلى الله عليه وآله.

وأهمية هذا الهدف جعلتهم يتجاهلون التنافس والخلافات فيما بينهم، كما قد يشير إليه قوله تعالى: ﴿**عَسَى اللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً**﴾[1]. والتدبر في كثير من المفردات والأحداث المختلفة في أواخر أيام النبي صلى الله عليه وآله يوضح ما ذكرنا، ولا يسعنا هنا استقصاؤها. وقد تقدم التعرض لبعضها.

القول المختار عندي في سبب نزولها». وغيرها من المصادر الكثيرة.

(١) سورة الممتحنة الآية: ٧.

والظاهر أن ذلك هو الذي أثار مخاوف الأنصار، وجعلهم يبادرون بخطوتهم التي انعكست عليهم، وصارت مفتاحاً لفوز قريش، وفرض مشروعهم على الأرض، ولله أمر هو بالغه.

الرواية بمفاتحة بعض قريش النبي صلى الله عليه وآله في الأمر

هذا وقد روى الشيعة أن بعض قريش قد فاتح النبي صلى الله عليه وآله في ذلك. ففي حديث أبي بصير الطويل عن أبي جعفر أو أبي عبد الله عليهما السلام ـ فيما يظهر ـ قال: «بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم جالساً إذ أقبل أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: إن فيك شبهاً من عيسى بن مريم... قال: فغضب الحارث بن عمرو الفهري، فقال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك. إن بني هاشم يتوارثون هرقلاً بعد هرقل فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فأنزل الله عليه مقالة الحارث، ونزلت هذه الآية: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾. ثم قال له: يا ابن عمرو إما تبت، وإما رحلت.

فقال: يا محمد بل تجعل لسائر قريش شيئاً مما في يديك. فقد ذهبت بنو هاشم بمكرمة العرب والعجم. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: ليس ذلك إلي. ذلك إلى الله تبارك وتعالى. فقال: يا محمد قلبي ما يتابعني على التوبة، ولكن أرحل عنك، فدعا براحلته فركبها. فلما صار بظهر المدينة أتته جندلة فرضخت هامته. ثم أتى الوحي إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**...﴾... فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لمن حوله من المنافقين: انطلقوا إلى صاحبكم، فقد أتاه ما استفتح به. قال الله عز وجل: ﴿**وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾»[1].

(١) الكافي ج:٨ ص:٥٧-٥٨ حديث:١٨.

وقال السيد المرتضى عند التعرض لرواية الشيعة في نزول قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١]: «إن النبي صلى الله عليه وآله لما نصّ على أمير المؤمنين بالإمامة في ابتداء الأمر جاءه قوم من قريش، فقالوا له: يا رسول الله إن الناس قريبو عهد بالإسلام، ولا يرضون أن تكون النبوة فيك والإمامة في ابن عمك، فلو عدلت بها إلى غيره لكان أولى. فقال لهم النبي صلى الله عليه وآله: ما فعلت ذلك برأيي فأتخير فيه، لكن الله تعالى أمرني به، وفرضه عليّ. فقالوا له: فإذا لم تفعل ذلك مخافة الخلاف على ربك تعالى فأشرك معه في الخلافة رجلاً من قريش تركن الناس إليه، ليتم لك أمرك ولا يخالف الناس عليك. فنزلت الآية والمعنى فيها: لئن أشركت مع علي في الإمامة غيره ليحبطن عملك...»[٢].

هذا وقد ذكر السيد ابن طاووس قدس سره أن صاحب كتاب الخالص المسمى بالنشر والطي ـ وهو من المخالفين ـ قد روى بسنده عن حذيفة أن المنافقين لما رأوا النبي صلى الله عليه وآله بصدد تعيين أمير المؤمنين عليه السلام خليفة له نظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إن أفئدتنا لا تقوى على ذلك أبداً مع الطاعة له، فنسأل رسول الله صلى الله عليه وآله أن يبدله لنا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبروه بذلك، فأنزل الله قرآناً، وهو: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي...﴾. فقال جبرئيل: يا رسول الله أتمه[٣].

---

(١) سورة الزمر الآية:٦٥.

(٢) كتاب تنزيه الأنبياء ص:١٦٧-١٦٨، واللفظ له. عنه في بحار الأنوار ج:٣٧ ص:١٦٠ باب:٥٢ في أخبار الغدير حديث:٤٠. ونقل فيه عن غير الرسالة المذكورة ما يناسب ذلك. فراجع.

(٣) إقبال الأعمال ج:٢ ص:٢٤٢ باب:٥ فيما نذكره مما يختص بعيد الغدير في ليلته ويومه فصل:٣. وعنه في بحار الأنوار ج:٣٧ ص:١٢٨ الباب:٥٢ في أخبار الغدير بعد الحديث ٢٤.

اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بالتبليغ

أما رسول الله صلى الله عليه وآله فأهمّ شيء عنده ـ بالرغم من جميع ما سبق ـ القيام بوظيفته الأساسية كنبي مرسل، وهي التبليغ برسالات ربه، وبيان شرائعه في العقائد والأحكام العملية، ومعايير الموالاة والمعاداة في الله تعالى، وغير ذلك من المعارف الدينية، بما في ذلك الإخبار عن الحوادث المستقبلية، التي يكون حصولها في وقتها شاهداً على صدقه، وسبباً في وضوح حجّته صلى الله عليه وآله.

ومن الظاهر أنه لا يترتب الأثر على ذلك إلا بالحفاظ على قدسيته في نفوس المسلمين، واحترام قوله وعمله، والإذعان بأنه لا ينطق ولا يفعل إلا تبعاً لما يوحى إليه من الله تعالى، وأنه منزّه في فعله وقوله عن التأثر بالهوى والعواطف الشخصية في الحبّ والبغض وغير ذلك مما يخرج عن الوحي الإلهي الملزم للناس والرافع لعذرهم.

تعقد الأمور على النبي صلى الله عليه وآله

ومن هنا يتضح شدّة تعقد الأمور على النبي صلى الله عليه وآله، حيث لا ينسجم موقف الوحي الإلهي مع تعقدات المجتمع الإسلامي الناشئ التي سبق إيضاحها.

وقد حاولوا التشكيك بعصمته، فقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أريد حفظه. فنهتني قريش، وقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج

مني إلا حق»[١].

ومن أجل هذا أنه لما أوحي إليه صلى الله عليه وآله بتعيين أمير المؤمنين عليه السلام خليفة له وإعلان ولايته بصورة عامة وصريحة طلب من الله تعالى العصمة من الناس، بحيث لا يطعن في شخصه الكريم[٢]، أو رغب في نفسه بذلك من دون طلب[٣]. فنزل قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[٤].

ومن القريب أن يكون المراد له صلى الله عليه وآله العصمة من خصوص قريش، دون غيرهم من الناس، لأنهم الذين يطمعون في الخلافة، ويصعب عليهم اختصاصها ببني هاشم، دون غيرهم.

ويناسبه ما عن حسان بن ثابت من أنه قال بعد أن أكمل النبي صلى الله عليه وآله خطبته يوم الغدير، وإعلانه ولاية أمير المؤمنين عليه السلام: «ائذن لي يا رسول الله أن أقول أبياتاً». قال: «قل ببركة الله تعالى». قال: «يا معشر مشيخة قريش

---

(١) مسند أحمد ج:٢ ص:١٦٢ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، واللفظ له. وج:٢ ص:١٩٢. سنن أبي داود ج:٢ ص:١٧٦ أول كتاب العلم: باب كتاب العلم. سنن الدارمي ج:١ ص:١٢٥ باب من رخص في كتابة العلم. المستدرك على الصحيحين ج:١ ص:١٠٥ كتاب العلم. المصنف لابن أبي شيبة ج:٦ ص:٢٢٩ من رخص في كتاب العلم. وغيرها من المصادر.

(٢) الكافي ج:١ ص:٢٨٩ باب ما نص الله عز وجل ورسوله على الأئمة عليهم السلام واحداً فواحداً حديث:٤. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ج:٣ ص:٤. دعائم الإسلام ج:١ ص:١٥. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ج:١ ص:٢٥٤، ٢٥٨. الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج:٢ ص:٢٩٨.

(٣) تفسير جوامع الجامع ج:١ ص:٥١٧. التبيان في تفسير القرآن ج:٣ ص:٥٨٨.

(٤) سورة المائدة الآية: ٦٧.

اسمعوا شهادة رسول الله صلى الله عليه وآله»، ثم قال:

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم وأسمع بالنبي مناديا

إلى آخر مقطوعته[1].

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله كثيراً التأكيد على أنه في تنويهه بمقام أهل بيته لا يحابي قرابة، بل يتبع الوحي. حيث يكشف ذلك عن توقع رميه من قبل الحاسدين والمنافقين بالانحياز العاطفي لأهل بيته عليهم السلام. وقد صرح بذلك بألم بالغ في خطبة الغدير المشار إليها آنفاً.

تقييم أمير المؤمنين عليه السلام للأوضاع

ويناسب ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام في شرحه لواقع المجتمع الإسلامي: «إن العرب كرهت أمر محمد صلى الله عليه وآله وحسدته على ما آتاه الله من فضله، واستطالت أيامه، حتى قذفت زوجته، ونفّرت به ناقته. مع عظيم إحسانه إليها، وجسيم مننه عندها. وأجمعت مذ كان حياً على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته.

ولولا أن قريشاً جعلت اسمه ذريعة إلى الرئاسة، وسلّماً إلى العز والإمرة، لما عبدَت الله يوماً واحداً، ولارتدّت في حافرتها، وعاد قارحها جذعاً وبازلها بكراً.

ثم فتح الله عليها الفتوح، فأثرت بعد الفاقة، وتمولت بعد الجهد والمخمصة، فحسن في عيونها من الإسلام ما كان سمجاً، وثبت في

---

(١) المناقب للخوارزمي ص:١٣٦، واللفظ له. الأمالي للصدوق ص:٦٧٠. الإرشاد ج:١ ص:١٧٧. وغيرها من المصادر.

قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطرباً، وقالت: لولا أنه حق لما كان كذا...»[١].

اقتصار النبي صلى الله عليه وآله على التبليغ من دون إصرار على تنفيذه

ومن أجل ذلك اضطر النبي صلى الله عليه وآله إلى الاقتصار على التبليغ بكل ما أمر بتبليغه إقامة للحجة، من دون إصرار على تنفيذه. لئلا يحمل المنافقين وضعاف الإيمان على الالتفاف عليه، والإصرار على تكذيبه، بحدّ قد يصل للردة.

كما اضطر صلى الله عليه وآله أيضاً إلى التغاضي عن كثير من تجاوزات المنافقين وضعيفي الإيمان الذي يشكلون الثقل الأكبر في ذلك المجتمع.

حتى إنه صلى الله عليه وآله منع من فضح الأشخاص الذين تآمروا عليه بشخصه الكريم وأرادوا قتله صلى الله عليه وآله بتنفير ناقته في رجوعه من تبوك ـ كما تقدم، وأشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه السابق ـ لأن فضحهم يستلزم أخذ الموقف المناسب منهم بقتلهم، وقد سبق أنه قال: «أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم»[٢].

وفي حديث زرارة عن أحدهما عليهما السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لولا أني أكره أن يقال: إن محمداً استعان بقوم، حتى إذا ظفر بعدوه قتلهم،

---

(١) شرح نهج البلاغة ج:٢٠ ص:٢٩٨-٢٩٩ في ذكر جملة من الحكم المنسوبة إليه عليه السلام، الحكمة رقم: ٤١٤.

(٢) تفسير ابن كثير ج:٢ ص:٣٨٦-٣٨٧، واللفظ له. دلائل النبوة ج:٥ ص:٢٦١ جماع أبواب فتح مكة باب رجوع النبي صلى الله عليه وآله من تبوك. تاريخ الإسلام للذهبي ج:٢ ص:٦٤٨. الدر المنثور ج:٤ ص:٢٤٤. روح المعاني ج:١٠ ص:١٣٩.

لضربت أعناق قوم كثير»[١].

فإن ذلك منه صلى الله عليه وآله كان حذراً من أن ينسب لاستغلال الناس، والتخلص ممن لا يعجبه بعد استفادته منه في الوصول لهدفه، بنحو لا يناسب قدسيته، وقد يوجب سلب الثقة به.

كل ذلك لأن الإصرار منه صلى الله عليه وآله على تنفيذ ما بلّغ به يثيرهم، حتى قد يرتدون أو يشيعون التشكيك في عصمته. وقد انتهى الأمر بهم إلى أن رموه في أيامه الأخيرة بالهُجر، منعاً له من أن يكتب لهم كتاباً يعصم الأمة من الضلال، في رزية الخميس المشهورة، فاضطر صلى الله عليه وآله للتراجع عن إعلان ما أراد بيانه وتثبيته، واكتفى في إقامة الحجة بطلبه ذلك أول الأمر.

وبهذه المواقف اللينة استطاع النبي صلى الله عليه وآله أن يؤدي وظيفته في التبليغ على الوجه الأكمل مع المحافظة على تماسك المجتمع الإسلامي، من أجل أن يوصل ذلك المجتمع ـ مع ما فيه من السلبيات الكثيرة ـ دعوة الإسلام وصوته للعالم خارج الجزيرة العربية، الذي سبق أنه من تتمة وظيفته صلى الله عليه وآله في التبليغ.

الاستفادة من التبليغ على الأمد البعيد

وحينئذٍ إذا انتشر الإسلام بين الشعوب، وحسن عندها، ودخلت فيه أفواجاً، وقد اتفق المسلمون على الرجوع للكتاب المجيد والسنة النبوية الشريفة، وعرف كثير من تاريخ الإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وآله، وتحققت البيئة والأرضية المناسبة لسماع حجة الإسلام الحق. بعد كل ذلك يستطيع

(١) الكافي ج:٨ ص:٣٤٥ حديث:٥٤٤.

الخاصة من أهل الإيمان والثبات والتضحية بالتدريج، وبرعاية الأئمة من أهل البيت (صلوات الله عليهم)، إيصال دعوة الحق بواقعها وصفائها لتلك الشعوب وتعريفهم بها، ليتقبلها طالب الحقيقة منهم.

وبمرور الزمن والجهود المكثفة التي يرعاها الأئمة من أهل البيت (صلوات الله عليهم)، ويدعمها التدخل الغيبي، تتجمع منهم أمة معتد بها تدعو للحق وإلى الصراط المستقيم، وتكفي في تنبيه عامة الناس لدعوتها، وفي قيام الحجة عليهم، كما حصل أخيراً.

خطبة النبي صلى الله عليه وآله في مرضه

وكأنه إلى هذا يشير ما رواه معروف بن خربوذ، قال: «سمعت أبا عبيد الله مولى العباس يحدث أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام. قال: سمعت أبا سعيد الخدري يقول: إن آخر خطبة خطبنا بها رسول الله صلى الله عليه وآله لخطبة خطبنا في مرضه الذي توفي فيه. خرج متوكئاً على علي بن أبي طالب عليه السلام وميمونة مولاته، فجلس على المنبر، ثم قال: يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين. وسكت، فقام رجل فقال: يا رسول الله ما هذان الثقلان؟ فغضب حتى احمر وجهه، ثم سكن. وقال: ما ذكرتهما إلا وأنا أريد أن أخبركم بهما، ولكن ربوت فلم أستطع: سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم تعملون فيه كذا وكذا. ألا وهو القرآن. والثقل الآخر أهل بيتي.

ثم قال: وأيم الله إني لأقول لكم هذا ورجال في أصلاب أهل الشرك أرجى عندي من كثير منكم.

ثم قال: والله لا يحبهم عبد إلا أعطاه الله نوراً يوم القيامة حتى يرد عليّ الحوض، ولا يبغضهم عبد إلا احتجب الله عنه يوم القيامة. فقال أبو

جعفر: إن أبا عبيد الله يأتينا بما يعرف»[١].

تناسب موقف النبي صلى الله عليه وآله مع القرآن

الخامس: أن موقف النبي صلى الله عليه وآله هذا من المنافقين وضعاف الإيمان، من أجل المحافظة على تماسك المجتمع المسلم، مع التنبيه للخطأ والتبكيت عليه، يتناسب مع موقف القرآن المجيد منهم.

ففي واقعة أحُد شدّد الله عزّ وجل النكير عليهم في مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وآله بلزوم موقعهم في الجبل رغبة في كسب الغنائم، ثم انهزامهم، وتركهم النبي صلى الله عليه وآله في مواجهة جيش المشركين، ثم اهتمام طائفة منهم بعد رجوعهم بأنفسهم وظنهم بالله تعالى غير الحق ظن الجاهلية... إلى غير ذلك.

لكنه بعد ذلك صرح بالعفو عنهم. وكان ذلك محفّزاً لهم على رجوعهم للتجمع عند النبي صلى الله عليه وآله، وتناسي ما حصل على أرض الواقع.

بل ذكر غير واحد من المفسرين أنهم هم وحدهم المعنيون بقوله عز وجل: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[٢]. وأن الذين أُمِر النبي صلى الله عليه وآله بمشاورتهم خصوص الفارين في أحد تأليفاً لهم، لترتفع وحشتهم.

حتى إن الرازي ردّ الحديث المتضمن أن ممن شاورهم رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) أمالي الشيخ المفيد ص:١٣٥-١٣٦ المجلس:١٦. بحار الأنوار ج:٢٢ ص:٤٧٥-٤٧٦.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

أبا بكر، بدعواه أنه لم يفرّ، لتشمله الآية الشريفة[١].

وقال الرازي أيضاً في تفسير الآية الشريفة: «واعلم أن القوم لما انهزموا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالتغليظ والتشديد، وإنما خاطبهم بالكلام اللين. ثم إنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم، زاد في الفضل والإحسان، بأن مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على عفوه عنهم وتركه التغليظ عليهم، فقال: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ...**﴾. ومن أنصف علم أن هذا ترتيبٌ حَسَنٌ في الكلام»[٢]. وهذا يناسب حرص الله عز وجل على قيام مجتمع إسلامي موحد مهما كان فيه من سلبيات.

ونظير ذلك ما سبق من موقف الناس من الجيش المنهزم في واقعة مؤتة، حتى جلس بعضهم في بيته، لئلا يعيروه بالفرار إذا خرج، وأن النبي صلى الله عليه وآله تغاضى عن ذلك، وقال: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى». حيث كان ذلك سبباً لتأليفهم حفاظاً على تماسك المجتمع المسلم.

ويظهر ذلك في القرآن أيضاً من أمر الله تعالى المسلمين بالصدقة عند مناجاة النبي صلى الله عليه وآله، فلم يفعلوا إلا أمير المؤمنين عليه السلام[٣]، حيث تصدق وناجى

---

(١) تفسير الرازي ج:٩ ص:٦٧ في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ**﴾.
لكن روى جمع من المفسرين والمؤرخين عن عائشة أنّ أباها كان إذا ذكر أُحُداً قال: «كنت أول من فاءَ» أي: رَجعَ بعد فراره. راجع: تفسير ابن كثير ج:١ ص:٤٢٥ في ذكر ما وقع في أحد. الطبقات الكبرى لابن سعد ج:٣ ص:٢١٨ في ذكره لأخبار طلحة بن عبيد الله. تاريخ دمشق ج:٢٥ ص:٧٥ في ترجمته لطلحة بن عبيد الله. وغيرها من المصادر.

(٢) تفسير الرازي ج:٩ ص:٦٠ في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ**﴾.

(٣) تفسير القمي ج:٢ ص:٣٥٧. تفسير الطبري ج:٢٨ ص:٢٧. تفسير الثعلبي ج:٩ ص:٢٦١.

النبي صلى الله عليه وآله عشر مرات[١].

فإنه تعالى أنّبهم ليشعرهم بضعف إيمانهم وببخلهم. ثم رفع ذلك عنهم، ورجع تجمعُهم عند رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ما كان عليه، وكان ذلك مظهراً لتماسكهم كمجتمع مسلم مهما كان حاله.

كما أنَّه قال عز وجل: ﴿**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**﴾[٢].

ولم يفعل ما هدّدهم به مع تصاعد نشاطهم في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله، كما قد يشير إليه قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[٣]. فلم يتخذ منهم الموقف الحاسم، بل اكتفى بتهديدهم بجهنم.

ولما نزل النبي صلى الله عليه وآله في بعض المنازل عند رجوعه من مكة بعد حجة

تفسير البغوي ج:٤ ص:٣١٠. أحكام القرآن للجصاص ج:٣ ص:٥٧٢. الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف ص:٤٠، ٤١. تحفة الأحوذي ج:٩ ص:١٣٨. شرح نهج البلاغة ج:١٣ ص:٢٧٤. نظم درر السبطين ص:٩٠. الاستغاثة ج:٢ ص:٣١. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(١) مناقب آل أبي طالب ج:١ ص:٣٤٦ فصل في المسابقة بالسخاء والنفقة. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ج:٢ ص:٣٢٤. تفسير القمي ج:٢ ص:٣٥٧. متشابه القرآن ومختلفه ج:٢ ص:٣٧. نهج الإيمان ص:٦٠٤. وغيرها من المصادر.

(٢) سورة الأحزاب الآية:٦٠.

(٣) سورة المجادلة الآية: ٨.

الوداع أخذوا يتسللون ويعتزلون عنه ويتناجَون كما يريدون، حتى قال ﷺ: «أيها الناس إني قد كرهت تخلفكم وتنحيكم عني، حتى خُيّل إليّ أنه ليس شجرة أبغض إليكم من شجرة تليني»[1]... إلى غير ذلك. وقد ذكرنا بعضه في جواب السؤال الرابع من الجزء الثاني من كتابنا (في رحاب العقيدة).

ولا يظهر لنا وجه تسامح النبي ﷺ معهم إلا الاهتمام والمحافظة على تماسك المجتمع الإسلامي، والتغاضي عن السلبيات الكثيرة التي تعرض لها القرآن المجيد ـ في كثير من آياته ـ وأحاديث النبي والأئمة من آله (صلوات الله عليهم أجمعين) والنصوص التاريخية.

بل فرض سهم من الزكاة للمؤلفة قلوبهم في الكتاب المجيد، والاكتفاء بالإسلام ممن أسلم خوفاً من القتل شاهدان على أهمية تكثير المجتمع الإسلامي بغضّ النظر عن دواعي اعتناق الإسلام والانضمام لجماعته.

الموقف الحاسم من مسجد الضرار

بينما وقف القرآن المجيد والنبي ﷺ الموقف الحاسم من المنافقين حين صعَّدوا نشاطهم، وانتهى الأمر بهم إلى محاولة إقامة تجمّع منفصل عن التجمّع عند النبي ﷺ لهم ولحديثي الإسلام الذين دخلوا فيه كرهاً ـ

(١) تاريخ دمشق ج:٤٢ ص:٢٢٦ في ترجمة علي بن أبي طالب، واللفظ له. العمدة لابن بطريق ص:١٠٧. صحيح ابن حبان ج:١ ص:٤٤٤ باب فرض الإيمان. مسند أحمد ج:٤ ص:١٦ في حديث رفاعة بن عرابة الجهني. مجمع الزوائد ج:١ ص:٢٠ كتاب الإيمان: باب فيمن شهد أن لا إله إلا الله، ج:١٠ ص:٤٠٨ كتاب أهل الجنة: باب فيمن يدخل الجنة بغير حساب. مسند الطيالسي ص:١٨٢ فيما رواه رفاعة بن عرابة الجهني. المعجم الكبير ج:٥ ص:٤٩، ٥٠، ٥١ رفاعة بن عرابة الجهني عن رسول الله. وغيرها من المصادر.

بعد أن حاربوا ضدّه ـ وغيرهم من ضعاف الإيمان في قضية مسجد الضرار المشهورة.

قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا**﴾[1].

وكان ردّ الفعل عليهم أن أحرق رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد المذكور[2]. وذلك شاهد على ما ذكرناه من أهمية قيام مجتمع مسلم موحد وتماسكه بما هو مسلم مهما كان حاله.

ولولا ما ذكرنا لكان المناسب أن ينبّه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله إلى ضرر موقفه المبني على التسامح و التغاضي عن السلبيات، ويسدّده ليتخذ موقف الحزم و الشدّة منها وممن يحملها من المنافقين وضعاف الإيمان.

بل لا يبعد أن يكون ذلك هو الموقف في الأمم السابقة، كما قد يناسبه قوله عز وجل حكاية عن هارون في موقفه ممن عبد العجل من بني إسرائيل: ﴿**قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي**﴾[3].

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٠٧ – ١٠٨.

(٢) تاريخ الطبري ج:٢ ص:٣٧٤ في أخبار سنة تسع. الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٨١ في أخبار سنة تسع. بحار الأنوار ج:٢١ ص:٢٥٤ باب قصة أبي عامر الراهب ومسجد الضرار وأخبار تبوك. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٣) سورة طه الآية: ٩٤.

تسهيل أمر التبليغ

السادس: أن موقفه صلى الله عليه وآله هذا ـ المبني على الرفق والتسامح والتغاضي عن سلبيات المجتمع المتقدمة ـ سهّل عليه عملية التبليغ بهذه الكثرة، وبهذا الوضوح، بحيث لم تمنع المعوقات الكثيرة من انتشار الكثير الكافي في إقامة الحجة ورفع العذر على طول المدة. لأن المنافقين لا يهمهم التبليغ وإقامة الحجة إذا لم يمنعهم من تنفيذ مشروعهم.

ولاسيما أنهم إذا تمّ لهم ما أرادوا حاولوا إخفاء الحقائق وتشويه الواقع، كما حصل منهم أخيراً بالتحجير على السنة النبوية الشريفة والمنع من السؤال عن تفسير القرآن الشريف ـ كما يأتي ـ وغير ذلك.

أما لو كان صلى الله عليه وآله حَدّياً مجدّاً في تنفيذ ما يبلغ به لاضطرهم ذلك لمواجهته بالرِّدة أو الطعن في عصمته، كما بدر ذلك منهم برميه صلى الله عليه وآله بالهجر في رزية الخميس المعروفة، على ما تقدم، وسبق عن عبد الله بن عمرو بن العاص ما يناسبه.

ما حققه صلى الله عليه وآله على الأرض: القضاء على الوثنية

السابع: أن النبي صلى الله عليه وآله ـ مع موقفه هذا ـ قد أنجز على الأرض مكاسب أربعة هي أسس دعوة الإسلام الحق، والتي قام عليها كيانه:

أولها: أنه صلى الله عليه وآله ركّز عقيدة التوحيد بمحافظته على وحدة المجتمع الإسلامي العام، حتى تحققت الفتوح من بعده، وكسبوا بها الغنائم الكثيرة، وأحبّوا الإسلام نتيجة ذلك، كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه المتقدم.

وبذلك اقتلع صلى الله عليه وآله الوثنية وعبادة الأصنام من جزيرة العرب إلى غير رجعة. حتى إن من ارتد عن الإسلام في حياة النبي صلى الله عليه وآله ـ كالأسود العنسي ـ وبعد وفاته لم يرجعوا إلى الوثنية، بل أقروا بالتوحيد، وادعوا النبوة، ونزول الكتاب عليهم، تقليداً للنبي صلى الله عليه وآله و سيراً على نهجه، لشعورهم بنجاحه صلى الله عليه وآله في ذلك، وبانهيار ثقافة الوثنية.

كما أنه صلى الله عليه وآله اقتلع ـ تبعاً لذلك ـ أحكام الجاهلية، كالتبني والنسيء والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. فضلاً عن بعض عاداتهم الاجتماعية، كوأد البنات.

ومن المعلوم أنه ليس من السهل تبديل الثقافة الدينية والأعراف الشائعة لأمة كبيرة بهذه السرعة. وحقق صلى الله عليه وآله بذلك نقلة هامة لصالح الإسلام.

حفظه صلى الله عليه وآله للقرآن من الضياع والتحريف

ثانيها: من المعلوم أن القرآن المجيد ـ الذي هو أكبر الثقلين اللذين خلفهما النبي صلى الله عليه وآله لأمته لعصمتها من الضلال ـ قد نزل نجوماً متفرقة، وفي مناسبات مختلفة غير منضبطة. وهو بذلك معرض للضياع والنسيان والتحريف والتشويه.

وقد حصل ذلك في الكتب السماوية الأخرى، وإن كانت هي أيسر من القرآن في الحفظ، لأنها نزلت ـ فيما يظهر ـ دفعة واحدة في بيئة هي أقرب للحضارة والتدوين من بيئة نزول القرآن المجيد.

إلا أن النبي صلى الله عليه وآله قد تدارك ذلك. حيث جدّ واجتهد في نشره بين جمهور المسلمين. فكلما أسلمت مدينة أو قبيلة أو جماعة معتدّ بها أرسل

إليهم من يقرؤهم القرآن، ويحملهم على حفظه. وإذا أسلم شخص أو أشخاص قليلون أمر بتعليمهم القرآن.

وقد كان في عهده من الصحابة من يحفظ القرآن، ويقرئ عامة المسلمين به. وبقي ذلك في الأجيال المتعاقبة من بعده، حتى صار حمل القرآن وحفظه اختصاصاً وفرعاً من فروع الثقافة الإسلامية التي يعتز صاحبها بها. فكما أن الفقيه هو الذي يتجه لبيان الأحكام الشرعية الفرعية، والمحدث هو الذي يتجه لتحمل الحديث وروايته، كذلك الحافظ هو الذي يحفظ القرآن المجيد.

أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ حثّ بصورة مكثفة على الإكثار من قراءة القرآن وحفظه، مع بيان ثواب ذلك، وبيان فضائل بعض السور وآثارها الدنيوية والأخروية. وكان الأولى بإمامة الجماعة في الصلاة أقرؤهم... إلى غير ذلك من أساليب الحثّ والتشجيع، حتى انتشرت قراءته وحفظه بين عموم المسلمين.

ولم ينفرد بقراءته وحفظه الخاصة، ليقتصر بيانهم له على ما يتناسب مع مصالحهم وأهدافهم، أو تسمح به الظروف الخاصة بهم وتسعه قدرتهم. ويتعرض بذلك القرآن المجيد للاختلاف والتحريف والتشويه.

حتى إن البسملة في أوائل السور بقيت مثبتة في مصاحف المسلمين على اختلاف فرقهم ومذاهبهم، مع خلاف كثير منهم في جزئيتها، وتركهم قراءتها.

عدم ذكر الأئمة عليهم السلام بأسمائهم في القرآن

وأعانه على ذلك واقع القرآن المجيد، حيث لم يتضمن التصريح بالعقائد الحقة ـ كإمامة أمير المؤمنين وولده (صلوات الله عليهم) بأسمائهم، ونفاق بعض الأشخاص كذلك، ونحو ذلك ـ بنحو يفهمه بوضوح عموم المسلمين حتى السواد الأعظم ممن لم يعاشر النبي صلى الله عليه وآله ويطلع على ظروف نزول القرآن، والقرائن الخارجية المحتف بها.

ولعله حذراً من أن يثير ذلك المنافقين وذوي المصالح المضادة للحقيقة، ويكون محفزًا لهم على إبعاد القرآن عن جمهور المسلمين، والتحجير عليه بتعيين أشخاص خاصّين لإقرائه، ومنعهم من إقراء ما ينافي أهدافهم، أو غير ذلك من طرق التحجير، كما حصل منهم مع السنة الشريفة.

وإنما تضمن القرآن ما كان من تلك الحقائق مخالفاً لمصالحهم وأهدافهم بوجه يغفل عنه العامة والسواد الأعظم، ممن لم يطلع على ظروف نزول آياته والقرائن المحتفة بها، ويحتاج توضيحه للسنة الشريفة أو لمتابعة التاريخ والاستعانة به، أو لقرائن لا يدركها إلا القليل.

نعم من عاش مع النبي صلى الله عليه وآله، واطلع على ظرف نزول آيات القرآن الكريم والقرائن المحيطة بها، كانت العقائد الحقة واضحة له من القرآن المجيد نفسه، كما يشهد به قول الصديقة سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها الكبرى، بعد أن أنكرت عليهم غصب الخلافة: «فهيهات منكم، وكيف بكم، وأنى تؤفكون؟! وكتاب الله بين أظهركم. أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة. وقد

خلفتموه وراء ظهوركم. أرغبةً عنه تريدون؟! أم بغيره تحكمون؟! ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾»[1].

لكنهم كانوا بين من تغافل عن ذلك وتعمد مخالفته، ومن قصّر في أداء وظيفته في الأمر بالمعروف وإنكار المنكر، ومن لم يُسمع منه، وحوصِر بعد ذلك من قبل السلطة بالتحجير على السنة النبوية والمنع من تفسير القرآن الكريم وغير ذلك.

استفادت السلطة من القرآن المجيد

كما أن السلطة استفادت بعد النبي صلى الله عليه وآله من قراءة القرآن الكريم لملء الفراغ الذي تسبب عن منعها من نشر الثقافة الدينية عن طريق نشر السنة النبوية الشريفة، وبيان سيرة النبي صلى الله عليه وآله العطرة.

فإن من الطبيعي أن الجماهير الكبيرة التي دخلت في الإسلام بعد الفتوح الكثيرة تتطلع للثقافة الدينية التي يتضمنها الدين الجديد، وتحاول التعرف عليها. بل يحاول كثير منهم الاستزادة منها. وقراءة القرآن الشريف تملأ هذا الفراغ نسبياً.

وكشاهد على ذلك ما ذكره يوسف بن موسى الحنفي. قال في حديث له: «روي عن قرظة بن كعب، قال: خرجنا نريد العراق، فمشى معنا عمر بن الخطاب إلى جدار فتوضأ، فقال: أتدرون لِمَ مشيت معكم؟ قالوا: نعم، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله مشيت معنا. قال: إنكم تأتون

(١) الاحتجاج ج:١ ص:١٣٧. راجع فاجعة الطف الملحق الأول ص:٥٩٨.

أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث، فتشغلوهم. جرّدوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله. امضوا وأنا شريككم. فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا. قال: نهانا عمر... وفي رواية قال قرظة: لا أحدث حديثاً عن رسول الله أبداً...»[١].

منع السلطة من تفسير القرآن

نعم منعت السلطة بشدة من تفسير القرآن، كما أشرنا إليه آنفاً. فقد سأل صبيغ بن عسل عن شيء من القرآن فعزره عمر[٢]. بل روى بعضهم أنه أنهكه عقوبة وأضرّ به[٣]، بل منع المسلمين من مجالسته[٤] ومن عيادته

---

(١) المعتصر من المختصر ج:٢ ص:٣٨١ باب في حبس عمر مكثر الحديث، واللفظ له. تذكرة الحفاظ ج:١ ص:٧ في ترجمة عمر بن الخطاب. المستدرك على الصحيحين ج:١ ص:١٠٢ كتاب العلم. معرفة السنن والآثار ج:٦ ص:٥٢٣. جامع بيان العلم وفضله ج:٢ ص:١٢٠-١٢١. الطبقات الكبرى ج:٦ ص:٧ تسمية من نزل الكوفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ومن كان بعدهم من التابعين وغيرهم من أهل الفقه والعلم. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٢) سنن الدارمي ج:١ ص:٥٤ باب: من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع. الإصابة ج:٣ ص:٣٧٠ في ترجمة صبيغ بن عسل. تاريخ دمشق ج:٢٣ ص:٤١١ في ترجمة صبيغ بن عسل. الاستذكار لابن عبد البر ج:٥ ص:٧٠. نصب الراية ج:٤ ص:١١٨. تفسير القرطبي ج:٤ ص:١٥. الدر المنثور ج:٢ ص:٧. فتح القدير ج:١ ص:٣١٩. الاتقان في علوم القرآن ج:٢ ص:٩. تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي ج:٣ ص:٣٦٥. كنز العمال ج:٢ ص:٣٣٤ حديث: ٤١٧٠. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٣) سنن الدارمي ج:١ ص:٥٤ باب: من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع. تاريخ دمشق ج:٢٣ ص:٤١٠، ٤١١ في ترجمة صبيغ بن عسل. تفسير القرآن لعبد الرزاق ج:٢ ص:٢٤٩. تفسير القرطبي ج:٩ ص:٢٢٦. تفسير ابن كثير ج:٢ ص:٢٩٤. الدر المنثور ج:٦ ص:١١١. الاستذكار لابن عبد البر ج:٥ ص:٧٠. كنز العمال ج:٢ ص:٣٣١ حديث: ٤١٦١، وص:٣٣٥ حديث: ٤١٧٢. وغيرها من المصادر.

(٤) سنن الدارمي ج:١ ص:٥٤ باب: من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع. المصنف لعبد الرزاق

إذا مرض[١]، وحرمه من عطائه ورزقه[٢]. وقال بعضهم: «لقد رأيت صبيغ بن عسل بالبصرة كأنه بعير أجرب، يجيء إلى الحلق ويجلس وهم لا يعرفونه، فتناديهم الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين عمر، فيقومون عنه ويدعونه»[٣].

وهـذا بمجموعـه وإن كان كارثة كـبرى للثقافة الإسلامية، إلا أن عدم تصديهم لتحريف القرآن، ولا للتحجير على قراءته نفع كثيراً في الحفاظ على جهد النبي صلى الله عليه وآله في حفـظ القرآن المجيد من الضياع والاختلاف والتحريف والتشويه.

وعلى كل حال لم يفارق النبي صلى الله عليه وآله المسـلمين، وينتقل للرفيق الأعلى، إلا والمسـلمون مؤمنون بالقرآن المجيد بأجمعه، متفقون عليه بمادته وهيئته، وعلى وجوب العمل به والرجوع إليه في أمر دينهم، وصحة الاحتجاج به

ج:١١ ص:٤٢٦ باب: من حالت شفاعته دون حد. الإصابة ج:٣ ص:٤٧١ في ترجمة صبيغ. تاريخ دمشـق ج:٢٣ ص:٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣ في ترجمة صبيغ بن عسـل. تفسـير ابن كثير ج:٤ ص:٢٤٨. الدر المنثور ج:٦ ص:١١١. الإتقـان في علوم القرآن ج:٢ ص:٩. إكمال الكمال ج:٦ ص:٢٠٧ باب: عسل. كنز العمال ج:٢ ص:٣٣١ حديث: ٤١٦١، وص:٣٣٥ حديـث: ٤١٧٣، ٤١٧٤، وص:٥١٠ حديـث: ٤٦١٧، وص:٥١١ حديـث: ٤٦١٨، وج:١١ ص:٢٩٧ حديث: ٣١٥٥٩. وغيرها من المصادر.

(١) الدر المنثور ج:٢ ص:٧-٨. كنز العمال ج:٢ ص:٣٣٧ حديث:٤١٨٠.

(٢) الإصابـة ج:٣ ص:٣٧١ في ترجمة صبيـغ. تاريخ دمشـق ج:٢٣ ص:٤١٣ في ترجمة صبيغ بن عسـل. الوافي بالوفيات ج:١٦ ص:١٦٣ في ترجمة صبيغ اليربوعـي. الفقيه والمتفقه ج:٢ ص:١٩. الـدر المنثور ج:٢ ص:٧. كنز العـمال ج:٧ ص:٣٣٥ حديث: ٤١٧٤. وغيرها من المصادر.

(٣) تاريخ دمشـق ج:٢ ص:٤١٣ في ترجمة صبيغ بن عسل، واللفظ له. الاستذكار لابن عبد البر ج:٥ ص:٧٠. الدر المنثور ج:٢ ص:٧. وغيرها من المصادر.

في ذلك في العقائد والأحكام.

وكانت نتائج ذلك لصالح الإسلام أموراً:

ثمرات حفظ القرآن

الأول: أن القرآن المجيد بقي بعد النبي صلى الله عليه وآله بأسلوبه الإعجازي وبلاغته الفريدة حجة لنبوته صلى الله عليه وآله ودليلاً على صدقه.

الثاني: أنه بقي مرجعاً لأمته من بعده في أصول الدين العقائدية وأحكامه العملية، لا يختلفون في وجوب اتباعه، وإن اختلفوا في تفسيره وتأويله.

الثالث: أن الإسلام تميز بذلك عن بقية الأديان، حيث بقي كتابه الكريم في متناول الكل، دون بقية الكتب السماوية للأديان الأخرى. كما صار مصدراً هاماً للثقافة الإلهية السليمة، والتي هي سبب للفخر والاعتزاز.

وانسدّ الطريق على من يحاول تحريفه بلغته العربية أو بترجمته لغيرها، حيث ينكشف سريعاً بسبب انتشار ما تسالم المسلمون عليه بمادته وهيئته المعروفة.

الرابع: أن القرآن المجيد قد تضمن الإخبار عن أمور من شأنها أن يلمسها المجتمع في وقتها، ولو بظهور آثارها، كوعد اليهود لأهل المدينة قبل إسلامهم بأنه سوف يظهر نبي، فنؤمن به ونظهر عليكم، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وآله آمن به أهل المدينة وكفر به اليهود. وكمشاركة الملائكة في حرب بدر وإرسال الريح، ونزول جنود لم يروها في حرب الأحزاب وحنين،

وغير ذلك. ولابد من تصديقه في ذلك حتى لمن لم يحضرها، إذ لو لم تظهر آثار ذلك لأنكر عليه المسلمون، فضلاً عن المشركين، وخسِر النبي ﷺ جماعته الذين يصول بهم، وشنع عليه أعداؤه وضعفت حجته عليهم.

نظير ما تقدم من إنكار بعض المسلمين عليه صلح الحديبية، لأنه ﷺ وعدهم حين خروجه لعمرة الحديبية بدخول المسجد الحرام، وأوجب ذلك حيرة وبلبلة في صفوف المسلمين، حيث توهموا أن مراده ﷺ دخولهم في نفس العام، مع أنه لم يعين وقت الدخول.

الخامس: أن القرآن الكريم قد أكد بوجه مكثّف على عصمة النبي ﷺ، ووجوب طاعته واتباع سنته في قوله وعمله، بنحو يفهمه الكل ويستوضحه من دون مؤنة، بحيث لا مجال للتشكيك فيه، فضلاً عن إنكاره، مهما امتدّ الزمن وتعاقبت الأجيال.

وكان لذلك أعظم الأثر في وضوح الحقيقة الدينية، وقيام الحجة عليها من دون تشويه ولا تحريف، رغم الفتن المتتابعة، والأعاصير المضادة، والألغام الكثيرة التي وضعت في طريقها على طول المدة وتعاقب الأجيال. لوفاء ما بقي محفوظاً من السنة الشريفة ببيان الدين الحق.

ولولا الجهود المكثّفة التي قام بها النبي ﷺ في سبيل تعميم قراءة القرآن المجيد ونشره، حفظاً له من الضياع والاختلاف والتشويه، لما حصل ذلك.

تركيز نبوته ﷺ واحترام سنته

ثالثها: تركيز نبوته ﷺ، واحترام شخصه الكريم، وقدسيته في نفوس المسلمين عامة من دون طعن فيه، ولا توهين موجه مباشرة إليه.

حتى ورد في صحيح أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن الله عز وجل أعفى نبيكم أن يلقى من أمته ما لقيت الأنبياء من أممها، وجعل ذلك علينا»[1].

وقد استتبع ذلك احترام سنته وسيرته. حتى انتهى الأمر بتسالم المسلمين على مرجعيتها في التشريع، وباءت محاولات التشكيك بعصمته في التبليغ وفي فعله بالفشل.

ولو أنه صلى الله عليه وآله صار في مقام فرض ما بلغ به وتطبيقه على أرض الواقع، لأصرّوا على التشكيك بتجرده في قوله وعمله عن العاطفة والخطأ، وتمحضه في الوحي الإلهي، حفاظاً على مصالحهم. بل أنكروا ذلك. كما صدر منهم بعض شواهده، وإن باءت بالفشل.

وبذلك ينشق المسلمون على أنفسهم في هذا الأمر الخطير، ويتعذر الاستدلال بسنته صلى الله عليه وآله في مواقع الخلاف بين الفرق المختلفة.

بل قد ظهر من السلطة الإقرار بأهمية السنة فيما يتناسب مع أهدافها. وبهذا صار احترامها مفروغاً عنه عند جميع المسلمين على اختلاف فرقهم الظاهرة المعروفة.

وقد انتهى الأمر أخيراً إلى التراجع عن حق السلطة في الخروج عن سنته صلى الله عليه وآله تسامحاً، أو اجتهاداً تبريرياً، على ما أوضحناه في كتابنا (**فاجعة الطف**).

غاية الأمر أن السلطة في صدر الإسلام قد حجّرت على السنة، ولم

---

(١) الكافي ج:٨ ص:٢٥٢ حديث:٣٥٢. بحار الأنوار ج:٢٧ ص:٢٠٥ باب ما يجب من حفظ حرمة النبي صلى الله عليه وآله.

تسمح بتدوينها ولا روايتها إلا في حدود ما لا ينافي مصالحها وأهدافها.

لكن ذلك لم يمنع من تناقل كثير منها سرّاً، أو في الفترات التي ضعفت فيها سيطرة السلطة على ذلك، لتسامحها أو لضعفها.

وقد ظهر نتيجة ذلك الكثير مما يكفي في إقامة الحجة على مذهب الحق وتعاليمه مهما طال الزمن كما سبق. وذلك مكسب عظيم للدين القويم والإسلام الحق الذي عليه الفرقة الناجية.

الإيمان بالغيب

رابعها: الإيمان بالغيب، كحقيقة يترتب عليها العمل والتسليم والاعتراف به، ولو نسبياً. وذلك بما ظهر منه صلى الله عليه وآله ومن أهل بيته عليهم السلام من بعده ببركته من كرامات ومعاجز، وإخبارات غيبية ظهر صدقها في المستقبل. مع أن الإسلام قد بدأ وانبثقت دعوته في مجتمع مادي صرف معزول عن المجتمعات الدينية، ولم يتأثر بثقافاتها المبتنية على الإيمان بالغيب.

ومن الظاهر أن ذلك يبتني في مثل تلك البيئة المادية التي عاش فيها النبي صلى الله عليه وآله على التدرج مرحلة مرحلة. وقد بدا منه صلى الله عليه وآله ذلك مع المشركين، كما تضمنته كتب التاريخ والسيرة. ثم تركز تدريجياً في نفوس المسلمين بما ظهر منه صلى الله عليه وآله أولاً من أخبار المستقبل وغيرها، ثم من أمير المؤمنين عليه السلام في عهد خلافته الظاهرة.

وتركز تدريجاً أيضاً في نفوس شيعة أهل البيت (صلوات الله عليهم). حتى انتهى الأمر بهم إلى تقبل إمامة أبي جعفر محمد الجواد وابنه أبي الحسن علي الهادي عليهما السلام، وهما لم يبلغا السنة الثامنة من العمر.

ومن البعيد جداً تيسر ذلك للإمامين الحسن والحسين عليهما السلام لو قدّر لأمير المؤمنين (صلوات الله عليه) أن يقتل بعد النبي صلى الله عليه وآله بفترة قصيرة، لا لقصور فيهما عليهما السلام، بل لعدم تهيؤ البيئة التي كانا فيها لتقبل ذلك واستيعابه.

بل يبدو أن الأئمة المتأخرين عليهم السلام قد فرضوا على غير شيعتهم ذلك نسبياً، كما يظهر لمن يتقصى أخبارهم وسيرتهم.

ومن الطريف ما روي عن عمر بن الفرج الرخجي، وهو من النواصب المعروفين بعداء أهل البيت عليهم السلام قال: «قلت لأبي جعفر [يعني: الإمام الجواد عليه السلام]: إن شيعتك تدعي أنك تعلم كل ماء في دجلة ووزنه. وكنا على شاطئ دجلة. فقال عليه السلام: يقدر الله تعالى أن يفوّض علم ذلك إلى بعوضة من خلقه أم لا؟ قلت: نعم يقدر. فقال: أنا أكرم على الله تعالى من بعوضة ومن أكثر خلقه»[1].

ثم انتهى الأمر بهذا التدرج إلى تقبل الغيبة ـ الصغرى، ثم الكبرى ـ المبني على الإيمان المطلق بالغيب بمرتبة عالية، كما هو ظاهر.

بل ظهر بعد ذلك ـ على طول الزمن وتعاقب الأجيال ـ من المعاجز والكرامات الكثيرة بالتوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وبأهل بيته عليهم السلام، وحتى بذريتهم وخواصّ أصحابهم (رضوان الله تعالى عليهم).

وقد فرض على أرض الواقع كحقيقة ثابتة، يقرّ بها الموافق والمخالف من المسلمين، بل حتى من غير المسلمين، وإن كانوا ملحدين.

وكثيراً ما يلجؤون إليهم في ذلك إذا انقطعت آمالهم، وأغلقت في

---

(١) عيون المعجزات ص:١١٣. بحار الأنوار ج:٥٠ ص:١٠٠-١٠١.

وجوههم الطرق المادية. ووضوح ذلك يغني عن إطالة الكلام فيه.

ومن المعلوم أهمية الإيمان بالغيب دينياً. وقد يرجع إلى ذلك ما عن قنوة ابنة رشيد الهجري قالت: «قلت لأبي: ما أشد اجتهادك! فقال: يا بنية سيجيء قوم بعدنا بصائرهم في دينهم أفضل من اجتهاد أوّليهم»[1].

وعلى كل حال فقد حقق النبي صلى الله عليه وآله بهذه الأمور الأربعة نقلة هامة مرحلية لصالح الإسلام عموماً، والإسلام الحق خصوصاً، وأحكم الأسس التي تبتني عليها دعوته.

وبذلك تيسر لأئمة أهل البيت (صلوات الله عليهم) وخاصة الصحابة والتابعين وتابعيهم في الأجيال المتعاقبة القيام بوظيفتهم في مجال التصحيح وإيضاح الحقائق التي سبَّبَ انحرافُ السلطة تشويهَها، أو التعتيمَ عليها وإغفال المجتمع الإسلامي عنها.

وذلك في الحقيقة إنجاز له أهميته الكبرى لصالح الإسلام الحق، بعد أن لم تسمح الظروف ـ نتيجة تعقّدات المجتمع الإسلامي الذي بذل رسول الله صلى الله عليه وآله الجهد الكثير في قيامه ـ بفرضه على أرض الواقع، وتطبيقه بكماله من أول الأمر، وفي حياته صلى الله عليه وآله.

أكمل الأئمة عليهم السلام مشروع النبي صلى الله عليه وآله ولم يتداركوه بعد انهياره

وقد ظهر بذلك أن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام لم يتداركوا الأمر بعد انهيار مشروع النبي صلى الله عليه وآله، وحاولوا تحقيق ما تيسر لهم من ذلك، كما قد

(١) المحاسن ج:١ ص:٢٥١ كتاب مصابيح الظلم باب اليقين والبصيرة في الدين حديث:٢٦٧. بحار الأنوار ج:٤٢ ص:١٢٣.

يتوهم، على ما أشرنا إليه سابقاً. وإنما أكملوا مشروعه، المبتني على مراحل مترتبة. حيث أحكم هو صلى الله عليه وآله أسسه، وشيّدوا هم عليهم السلام على تلك الأسس. ولولا الأسس التي أحكمها لم يتسن لهم عمل شيء لصالح دعوة الحق.

بل بأدنى نظرة موضوعية منصفة يظهر أن النبي صلى الله عليه وآله قد حقق عالمياً نقلة نوعية في الثقافة الدينية بقي أثرها وفاعليتها حتى اليوم.

المشروع بتمام مراحله للنبي صلى الله عليه وآله

على أنه لا ينبغي لنا أن نغفل أن الأئمة (صلوات الله عليهم) لم يكملوا مراحل مشروع النبي صلى الله عليه وآله مستقلين عنه، كما أكمل هو صلى الله عليه وآله مشروع من سبقه من الأنبياء عليهم السلام في هداية البشر مستقلاً عنهم، بل مهيمناً عليهم ناسخاً لشرائعهم، آخذاً عن الله عز وجل مباشرة، من دون واسطة بينه وبين الله تعالى.

أما الأئمة عليهم السلام فقد أخذوا عن النبي صلى الله عليه وآله، ونفّذوا ما عهد صلى الله عليه وآله إليهم واستضاؤوا بنوره. فهم أوصياؤه وورثة علمه، تابعون له تبعية الفصيل أثر أمه، كما تقدّم منّا في مقدمة هذا البحث.

ويشير لذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ**﴾[1]. وما ورد عن أئمة أهل البيت (صلوات الله عليهم) في السلام على النبي صلى الله عليه وآله.

فعن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله أمين الله على رسله وعزائم أمره، الخاتم لما سبق والفاتح

(١) سورة المائدة الآية: ٤٨.

لما استقبل، والمهيمن على ذلك كلّه. والسلام عليه ورحمة الله وبركاته»[١]. وقد تكررت هذه المضامين في الزيارات الواردة عنهم عليهم السلام.

وبذلك يظهر أن المشروع بتمام مراحله للنبي صلى الله عليه وآله، نفّذ هو بعض مراحله مباشرة بنفسه في الفترة القصيرة التي سبق التعرض لها. ونفّذ باقي مراحله الأئمة من أهل بيته عليهم السلام بتوجيه منه صلى الله عليه وآله. وفضل وشرف به نالوه من الله عز وجل بواسطته صلى الله عليه وآله.

غاية الأمر أن ذلك يكشف عن أنهم عليهم السلام ينفردون بقابليات فذّة ومميزات فريدة، خصّهم الله عز وجل بها، جعلتهم أهلاً لاستيعاب ما عهده صلى الله عليه وآله لهم، وحمل هذه المسؤولية الكبرى والأمانة الثقيلة، وتنفيذها على أرض الواقع على أفضل وجه، مهما كلّفهم ذلك من مصاعب ومصائب وتضحيات جسام.

والحديث في ذلك طويل، نكتفي فيه بهذه الإشارة العابرة، ولا يسعنا الإفاضة فيه واستيعابه بهذه العجالة.

عظمة شخصية النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وإقدامهم على التضحية

ومن جميع ما تقدم تتجلى عظمة شخص النبي الكريم بما يحمله من تصميم على التضحية من أجل أداء وظيفته التي حمّله الله تعالى إياها، حيث بذل كل ما يستطيع، وجهد في إقامة ذلك المجتمع بسلبياته وتعقداته في الفترة القصيرة، وبحكمته البالغة، وأخلاقه العالية، من أجل أن يوصل صوت الإسلام للشعوب الكثيرة، لتدخل فيه، ثم تتحق الأرضية الصالحة

(١) كامل الزيارات ص:٣٦٨ باب:٧٩ حديث:٣. الكافي ج:٤ ص:٥٧٢ باب: زيارة قبر أبي عبد الله الحسين عليه السلام حديث:١.

للتعريف بالإسلام بحقيقته الصافية من دون تحريف وتشويه. وإن كان المجتمع الإسلامي الذي قام بنشره لم يخلُ منهما.

وكان صلى الله عليه وآله موطّناً نفسه على التضحية بأعزّ الناس عليه وخاصة أهله، وتحميلهم المصائب والمصاعب من أجل تصحيح مسيرة ذلك المجتمع في المراحل اللاحقة، والاستفادة منه على الأمد البعيد، في قيام أمة تدعو إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، لتكون مناراً لطالب الحقيقة، فيهتدي بهديها ويستضيء بنورها. وتقوم الحجة لله تعالى بها على الناس ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾[1].

وقد استفاض عنه صلى الله عليه وآله توقع تلك المآسي والإخبار عنها بألم شديد وحسرة بالغة[2]، من دون أن يمنعه ذلك عن مضيِّه في أداء وظيفته في

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٤٢.

(٢) **ففي حديث سعد الإسكاف عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سّره أن يحيى حياتي ويموت مماتي ويدخل جنة عدن، فيلزم قضيباً غرسه ربي بيده فليتول علياً والأوصياء من بعده، وليسلّم لفضلهم، فإنهم الهداة المرضيون. أعطاهم فهمي وعلمي. وهم عترتي من خلقي [لحمي. خ ل] ودمي. إلى الله أشكو عدوهم من أمتي. المنكرين لفضلهم، القاطعين فيهم صلتي. والله ليقتلن ابني. لا أنالهم الله شفاعتي»**. كامل الزيارات ص:١٤٦ باب: ٢٢ حديث:٣، واللفظ له. أمالي الشيخ الصدوق ص:٨٨-٨٩ المجلس:٩ حديث:٧.

ونحوه حديث ابن عباس: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سرّه أن يحيى حياتي ويموت ميتتي ويسكن جنة عدن، غرسها ربي، فليوال علياً من بعدي، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً. وويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي. لا أنالهم الله شفاعتي». حلية الأولياء ج:١ ص:٨٦ في ترجمة علي بن أبي طالب، واللفظ له. وذكره باختصار في التدوين في أخبار قزوين ج:٢ ص:٤٨٥. أمالي الشيخ الطوسي ص:٥٧٨ المجلس:٢٣ حديث:٩. تاريخ دمشق ج:٤٢ ص:٢٤ في ترجمة علي بن أبي طالب. وغيرها من المصادر.

التبليغ والعمل الدؤوب في تقوية ذلك المجتمع مع سلبياته المتقدمة، وما يتوقع أن يقوم به نتيجة ذلك.

كما تتجلّى بذلك عظمة أهل بيته عليهم السلام في استجابتهم له صلى الله عليه وآله وقناعتهم بمشروعه، وتسليمهم لله عز وجل، وتقبلهم تلك المصائب الفادحة، وتضحيتهم فيها من دون تبرّم ولا جزع، فناءً في ذات الله عز وجل، وتسليماً لأمره، ورضاً بقضائه.

فالنبي صلى الله عليه وآله عليهم السلام كإبراهيم خليل الله وابنه إسماعيل الذبيح عليهما السلام في محنتهما القاسية.

بل زادوا عليها بأنهم مضوا في تسليمهم حتى النهاية المفجعة، ولم يكتف الله عز وجل منهم بالرضا والتسليم من دون تنفيذ، كما اكتفى بذلك من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

فجزى الله تعالى نبينا العظيم وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) عن هذه الأمة المرحومة خير جزاء المحسنين. وصلّى الله عليه وعليهم، ورزقنا شفاعتهم، وحشرنا في زمرتهم. إنه أرحم الراحمين. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي حديث جابر: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون إلى الله عز وجل: المصحف والمسجد والعترة. يقول المصحف: يا رب حرقوني ومزقوني. ويقول المسجد: يا رب عطلوني وضيعوني. وتقول العترة: يا رب قتلونا وطردونا وشرّدونا. فأجثوا للركبتين للخصومة. فيقول الله جل جلاله لي: أنا أولى بذلك». الخصال ص:١٧٥ باب الثلاثة حديث:٢٣٢، واللفظ له. الفردوس بمأثور الخطاب ج:٥ ص:٤٩٩. مقتل الحسين للخوارزمي ج:٢ ص:٨٤. كنز العمال ج:١١ ص:١٩٣ حديث:٣١١٩٠.

والنصوص في ذلك أكثر من أن تحصى.

مميزات النبي صلى الله عليه وآله عن بقية الأنبياء عليهم السلام

وتتمة لحديثنا هذا يحسن التنبيه لأمور:

أولها: أن النبي صلى الله عليه وآله استطاع بحكمته ومرونة سياسته ولين مواقفه أن يسترضي خصومه، ولو بحملهم على مجاملته، حتى إن حروب الإسلام، التي كان الهدف منها نشره بين الشعوب المختلفة خارج الجزيرة العربية، كان قوام جيوشها من عرب الجزيرة الذين كانوا في بدء الدعوة كفاراً حاربهم النبي صلى الله عليه وآله على الإسلام وأرغمهم على الدخول فيه بعد أن كبّدهم الخسائر الفادحة في النفوس والأموال والامتيازات.

أما بقية الأنبياء ممن عرف عنه الدعوة لدينه والحرب من أجلها فلم يتسنّ لهم ذلك فيما وصل إلينا، بل قاتلوا في سبيل نشر دينهم بمن آمن بهم، مع محق من كفر بهم بغَرَق أو نحوه، أو مع انكسار شوكتهم بحرب، كما في قضية طالوت وجالوت وجيوشهما.

ثانيها: أن أمته التي اعترفت به طوعاً وكرهاً لم تختلف معه علناً وتحدّياً له في حياته، بل اختلفت بعده فيما بلّغ به، مع الاتفاق على احترامه، ولو نفاقاً من بعضهم ومجاملة من دون قناعة تامة.

بينما أعلنت بعض الأمم لأنبيائها مخالفتها لهم تحدياً. فقد عبد بنو إسرائيل العجل في حياة موسى عليه السلام، وامتنعوا عليه حين أراد منهم دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله تعالى لهم، حتى انتهى الأمر بهم إلى أن قالوا لموسى عليه السلام: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾[1]. فعاقبهم الله تعالى بالتيه في الأرض أربعين سنة.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٢٤.

ويشير لذلك ما ورد من أن بعض اليهود قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه». فقال عليه السلام له: «إنما اختلفنا عنه لا فيه. ولكنكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾»[1].

ما حدث يناسب الطبيعة البشرية

ثالثها: أن ما حصل في الإسلام ليس أمراً غريباً عن طبيعة البشر في تعاملهم مع دعاة الإصلاح وأصحاب المبادئ مهما أحسنوا إليهم وسعوا في خيرهم. بل الناس نوعاً عبيد العصا، ولا يشكرون الإحسان.

فموقف قريش من النبي صلى الله عليه وآله قبل إسلامهم وبعده ـ على سلبياته الكثيرة السابقة ـ أهون بكثير من موقف بني إسرائيل من نبيهم موسى عليه السلام. لأن دعوة نبينا صلى الله عليه وآله للإسلام تقضي على كبرياء قريش وغيرهم من العرب، وتسفههم، وتنال من آلهتهم، وتلغي امتيازاتهم، وترفع بني هاشم عليهم، كما سبق.

أما النبي موسى عليه السلام فقد جاء بني إسرائيل بعد طول انتظار، وأنقذهم الله تعالى به من محنتهم العظمى مع فرعون، فانتقم لهم منه، وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها ببركته. ومع كل ذلك فقد رأى هو وبقية أنبيائهم الأمرّين منهم على ما حكاه القرآن الكريم، وتضمنه تاريخهم الطويل.

وذلك بمجموعه يكشف عن تميز نبينا صلى الله عليه وآله بدعم إلهي عظيم، وشخصية رفيعة المستوى في العلم والحكمة والأخلاق والسلوك، كما قال

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:٧٥. أمالي المرتضى ج:١ ص:١٩٨.

تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١]، وقال عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣]. وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا* وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾[٤].

فالحمد لله الذي جعلنا من أمته، وهدانا إلى الدين القويم والصراط المستقيم ببركته. ونسأله تمام النعمة بالتوفيق للثبات على الحق وحسن الخاتمة.

موقف الأئمة عليهم السلام من الجهاد

رابعها: أن اهتمام النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام ـ تبعاً له ـ بالتعريف بالإسلام خارج الجزيرة العربية وإسماع دعوته، ثم انتشاره بين الشعوب المختلفة، وما ترتب على ذلك بالتدريج من قيام أمة معتدّ بها تحمل الإسلام الحق وتدعو إليه، كل ذلك قد يفسر لنا اختلاف موقف الأئمة (صلوات الله عليهم) من الجهاد تحت راية الخلافة غير الشرعية.

دعم أمير المؤمنين عليه السلام السلطة في حروب الإسلام الأولى

فأمير المؤمنين عليه السلام قد دعم السلطة في حروب الإسلام الأولى ضدّ الإمبراطوريتين الفارسية والرومية، واشترك جماعة من أصحابه فيها،

---

(١) سورة القلم الآية: ٤.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

(٣) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧.

(٤) سورة الأحزاب الآية: ٤٥-٤٦.

بغض النظر عما كان فيها من سلبيات.

ومن القريب أن يكون ذلك لتوقف انتشار الإسلام عليها. إذ لولاها لبقي الإسلام محاصراً في الجزيرة العربية، بل قد يقضى عليه من قبل الإمبراطوريتين المذكورتين لو هاجماه في عقر داره، قبل أن تقوى معنويات المسلمين في الجزيرة العربية بالهجوم عليهما واختراقهما في عقر دارهما، ثم الانتصار الكاسح عليهما، كما تقدم في الفصل الأول.

بيان خواص أصحابه عليهم السلام الحقيقة عند خروجهم للجهاد

وقد يضاف لذلك أن أصحابه صلى الله عليه وآله ببعدهم عن جوّ المدينة المنورة المعزول ـ الذي أحكمت السلطة سيطرتها عليه إدارياً وثقافياً ـ وخروجهم مع الجيوش في آفاق الأرض ينفتحون على من معهم من المسلمين الغافلين عن كثير من الحقائق، لعلهم يجدون من يسمع منهم ويتقبل الحقيقة، فيعرّفونه ببعض ما يعرفون من حقائق في انحراف السلطة، وما يترتب على ذلك من مضاعفات، ليؤدوا ما عليهم ـ حسب ما يتيسر لهم ـ من نشر الثقافة الدينية السليمة، من دون أن يلفت ذلك نظر السلطة، ويثير حفيظتها.

ولعل من ذلك ما عن زهير بن القين حينما جمعه الطريق مع الإمام الحسين عليه السلام في مسيره إلى العراق، حيث استدعاه الإمام الحسين عليه السلام فذهب إليه. ولما رجع نقل ثقله إلى ثقل الحسين عليه السلام، ثم قال لأصحابه: «من أحبّ منكم أن يتبعني، فإنه آخر العهد. وسأحدثكم حديثاً.

غزونا بلنجر ففتح علينا، وأصبنا غنائم ففرحنا. وكان معنا سلمان الفارسي، فقال لنا: إذا أدركتم سيد شباب أهل محمد فكونوا أشدّ فرحاً

بقتالكم معه بما أصبتم اليوم من الغنائم. فأما أنا فأستودعكم الله»[١].

ولما اقتحم جيش المسلمين نهر دجلة بخيولهم إلى المدائن، التي فيها إيوان كسرى ـ كما سبق ـ كان سلمان الفارسي يسير بجنب سعد بن أبي وقاص، وسعد يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل. والله لينصرنّ الله وليّه وليظهرنّ دينه، وليهزمنّ عدوه إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات». فقال له سلمان: «الإسلام جديد ذللت لهم البحور، كما ذلل لهم البر. أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً»[٢].

وكأنه يشير إلى ما سوف يأتي من الفتن التي تُخرِج أفواجاً من المسلمين عن الدين، حيث انتهى الأمر ببعض من كان من جيش المسلمين في حروب العراق والشام أن قاتل أميرَ المؤمنين عليه السلام في حروب الجمل وصفين والنهروان، وبعضهم سار لقتال الإمام الحسين عليه السلام.

فإن ذلك يكشف عن أن سلمان الفارسي رضي الله عنه كان يُظهِر بعض ما كان يعلم إذا وجد مجالاً لذلك.

وهناك من يرى أن جذور التشيع في بلاد الشام بدأت بجهود أبي ذر رضي الله عنه عند خروجه مع المسلمين إلى الشام.

---

(١) الكامل في التاريخ ج:٤ ص:٤٢ عند الكلام في مسير الحسين إلى الكوفة، واللفظ له. مقتل الخوارزمي ج:١ ص:٢٤ عند الكلام في خروج الحسين من مكة إلى العراق. وغيرهما من المصادر. ونسب الطبري في تاريخه الكلام المذكور لسليمان الباهلي والظاهر أنه خطأ منه.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٥١٢ عند ذكر فتح المدائن التي فيها إيوان كسرى. البداية والنهاية ج:٧ ص:٧٦ في ذكر المدائن. وذكره الطبري باختصار ج:٣ ص:١٢٢ عند التعرض لحديث المدائن القصوى.

كما أن من المعلوم تاريخياً أن أمير المؤمنين عليه السلام كان أظهر النفر في المدينة، إليه يلجأ الثائرون من خارجها على عثمان لمفاوضة عثمان في إصلاح سيرته، وقد بذل جهوداً مكثفة في درء الفتنة والمنع من قتل عثمان. وكان الثائرون يهتفون باسمه. ولما لم تثمر جهوده وقتل عثمان كانت البيعة له. وذلك يكشف عن قوة شعبيته خارج المدينة. مع وضوح اهتمام الأولين بإغفال المسلمين وجهلهم برفعة مقامه ومقام أهل البيت عموماً.

وما ذلك إلا لجهود خاصة الصحابة الذين انتشروا في آفاق الأرض مع الجيوش الفاتحة في التعريف بمقامه والتنويه باسمه.

وكشاهد على ذلك ما ذكره ابن قتيبة في أحداث حرب الجمل. قال: «فلما قدم على طيء أقبل شيخ من طيء قد هرم من الكبر، فرفع له من حاجبيه، فنظر إلى علي، فقال له: أنت ابن أبي طالب؟ قال: نعم. قال: مرحباً بك وأهلاً... لو أتيتنا غير مبايعين لك لنصرناك، لقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأيامك الصالحة. ولئن كان ما يقال فيك من الخير حقاً إن في أمرك وأمر قريش لعجباً، إذ أخرجوك وقدموا غيرك. سر، فوالله لا يتخلف عنك من طيء إلا عبد أو دعي إلا بإذنك»[1].

موقف الأئمة عليهم السلام من الجهاد بعد انتشار الإسلام

أما بعد ذلك وبعد أن بذر أمير المؤمنين عليه السلام بذرة التشيع في الكوفة، وآمن بها جماعة معتد بها، فقد انصرف الأئمة (صلوات الله عليهم) إلى تركيز معيار الإمامة، وأنها لهم عليهم السلام بالنصّ من الله عز وجل، وأنهم عليهم السلام المعنيون بأولي الأمر، ثم الاهتمام بتثقيف شيعتهم بثقافتهم السليمة.

---

(١) الإمامة والسياسة ص:٥٦ استنفار عدي بن حاتم قومه لنصرة علي رضي الله عنه.

ولم يظهر منهم عليهم السلام التشجيع على الجهاد تحت راية الخلافة غير الشرعية، بل يظهر من الإمام زين العابدين عليه السلام عدم الاهتمام به، أو عدم شرعيته.

ففي حديث سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: لقي عباد البصري علي بن الحسين عليه السلام في طريق مكة. فقال له: يا علي بن الحسين تركت الجهاد وصعوبته، وأقبلت على الحج ولينه. إن الله عز وجل يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله...**﴾ الآية. فقال علي بن الحسين عليه السلام: أتم الآية. فقال: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ...**﴾ الآية. فقال علي بن الحسين عليه السلام: إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحج»[1]. ونحوه غيره.

بل ورد في غير واحد من النصوص عن الأئمة من بعده (صلوات الله عليهم) المنع من الجهاد تحت راية حكام الجور، وفي بعضها أنه مثل الميتة والدم ولحم الخنزير[2].

وفي حديث أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يؤمَن على الحكم، ولا ينفذ في الفيء ما أمر الله عز وجل. فإنه إن مات في ذلك المكان كان معيناً لعدونا في حبس حقنا والإشاطة بدمائنا. وميتته ميتة جاهلية»[3].

وذلك يكشف عن أن اشتراك خاصة الصحابة من شيعة أمير

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٢٢ كتاب الجهاد باب الجهاد الواجب مع من يكون حديث:١.

(٢) الكافي ج:٥ ص:٢٣ كتاب الجهاد باب الجهاد الواجب مع من يكون حديث:٣.

(٣) علل الشرائع ج:٢ ص:٤٦٤.

المؤمنين عليهم السلام في الحروب الأولى بإذن منه عليه السلام لخصوصية فيها. ولعله لما ذكرناه من أهمية نشر الإسلام وتعريف الشعوب به والتعريف بالحقيقة بما يتيسر لهم. وبعد أن حصل ذلك بتلك الحروب لم يكن هناك مسوغ للجهاد مع غيرهم عليهم السلام من أئمة الجور.

نعم رخّصوا عليهم السلام لشيعتهم الجهاد الدفاعي في الثغور لصد هجوم العدو على بلاد الإسلام، كما يذكر في محله من الفقه. والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الأمر.

مخادعة المنافقين

خامسها: قد ظهر من حديثنا هذا أمر لم نعثر على من نبّه له، قد يكشف عن نكتة بيانية في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾[1].

وهو أنه يمكن حمل خَدْع الله عز وجل لهم على أنهم كانوا يحسبون أن إظهارهم الإيمان وإقرارهم بالإسلام نفاقاً، وقبوله تعالى هو ورسوله صلى الله عليه وآله منهم ذلك، خَدعاً منهم لله عز وجل، حيث قد نفعهم في دنياهم من دون أن يكسب الإسلام بواقعه السليم منهم شيئاً، بل حرّفوا الإسلام واستغلّوه لأطماعهم، كما يريدون.

لكنهم غفلوا عن أن قبول الله تعالى ذلك منهم كان لصالح الإسلام السليم، ومكسباً له. حيث أدى إلى نشرهم الإسلام بإطاره العام وتعريف الشعوب به، واستتبع ذلك احترام الكتاب المجيد والسنة النبوية الشريفة،

(١) سورة النساء الآية: ١٤٢.

وفرض الرجوع إليهما في معرفة الحقائق والأحكام.

وبذلك تحققت الأرضية المناسبة لصالح الإسلام الحق، والبيئة الصالحة لسماع حجته. حيث فسح المجال لأئمة أهل البيت (صلوات الله عليهم) وصالح المؤمنين من أهل البصائر في العمل وبذل الجهد لتنبيه عامة المسلمين للدين الحق بواقعه السليم وبتمام تعاليمه، ومنها ولاية أهل البيت عليهم السلام وموالاة وليهم ومعاداة عدوهم، بعد وضوح الحجة وكثرة الأدلة، لما سبق من اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بالتبليغ بوجه مكثف، بحيث تقوم به الحجة مهما امتدّ الزمن وتعاقبت الأجيال.

وبذلك قامت أمة كبيرة تؤمن بذلك، وتتبناه بإصرار قد يبلغ حدّ التضحية. وهذه الأمة تنهض بالدعوة له، وتستقطب من كَتَب الله عز وجل له التوفيق لطلب الحقيقة وقبولها، ورفض الباطل وأهله، والبراءة من الظالمين مهما طال الزمن وتعاقبت الأجيال.

وقد سبق منّا أن ذلك هو هدف الله تعالى من إرسال رسله، وإن لم يترتب عليه قبول جميع الناس منهم وإيمانهم برسالتهم.

ولولا ما قام به المنافقون من الإقرار ظاهراً بالإسلام، ثم نشره بين الشعوب المختلفة رغبة في الحكم والسلطة في الدنيا، لما تيسّر للقلة من ذوي البصائر والإيمان الخالص ممن عاصر النبي صلى الله عليه وآله شيء من ذلك.

وبذلك يظهر أنه كما حاول المنافقون خَدْع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله لأطماعهم الدنيوية، خَدَعهم الله عز وجل باستخدامهم لصالح دعوته الحقّة من حيث لا يشعرون.

بل ترتب على ذلك كشفهم على حقيقتهم وفضحهم، وتسليط

الضوء على جرائمهم، والتشنيع بها عليهم. وكلما امتد الزمن وتعاقبت الأجيال زاد ذلك وضوحاً وجلاءً. وأي خدع أشدّ عليهم من ذلك؟! وبه يمكن تفسير الآية الشريفة.

وما ذكرناه يتناسب مع ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله من أنه قال في واقعة خيبر بعد قصة طويلة: «يا بلال قم فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن. وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[1]. ومثله ما سبق عن سلمان الفارسي رضي الله عنه في فتح المدائن.

وكذا ما ورد في كتاب الإمام الحسين (صلوات الله عليه) لبني هاشم من قوله عليه السلام: «أما بعد فإن من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح»، حيث لم يظهر لنا وجه حصول الفتح إلا كشف واقع المنافقين، وزيف دعوتهم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

هذا ما تيسر لنا من الكلام في هذا الموضوع. وهو على اختصاره قد تضمن نكات مهمة، تفتح الآفاق للباحث عن الحقيقة، وتيسر له التوسع واستعراض الشواهد الكثيرة عليها، والمؤكدة لها.

ونسأل الله عز وجل المزيد من التوفيق والتسديد لنا وللمؤمنين. وهو حسبنا ونعم الوكيل. والحمد لله رب العالمين على هدايته لدينه والتوفيق لما دعا إليه من سبيله. وصلى الله على رسوله الأمين وآله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) صحيح البخاري ج:٧ ص:٢١٢ كتاب القدر باب العمل بالخواتيم، واللفظ له. السنن الكبرى ج:٨ ص:١٩٧ كتاب المرتد باب ما يحرم به الدم من الإسلام زنديقاً كان أو غيره. مسند أحمد ج:٢ ص:٣٠٩ في حديث أبي هريرة. وغيرها من المصادر الكثيرة.

المبحث الثاني

في إنجاز النبي صلى الله عليه وآله الثقافي البياني

المبحث الثاني
في إنجاز النبي صلى الله عليه وآله الثقافي البياني

من المعلوم انبثاق دعوة الإسلام في الجزيرة العربية. والثقافة البيانية فيها تتميز بالمفاخرة والتعصب القبلي، والتصوير التخييلي في القوة والبطولة والغزل وما جرى مجرى ذلك.

كما أن الثقافة الدينية التي لها جذور سليمة، والتي هي بين ظهرانيهم أو المجاورة لهم عند أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ محدودة ومحرّفة، بل مشوّهة، تبتني على كثير من السلبيات من تشبيه الله عزّ وجل بخلقه ونسبة ما لا يليق بجلاله وكماله من مذموم الصفات، كالكذب والظلم، والحاجة للمخلوقين، والاستعانة بهم وبآرائهم، ونسبة الولد له جلّ شأنه... إلى غير ذلك مما يتضمنه تراثهم المتداول بينهم، والذي يتيسر وصوله لغيرهم واطلاعهم عليه.

ويتضمن أيضاً نسبة مثل ذلك لأنبيائه عليهم السلام الناطقين عنه والسفراء بينه وبين خلقه والمؤتمنين على وحيه.

تميز الثقافة البيانية الإسلامية مضموناً وأسلوباً

وفي وسط هذه الثقافات المتباينة بعث النبي صلى الله عليه وآله ومعجزته القرآن

المجيد الذي يتميز بأسلوبه البياني الرفيع والمعجز الخالد، ومضامينه العالية السليمة التي لا تتناسب مع ذلك كلّه. بل هي نموذج فريد يتناسب مع كمال الله عزّ وجل وقدسيته وجلاله، وقدسية أنبيائه والسفراء بينه وبين خلقه (صلوات الله عليهم).

وبعد أن كان القرآن وحياً إلهيّاً ـ عندنا نحن المسلمين ـ فلا جهد للنبي صلى الله عليه وآله إلا في تبليغه، والحفاظ عليه من التحريف، كما تقدم في الفصل الثاني من المبحث الأول.

إلا أنه قد تفرّع عنه ثقافة فريدة متميزة في خطب النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته وأدعيتهم وزياراتهم ووصاياهم والأحاديث الكثيرة المروية عنه صلى الله عليه وآله وعنهم عليهم السلام. فإنها تتميز:

أولاً: بصياغتها البيانية الفريدة في كثير شائع من الموارد. تلك الصياغة التي صارت بها دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، فصاحة وبلاغة ورصانة وانتظاماً وتناسقاً، بحيث كثيراً ما يستطيع الممارس أن يميز كلامهم (صلوات الله عليهم) عن غيره بصياغته وبهائه وجماله وروعته.

وثانياً: بمضامينها الجليلة، ومفاهيمها الدينية السليمة من التعريف بالله عزّ وجل، وتنزيهه عن مشابهة مخلوقاته، وعن الحدود والتغيّر، وأنه تعالى أحدي الذات، لا صفة له تزيد على ذاته يكون بها كماله. مع الإغراق في بيان عظمته وقدرته وسلطانه وسطوته، وحكمته وحلمه ورحمته، وعِظَمَ حقّه على خلقه، وبديع خلقه وصنعه، وصفات جماله وجلاله.

والتأكيد على التوكل عليه وحسن الظن به والتسليم له والرضا بقضائه، والصبر على محنته وبلائه، والشكر له على نعمائه وآلائه، والتوسط

في التدبير بين الجبر والتفويض، وأنه أمر بين أمرين.

كما تتبنى قدسية أنبيائه وأصفيائه وخالصته وخاصته، وخبث أعدائه وأعدائهم وشرورهم ووهنهم وسوء منقلبهم والتحذير منهم والتنفير عنهم.

مضافاً إلى ما استفاض فيها من أخبار الماضين والغابرين والمبدأ والمعاد وتفاصيل الموت والبرزخ والبعث والنشور، والثواب والعقاب، بنحو يختلف عما يوجد في التراث المتداول في تراث الأديان السابقة. بل كثير منه لا أثر له في ذلك التراث.

ثم اللجوء إلى الله تعالى ومناجاته، مع الثناء عليه وتمجيده والرغبة إليه والتذلل بين يديه والتوسل به والبخوع له والتضرّع إليه، والاعتصام به، والتوكل عليه والتسليم له، وطلب الحوائج منه واستنزال رحمته والاستعاذة به من كل سوء وشرّ في الدنيا والآخرة.

ثم التفنن في الوعظ والترغيب والإرشاد والترهيب، والتذكير بالله تعالى، والتحذير من سطوته ونقمته، والحثّ على طاعته واستنزال رحمته والفوز بعفوه ورأفته.

مع الحثّ على مكارم الأخلاق ومحمود الصفات والخصال ومجانبة الشرور والرذائل، والنصائح التربوية والتوجيه في السلوك والعمل لما فيه صلاح الإنسان، مع الله تعالى، وفي نفسه وأهله ومجتمعه ورعيته، وفي دينه ودنياه وآخرته... إلى غير ذلك مما يتفرع على المفاهيم القرآنية الرفيعة، وينهل منها، ويستضيء بنورها، بنحو يصلح أن يكون شرحاً للقرآن المجيد وتفاعلاً بمضامينه الشريفة، حيث يكشف عن استيعابهم (صلوات الله عليهم) له، وتفاعلهم معه.

ويجد الإنسان ذلك كلّه في الكمّ الهائل من تراثهم الرفيع المشتمل على أحاديثهم الشريفة وخطبهم الجليلة، وكتبهم وعهودهم ووصاياهم وأدعيتهم وزياراتهم.

كل ذلك مع الإبداع في عرضه بمختلف الوجوه والأساليب ذات البيان الرصين والمستوى العالي في الفصاحة والبلاغة، مع التأثير في النفوس وقوة الوقع فيها، المناسب لصدورها من أناس يعيشون مضامينها ويتفاعلون معها، لأن الكلام إذا خرج من القلب دخل إلى القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان.

ومن أراد أن يستوضح ذلك ويستبينه، ويزداد بصيرة فيه وبيّنة منه، فليرجع إلى خطب النبي صلى الله عليه وآله. وكتاب نهج البلاغة وأصول الكافي ووصية الإمام الحسن عليه السلام لجنادة وغيرها مما ورد عنه عليه السلام، وخطب الإمام الحسين عليه السلام وكتبه، ولاسيما أثناء نهضته المباركة، وإلى الصحيفة السجادية والأدعية الكثيرة المعروفة، كأدعية كميل والسمات والعشرات ودعاء ليلة عرفة ودعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، وأدعية شهر رمضان على اختلاف أوقاته. وزيارة الجامعة الكبيرة وزيارات أمير المؤمنين والإمام الحسين عليهما السلام وغيرها مما هو كثير جداً. وكذا ما تضمنته كتب الحديث المختلفة من معارف ومضامين سامية.

ومن اللافت للنظر أيضاً أن القرآن الكريم وتراث النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام قد تضمن الكثير من التراث الثقافي السليم والرفيع للأنبياء السابقين عليهم السلام في وحي الله عز وجل لهم ، وفي محاوراتهم وأدعيتهم وغيرها مما لا عين له ولا أثر في التراث المنشور والمتداول بين المنتسبين لتلك الأديان، الذي يتيسر وصوله للناس واطلاعهم عليه.

شبهة نسبة هذه الثقافة لأهل البيت عليهم السلام

هذا وقد يغفل الناظر في ذلك، فينسبه لأهل البيت (صلوات الله عليهم)، دون النبي صلى الله عليه وآله، ويدعي أنها ثقافة لهم لا لدين الإسلام القويم ونبيه العظيم. لأن الكثير الغالب أخذ منهم. ولاسيما أمير المؤمنين عليه السلام، حيث تميز بتهيؤ من قام بجمع ما ورد عنه عليه السلام، والاهتمام به وإخراجه، خصوصاً كتاب (نهج البلاغة) الذي له موقعه المتميز دراسة وانتشاراً وشرحاً وتعليقاً.

دفع الشبهة المذكورة

ولكن يدفع ذلك أمور:

١ـ ما سبق منّا في الأمر الثاني من المقدمة من أن أهل البيت (صلوات الله عليهم) ورثة النبي صلى الله عليه وآله، وأنهم منه يأخذون وعنه ينطقون، من دون أن يستقلوا عنه بشيء.

٢ـ أن الكثير مما تضمنه تراثهم قد صرّحوا فيه بأن ذلك قوله صلى الله عليه وآله، فهم راوون عنه بلفظه، كما يظهر بالرجوع إليه. ومنه ما يأتي منا في المبحث الثالث. وإنما لم يهتم شيعتهم بفصل كلامهم عليهم السلام عن روايتهم عنه صلى الله عليه وآله لمفروغيتهم عما سبق من رجوع الجميع إلى شيء واحد.

كما أنه قد روي عنه صلى الله عليه وآله من غير طريقهم عليهم السلام الكثير. منها ما ذكره السيد الرضي قدس سره في كتاب المجازات النبوية.

٣ـ أن بيئة النبي صلى الله عليه وآله تختلف عن بيئة أمير المؤمنين عليه السلام ومن بعده من أولاده عليهم السلام. فإن البيئة التي عاش فيها النبي صلى الله عليه وآله بيئة أمية لم تألف التدوين.

وقد اختلف الحال بعد ذلك كثيراً، حيث تطور وضع المسلمين، فشاعت الكتابة فيهم، ولاسيما بعد دخول الأمم المتحضرة في الإسلام، حتى غلبوا العرب كثرة، كما سبق عند التعرض لحديث الأشعث بن قيس مع أمير المؤمنين عليه السلام.

وقد ورد في مصادر الحديث عندنا أن لبعض خواص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ـ كميثم التمار ـ كتاباً يتضمن ما كان يمليه عليه وعلى جماعة من أحاديث لها أهمية في العقيدة[١]. وكذا ما روي عن الأصبغ بن نباتة[٢].

٤ـ أن السلطة بعد النبي صلى الله عليه وآله قد حجرت على السنة النبوية بحرق ما دوّن منها، ومنع الرواية لها إلا ما يناسب مقاصدها. وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في كتابنا (في رحاب العقيدة)[٣].

نعم احتفظ أهل البيت عليهم السلام بالكثير منها مدوناً ومتوارثاً بينهم، ولم تسمح ظروفهم بنشره. وربما مكّنوا بعض خواص أصحابهم من الاطلاع على شيء منه في حدود ضيقة جداً، كما تضمنته بعض النصوص.

كصحيح أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، الطويل وفيه: «ثم قال: يا أبا محمد وإن عندنا الجامعة. وما يدريهم ما الجامعة؟! قلت: جعلت فداك، وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وإملائه من فلق فيه وخط علي بيمينه...»[٤].

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص:١٤٨ المجلس: ٥ حديث:٥٩. بحار الأنوار ج:٢٧ ص:١٣٠-١٣١ باب ثواب حبهم ونصرهم وولايتهم حديث:١٢١، وص:٢٢٠ باب ذم مبغضهم حديث:٥.

(٢) نظم درر السمطين ص:٢٤٠. وعنه في ينابيع المودة لذوي القربى ج:٢ ص:٣٦٥-٣٦٦.

(٣) في رحاب العقيدة ج:١ ص:٢٦١ وما بعدها. في أواخر جواب السؤال السابع.

(٤) الكافي ج:١ ص:٢٣٩ باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام

وفي صحيح محمد بن مسلم: «أقرأني أبو جعفر عليه السلام صحيفة كتاب الفرائض التي هي إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط علي عليه السلام بيده، فوجدت فيها...»[١].

وإلا فالنبي صلى الله عليه وآله بقي في المدينة عشر سنين يخطب في كل جمعة قبل الصلاة إلا إذا خرج منها محارباً. ولم يدون شيء من هذه الخطب، كما لم يرو منها شيء، أو روي شيء قليل جداً.

٥ـ أن أولويات النبي صلى الله عليه وآله تختلف عن أولويات من بعده من أئمة أهل البيت عليهم السلام. حيث كان صلى الله عليه وآله مسؤولاً عن التبليغ بالوحي، وتثبيت أصول العقيدة وفروعها العملية في مجتمع بدائي لم يألف ذلك. وقد تضمنت خطبته صلى الله عليه وآله في حجة الوداع على طولها الكثير من ذلك[٢].

أما أمير المؤمنين عليه السلام ومن بعده الأئمة (صلوات الله عليهم)، فقد عاشوا في مجتمع مؤمن بأصول الدين وكثير من فروعه، لكنه يعاني من أمرين:

الأول: الترهل والترف، والتوجه لكسب المال، والحصول على مواقع النفوذ، نتيجة الفتوح وتوسع الإسلام.

الثاني: التشويه والتحريف للمفاهيم الدينية، تبعاً للمصالح السياسية أو نتيجة الاحتكاك بالثقافات الأخرى.

حديث:١، واللفظ له. بصائر الدرجات ص:١٦٣ باب في الأئمة أن عندهم الصحيفة الجامعة.

(١) الكافي ج:٧ ص:٩٣ كتاب الوصايا: باب ميراث الولد مع الأبوين حديث:١، واللفظ له. تهذيب الأحكام ج:٩ ص:٢٧٠ كتاب الوصايا: باب ميراث الوالدين حديث:٤.

(٢) تحف العقول عن آل الرسول ص:٣٠ وما بعدها خطبته صلى الله عليه وآله في حجة الوداع.

وقد فرض هذان الأمران عليهم عليهم السلام الاهتمام بالوعظ والإرشاد، وتصحيح الأخطاء في تفسير الدين ونحو ذلك. وبذلك طرقوا أبواباً لم يكن النبي صلى الله عليه وآله بحاجة لطرقها، أو لم يجد مجالاً لذلك، لاهتمامه بقيام مجتمع إسلامي موحد، وغضّ النظر عن سلبياته مهما كانت، كما سبق في المبحث الأول.

٦ـ أن لنزول القرآن المجيد الأثر الفاعل في الوعظ والتنبيه للأخطاء وتصحيح المسار في عهد النبي صلى الله عليه وآله. أما بعد انقطاع الوحي بوفاته صلى الله عليه وآله، فيحتاج التصحيح للتذكير والردع المجدد، تأكيداً لما تضمنه القرآن، وتأنيباً على الخروج عنه وإغفاله.

فإن الإنسان بطبعه لا يكفي في استقامته وثباته علمه بالحقيقة، بل يحتاج دائماً لتكرار التذكير بها والتأكيد على ذلك. كما قال عز وجل: ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1].

وذلك لا ينافي وحدة الثقافة التي يحملها هو صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وهي ثقافة القرآن المجيد وما يحوم حولها ويتفرع منها، وإن كان لكلٍّ دوره في إظهار الجانب المناسب منها للظرف الذي يعيشه.

خطبتا الزهراء عليها السلام

ويزيد ذلك وضوحاً ما يراه الإنسان في خطبتي الصديقة سيدة النساء فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها)، حيث تطرقت فيها لمواضيع هامة في العقيدة والمعارف الدينية والاحتجاج، كتوحيد الله تعالى وتنزيهه، والثناء

(١) سورة الطور الآية: ٥٥.

عليه وتمجيده والبخوع له وشكره.

ثم بيان مقام النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته، ورفعة شأنهم عند الله عز وجل وجهادهم في سبيله، وأهمية القرآن المجيد، والحثّ على الرجوع إليه والتمسك به واستنكار الخروج عن تعاليمه، مع بيان علل الشرائع والأحكام وفوائدها.

ثم الإنكار على الظالمين والمنافقين وتبكيتهم على ما قاموا به من الاعتداء على أهل البيت عليهم السلام، وغصب الخلافة والميراث والنحلة. والتأكيد على الحقوق السليبة. والإفاضة في الاحتجاج لها.

ثم استنهاض المسلمين وتبكيتهم على نقض العهد والانقلاب على الأعقاب، وعلى تقاعسهم عن إنكار المنكر وتصحيح الشذوذ وإرجاع الأوضاع إلى نصابها.

وأخيراً التنبؤ القاطع المريع بما سيؤول إليه أمرهم في القريب العاجل، وما سيقع عليهم من مآس وفجائع نتيجة ذلك، وما يتبع ذلك من خسران الدنيا والآخرة. كما تقدم في أوائل المبحث السابق شيء منه.

كل ذلك ببيان فريد يتناسب مع بيانهم (صلوات الله عليهم) جميعاً، حيث يبلغ القمة في الرصانة والفصاحة والبلاغة والتأثير في النفوس وهزّ مشاعرها، بنحو لا يشك المتأمل المنصف في أنهم ينطقون بلسان يختص بهم، ويفرغون عن مشكاة واحدة. مع التفاعل بالقرآن المجيد والسيطرة على الاستشهاد به ومزجه بالكلام.

هذا مع العلم بأنها عليها السلام لم تبق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أياماً معدودة عاشتها عيش الثاكل المنهك بالمصاب الجلل، والمستهدَف للمظالم والمآسي

والمرض، فلابد أن تكون قد أخذت هذه الثقافة من النبي صلى الله عليه وآله متفرعة على ثقافة القرآن الكريم.

نماذج من خطب النبي صلى الله عليه وآله وكلامه

وأظهر من ذلك ما ورد عن النبي نفسه صلى الله عليه وآله. وحيث لا يتيسر لنا استيعابه، بل المقام لا يناسب ذلك، فلنذكر منه بعض النماذج توضيحاً للمقصود.

١ـ خطبته صلى الله عليه وآله في مسجد الخيف: «نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، وبلّغها من لم تبلغه. يا أيها الناس ليبلغ الشاهد الغائب. فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لائمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم، فإن دعوتهم محيطة من ورائهم. المؤمنون إخوة تتكافى دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم»[1].

٢ـ وفي حديث سدير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر يوم فتح مكة، فقال: أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها. ألا إنكم من آدم عليه السلام، وآدم من طين. ألا إن خير عباد الله عبد اتقاه. إن العربية ليست بأب والد، ولكنها لسان ناطق، فمن قصر به عمله لم يبلّغه حسبه. ألا إن كل دم كان في الجاهلية أو إحنة ـ والإحنة الشحناء ـ فهي تحت قدمي هذه إلى يوم

(١) الكافي ج:١ ص:٤٠٣-٤٠٤ باب أمر النبي صلى الله عليه وآله بالنصيحة لأئمة المسلمين واللزوم لجماعتهم حديث:٢، واللفظ له. أمالي الشيخ المفيد ص: ١٨٦-١٨٧ المجلس:٢٣ حديث:١٢. أمالي الشيخ الصدوق ص: ٤٣١-٤٣٢ المجلس:٥٦ حديث:٣.

القيامة»[١].

٣ـ وخطبته صلى الله عليه وآله في فضل شهر رمضان فيما روي عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله خطبنا ذات يوم فقال: أيها الناس إنه أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة. شهر هو عند الله أفضل الشهور، وأيامه أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات.

وهو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجعلتم فيه من أهل كرامة الله. أنفاسكم فيه تسبيح، ونومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول، ودعاؤكم فيه مستجاب. فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه، وتلاوة كتابه. فإن الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم.

واذكروا بجوعكم وعطشكم جوع يوم القيامة وعطشه، وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم، ووقِّروا كباركم، وارحموا صغاركم، وصلوا أرحامكم، واحفظوا ألسنتكم، وغضوا عما لا يحل الاستماع إليه أسماعكم، وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم.

وارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم، فإنها أفضل الساعات، ينظر الله عز وجل فيها بالرحمة إلى عباده، يجيبهم [إذا] ناجوه، ويلبيهم إذا نادوه، ويستجيب لهم إذا دعوه.

أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم،

---

(١) الكافي ج:٨ ص:٢٤٦ حديث:٣٤٢. شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:٣٥٢. الجامع لأحكام القرآن ج:١٨ ص:١١٦. البيان والتبيين ص:١٦٠.

وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم. واعلموا أن الله تعالى ذكره أقسم بعزته أن لا يعذب المصلين والساجدين، وأن لا يروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين.

أيها الناس من فطّر منكم صائماً مؤمناً في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عز وجل عتق رقبة ومغفرة لما مضى من ذنوبه.

فقيل له: يا رسول الله ليس كلّنا يقدر على ذلك. فقال صلى الله عليه وآله: اتقوا النار ولو بشق تمرة، اتقوا النار ولو بشربة من ماء.

أيها الناس من حسّن منكم في هذا الشهر خلقه كان له جوازاً على الصراط يوم تزل فيه الأقدام، ومن خفّف في هذا الشهر عما ملكت يمينه خفّف الله عليه حسابه، ومن كفّ فيه شرّه كفّ عنه غضبه يوم يلقاه، ومن أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه، ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه.

ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار، ومن أدى فيه فرضاً كان له ثواب من أدى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور، ومن أكثر فيه من الصلاة عليَّ ثقّل الله ميزانه يوم تخف الموازين، ومن تلا فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور.

أيها الناس إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عليكم، وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها عليكم، والشياطين مغلولة فاسألوا ربكم أن لا يسلطها عليكم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فقمت فقلت: يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال: يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن

محارم الله عز وجل...»[1].

٤ـ وفي حديث أبي الصباح قال: «سمعت كلاماً يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وعن علي عليه السلام وعن ابن مسعود، فعرضته على أبي عبد الله عليه السلام. فقال: هذا قول رسول الله صلى الله عليه وآله أعرفه.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره، وأكيس الكيس التقي [التقى.ظ]، وأحمق الحمق الفجور. وشرّ الروي روي الكذب [وشرّ الرواية رواية الكذب. الفقيه] وشرّ الأمور محدثاتها، وأعمى العمى عمى القلب. وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة. وأعظم الخطايا عند الله لسان الكذاب، وشرّ الكسب كسب الربا، وشر المآكل أكل مال اليتيم، وأحسن الزينة ـ زينة الرجل ـ هدي حسن مع إيمان. وأملك أمره به وقوام [وقوامه.ظ] خواتيمه. ومن يتبع [يبتغ] السمعة يسمع الله به الكَذَبة. ومن يتول الدنيا يعجز عنها، ومن يعرف البلاء يصبر عليه، ومن لا يعرفه ينكل [ينكر. الفقيه]. والريب كفر.

ومن يستكبر يضعه الله، ومن يطع الشيطان يعص الله، ومن يعص الله يعذبه الله، ومن يشكر يزيده الله، ومن يصبر على الرزية يعنه الله، ومن يتوكل على الله فحسبه الله.

لا تسخطوا الله برضا أحد من خلقه، ولا تقربوا إلى أحد من الخلق تتباعدوا من الله، فإن الله عز وجل ليس بينه وبين أحد من الخلق شيء، يعطيه به خيراً، ولا يدفع به عنه شراً، إلا بطاعته واتباع مرضاته. وإن طاعة

---

(١) عيون أخبار الرضا ج:١ ص:٢٦٥-٢٦٦ باب:٢٨ حديث:٥٣، واللفظ له. الأمالي للصدوق ص:١٥٣-١٥٥. فضائل الأشهر الثلاثة ٧٧-٧٩. إقبال الأعمال ج:١ ص:٢٥-٢٧.

الله نجاح من كل خير يبتغى، ونجاة من كل شرّ يتقى. وإن الله عز ذكره يعصم من أطاعه، ولا يعتصم به من عصاه. ولا يجد الهارب من الله عز وجل مهرباً. وإن أمر الله نازل ولو كره الخلائق. وكل ما هو آت قريب. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان. واتقوا الله إن الله شديد العقاب»[١].

٥ـ وفي حديث حمزة بن حمران: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن مما حفظ من خطب النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: يا أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي، لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد المؤمن من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته. وفي الشبيبة قبل الكبر، وفي الحياة قبل الممات. فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب، وما بعدها من دار إلا الجنة أوالنار»[٢].

٦ـ وقال اليعقوبي: «وخطب يوماً فقال في خطبته: إن الله ليس بينه وبين أحد قرابة يعطيه بها خيراً، ولا حق يصرف به سوءاً إلا بطاعته، واتباع مرضاته، واجتناب سخطه. إن الله تبارك وتعالى على إرادته ولو كره الخلق. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿**تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا**

---

(١) الكافي ج:٨ ص:٨١-٨٢ حديث:٣٩.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٧٠ باب الخوف والرجاء حديث:٩، واللفظ له. تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٨٩ في خطب رسول الله صلى الله عليه وآله ومواعظه وتأديبه بالأخلاق الشريفة. تحف العقول ص:٢٧. شرح نهج البلاغة ج:٦ ص:٣٥١. إعجاز القرآن للباقلاني ص:١٢٩. الجامع لأحكام القرآن ج:١٨ ص:١١٦. عيون الأخبار ج:٢ ص:٢٥١. التذكرة الحمدونية ج:١ ص:٣٧. جمهرة خطب العرب ج:١ ص:١٥٢.

عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾»[١].

٧ـ وقال اليعقوبي أيضاً: «وخطب رسول الله فقال في خطبته: طوبى لعبد طاب كسبه وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وأنفق الفضل من ماله، وترك الفضول من قوله، وكفّ الناس شره، وأنصفهم من نفسه. إنه من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله شحت نفسه عن الدنيا»[٢].

٨ـ وقال أيضاً: «وخطب يوماً فقال في خطبته: اذكروا الموت فإنه آخذ بنواصيكم، إن فررتم منه أدرككم، وإن أقمتم أخذكم... وإن العبد لا تزول قدماه يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله مما اكتسبه وفيما أنفقه، وعن إمامه من هو. قال الله عز وجل ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...**﴾ إلى آخر الآية»[٣].

٩ـ وفي حديث أبي مريم عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ بنا ذات يوم ونحن في نادينا، وهو على ناقته، وذلك حين رجع من حجة الوداع، فوقف علينا، فسلم فرددنا عليه السلام، ثم قال:

ما لي أرى حب الدنيا قد غلب على كثير من الناس، حتى كأن الموت في هذه الدنيا على غيرهم كتب، وكأن الحقّ في هذه الدنيا على غيرهم وجب، وحتى كأن لم يسمعوا ويروا من خبر الأموات قبلهم، سبيلهم سبيل قوم

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٨٩ في خطب رسول الله صلى الله عليه وآله ومواعظه وتأديبه بالأخلاق الشريفة.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٨٩ في خطب رسول الله صلى الله عليه وآله ومواعظه وتأديبه بالأخلاق الشريفة، واللفظ له. ونحوه في مجمع الزوائد ج:١٠ ص:٢٢٩، والمعجم الكبير ج:٥ ص:٧٢، وغيرها من المصادر.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٩٠ في خطب رسول الله صلى الله عليه وآله ومواعظه وتأديبه بالأخلاق الشريفة.

سفر عما قليل إليهم راجعون. بيوتهم أجداثهم، ويأكلون تراثهم، فيظنون أنهم مخلدون بعدهم، هيهات هيهات [أ] ما يتعظ آخرهم بأولهم. لقد جهلوا ونسوا كل واعظ في كتاب الله، وأمِنوا شرّ كل عاقبة سوء، ولم يخافوا نزول فادحة وبوائق حادثة.

طوبى لمن شغله خوف الله عز وجل عن خوف الناس. طوبى لمن منعه عيبه عن عيوب المؤمنين من إخوانه. طوبى لمن تواضع لله عز ذكره، وزهد فيما أحلّ الله له من غير رغبة عن سيرتي، ورفض زهرة الدنيا من غير تحوّل عن سنتي، واتبع الأخيار من عترتي من بعدي، و جانب أهل الخيلاء والتفاخر والرغبة في الدنيا، المبتدعين خلاف سنتي، العاملين بغير سيرتي.

طوبى لمن اكتسب من المؤمنين مالاً من غير معصية، فأنفقه في غير معصية، وعاد به على أهل المسكنة. طوبى لمن حسن مع الناس خُلُقه وبذل لهم معونته وعدل عنهم شره. طوبى لمن أنفق القصد، وبذل الفضل، وأمسك قوله عن الفضول وقبيح الفعل»[1].

وقد جرى أمير المؤمنين عليه السلام على مجرى هذا الكلام، حيث تبع جنازة فسمع رجلاً يضحك، فقال: «كأن الموت فيها على غيرنا كتب، وكأن الحق فيها على غيرنا وجب، وكأن الذي نرى من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون...»[2].

١٠ـ وقال قيس بن عاصم: «وفدت مع جماعة من بني تميم إلى النبي صلى الله عليه وآله... فقلت: يا نبي الله عظنا موعظة ننتفع بها، فإنا قوم نعمر في

(١) الكافي ج:٨ ص:١٦٨-١٦٩ حديث:١٩٠.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:٢٨-٢٩.

البرية. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا قيس إن مع العز ذلاً، وإن مع الحياة موتاً، وإن مع الدنيا آخرة. وإن لكل شيء حسيباً، وعلى كل شيء رقيباً، وإن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً، ولكل أجل كتاباً. وإنه لابد لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حيّ، وتدفن معه وأنت ميت. فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك، ولا تبعث إلا معه، ولا تسأل إلا عنه. فلا تجعله إلا صالحاً. فإن صلح أنست به، وإن فسد لا تستوحش إلا منه. وهو فعلك»[1].

١١ـ وفي حديث يونس بن ظبيان عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: «أنه قال: الاشتهار بالعبادة ريبة. إن أبي حدثني عن أبيه عن جده عن علي عليهم السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

أعبد الناس من أقام الفرائض. وأسخى الناس من أدى زكاة ماله. وأزهد الناس من اجتنب الحرام. وأتقى الناس من قال الحق فيما له وعليه. وأعدل الناس من رضي للناس ما يرضى لنفسه، وكره لهم ما يكره لنفسه. وأكيس الناس من كان أشدّ ذكراً للموت. وأغبط الناس من كان تحت التراب قد أمن العقاب ويرجو الثواب. وأغفل الناس من لم يتعظ بتغير الدنيا من حال إلى حال. وأعظم الناس في الدنيا خطراً من لم يجعل للدنيا عنده خطراً. وأعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه. وأشجع الناس من غلب هواه. وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علماً. وأقل الناس لذة الحسود. وأقل الناس راحة البخيل. وأبخل الناس من بخل بما افترض الله عز وجل عليه. وأولى الناس بالحق أعلمهم [أعملهم.

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص:٥٠-٥١. المجلس:١ حديث:٤. الخصال ص:١١٤-١١٥. معاني الأخبار ص:٢٣٢-٢٣٣. روضة الواعظين ص:٤٨٧. شرح نهج البلاغة ج:١ ص:١٢٨.

معاني الأخبار] به. وأقل الناس حرمة الفاسق. وأقل الناس وفاء الملوك. وأقل الناس صديقاً الملك. وأفقر الناس الطمع. وأغنى الناس من لم يكن للحرص أسيراً. وأفضل الناس إيماناً أحسنهم خلقاً. وأكرم الناس أتقاهم. وأعظم الناس قدراً من ترك ما لا يعنيه. وأورع الناس من ترك المراء وإن كان محقاً. وأقل الناس مروءة من كان كاذباً. وأشقى الناس الملوك. وأمقت الناس المتكبر. وأشدّ الناس اجتهاداً من ترك الذنوب. وأحلم الناس من فرّ من جهال الناس. وأسعد الناس من خالط كرام الناس. وأعقل الناس أشدّهم مداراة للناس. وأولى الناس بالتهمة من جالس أهل التهمة. وأعتى الناس من قتل غير قاتله، أو ضرب غير ضاربه. وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وأحق الناس بالذنب السفيه المغتاب. وأذل الناس من أهان الناس. وأحزم الناس أكظمهم للغيظ. وأصلح الناس أصلحهم للناس. وخير الناس من انتفع به الناس»[1].

١٢ـ وقال له رجل: «أوصني بشيء ينفعني الله به» فقال صلى الله عليه وآله: «أكثر ذكر الموت يسلّك عن الدنيا. وعليك بالشكر، فإنه يزيد في النعمة. وأكثر من الدعاء، فإنك لا تدري متى يستجاب لك. وإياك والبغي، فإن الله قضى أن من بغي عليه لينصرنه الله، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم**﴾. وإياك والمكر، فإن الله قضى أن ﴿**لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**﴾»[2].

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص:٧٢-٧٣ المجلس:٦ حديث:٤١. معاني الأخبار ص:١٩٥-١٩٦ حديث:١. من لا يحضره الفقيه ج:٤ ص:٣٩٥-٣٩٦. كنز الفوائد ص:١٣٨-١٣٩.

(٢) تحف العقول عن آل الرسول ص:٣٥ فيما روي عنه صلى الله عليه وآله في قصار هذه المعاني. البيان والتبيين ص:٢٢٤. تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٩١ خطب رسول الله ومواعظه وتأديبه بالأخلاق

١٣ـ وكتب إلى معاذ يعزيه بابنه: «من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل. سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فقد بلغني جزعك على ولدك الذي قضى الله عليه. وإنما كان ابنك من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة. فمتّعك الله به إلى أجل، وقبضه لوقت معلوم. فإنا لله وإنا إليه راجعون. لا يحبطن جزعك أجرك، ولو قدمت على ثواب مصيبتك لعلمت أن المصيبة قد قصرت، لعظيم ما أعد الله عليها من الثواب لأهل التسليم والصبر. واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً، ولا يدفع قدراً. فأحسن العزاء وتنجز الموعود، فلا يذهبن أسفك على ما [هو.ظ] لازم لك ولجميع الخلق، نازل بقدره. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[1].

١٤ـ وقال صلى الله عليه وآله: «إن الله لا يطاع جبراً. ولا يعصى مغلوباً. ولم يهمل العباد من المملكة. ولكنه القادر على ما أقدرهم عليه، والمالك لما ملكهم إياه. فإن العباد إن استمروا بطاعة الله لم يكن منها مانع، ولا عنها صادّ. وإن عملوا بمعصيته، فشاء أن يحول بينهم وبينها فعل. وليس من إن شاء أن يحول بينك وبين شيء فعل ولم يفعله، فأتاه الذي فعله، كان هو الذي أدخله فيه»[2].

ونقول في التعقيب على هذا الكلام، وبيان المراد منه: أنه صلى الله عليه وآله لما ذكر أن الله عز وجل لا يطاع بإجبار منه على الطاعة، ولا يعصى مغلوباً وقهراً عليه، أراد أن ينبه إلى وجه الجمع بين الأمرين بأن الإنسان في الوقت الذي يستقل بفعله ويقدر عليه، إلا أنه لا ينفرد بالقدرة ويخرج عن مملكة

الشريفة. التذكرة الحمدونية ج:١ ص:٤٨.

(١) تحف العقول عن آل الرسول ص:٥٩ فيما روي عنه صلى الله عليه وآله في قصار هذه المعاني.

(٢) تحف العقول عن آل الرسول ص:٣٧. فيما روي عنه صلى الله عليه وآله في قصار هذه المعاني.

الله عز وجل وعن سلطانه، بل هو تعالى مسيطر عليه وعلى أفعاله. فهو سبحانه قادر على منع الإنسان من أن يفعل. لكن من يقدر على منع الغير من الفعل إذا لم يمنعه ـ ففعل ما أراد ـ لا يكون فاعلاً لذلك الفعل ولا المدخل لفاعله فيه، بحيث يكون مجبوراً عليه، بل المباشر له هو الداخل فيه والفاعل له باختياره.

وإلى هذا يرجع مذهب أهل البيت (صلوات الله عليهم) من أنه لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين.

١٥ـ وقال صلى الله عليه وآله: «من نقله الله من ذل المعاصي إلى عز الطاعة أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس. ومن خاف الله أخاف منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء. ومن رضي من الله باليسير من الرزق رضي الله منه باليسير من العمل. ومن لم يستحيِ من طلب الحلال من المعيشة خفّت مؤنته ورخى باله ونعِم عياله. ومن زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه، وبصّره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار القرار»[1].

١٦ـ وخطب صلى الله عليه وآله عندما تهيأ للخروج إلى غزوة تبوك، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس! إن أصدق الحديث كتاب الله. وأولى القول كلمة التقوى. وخير الملل ملة إبراهيم. وخير السنن سنة محمد. وأشرف الحديث ذكر الله. وأحسن القصص هذا القرآن. وخير الأمور عزائمها، وشرّ الأمور محدثاتها. وأحسن الهدي هدي الأنبياء. وأشرف القتل قتل

(١) تحف العقول عن آل الرسول ص:٥٧-٥٨. فيما روي عنه صلى الله عليه وآله في قصار هذه المعاني. نظم درر السمطين ص:١٥٣. كشف الغمة ج:٢ ص:٣٤٨. الفصول المهمة في معرفة الأئمة ج:٢ ص:٨٩٤-٨٩٥.

الشهداء. وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى. وخير الأعمال ما نفع. وخير الهدي ما اتبع. وشرّ العمى عمى القلب. واليد العليا خير من اليد السفلى. وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت. وشرّ الندامة يوم القيامة.

ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا نزراً. ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً. ومن أعظم خطايا اللسان الكذب. وخير الغنى غنى النفس. وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما ألقي في القلب اليقين. والارتياب من الكفر. والنياحة من عمل الجاهلية. والغلول من جمر جهنم. والسكر جمر النار. والشعر من إبليس. والخمر جماع الإثم. والنساء حبايل إبليس. والشباب شعبة من الجنون. وشرّ المكاسب كسب الربا. وشرّ المأكل أكل مال اليتيم. والسعيد من وعظ بغيره. والشقي من شقي في بطن أمه. وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع. والأمر إلى آخره. وملاك العمل خواتيمه. وأربى الربا الكذب. وكل ما هو آت قريب. وسباب المؤمن فسق. وقتال المؤمن كفر. وأكل لحمه من معصية الله. وحرمة ماله كحرمة دمه. ومن توكل على الله كفاه. ومن صبر ظفر. ومن يعف يعف الله عنه. ومن كظم الغيظ يأجره الله. ومن يصبر على الرزية يعوضه الله. ومن يتبع السمعة يسمع الله به. ومن يصم يضاعف الله له. ومن يعص الله يعذبه. اللهم اغفر لي ولأمتي. اللهم اغفر لي ولأمتي. أستغفر الله لي ولكم»[1].

---

(١) تفسير القمي ج:١ ص:٢٩٠-٢٩١ في تفسير قوله تعالى: ﴿**لو كان عرضاً قريباً**...﴾، واللفظ له. الاختصاص ٣٤٣. وقريب منه في حلية الأولياء ج:١ ص:١٣٨-١٣٩ في وصايا النبي ومواعظه، ودلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ج:٥ ص:٢٤٢. وغيرها من المصادر.

١٧ـ وقد تضمنت مقدمة خطبة الغدير التي تقدمت الإشارة إليها في المبحث الأول الكثير من المضامين العالية في تمجيد الله تعالى وتقديسه وتنزيهه. ولا يسعنا ذكرها لطولها. كما لا يسعنا ذكر بقية الخطب المروية عنه صلى الله عليه وآله. وفيما ذكرناه كفاية.

كما أن ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله صريحاً من الأدعية شيء كثير. بل قد تكون جميع الأدعية أو أكثرها مأخوذ منه صلى الله عليه وآله وإن لم يصرح في روايتها بذلك.

مضافاً إلى أن ما ورد عنه صلى الله عليه وآله من الوصايا الطوال والقصار لكثير من أصحابه، وما ورد عنه صلى الله عليه وآله من الكلمات القصار فوق حدّ الإحصاء. وربما يأتي شيء منها في المبحث الثالث.

غاية الأمر أنه لم يتهيأ في عصور الإسلام الأولى التي كان للأدب فيها سوق رائج من اهتم بها بجمعها لوحدها، لتلفت النظر، كما حصل في نهج البلاغة. بل أثبتت متفرقة في كتب الحديث والتاريخ، بنحو لم يلفت النظر إليها بخصوصها.

وإنما اهتم بذلك في الجملة بعض المؤمنين ـ شكر الله سعيهم ـ في عصورنا. لكن لا رواج للأدب في هذه العصور. وإن كان سعيهم لا يزال مشكوراً. حيث نبّهوا لذلك في الجملة بنحو يسهل الاطلاع عليه والانتفاع به لمن أراده.

وذلك كلّه يكشف عن أن أئمة أهل البيت (صلوات الله عليهم) يحملون ثقافة واحدة تتفرع عن ثقافة القرآن المجيد، ورثوها من رسول الله صلى الله عليه وآله. مع قابليات فيهم فذّة في استيعاب تلك الثقافة والتعبير عنها بصياغة بيانية

فريدة تتناسب مع بيانه صلى الله عليه وآله أو هي مأخوذة بلفظها منه، كما لعله في كثير من الأدعية وغيرها.

ويأتي ما يناسب ذلك في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى، حيث قد يكون المروي عنهم عليهم السلام بلفظ ما يروونه عن النبي صلى الله عليه وآله أو قريباً منه.

اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بتعليم الكتابة

ويؤكد ما ذكرنا اهتمام النبي صلى الله عليه وآله في أوائل أيام هجرته المباركة بتثقيف أطفال المسلمين، وتعليمهم الكتابة.

فعن ابن عباس قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة...»[1].

وقال المقريزي: «وكان في الأسرى من يكتب، ولم يكن في الأنصار من يحسن الكتابة، وكان منهم من لا مال له، فيقبل منه أن يعلّم عشرة من الغلمان الكتابة ويخلي سبيله. فيومئذ تعلم زيد بن ثابت الكتابة في جماعة من غلمان الأنصار... وقال عامر الشعبي: كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية. فمن لم يكن عنده علّم عشرة من المسلمين، فكان زيد بن ثابت ممن عُلِّم»[2].

وقال صلى الله عليه وآله: «من حق الولد على والده ثلاثة: يحسن اسمه، ويعلمه

---

(١) مسند أحمد ج:١ ص:٢٤٧ مسند عبد الله بن عباس. المستدرك على الصحيحين ج:٢ ص:١٤٠. السنن الكبرى للبيهقي ج:٦ ص:٣٢٢ جماع أبواب الأنفال: باب ما جاء في مفاداة الرجال منهم بالمال. مجمع الزوائد ج:٤ ص:٩٦. وغيرها من المصادر.

(٢) إمتاع الأسماع ج:١ ص:١١٩ باب أسرى قريش وفداؤهم بتعليم الغلمان الكتابة.

الكتابة، ويزوجه إذا بلغ»[١].

وقال صلى الله عليه وآله: «حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية، وأن لا يرزقه إلا طيباً»[٢]. وقال صلى الله عليه وآله: «قيدوا العلم بالكتاب»[٣] وقد استفاض الحثّ منه صلى الله عليه وآله ومن أهل بيته عليهم السلام على الاهتمام بالكتابة.

كما يدل على اهتمام الإسلام بالكتابة وأهميتها قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[٤]. وقسمه تعالى بالقلم والكتابة في قوله عز وجل: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾[٥]. وأن أطول آية في القرآن المجيد حثت على كتابة الدَّين والإشهاد عليه بتفصيل يقتضي ضبطه تجنباً للاختلاف فيه[٦].

ثقافة القرآن تشهد لما سبق

على أنه لو غض النظر عن ذلك كلّه كفى في تجلي واقع النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) بحار الأنوار ج:٧١ ص:٨٠ باب بر الوالدين والأولاد حديث:٨٢. الجامع الصغير للسيوطي ج:١ ص:٣٨١. الجامع لأحكام القرآن ج:١٨ ص:١٩٥.

(٢) كنز العمال ج:١٣ ص:٤٤٣ حديث:٤٥٣٤. السنن الكبرى للبيهقي ج:١٠ ص:١٥ كتاب السبق والرمي: باب التحريض على الرمي. الجامع الصغير ج:١ ص:٥٧٨. السيرة الحلبية ج:١ ص:٣٢.

(٣) تحف العقول عن آل الرسول ص:٣٦ فيما ورد عنه صلى الله عليه وآله في قصار هذه المعاني. المجازات النبوية ص:١٧٩. المستدرك على الصحيحين ج:١ ص:١٠٦. مسند الشهاب ج:١ ص:٣٧٠. وغيرها من المصادر.

(٤) سورة العلق الآية: ٣-٥.

(٥) سورة القلم الآية: ١.

(٦) سورة البقرة الآية:٢٨٢.

الثقافي الرفيع، وقابليته الفذّة، أن الله سبحانه وتعالى أهّله للخطاب بالقرآن المجيد والتبليغ به، وهو الذي تتفرع عنه الثقافة التي بأيدينا. بل الإنصاف أن الأمر أوضح من ذلك. لكن ما أكثر الحقائق الواضحة التي أُغفِل جمهور الناس عنها بمختلف الوسائل.

المقارنة بين النبي صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام

هذا ولقد حدثني بعض أجلاء أهل العلم وذوي المكانة السامية قدس سره، قال: جمعني مجلس مع شخصية عربية مسيحية مثقفة معروفة، فقال لي: لم يرد عن النبي من المعارف والثقافة ما ورد عن أمير المؤمنين كثرة وأهمية. فقلت له: أنت ليس لك الحق أن تقول ذلك، لأنك ترى أن القرآن من إنشاء النبي صلى الله عليه وآله، والقرآن أهم من نهج البلاغة.

تعرف الأجانب على النبي صلى الله عليه وآله من طريق الإسلام الفاتح

ونقول تعقيباً على ذلك: ما ذكره قدس سره أقوى حجة في حق غير المسلمين لمعرفة واقع النبي صلى الله عليه وآله الثقافي والمبدئي. لكن من المؤسف أن النبي صلى الله عليه وآله قد ابتلي بما أغفل كثيراً منهم عن ذلك وشغلهم عنه.

وهو أن العالم الخارجي الذي لم يعاشر المسلمين لم يتعرف على النبي صلى الله عليه وآله ولا على الإسلام إلا من طريق الإسلام الفاتح، ولم يتعرف عليه من طريق القرآن الكريم وتعاليمه الرفيعة، ولا من طريق أهل البيت (صلوات الله عليهم).

والإسلام الفاتح: **أولاً**: مشوّه في نفسه سلوكاً، تبعاً لانحراف السلطة فيه، وانحراف أتباعه وسوء تعاملهم.

وثانياً: أن المتضررين به من غير المسلمين قد زادوه تشويهاً بإعلامهم الكاذب. لمزاحمته مصالحهم، وحفاظاً عليها، وحاولوا التنفير عنه بمختلف الأساليب.

ومنها أمران تهيئا لهم في العصر الحديث بالتعاون مع بعض فئات المسلمين.

المؤسسة الدينية في الإسلام الفاتح واجهة للسلطة

الأول: تحويل المؤسسة الدينية في الإسلام الفاتح إلى واجهة من واجهات السلطة الغاشمة أو المتحللة، والتبعية لها سياسياً، من دون أن يكون لها موقف مستقل عنها، فضلاً عن أن تقف في وجه السلطة، وتستنكر مواقفها وسلوكها.

وذلك وإن كان فيها من عصور الإسلام الأولى، إلا أنها كانت قد تستطيع في بعض الفترات أن تجمع لها قاعدة شعبية تتعصب لها، بحيث تضطر السلطة إلى مجاملتها، والانصياع لها. أما في العصر الحديث فليس لذلك عين ولا أثر بعد قوة نفوذ العدو الحاقد في بلاد المسلمين.

ظهور الإرهاب في بعض فرق المسلمين

الثاني: إحداث فرقة في المسلمين تتميز بالتطرف والعنف بحدّ قد يبلغ الوحشية المرعبة، من أجل تشويه صورة الإسلام ونبيه العظيم صلى الله عليه وآله، وإغفال العالم عن واقع الإسلام وعن حال نبيه صلى الله عليه وآله الذي يتجلّى إجمالاً في القرآن المجيد وما يتضمنه من مبادئ سامية، والدعوة للحق بالتي هي

أحسن، والذي هو الدستور المعلن من قبل النبي العظيم صلى الله عليه وآله للإسلام، بغض النظر عن كونه وحياً إلهياً ومعجزة نبوية أو كونه كتاباً بشرياً من إنشاء النبي صلى الله عليه وآله نفسه.

ومن طبيعة عامة البشر التأثر بالواقع الملموس الذي يعيشونه في الأتباع في استكشاف واقع الدعوة وحال رموزها أكثر بكثير من التأثر بالمدوّن في بطون الكتب من تعاليمها التي لا يطلع عليها إلا الخاصة.

ولاسيما مع تركيز الإعلام المعادي المكثف والمدروس على الواقع العملي المشوّه لعامة المسلمين، دون النظري النزيه، بل محاولة إبعاد الناس عنه.

تراث أهل البيت عليهم السلام مغيّب عن العالم

ومما زاد في الطين بلّة أن غالب أو جميع ما وصل لهم من تراث النبي صلى الله عليه وآله والإسلام ـ غير القرآن الشريف ـ من سيرته صلى الله عليه وآله وأحاديثه هو تراث الإسلام الفاتح، وهو يشتمل على كثير من السلبيات في حق النبي صلى الله عليه وآله في كيفية نزول الوحي عليه، وفي سيرته بعد ذلك في بيته ومع غيره، بنحو يعكس صورة مشوّهة عن شخصه الكريم.

وقد ركّز على ذلك الإعلام المعادي. والإعلام المذكور في هذا العصر هو المسيطر الأقوى أو الوحيد على توجيه الشعوب وتحديد مسارها والثقافة التي تحملها. وبذلك ظلم نبينا العظيم صلى الله عليه وآله ظلامة فادحة لا يسهل رفعها.

أما إسلام أهل البيت (صلوات الله عليهم) بصفائه ومبدئيته فقد كان مغيباً عن العالم. ولو حاولوا التعرف عليه لم يتيسر لهم ذلك إلا من طريق من يتعاون معهم من المسلمين المعادين لأهل البيت عليهم السلام، والذين

يحاولون تشويه صورته.

والحاصل: أن ثقافة الإسلام الفاتح هي المصدر الشايع الذي أَلِفوه عن الإسلام القويم ونبيه العظيم صلى الله عليه وآله، ولا يعلمون ثقافة المنطقة إلا من طريقه. ولاسيما مع الصراع السياسي الذي حدث أخيراً في المنطقة، حيث ضاعف المشكلة وزادها تعقيداً في هذه العصور.

انفتاح العالم أخيراً على شيعة أهل البيت

نعم انفتحوا أخيراً على شيعة أهل البيت عليهم السلام وتعرفوا عليهم **أولاً**: بالمعاشرة، بسبب الهجرة، نتيجة الظلامة الفادحة التي اضطرت الشيعة للهرب من بلادهم.

وثانياً: نتيجة المواقف المرنة والمتوازنة من قبل المؤسسة الدينية الشيعية التي لفتت نظر العالم، ونالت إعجابه.

وبذلك فرض الشيعة أخيراً أنفسهم واحترامهم. ولاسيما مع قيامهم بإحياء مواسم أهل البيت (صلوات الله عليهم)، وبيان ظلامتهم بنحو لفتَ أنظار أولئك، وعرفوا في الجملة ظلامة أهل البيت وظلامة شيعتهم تبعاً لهم.

وقد سألت قبل مدة بعض مسؤولي المواقع السياسية في المجتمع الدولي عن نظرتهم للشيعة قبل ثلاثين سنة، فوصمهم بالوحشية والإرهاب وكل سوء. قلت له: فما نظرتكم للشيعة الآن؟ فأثنى عليهم بكل خير في عقلانيتهم واعتدالهم وحسن معاشرتهم ونحو ذلك. فقلت له: انظر كيف ظلمنا الإعلام هذه المدة الطويلة؟!.

إعجاب العالم بشيعة أهل البيت لا يسري للنبي صلى الله عليه وآله

لكن نظرتهم الإيجابية للشيعة ولأهل البيت (صلوات الله عليهم) لا تكفي في حلّ المشكلة التي سبق عرضها. ولا تنهض بتغيير نظرتهم للنبي صلى الله عليه وآله. إذ ليس غريباً عندهم أن يكون التشيع تطوراً في الإسلام.

فالإسلام المحمدي عندهم هو الإسلام الفاتح المشوّه، والذي وصموه هو ونبيه صلى الله عليه وآله بكل سوء. وهو قد ظهر في بيئة بدائية متوحشة بعيدة عن الحضارة والثقافة والمدنية.

والإسلام الشيعي عندهم هو إسلام علي بن أبي طالب وأولاده (صلوات الله عليهم). وقد ظهر بعد الاحتكاك بالشعوب الأخرى والتأثر بثقافاتها المختلفة. وقد استطاع علي عليه السلام أن يستفيد منها بمؤهلاته الشخصية الفذّة. وقد قام بتطوير الإسلام تبعاً لذلك.

ولا غرابة عندهم في ذلك، فإن تلك الشعوب قد أَلِفت تطوير الأديان من قبل المؤسسات الدينية التي عاشوا معها وتعرفوا عليها.

وليس من السهل مع ذلك تعريفهم بأن الدين لا يقبل التطوير، وأن وظيفة المؤسسة الدينية الحقيقية على مرّ العصور هي الحفاظ على الثقافة الدينية من التشويه والتحريف، ونتيجة ذلك يكون التشيع تصحيحاً لتعاليم الإسلام، وتهذيباً لها من الشوائب التي علقت بالإسلام ونسبت له، نتيجة انحراف السلطة واختلاف المسلمين، وليس هو تطويراً للإسلام المحمدي.

وأن النبي صلى الله عليه وآله قد حمّل الأئمة عليهم السلام مسؤولية ذلك، بأن ورّثهم علمه، ورسم لهم طريق العمل للحفاظ على الإسلام بتعاليمه السليمة. فهم

النمرقة الوسطى التي يرجع إليها الغالي ويلحق بها التالي.

ووضوح ذلك عند الشيعة، لما سبق، لا يستلزم وضوحه عند غيرهم من المسلمين، فضلاً عن غيرهم ممن ألفوا تطوير المؤسسة الدينية للدين.

ولقد بلغنا بعض الكلمات عن غير المسلمين تجلّت لنا منها هذه المشكلة. فقد بلغنا عن بعض المسيحيين المختلطين بالمسلمين أن قال: إن علي بن أبي طالب في الإسلام كبُولس في المسيحية.

وقد ذكر لي بعض الإخوان ممن له علاقة بشخصيات ومؤسسات غير مسلمة، قال: ذكرت لبعض الأشخاص النبي صلى الله عليه وآله مشيداً به، فقال: دعنا من النبي، ولكن علي بن أبي طالب، وأخذ يشيد به ويثني عليه.

فإذا كان هذا حال المختلطين بالمسلمين فكيف يكون حال من لا يعرف عنهم إلا النزر القليل، وهو محاط بالإعلام الحاقد على الإسلام ونبيه صلى الله عليه وآله ويتفاعل به؟!.

على المبلغين تأكيد أن التشيع تصحيح في الإسلام لا تجديد فيه

وقبل فترة ليست بعيدة نبّهت بعض ذوي المقام العلمي في الأكاديميات الغربية من الشيعة ـ بتوسط مترجم ـ لهذه المشكلة، وذكرت له أن عليه وعلى أمثاله أن يحاولوا ربط الثقافة الشيعية بالنبي صلى الله عليه وآله، وأنها تصحيح لما ورد عنه، وليست تجديداً في دينه القويم.

ولما استوعب حديثي وَجَم طويلاً بنحو ألفَتَ نظري. ثم قال: كتبت قبل مدة رسالة في إدارة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. وقد نجحت الرسالة كثيراً، وأخذَت مأخذها المناسب في وقتها. ولكني رأيت في منامي

من يقول لي: رسالتك هذه ناقصة. وأنه كان المناسب أن تلحق بكل مطلب منها هامشاً يتضمن آية قرآنية أو حديثاً نبوياً يناسبه.

قال: ولم أستوعب هذه الرؤيا، لأن الرسالة قد نجحت ونفعت كثيراً، فكيف تكون ناقصة؟! وحديثك هذا قد فسّر لي الآن هذه الرؤيا، وعرفت مغزاها.

كما أني شخصياً بعد سقوط نظام البعث وانفتاح المثقفين والسياسيين الأجانب على العراق، وعلى النجف الأشرف خاصة، وزيارتهم لي، قد صادف أن تحدثت مع أكثر من شخص منهم، وذكرت له عابراً بعض الآيات الشريفة والنصوص النبوية المتضمنة لبعض النكات في الأخلاق والسلوك والتعامل مع الآخرين، فكان يفاجأ بها، ويظهر عليه الإعجاب الذي قد يصل حدّ الانبهار. خصوصاً بعد أن وصلت إليهم بوادر الإرهاب وغشيهم دخانه، حيث انعكست في نفوسهم صورة مشوهة ومنفرة عن دين الإسلام القويم ونبيه العظيم صلى الله عليه وآله.

وما ذلك إلا لغياب الثقافة الإسلامية السليمة والسيرة النبوية المشرفة عنهم، وتركز الصورة المشوّهة للإسلام بسبب ما سبق.

وكان ذلك يحزّ في نفسي كثيراً، حيث اتضحت لي ظلامة الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله الذي منّ الله عز وجل به علينا وعلى البشرية عامة، وجعله رحمة للعالمين. والذي جهد وضحّى بكل شيء ـ حتى بأهل بيته وأعزّ الناس عليه ـ في سبيل هداية الناس عامة وإنقاذهم من شفا جرف الهلكات ومن النار.

وتحدثت مع كثير من المثقفين والمبلغين المؤمنين الذين يتعرفون على

الأجانب ويخالطونهم حول هذه المشكلة، ونبهتهم لواجبهم في محاولة تصحيح مفاهيم هؤلاء، وأن عليهم ربط ثقافة أهل البيت عليهم السلام بالقرآن المجيد وبالنبي الكريم صلى الله عليه وآله، والاهتمام بهذه النكتة التي لم يسلط الضوء عليها. ولازلت أؤكد على ذلك، أداء لحقّه صلى الله عليه وآله ورفعاً لهذه الظلامة عنه وعن رسالته الشريفة.

وأنا أعلم أنه ليس من السهل تبديل اتجاه التبليغ عند الشيعة، حيث ألفوا في عصورهم الطويلة التركيز على رفعة مقام أهل البيت (صلوات الله عليهم)، كردّ فعل عمّا تعرضوا عليهم السلام له في مسيرتهم ومسيرة شيعتهم الطويلة، وحتى الآن، من الظلامات الفادحة والتجاهل والتطاول من قبل المؤسسات الدينية التابعة للسلطات الغاشمة. ومن كثير من الحاقدين على الأئمة (صلوات الله عليهم) وعلى شيعتهم، مع مفروغية الشيعة وبقية فرق المسلمين على رفعة مقام النبي صلى الله عليه وآله بنحو يغني عن التركيز على ذلك في التبليغ.

لكن لابدّ لنا في الوقت الحاضر من الاتجاه أيضاً في التبليغ بالاتجاه الآخر الذي ذكرناه، لشدّة الحاجة لذلك، أداء لحق ديننا القويم ونبينا العظيم صلى الله عليه وآله في محاولة شاقة لتصحيح نظر العالم لهما نتيجة ما سبق. ونسأل الله عز وجل العون والتسديد. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المبحث الثالث

فيما يحمله النبي صلى الله عليه وآله من مبادئ سامية

المبحث الثالث
فيما يحمله النبي صلى الله عليه وآله من مبادئ سامية

قد جمع الله سبحانه وتعالى سموّ خلق النبي صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[1]، وأمير المؤمنين عليه السلام فيما سبق من قوله: «ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»[2].

وجمع هو صلى الله عليه وآله أيضاً ما تضمنته رسالته الرفيعة منها بقوله: «بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق»[3]. وفي حديث إسحاق بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عن آبائه عن علي عليه السلام: «قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها»[4].

---

(١) سورة القلم الآية: ٤.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٥٧.

(٣) تفسير الثعلبي ج:١٠ ص:١٠. السنن الكبرى للبيهقي ج:١٠ ص:١٩٢ كتاب الشهادات: باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها ... مجمع البيان في تفسير القرآن ج:١٠ ص:٨٦. الجامع لأحكام القرآن ج:٧ ص:٣٤٥. وغيرها من المصادر الكثيرة.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي ص:٥٩٦ المجلس:٢٣. بحار الأنوار ج:١٦ ص:٢٨٧ باب مكارم أخلاقه وسيره وسنته حديث:١٤٢.

وفي حديث محمد بن علي بن الحسين بن زيد بن علي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي (صلوات الله عليه) قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بمكارم الأخلاق، فإن الله عز وجل بعثني بها. وإن من مكارم الأخلاق أن يعفو الرجل عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وأن يعود من لا يعوده»[١].

ويشهد بما ذكرنا إجمالاً تأثير النبي صلى الله عليه وآله العجيب في المجتمع الذي عاشره، وسيطرته عليه مع تناقضاته وسلبياته التي تقدم التعرض لها، حتى استطاع صلى الله عليه وآله أن يهيئه لاختراق الشعوب المحيطة به، على ما تقدّم.

كما أنه صلى الله عليه وآله حثّ على مكارم الأخلاق بمختلف الوجوه، ومنها أنه جعلها من وجوه الجهاد، بل أفضلها، مع ما هو المعلوم من أهمية الجهاد في الإسلام.

ففي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن النبي صلى الله عليه وآله بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[٢]. ونحوه حديث إسماعيل عن موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله. وزاد فيه: «ثم قال صلى الله عليه وآله: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»[٣].

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص:٤٧٨ المجلس:١٧ حديث:١١.

(٢) الكافي ج:٥ ص:١٢ باب وجوه الجهاد حديث:٣، واللفظ له. وسائل الشيعة ج:١١ ص:١٢٢ باب:١ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه.

(٣) أمالي الشيخ الصدوق ص:٥٥٣ المجلس:٧١ حديث:٩، واللفظ له. وسائل الشيعة ج:١١ ص:١٢٣-١٢٤ باب:١ من أبواب جهاد النفس حديث:٩.

ومن المعلوم أن مكارم الأخلاق تحتاج إلى قوة النفس وضبطها، بحيث تتغلب دواعي الخير الكامنة فيها في صراعها مع دواعي الشر والمغريات الكثيرة الداخلية والخارجية. ومن هنا حسن إطلاق الجهاد عليه.

هذا ومن الظاهر أن استيعاب ما عليه النبي صلى الله عليه وآله وما تضمنته رسالته الشريفة من مكارم الأخلاق بتفصيلٍ أمرٌ لا يتسير لنا، لكثرة ما ورد عنه وعن أهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين)، بنحو نعجز عن استقصائه واستيعابه.

ويأتي إن شاء الله تعالى عنه صلى الله عليه وآله قولاً وعملاً الكثير في ذلك.

موقف النبي صلى الله عليه وآله من جارية أنصارية

إلا أنه يحسن بنا أن نذكر هنا نموذجاً فريداً يلفت النظر ويثير العجب.

ففي حديث بحر السقا: «قال أبو عبد الله عليه السلام: يا بحر حسن الخلق يسر. ثم قال: ألا أخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة؟ قلت: بلى. قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم جالس في المسجد إذا جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم [كذا] فأخذت بطرف ثوبه. فقام لها النبي صلى الله عليه وآله، فلم تقل شيئاً، ولم يقل لها النبي صلى الله عليه وآله شيئاً. حتى فعلت ذلك ثلاث مرات. فقام لها النبي في الرابعة وهي خلفه. فأخذت هدبة من ثوبه، ثم رجعت. فقال لها الناس: فعل الله بك وفعل. حبست رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث مرات، لا تقولين له شيئاً ولا هو يقول لك شيئاً. ما كانت حاجتك إليه؟ قالت: إن لنا مريضاً فأرسلني أهلي لآخذ هدبة من ثوبه، يستشفي [ليستشفي] بها. فلما أردت أخذها رآني، فقام فاستحييت منه أن آخذها و وهو يراني، وأكره

أن أستأمره في أخذها. فأخذتها»[1].

وهذا الحديث يدل:

أولاً: على انبساطه واختلاطه بالمجتمع، بحيث يسترسل أهل الجارية فيرسلونها لتأخذ بنفسها هدبة من ثوبه من دون هيبة له ولا حاجز يمنعهم أو يمنعها من ذلك.

وثانياً: على سجاحة خلقه وسعة صدره وصبره، بنحو فريد يثير العجب، بل الانبهار.

وثالثاً: على التسالم بين المسلمين في عصره على التبرك والاستشفاء بما ينسب له صلى الله عليه وآله. والنصوص في ذلك كثيرة جداً.

منهج البحث

ونعود فنقول: حيث لا يتيسر لنا استيعاب ما يحمله النبي صلى الله عليه وآله وما تحمله رسالته من مكارم الأخلاق ـ كما سبق ـ فغاية ما نحاوله هنا التعرض لبعض النكات اللافتة للنظر، والتي قد يغفل عنها، أداءً لشيء من حقّه، وشكراً لنعمة الله عز وجل علينا به، وتوفيقنا بأن هدانا للدخول في أمته.

ومقدمة لذلك نقول: من المعلوم أن الحديث في ذلك وإن كان في بيان خلقه صلى الله عليه وآله ومبادئه، إلا أنه راجع إلى بيان ما تحمله رسالته الشريفة من مبادئ وأخلاق سامية جسّدها بتعاليمه وسيرته الشريفة. غاية الأمر أن سيرته الشريفة قد تكشف عن كونه صلى الله عليه وآله المثل الأسمى والفرد الأكمل في الخلق الذي نتعرض له.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٠٢ باب حسن الخلق حديث:١٥.

كما أنه قد تتمحض تعاليمه في بيان مبادئ الإسلام من دون أن يقوم هو بشخصه بذلك. لعدم تحقق موضوع ذلك الخلق فيه، كما في برّ الوالدين، حيث عاش ﷺ يتيماً فاقداً لوالديه. ونسأله سبحانه أن يمدّنا بالعون والتوفيق والتسديد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وحينئذٍ نقول: سموّ المبادئ على نحوين:

الأول: ما تتفق فيه الثقافات كافة مهما كانت وجهاتها وإن خالفت وجهاتها الفطرة الإنسانية السليمة. لتوقف انتظام تعامل البشر فيما بينهم عليها.

الثاني: ما تقتضيه الفطرة الإنسانية السليمة، ويحترمها المجتمع الإنساني بطبعه، وإن خرج عنها الكثير، نتيجة المغريات والمثبطات. بل ربما أنكرها بعضهم تنظيرياً ومكابرة، وإن كان يحترمها في قرارة نفسه فطرياً.

وسوف نخصّ ـ إن شاء الله تعالى ـ كلا منهما بفصل يخصّه.

الفصل الأول
فيما تتفق فيه الثقافات

وهي عدة أمور في غاية السموّ الأخلاقي. لكن اتفاق الثقافات عليها قد لا يكون لاتفاقهم على ذلك، بل لتوقف نظم أمر الناس وتعاملهم فيما بينهم عليها. وإن خرج عنها الكثير استهتاراً بعد أن استثمرها وحقق غرضه منها.

الوفاء بالعهد

منها: الوفاء بالعهد والعقد. وقد أكد على ذلك القرآن الكريم والسنة الشريفة قولاً وعملاً بنحو مستفيض قال الله عز وجل: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾[2]. ونحوهما غيرهما.

وقد تقدم من أبي سفيان في حديثه مع هرقل ملك الروم الاعتراف بأن النبي صلى الله عليه وآله لم يغدر.

وفي حديث مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة الإسراء الآية: ٣٤.

(٢) سورة المائدة الآية: ١.

كان إذا بعث أميراً على سرية... ثم يقول: اغزُ باسم الله وفي سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. ولا تغدروا ولا تغلوا وتمثلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا متبتلاً في شاهق...»[١].

وفي حديث الأصبغ بن نباتة: «قال أمير المؤمنين ذات يوم وهو يخطب على المنبر بالكوفة: أيها الناس لولا كراهية الغدر كنت من أدهى الناس. ألا إن لكل غدرة فجرة، ولكل فجرة كفرة. ألا وإن الغدر والفجور والخيانة في النار»[٢].

وفي حديث الحسين بن مصعب: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ثلاثة لا عذر لأحد فيها: أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر، والوفاء بالعهد إلى البرّ والفاجر، وبِرّ الوالدين بَرين كانا أو فاجرين»[٣].

وفي حديث حبة العرني: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: من ائتمن رجلاً على دمه [ذمة] ثم خاس [خان] به فأنا من القاتل بريء وإن كان المقتول في النار»[٤]... إلى غير ذلك.

وقد أطال أمير المؤمنين عليه السلام في عهده المشهور إلى مالك الأشتر في بيان ذلك وتفاصيله، حيث قال: «وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء، وارعَ ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنّةً دون ما أعطيت. فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشدّ عليه اجتماعاً ـ

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٢٩ باب وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام في السرايا حديث:٨.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣٣٨ باب المكر والغدر والخديعة حديث:٦.

(٣) الكافي ج:٥ ص:١٣٢ باب أداء الأمانة حديث:١.

(٤) تهذيب الأحكام ج:٦ ص:١٧٥ باب نوادر كتاب الجهاد حديث:٢٧.

مع تفرُّق أهوائهم، وتشتت آرائهم ـ من تعظيم الوفاء بالعهود. وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استوبلوا[١] من عواقب الغدر. فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسنّ بعهدك[٢]، ولا تختِلَن عدوك[٣]. فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي. وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره[٤]. فلا إدغال، ولا مدالسة، ولا خداع فيه.

ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل، ولا تعوِّلن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة. ولا يدعوَنّك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه، وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته، وأن تحيط بك من الله فيه طلبة، فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك»[٥]... إلى غير ذلك.

شواهد شدّة اهتمام الإسلام بالوفاء بالعهد

واللافت للنظر أن الإسلام أكّد على الوفاء بالعهد في مواضع تدل على شدّة تركيزه عليه والاحتياط في مراعاته:

١ـ ما إذا احتاج بعض المسلمين للدعم حفاظاً على دينهم، حيث يجب دعمهم إلا إذا كان لخصمهم عهد وميثاق، فإن الوفاء بالعهد أهمّ من

---

(١) يعني: لما رأوا من وبال عواقبه.

(٢) يعني: تنكثن بعهدك ولا تغدر.

(٣) يعني: لا تخدع عدوك.

(٤) يعني: يفزعون إليه مسرعين.

(٥) نهج البلاغة ج:٣ ص:١٠٦- ١٠٧.

النصر في الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

وقد تقدم أن النبي صلى الله عليه وآله لما عاهد قريشاً على أن من جاءه منهم من دون إذن وليّه أرجعه إليهم، قد طبق ذلك، فأرجع من جاء منهم وفاء منه صلى الله عليه وآله بعهده، ولم يخالف ذلك حتى تراجعت قريش عن شرطها.

ومثل ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله لما أُمِر بتطهير الأرض من الشرك في سورة براءة بعد أن كان يوادع من وادعه ولا يحارب إلا من حاربه. أمهل من كان يوادعه من دون تعيين مدة أربعة أشهر. كما تضمنه قوله عز وجل: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾[2].

لكنه استثنى من ذلك من كان له عهد إلى مدة، فإنه ينتظر تمام مدته مهما كانت وفاءً بالعهد، كما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3]. لأن الوفاء بالعهد أهمّ من تطهير الأرض من الشرك.

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٧٢.

(٢) سورة التوبة الآية: ١-٢.

(٣) سورة التوبة الآية: ٤.

٢ـ ما اذا عاهد واحد من المسلمين عنهم من دون إذنهم، فاطمأن لعهده الطرف الآخر، حيث يجب على الباقين تنفيذه. ففي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قلت له: ما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله: يسعى بذمتهم أدناهم؟ قال: لو أن جيشاً من المسلمين حاصروا قوماً من المشركين، فأشرف رجل، فقال: أعطوني الأمان حتى ألقى صاحبكم وأناظره، فأعطاه أدناهم الأمان، وجب على أفضلهم الوفاء به»[١].

٣ـ ما إذا ظنوا خطأ أن المسلمين أعطوهم الأمان، فإنه يجب العمل على ما ظنوه وإن كان خطأ. ففي حديث محمد بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام أو عن أبي الحسن عليه السلام: «قال: لو أن قوماً حاصروا مدينة، فسألوهم الأمان فقالوا: لا. فظنوا أنهم قالوا: نعم. فنزلوا إليهم كانوا آمنين»[٢].

٤ـ ما إذا كان بين بعض فئات الكفار وفئة أخرى منهم عهد، فغدرت إحداهما بالأخرى ونقضوا العهد، وطلبت الفئة الغادرة الدّعم من المسلمين، فإنه لا يجوز لهم دعمهم.

غاية الأمر أنه يجوز للمسلمين ـ مع تحقق شروط الجهاد ـ قتال الفئة المغدروة استقلالاً ـ بعد أن لم يكن لهم عهد مع المسلمين ـ من دون ارتباط بالفئة الغادرة.

ففي حديث طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام: «سألته عن قريتين [فريقين] من أهل الحرب لكل واحد منهما ملك على حدة اقتتلوا، ثم اصطلحوا. ثم إن أحد الملكين غدر بصاحبه، فجاء إلى المسلمين فصالحهم

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٣٠-٣١ باب إعطاء الأمان حديث:١.

(٢) الكافي ج:٥ ص:٣١ باب إعطاء الأمان حديث:٤.

على أن يغزو معهم [معه] تلك المدينة. فقال أبو عبد الله عليه السلام: لا ينبغي للمسلمين أن يغدروا، ولا يأمروا بالغدر، ولا يقاتلوا مع الذين غدروا. ولكنهم يقاتلون المشركين حيث وجدوهم، ولا يجوز عليهم ما عاهد عليه الكفار»[١].

ويناسب ذلك أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه غدر بجماعة من المشركين، فقتلهم وأخذ أموالهم، فأسلم وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بأموالهم، فأبى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقبلها، وقال: «هذا غدر، ولا حاجة لنا فيه»[٢].

٥ـ ما سبق في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر من قوله: «ولا تعقد عقداً تجوز في العلل» حيث إن الظاهر منه لزوم وضوح بنود العقد وصراحتها، بحيث لا يمكن أن يتشبث أحد الطرفين باحتمال فيه تقتضيه مصلحته.

وهذا أمر له أهميته في تنظيم العهود والمواثيق، وسدّ الطريق لنقضها والالتفاف عليها. وما أكثر ما تسبب عن إغفال ذلك في القرارات والعهود مشاكل معقدة يصعب الخروج منها.

٦ـ ما سبق فيه أيضاً من قوله عليه السلام: «ولا تعوِّلن على لحن قول بعد التأكيد» حيث يظهر منه أنه لا ينبغي بعد التأكيد التشبث باحتمال يصحح النقض من قول أو فعل موهم.

وهذا كله يدل على أهمية العهد في الإسلام وعظم المسؤولية فيه. وقد عرف عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام الالتزام بالعهد، وإن أحرجهم ذلك

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣٣٧ باب المكر والغدر والخديعة حديث:٤.

(٢) الكافي ج:٨ ص:٣٢٤ حديث:٥٠٣.

في كثير من الموارد، منها ما تقدم من النبي صلى الله عليه وآله في صلح الحديبية.

ومنها ما حصل في التحكيم برفع المصاحف في حرب صفين، حيث إن الذين أجبروه من أصحابه على التحكيم ندموا بعد كتابة العهد، وطلبوا منه عليه السلام الرجوع عنه، فامتنع لحرمة نقض العهد[١] فانشقوا عليه، وبدأت مشكلة الخوارج، وصاروا فرقة تكفّر أمير المؤمنين عليه السلام. واستتبع ذلك حرب النهروان، وكانت نتيجتها ضعف معسكره، ثم انهياره بعد قتلهم له عليه السلام، كما هو معروف.

أداء الأمانة

ومنها: أداء الأمانة. وقد أكّد على ذلك الإسلام. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...**﴾[٢] وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[٣].

وفي حديث سدير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فاذا مرّ الوَصُولُ للرحم المؤدي للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مرّ الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعه معهما عمل، وتكفأ به الصراط في النار»[٤].

وفي حديث الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن الله

---

(١) بحار الأنوار ج:٣٣ ص:٣٤٤. شرح نهج البلاغة ج:٢ ص:٣١٠.

(٢) سورة النساء الآية: ٥٨.

(٣) سورة الأنفال الآية: ٢٧.

(٤) الكافي ج٢ ص١٥٢ باب صلة الرحم ح١١.

عز وجل لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر»[١]. وتقدم في حديث الحسين بن مصعب أن أداء الأمانة للبر والفاجر من الثلاثة التي لا عذر لأحد فيها.

وفي حديث أبي حمزة الثمالي: «سمعت سيد العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام يقول لشيعته: عليكم بأداء الأمانة. فوالذي بعث محمداً بالحق نبياً لو أن قاتل أبي الحسين بن علي عليهما السلام ائتمنني على السيف الذي قتله به لأديته له»[٢].

وفي حديث أبي كهمس: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: عبد الله بن أبي يعفور يقرؤك السلام. قال: عليك وعليه السلام. إذا أتيت عبد الله فأقرئه السلام، وقل له: إن جعفر بن محمد يقول لك: انظر ما بلغ به علي عند رسول الله صلى الله عليه وآله فالزمه، فإن علياً عليه السلام إنما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة»[٣].

الآثار الوضعية لأداء الأمانة

ومن طرق الحثّ على أداء الأمانة بيانهم (صلوات الله عليهم) فوائده المادية في الدنيا، ففي حديث حفص بن قرط: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: امرأة بالمدينة كان الناس يضعون عندها الجواري، فيصلحن [فتصلحهن]. وقلنا: ما رأينا مثل ما صبّ عليها من الرزق. قال: إنها صدقت الحديث،

---

(١) الكافي ج٢ ص١٠٤ باب الصدق وأداء الأمانة ح١.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق ص:٣١٩ المجلس:٤٣ حديث:٦. معاني الأخبار ص:٢٠٢. وسائل الشيعة ج:١٣ ص:٢٢٥ باب:٢ من أبواب كتاب الوديعة حديث:١٣.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٠٤ باب الصدق وأداء الأمانة حديث:٥.

وأدّت الأمانة. وذلك يجلب الرزق»[١].

وفي حديث يحيى بن العلاء وإسحاق بن عمار عنه عليه السلام، قالا: «ما ودّعنا قط إلا أوصانا بخصلتين: عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة إلى البر والفاجر. فإنهما مفتاح الرزق»[٢].

وفي حديث عبد الرحمن بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام قال في حديث: «ألا أوصيك؟ قلت: بلى جعلت فداك. قال: عليك بصدق الحديث وأداء الأمانة، تشرك الناس في أموالهم هكذا، وجمع بين أصابعه [إصبعيه] قال: فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاثمائة ألف درهم»[٣]... إلى غير ذلك مما يدل على أهمية أداء الأمانة في الإسلام، بل في جميع الأديان.

وقد عرف النبي صلى الله عليه وآله بالصادق الأمين قبل بعثته وبعدها، وقد تقدم أن ودائع قريش كانت عنده مع تكذيبهم له وشدّة عدائهم إياه. حتى إنهم تآمروا عليه وأرادوا قتله. ولما فرّ منهم هارباً أوصى أمير المؤمنين عليه السلام أن يردّ بعده ودائعهم لهم، كما سبق.

الصدق

ومنها: الصدق. ووضوح وجوبه، وابتناء الدين عليه من القرآن الكريم والسنة الشريفة، يغني عن إطالة الكلام فيه، وقد تقدم بعض

---

(١) الكافي ج:٥ ص:١٣٣ كتاب المعيشة: باب أداء الأمانة حديث:٦. وسائل الشيعة ج:١٣ ص:٢١٩ باب:١ من أبواب كتاب الوديعة حديث:٦.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص:٦٧٦ المجلس:٣٧ حديث:٨.

(٣) الكافي ج:٥ ص:١٣٤ كتاب المعيشة: باب أداء الأمانة حديث:٩. وسائل الشيعة ج:١٣ ص:٢١٩ باب:١ من أبواب كتاب الوديعة حديث:٦.

النصوص فيه.

وفي حديث سيف بن عميرة عمن حدثه عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: كان علي بن الحسين (صلوات الله عليهما) يقول لولده: اتقوا الكذب، الصغير منه والكبير، في كل جدّ وهزل. فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترى على الكبير. أما علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صدّيقاً، وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كذاباً»[١].

وفي حديث فضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: إن أول من يكذّب الكذاب الله عز وجل، ثم الملكان اللذان معه، ثم هو يعلم أنه كاذب»[٢].

وفي حديث عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن مما أعان الله [به] على الكذابين النسيان»[٣].

كما لا إشكال في أهمية تحلي الداعية به في نجاح دعوته وتأثير كلامه في سامعيه. وكان ذلك من أظهر أخلاق النبي صلى الله عليه وآله التي عرف بها قبل بعثته وبعدها. وقد تقدم في مقدمة المبحث الأول حديث أبي جهل عنه صلى الله عليه وآله.

هذا ويحسن التنبيه لشيء. وهو أن صدق الداعية بوجهين: **الأول**: صدق اللسان المستكشف بظهور ما يخبر به ومطابقة خبره للواقع.

الثاني: قناعته بما يدعو إليه وتفاعله به، بحيث يتجسد في عمله وسلوكه ويضحي في سبيله. وهو الذي يشير إليه قوله تعالى عن شعيب عليه السلام:

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣٣٨ كتاب الإيمان والكفر: باب الكذب حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣٣٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الكذب حديث:٦.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٣٤١ كتاب الإيمان والكفر: باب الكذب حديث:١٥.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[1].

وغياب هذين الأمرين في الأعم الأغلب من الدعاة ذوي التأثير في الساحة على طول الزمن قد جرّ الويلات على العالم، وسار به نحو الدمار والإنهيار في الأخلاق والقيم، وما نتج عن ذلك من مآسٍ.

لأن غرض الداعية المعلن من أجل تكثير الأنصار وإقناع الناس بدعوته هو إسعاد الآخرين وتطبيق العدل فيهم. أما في واقع الأمر فكثيراً ما يكون غرضه تحقيق مطامعه الشخصية في السيطرة وحبّ الظهور مهما كانت النتائج. ويسلك في سبيل ذلك الطرق الملتوية وإن أدّت إلى الإجحاف بالعامة وخسائرها المادية أو المعنوية بفقدها القيم والأخلاق الفاضلة.

وفي حديث محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: إن الله عز وجل جعل للشر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب. والكذب شرّ من الشراب»[2].

ومن الظاهر أن ظهور الصدق بالوجه الأول هو الحجة الحقيقية للداعية. وقد تجلّت في النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، خصوصاً بما ظهر بمرور الزمن من صدقهم فيما أخبروا به من الأمور الغيبية. ومنها ما تقدم في حديث عدي بن حاتم الطائي عنه صلى الله عليه وآله من الوعد بفتح بابل وخروج المرأة من القادسية للحج لا تخاف أحداً.

---

(١) سورة هود الآية: ٨٨.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣٣٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الكذب حديث:٣.

صدق الداعية بتفاعله مع ما يدعو إليه ويطبقه على نفسه

أما الصدق بالوجه الثاني فقد تظافرت النصوص بالحثّ عليه. فقد تقدم عند الكلام في غزوة بدر امتناع النبي صلى الله عليه وآله عن المثلة بسهيل بن عمرو.

وفي حديث الحارث بن المغيرة النصري عن أبي عبد الله عليه السلام: «في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: يعني بالعلماء من صدق قوله فعله. ومن لم يصدق قوله فعله فليس بعالم»[١].

وفي حديث المعلى بن خنيس عنه عليه السلام: «[أنه] قال: إن من أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم عمل بغيره»[٢].

وفي حديث أبي بصير عنه عليه السلام: «قال في قول الله عز وجل: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال: يا أبا بصير هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم، ثم خالفوه إلى غيره»[٣] ونحوها غيرها.

وفي حديث هشام عنه عليه السلام: «قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول للناس بالكوفة: يا أهل الكوفة أتروني لا أعلم ما يصلحكم؟! بلى، ولكني أكره أن أصلحكم بفساد نفسي»[٤].

وفي حديث عبد الرحمن بن عبيد بن الكنود: «قدم أمير المؤمنين علي

---

(١) الكافي ج:١ ص:٣٦ كتاب فضل العلم: باب صفة العلماء حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٢٩٩ كتاب الإيمان والكفر: باب من وصف عدلاً وعمل بغيره حديث:١. قرب الإسناد ص:٣٣. فقه الرضا ص:٣٧٦. مصادقة الإخوان ص:٣٤. وغيرها من المصادر.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٣٠٠ كتاب الإيمان والكفر: باب من وصف عدلاً وعمل بغيره حديث:٤. مختصر تفسير القمي لابن العتائقي ص:٣٥٢.

(٤) أمالي الشيخ المفيد ص:٢٠٧ المجلس:٢٣ حديث:٤٠. وقريب منه في الكافي ج:٨ ص:٣٦١، والإرشاد ج:١ ص:٢٧٢-٢٧٣، وغيرها من المصادر.

بن أبي طالب عليه السلام من البصرة إلى الكوفة... فأقبل حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فالحمد لله الذي نصر وليّه وخذل عدوه... عليكم يا أهل هذا المصر بتقوى الله، وطاعة من أطاع الله من أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وآله... إنه قد قعد عن نصرتي رجال منكم، فأنا عليهم عاتب زار، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا [يعتبونا. الإرشاد]، أو نرى منهم ما نرضى.

فقام إليه مالك بن حبيب التميمي اليربوعي ـ وكان صاحب شرطته ـ فقال: والله إني لأرى الهجر وإسماع المكروه لهم قليلاً. والله لئن أمرتنا لنقتلنهم. فقال له أمير المؤمنين: يا مال جزت المدى، وعدوت الحدّ، وأغرقت في النزع. فقال: يا أمير المؤمنين:

لبعض الغشم أبلغ في أمور تنوبك من مهادنة الأعادي

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ليس هكذا قضى الله يا مال. قال الله تعالى ﴿**النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾ فما بال بعض الغشم؟ وقال الله سبحانه: ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**﴾...»[1]. ونحوها كثير.

ولذلك أعظم الأثر في تفاعل القلّة القليلة من ذوي البصائر ممن يهمهم الحقيقة مع دعوة الحق وتبليغ أمثالهم بها جيلاً بعد جيل. ويكون سبباً في بقائها واستمرار تأثيرها مهما طال الزمن وتعاقبت الأجيال.

وهو الذي حصل في الإسلام الحق المتمثل بخط أهل البيت (صلوات الله عليهم). لأنهم ـ تبعاً للنبي صلى الله عليه وآله ـ القمّة في الصدق بالوجه الثاني، وفي

---

(١) أمالي الشيخ المفيد ص:١٢٧-١٢٨ المجلس:١٥.

تفاعل خاصة أتباعهم بهم، وإيمانهم بدعوتهم وتبنيهم لها على طول الزمن وتعاقب الفتن، مهما كلّفهم ذلك من متاعب ومصائب قد تصل حدّ التضحية بالنفس والنفيس.

وقد بقي الإسلام المذكور بسبب ذلك حيّاً فاعلاً، رغم المعوقات الكثيرة، ومحاولات اجتياحه المتكررة بمختلف الوجوه، وعلى امتداد الزمن، وتعاقب الفتن.

مضافاً إلى الدعم الغيبي له ولدعوة الحق في جميع العصور، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾[1].

وفي صحيح هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: ما التقت فئتان قطّ من أهل الباطل إلا كان النصر مع أحسنهما بقية على [أهل] الإسلام»[2].

كل ذلك بتوجيهات الأئمة عليهم السلام ورعاية خاتمهم الحجة المنتظر (عجل الله فرجه الشريف)، حيث إن الانتفاع به في غيبته كالانتفاع بالشمس إذا جللها السحاب.

غياب الواقعية والتدخل الغيبي عن ذاكرة العالم

وقد حيّر ذلك العالم ومراكز الدراسات في العصر الحديث، على ما ذكر ذلك لي في القرن الماضي بعض ذوي العلاقة بها من الأكاديميين.

---

(١) سورة الحج الآية: ٤٠.

(٢) الكافي ج:٨ ص:١٥٢ حديث:١٣٩.

لعدم إدراكهم عمق الواقعية والتدخل الغيبي وقوة تأثيرهما، وابتناء حساباتهم في دراستهم على ما ألفوه من الوسائل المادية، تبعاً للمصالح المتبادلة بين العاملين. ومن المعلوم من حال هذه الطائفة أنها أفقر الفئات منها، خصوصاً في أواسط القرن الماضي.

بل ذكر لي الشخص المذكور في جملة الحوار بيننا ـ والعهدة عليه ـ أنه ألقيت محاضرات في بعض مراكز الدراسات تتضمن أن الأمة الوحيدة التي تقول كلمة الحقيقة للحقيقة هي الشيعة الإمامية الاثنى عشرية. وأنه ينبغي التفكير في أمرهم.

حديث لنا مع رموز دينية

ومن الطريف ما حصل لنا قريباً، حيث زارنا قبل أقلّ من عامين شخصيتان لهما موقعهما المتميز في المؤسسة الدينية المسيحية. فذكر أحدهما أن التكنولوجيا الحديثة قد أنسَت الناس الله عز وجل، وقد سأل عن كيفية الخروج من هذه المشكلة، وعن علاجها.

وقد أدركت عمق السؤال وأهميته. بل فوجئت به، حيث لم يسبق عرضه عليّ مع كثرة من التقيت به من أمثالهما، وتهيأت للإسهاب في الجواب، لعدم ألفتهما لمفاهيمنا.

وبدأتُ، فذكرت أن من أهمّ أسباب تأثير الداعية في الأتباع شعورهم بواقعيته في دعواه، وإخلاصه للحقيقة التي يدعو لها، من دون مكسب له وراء ذلك.

واستشهدت على ذلك بما روي من أنه لما بدأ رؤساء القبائل يتفرقون عن أمير المؤمنين عليه السلام، ويتسللون إلى معاوية طلباً لدنياه، وظهرت بوادر

ضعف معسكر أمير المؤمنين عليه السلام، مشى إليه بعض خواص أصحابه ممن يهمه أمره ويؤمنون بدعوته، وطلبوا منه أن يفضّل الرؤساء في العطاء مؤقتاً، حتى إذا استوسقت له الأمور عاد إلى ما عوّده الله عليه من القسم بالسوية والعدل في الرعية.

فامتنع عليه السلام من ذلك بل استنكره. وقال: «أتأمروني ويحكم أن أطلب النصر بالظلم والجور فيمن ولّيتُ عليه من أهل الإسلام؟! لا والله لا يكون ذلك ما سمر السمير...»[1].

وقلت تعقيباً على ذلك: وأخيراً انهار معسكر أمير المؤمنين عليه السلام، ثم قتل، كما كان يتوقع[2]. وغلب معاوية وبسط سلطانه على بلاد الإسلام.

لكن هؤلاء الخواص من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام أدركوا أنه صاحب مبدأ، لا يتنازل عنه مهما كلّفه ذلك من ثمن، ولو أدى ذلك لانهيار معسكره ومشروعه السياسي، وحتى لو انتهى الأمر إلى قتله. وذلك شاهد على أن دعوته حقّ، فتمسكوا بدعوته، وجاهدوا في سبيل إبقائها وإسماع صوتها للأجيال، حتى وصلت إلينا.

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٣١ أبواب الصدقة: باب وضع المعروف موضعه حديث:٣، واللفظ له. أمالي الشيخ المفيد ص:١٧٥-١٧٦ المجلس:٢٢ حديث:٦. الإمامة والسياسة ج:١ ص:١٧٣-١٧٤. التذكرة الحمدونية ج:١ ص:١٠٠. شرح نهج البلاغة ج:٢ ص:٢٠٣. وغيرها من المصادر.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج:٣ ص:١٣٩-١٤٠ كتاب معرفة الصحابة: ومن مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مما لم يخرجاه، ذكر إسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه. الكامل في التاريخ ج:٣ ص:٣٨٨ أحداث سنة أربعين من الهجرة. صحيح ابن حبان ج:١٥ ص:١٢٧ باب إخباره صلى الله عليه وآله عما يكون في أمته من الحوادث. وغيرها من المصادر الكثيرة.

وما ذكرت ذلك لهما حتى استفزهما حديثي، وقالا: لا ينبغي أن نجلس معكم نصف ساعة، بل ينبغي أن نبقى عشرة أيام لنسمع مثل هذا الكلام. وأطالا في التعقيب على ذلك والإعجاب به حتى انتهى المجلس، من دون أن يسمح الوقت في ذكر الشواهد الأخر على ذلك. وما ذلك إلا لغياب هذه المفاهيم عن ذاكرة العالم، وتوجهاته المادية الصرفة.

وفاء الدين

ومنها: وفاء الدين. ووجوب قضائه مع القدرة، ونية القضاء مع العجز عنه، مما استفاضت به النصوص عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وفي حديث سدير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: كل ذنب يكفِّره القتل في سبيل الله عز وجل إلا الدَّين لا كفارة له إلا أداؤه، أو يقضي صاحبه، أو يعفو الذي له الحق»[1].

وفي حديث الحسن بن علي بن رباط: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: من كان عليه دين فينوي قضاءه كان معه من الله عز وجل حافظان يعينانه على الأداء عن أمانته، فإن قصرت نيته عن الأداء قصّرا عنه من المعونة بقدر ما قصّر من نيته»[2].

وفي حديث معاوية بن وهب: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنه ذكر لنا أن رجلاً من الأنصار مات وعليه ديناران ديناً، فلم يصلّ عليه النبي صلى الله عليه وآله، وقال: صلّوا على صاحبكم. حتى ضمنهما [عنه] بعض قرابته. فقال أبو عبد الله عليه السلام: ذلك الحق. ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله إنما فعل ذلك ليتعظوا،

(١) الكافي ج:٥ ص:٩٤ باب الدين حديث:٦.

(٢) الكافي ج:٥ ص:٩٥ باب قضاء الدين حديث:١.

وليردّ بعضهم على بعض، ولئلا يستخفّوا بالدين. وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه دين، ومات الحسن عليه السلام وعليه دين، وقتل الحسين عليه السلام وعليه دين»[١].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من يمطل على ذي حق حقه وهو يقدر على أداء حقه فعليه كل يوم خطيئة عشار»[٢]. وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً أنه قال: «لَـيّ الواجد بالدين يحلّ عرضه وعقوبته ما لم يكن دينه فيما يكره الله عز وجل»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «ليس من غريم ينطلق من عند غريمه راضياً إلا صلّت عليه دواب الأرض ونون البحور. وليس من غريم ينطلق صاحبه غضبان وهو مليّ إلا كتب الله عز وجل بكل يوم يحبسه وليلة ظلماً».[٤]

وقد ورد في بعض النصوص أن حبس الحقوق من الكبائر[٥].

وظيفة العاجز عن الوفاء مع الدائن

وحتى العاجز عن وفاء الدين ينبغي له: **أولاً**: الاهتمام بوفائه والسعي

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٩٣ باب الدين حديث:٢.

(٢) من لا يحضره الفقيه ج:٤ ص:١٠ باب ذكر جملة من مناهي النبي صلى الله عليه وآله حديث:١. أمالي الشيخ الصدوق ص:٥١٧. الفصول المهمة في أصول الأئمة ج:٢ ص:٢٦٣. وسائل الشيعة ج:١٣ ص:٨٩ أبواب الدين والقرض: باب تحريم المماطلة بالدين مع القدرة على أدائه حديث:٢.

(٣) وسائل الشيعة ج:١٣ ص:٩٠ أبواب الدين والقرض: باب تحريم المماطلة بالدين مع القدرة على أدائه حديث:٤. أمالي الشيخ الطوسي ص:٥٢٠ المجلس:١٨ حديث:٥٣. واللَيّ بفتح اللام وتشديد الياء: المماطلة وعدم المبادرة. والمراد بحل عرضه: جواز ذمه وغيبته.

(٤) من لا يحضره الفقيه ج:٣ ص:١١٣ أبواب القضايا والأحكام: باب الدين والقروض حديث:١٦.

(٥) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢٦١ باب:٤٦ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه حديث:٣٣.

في ذلك بما يتيسر له، على تفصيل يذكر في الفقه. **وثانياً**: حسن التعامل مع الدائن ومداراته ومحاورته معه بالتي هي أحسن. وقد تقدم عن النبي صلى الله عليه وآله ما يناسب ذلك.

وفي رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: «وأما حق الغريم المطالب لك. فإن كنت موسراً أوفيته وكفيته وأغنيته، ولم تردده وتمطله، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مطل الغني ظلم. وإن كنت معسراً أرضيته بحسن القول، وطلبت إليه طلباً جميلاً، ورددته عن نفسك ردّاً لطيفاً، ولم تجمع عليه ذهاب ماله وسوء معاملته، فإن ذلك لؤم. ولا قوة إلا بالله»[1].

مثالية النبي صلى الله عليه وآله في أمر الدَّين

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك ما يلفت النظر، ويكشف عن مثاليته العالية. فعن موسى بن إسماعيل عن أبيه عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام: «قال: إن يهودياً كان له على رسول الله صلى الله عليه وآله دنانير، فتقاضاه. فقال له: يا يهودي ما عندي ما أعطيك. قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تقضيني. فقال صلى الله عليه وآله: إذاً أجلس معك.

فجلس معه حتى صلى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة. وكان أصحاب رسول الله يتهددونه ويتواعدونه.

فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم فقال: ما الذي تصنعون به؟! فقالوا: يا رسول الله يهودي يحبسك. فقال صلى الله عليه وآله: لم يبعثني ربي عز وجل بأن أظلم معاهداً ولا غيره.

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول ص:٢٦٧-٢٦٨.

فلما علا النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وشطرُ مالي في سبيل الله. أما والله ما فعلت بك الذي فعلت إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإني قرأت نعتك في التوراة: محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة. وليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب ولا متزين [مترين] بالفحش، ولا قول الخنا. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. وهذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله. وكان اليهودي كثير المال...»[1].

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص:٥٥١-٥٥٢ المجلس:٧١ حديث:٦، واللفظ له. مكارم أخلاق النبي والأئمة عليهم السلام ص:٧٤-٧٥. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات ص:٢١٢. وفي الإصابة في تمييز الصحابة ج:٢ ص:١٢٨ في ترجمة حير نجرة الإسرائيلي باختصار.

الفصل الثاني
فيما تقتضيه الفطرة الإنسانية السليمة

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان اجتماعياً بفطرته، فالتواصل والترابط بين أفراد المجتمع وإن كلّف الفرد بعض المتاعب أو كثيراً منها في علاقته مع الآخرين، إلا أنه:

أولاً: يشبع حاجته الغريزية إلى الألفة والاجتماع والتواصل، ويجنبه الوحدة والعزلة، وما يستتبعها من وحشة وكآبة قاتلة.

وثانياً: يقوّي شخصيته في تحمل المسؤولية تجاه الآخرين، والاهتمام بأداء حقوقهم. فكلما كان الإنسان أوسع في علاقاته الاجتماعية وآلف مع الآخرين كان أقوى شخصية، وأصلب عوداً، وأقدر على تحمل المصاعب والمصائب التي يتعرض لها في معترك الحياة بمرور الزمن.

وكلما كان أقلّ اهتماماً بذلك منصرفاً لسدّ حاجته الشخصية، وإشباع شهواته من أقصر الطرق متحللاً من القيود الحاجزة من الدين والقيم والأعراف، كان أضعف نفساً وأقل تحملاً، ينهار أمام المشاكل التي تصادفه في معترك الحياة.

وثالثاً: يعينه في إدارة أموره في حياته، فإن الفرد لا يستغني بنفسه في

القيام بما يحتاجه، بل يحتاج لغيره في سدّ خلته وعوزه، كما قال الشاعر:

الناس للناس من بَدْوٍ ومن حَضرٍ بعض لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

وفي حديث بكر الأرقط أو شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنه دخل عليه واحد، فقال: أصلحك الله، إني رجل منقطع إليكم بمودتي. وقد أصابتني حاجة شديدة. وقد تقربت بذلك إلى أهل بيتي وقومي، فلم يزدني بذلك منهم إلا بعداً. قال: فما آتاك الله خير مما أخذ منك. قال: جعلت فداك، ادع الله لي أن يغنيني عن خلقه. قال: إن الله قسم رزق من شاء على يدي من شاء. ولكن سل الله أن يغنيك عن الحاجة التي تضطرك إلى لئام خلقه»[1].

وفي حديث مرازم: «قال أبو عبد الله عليه السلام: عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز. إنه لابد لكم من الناس. إن أحداً لا يستغني عن الناس حياته. والناس لابد لبعضهم من بعض»[2].

وقد راعى الإسلام هذا الجانب في أهمية مكارم الأخلاق وشدّة الحث عليها، من أجل قيام مجتمع إنساني متماسك، كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً. وأكّد على ذلك في تعامل المؤمنين بعضهم مع بعض، كما يظهر مما يأتي إن شاء الله تعالى.

وهناك من مكارم الأخلاق قسم آخر لا يبتني على الاهتمام بتماسك المجتمع الإنساني، بل هو بنفسه يرجع إلى تكامل شخصية الإنسان قوةً

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٦٦ كتاب الإيمان والكفر: باب ملحق بباب فضل فقراء المسلمين حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص: ٦٣٥ كتاب لعشرة: باب ما يجب من المعاشرة حديث:١.

ونبلاً وشرف نفس، وإن كان قد يزيد في تماسك المجتمع.

كما أن الإنسان عموماً يُكِنّ بسجيته وفطرته السليمة الاحترام لهذه الخصال. وإن كان كثيراً ما يخرج عنها عملاً، لعوامل خارجية، أو لضعف نفسه أو شخصيته. بل قد يكابر وينكر حسنها أو يستهجنها، لأنه يصعب عليه الاعتراف بخطئه.

وكيف كان فيقع الكلام في القسمين:

القسم الأول
ما يبتني على ارتباط المجتمع وتماسكه

وقد راعى الإسلام في هذا القسم مرتبة العلاقة بين الأطراف وكثرة الاحتكاك بينهم، وقوة الروابط النفسية، فكلما كانت العلاقة أقرب والاحتكاك أكثر كان الحثّ آكد. وهي أمور:

بر الوالدين

١ـ برّ الوالدين. وقد أكد الإسلام ـ كتاباً وسنة ـ بوجه مذهل على برّ الوالدين. حتى قُرِن في أكثر من آية من الكتاب الكريم بالأمر بتوحيد الله عز وجل والنهي عن الشرك به الذي له الموقع الأول في الدين والإسلام القويم. كقوله عز وجل: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾[1] وغيره، وهو كثير.

ومما يلفت النظر في ذلك قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ**

(١) سورة الإسراء الآية: ٢٣.

بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ...﴾[1].

فإن آيتي الوالدين قد أقحمتا في وصية لقمان، وهما خارجتان عنها. ولا يظهر وجه ذلك إلا أهمية حق الوالدين، بحيث يقرن بالتوحيد والنهي عن الشرك بالله تعالى الذي بدأت به وصيته. كما صرح به في القرآن المجيد، ومنه ما تقدم.

الوجه في إلحاق برّ الوالدين بالتوحيد

ويناسب ذلك ما يأتي ـ عند الكلام في الشكر ـ من أن شكر النعمة لا يكفي فيه شكر الله عز وجل عليها، بل لابد ـ مع ذلك ـ من شكر من جرت النعمة على يده، وكان الواسطة في حصولها.

ومن المعلوم أن نعمة الوجود للإنسان وإن كانت في الأصل من الله عز وجل وبتقديره وتدبيره، إلا أنها إنما تحصل بتوسط الوالدين ومن طريقهما، فلا يتم شكر الله تعالى عليها إلا بشكرهما، والإحسان إليهما. فلذا قرن شكرهما وبرّهما بشكر الله عز وجل وتوحيده.

وقد يشير إلى ذلك حديث الدلهاث عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «قال: إن الله عز وجل أمر بثلاثة مقرون بها ثلاثة أخرى: أمر بالصلاة والزكاة، فمن صلى ولم يزكّ لم يقبل منه صلاته. وأمر بالشكر له وللوالدين، فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله. وأمر باتقاء الله وصلة الرحم، فمن لم يصل رحمه

(١) سورة لقمان الآية: ١٣-١٦.

لم يتق الله عز وجل»[١].

هذا وأما السنة الشريفة فقد استفاض فيها التأكيد على برّ الوالدين. على اختلاف وجوه البيان وأنحاء التأكيد.

وفي حديث ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن الله عز وجل أيتم نبيّه صلى الله عليه وآله لئلا يكون لأحد عليه طاعة»[٢]. حيث يدل هذا الحديث على عموم ثبوت حقهما لو كانا حيين للنبي صلى الله عليه وآله الذي هو أشرف الخلق، وطاعته مفروضة عليهم.

وفي حديث أبي ولّاد: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾ ما هذا الإحسان؟ فقال: الإحسان أن تحسن صحبتهما، وأن لا تكلّفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين. أليس يقول الله عز وجل: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾. قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: وأما قول الله عز وجل: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا**﴾ قال: إن أضجراك فلا تقل لهما: أفّ ولا تنهرهما إن ضرباك. قال: ﴿**وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾ قال: إن ضرباك فقل لهما: غفر الله لكما، فذلك منك قول كريم. قال: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يدك فوق

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج:١ ص:٢٣٤ باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار النادرة في فنون شتى حديث:١٣. الخصال ص:١٥٦.

(٢) علـل الشرائع ج:١ ص:١٣١ باب العلة التي من أجلها أيتم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله حديث:١. معاني الأخبار ص:٥٣ باب معاني أسماء النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام حديث:٥.

أيديهما، ولا تقدم قدامهما»[١].

وفي حديث محمد بن مسلم عن جعفر بن محمد عن آبائه (صلوات الله عليهم) عن علي عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: النظر إلى العالم عبادة، والنظر إلى الإمام المقسط عبادة، والنظر إلى الوالدين برأفة ورحمة عبادة، والنظر إلى أخ توده في الله عز وجل عبادة»[٢].

وفي حديث جابر عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله إني راغب في الجهاد نشيط. قال: فقال له النبي صلى الله عليه وآله: فجاهد في سبيل الله، فإنك إن تقتل تكن حياً عند الله ترزق، وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت رجعت من الذنوب كما ولدت. قال: يا رسول الله، إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فقِرّ مع والديك. فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة»[٣]... إلى غير ذلك.

كما استفاضت النصوص بتحريم عقوق الوالدين[٤]. بل عدّ من الكبائر في نصوص كثيرة[٥].

وفي بعضها أنه من أكبر الكبائر، كحديث أبي الصامت عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: أكبر الكبائر سبع: الشرك بالله العظيم، وقتل النفس

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٥٧-١٥٨ كتاب الإيمان والكفر: باب البر بالوالدين حديث:١، واللفظ له. تفسير العياشي ج:٢ ص:٢٨٥.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص:٤٥٤ المجلس: ١٦ حديث:٢١.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٦٠ كتاب الإيمان والكفر: باب البر بالوالدين حديث: ١٠.

(٤) راجع وسائل الشيعة ج:١٥ ص:٢١٦- ٢١٨ باب:١٠٤ من أبواب أحكام الأولاد.

(٥) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢٥١- ٢٦٣ باب:٤٦ من أبواب جهاد النفس.

التي حرم الله إلا بالحق، وأكل أموال اليتامى، وعقوق الوالدين، وقذف المحصنات، والفرار من الزحف، وإنكار ما أنزل الله عز وجل...»[1]... إلى غير ذلك.

عموم برّ الوالدين للكافرين

وصريح بعض الآيات المتقدمة والنصوص العموم لغير المؤمنين والمسلمين. وقد تقدم عند الكلام في الوفاء بالوعد أن من الثلاث التي لا عذر لأحد فيها برّ الوالدين بَرَّين كانا أو فاجرين.

وفي حديث زكريا بن إبراهيم: «كنت نصرانياً فأسلمت. وحججت فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقلت إني كنت على النصرانية، وإني أسلمت. فقال: وأي شيء رأيت في الإسلام؟ قلت: قول الله عز وجل: ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء**﴾ فقال: لقد هداك الله. ثم قال: اللهم اهده ـ ثلاثاً ـ سل عما شئت يا بني.

فقلت: إن أبي وأمي على النصرانية وأهل بيتي. وأمي مكفوفة البصر، فأكون معهم وآكل في آنيتهم؟ فقال: يأكلون لحم الخنزير؟ فقلت: لا، ولا يمسونه. فقال: لا بأس. فانظر أمك فبرّها. فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك، كن أنت الذي يقوم بشأنها... فلما قدمت الكوفة ألطفت لأمي، وكنت أطعمها وأفلّي ثوبها ورأسها وأخدمها.

فقالت لي: يا بني ما كنت تصنع بي هذا وأنت على ديني، فما الذي أرى منك منذ هاجرت، فدخلت في الحنيفية؟ فقلت: رجل من ولد نبينا

---

(١) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢٥٧-٢٥٨ باب:٤٦ من أبواب جهاد النفس حديث:٢٠.

أمرني بهذا. فقالت: هذا الرجل هو نبي؟ فقلت: لا، ولكنه ابن نبي... فقالت: يا بني دينك خير دين. اعرضه عليّ. فعرضته عليها. فدخلت في الإسلام. وعلّمتها، فصلت الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة. ثم عرض لها عارض في الليل. فقالت: يا بني أعد عليّ ما علمتني. فأعدته عليها. فأقرّت به، وماتت. فلما أصبحت كان المسلمون الذين غسلوها. وكنت أنا الذي صليت عليها ونزلت في قبرها»[١].

حقوق الولد على الوالدين

هذا وقد أكّدت النصوص أيضاً على أهمية الولد وعلى حبّه، وأنه نعمة من الله يجب شكرها. وأنه ينبغي إكرام الولد الصالح، وأن من حقوقه تأديبه واستصلاحه وحسن تربيته[٢].

وفي حديث ابن أبي عمير عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن الله ليرحم الرجل لشدّة حبه لولده»[٣]. وفي حديث معمر بن خلاد: «قال: كان داود بن زربي شكا ابنه إلى أبي الحسن عليه السلام فيما أفسد له، فقال: استصلحه، فما مائة ألف فيما أنعم الله به عليك؟!»[٤].

وكان داود قد شكا لأبي الحسن عليه السلام أن ابنه قد أتلف مالاً كثيراً يبلغ مائة ألف، فأوصاه الإمام عليه السلام به، وذكر أن نعمة الولد أهم مما أتلف.

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٦٠-١٦١ كتاب الإيمان والكفر: باب بر الوالدين حديث:١١.

(٢) راجع وسائل الشيعة ج:١٥ ص:١٩٨ باب:٨٦ من أبواب أحكام الأولاد.

(٣) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:٩٨ باب:٢ من أبواب أحكام الأولاد حديث:٧.

(٤) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:١٩٨ باب:٨٦ من أبواب أحكام الأولاد حديث:٢.

رحم الله والدين أعانا ولدهما على برّهما»[١]. وفي حديث مسعدة بن زياد عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رحم الله امرءاً أعان والده على بِرّه. رحم الله والداً أعان ولده على بِرّه. رحم الله جاراً أعان جاره على بِرّه. رحم الله رفيقاً أعان رفيقه على بِرّه. رحم الله خليطاً أعان خليطه على بِرّه. رحم الله رجلاً أعان سلطانه على بِرّه»[٢].

وفي حديث يونس بن رباط عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رحم الله من أعان ولده على بِرّه. قال: قلت: كيف يعينه على بِرّه؟ قال: يقبل ميسوره، ويتجاوز عن معسوره؟ ولا يرهقه، ولا يخرق به...»[٣].

وفي حديثه الآخر عنه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «يلزم الوالدين من العقوق لولدهما إذا كان الولد صالحاً ما يلزم الولد لهما من عقوقهما»[٤]. وقريب منه غيره.

وفي حديث زياد الكناسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال في تعداد الكبائر: «والذي إذا دعاه أبوه لعن أباه، والذي إذا أجابه ابنه يضربه»[٥].

---

(١) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:١٩٩ باب:٨٦ من أبواب أحكام الأولاد حديث:٤.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق ص:٣٦٣ المجلس:٤٨ حديث:٥. ثواب الأعمال عقاب الأعمال ص:١٨٦.

(٣) الكافي ج:٦ ص:٥٠ كتاب العقيقة: باب بر الأولاد حديث:٦. تهذيب الأحكام ج:٨ ص:١١٣ كتاب الطلاق: باب الحكم في أولاد المطلقات من الرضاع حديث:٣٩.

(٤) الكافي ج:٦ ص:٤٨ كتاب العقيقة: باب حق الأولاد حديث:٥. تهذيب الأحكام ج:٨ ص:١١٢ كتاب الطلاق: باب الحكم في أولاد المطلقات من الرضاع حديث:٣٥. الخصال ص:٥٥.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٢٨١ كتاب الإيمان والكفر: باب الكبائر حديث:١٥.

وفي حديث الفضل بن أبي قرّة عنه عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قبّل ولده كتب الله له حسنة، ومن فرّحه فرّحه الله يوم القيامة، ومن علّمه القرآن دعي بالأبوين فكسيا حلتين تضيء من نورهما وجوه أهل الجنة»[١].

وفي رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: «وأما حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عما وليته من حُسن الأدب، والدلالة على ربّه عز وجل، والمعونة على طاعته. فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه»[٢]... إلى غير ذلك.

وذلك يرجع إلى أن ثبوت حق الوالدين على الولد لا يبتني على سلطنتهما عليه وتحكمهما فيه. بل إلى تحمّل مسؤوليته، ونظم العلاقة بين الطرفين، وتبادل الحقوق بينهما، وإلى نحو من التكافؤ والارتباط العاطفي المستحكم بينهما الذي يحمل كلا منهما على أن يؤدي دوره المناسب نحو الآخر، من دون حيف على أحدهما، ولا استهوان به.

فقرات من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده

وقد جسّد ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته المشهورة للإمام الحسن عليه السلام ـ التي ينبغي لكل من يحب أن يستزيد من الخير أن يطّلع عليها ـ قال: «أما بعد فإن فيما تبينت من إدبار الدنيا عني، وجموح الدهر عليّ، وإقبال الآخرة إليّ، ما يزعني[٣] عن ذكر من سواي، والاهتمام بما ورائي.

---

(١) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:١٩٤ باب:٨٣ من أبواب أحكام الأولاد حديث:٣.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق ص:٤٥٤ المجلس:٥٩ حديث:١. الخصال ص:٥٦٨.

(٣) يعني: يردعني ويصرفني.

غير أني حيث تفرد بي دون هموم الناس همّ نفسي، فصدفني رأيي وصرفني عن هواي، وصرّح لي محض أمري، فأفضى بي إلى جدّ لا يكون فيه لعب، وصدق لا يشوبه كذب، ووجدتك بعضي، بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي، فكتبت إليك كتابي مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت. فإني أوصيك بتقوى الله ـ أي بني ـ ولزوم أمره...»[1].

كما أن مقتضى هذا الكلام وغيره مما ورد عنهم (صلوات الله عليهم) أن خروج أحد الطرفين عن مقتضى وظيفته لا يقتضي تخلّي الآخر عن وظيفته، لأن الشدّ العاطفي المطلوب شرعاً يمنعه من ذلك، وليس الأمر مبتنياً على التعامل وتبادل المصالح، ليكون تقصير أحد الطرفين في أداء ما عليه مصححاً لتخلّي الآخر عنه.

وإذا خرج بعض المسلمين أو كثير منهم على ذلك، للجهل في فهم الحق المذكور، أو لعوامل خارجية، فلا يصلح ذلك لتفسير موقف الإسلام، ولا يكون منشأ للتحامل والتهريج عليه.

وفي تتمة الكلام في برّ الوالدين يحسن التنبيه لأمور:

منزلة الجد

الأول: حيث ابتنى برّ الوالدين على ثبوت الحق لهما واحترامهما والرحمة بهما، فمن الطبيعي أن يسري ذلك إلى الجدّين من قِبل كل منهما، لأن مقتضى احترامهما طبيعياً احترام من يجب عليهما احترامه، وثبوت الحق

(١) نهج البلاغة ج:٣ ص:٣٨.

لمن له حق عليهما. بل ورد أن للجد للأب الولاية على الصبي، كالأب، بل هو مقدم عليه مع اختلافهما، على ما ذكر في الفقه.

ونتيجة لذلك أنه كلما تقدم السّن بالإنسان وتعاقب نسله ازداد احتراماً، تبعاً لازدياد من يحترمه ويوقّره من طبقات ذريته.

كما أنه نتيجة ذلك يزداد حبّاً لهم، وأنساً بهم. ولا يشعر بالوحشة والعزلة، بسبب تقدمه في السن، وضعفه عن الاختلاط بالناس والقيام بما يقتضيه من لوازم معاشرتهم. وفي ذلك عون له على شيخوخته.

مضافاً إلى ما يأتي من استحباب إكرام ذي الشيبة واحترامه عموماً، وما يترتب على ذلك من صلاح المجتمع.

استمرار حق الوالدين بعد موتهما

الثاني: أن برّ الوالدين لا يختص بما إذا كانا حيين، بل يبقى حتى بعد موتهما. ففي حديث محمد بن مروان: «قال أبو عبد الله عليه السلام: ما يمنع الرجل منكم أن يبرّ والديه حيين وميتين. يصلي عنهما، ويتصدق عنهما، ويحج عنهما، ويصوم عنهما. فيكون الذي صنع لهما، وله مثل ذلك. فيزيده الله عز وجل ببره وصلاته خيراً كثيراً»[1].

وفي حديث محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: إن العبد ليكون باراً بوالديه في حياتهما، ثم يموتان، فلا يقضي عنهما ديونهما، ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عاقاً. وإنه ليكون عاقاً لهما في حياتهما غير بارّ لهما، فإذا ماتا قضى

(١) الكافي ج:٢ ص:١٥٩ كتاب الإيمان والكفر: باب البر بالوالدين حديث:٧.

عنهما دينهما واستغفر لهما، فيكتبه الله باراً»[١]. ونحوهما في ذلك غيرهما. ويأتي في آخر الكلام في التحبب للناس ما ينفع في المقام.

تعميم حق الوالدين لأرحامهما وصديقهما

الثالث: ورد في جملة من النصوص تنزيل بعض أرحام الوالدين وأصدقائهما منزلتهما عند فقدهما. فعن لُبّ اللباب للراوندي: «أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا رسول الله هل بقي من البرّ بعد موت الأبوين شيء؟ قال: نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، والوفاء بعهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة رحمهما»[٢]. وعن الكراجكي: «عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده»[٣].

وعن إبراهيم بن عبد الحميد الصنعاني عن رجل عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام: «قالا: ينبغي للرجل أن يحفظ أصحاب أبيه، فإنه بِرّه بهم بِرّه بوالديه»[٤]. ونحوها غيرها.

وفي حديث أبي خديجة سالم بن مكرم عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله رجل فقال له : إني ولدت بنتاً وربّيتها حتى إذا بلغت فألبستها وحليتها، ثم جئت بها إلى قليب فدفعتها إلى جوفه، فكان آخر ما سمعت منها وهي تقول: يا أبتاه. فما كفارة ذلك؟ قال: ألك أم حية؟ قال:

---

(١) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:٢٢١ باب:١٠٦ من أبواب أحكام الأولاد حديث:٤. الكافي ج:٢ ص:١٦٣ كتاب الإيمان والكفر: باب البر بالوالدين حديث:٢١.

(٢) مستدرك الوسائل ج:١٥ ص:٢٠١ باب:٧٧ من أبواب أحكام الأولاد حديث:١١.

(٣) مستدرك الوسائل ج:١٥ ص:٢٠٤ باب:٧٧ من أبواب أحكام الأولاد حديث:٢٨.

(٤) اختيار معرفة الرجال ج:٢ ص:٧٠٥.

لا. قال: فلك خالة حية؟ قال: نعم، فقال: فأبررها، فإنها بمنزلة الأم، يكفِّر عنك ما صنعت. قال أبو خديجة: فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: متى كان هذا؟ فقال: كان في الجاهلية. وكانوا يقتلون البنات مخافة أن يُسبَين، فيلدن من قوم آخرين»[١].

وفي فقه الرضا: «وأروي: الأخ الكبير بمنزلة الأب»[٢]... إلى غير ذلك مما روي من طرق أهل البيت عليهم السلام وغيرهم.

وفي هذين الأمرين الأخيرين تأكيد وتوسع في الربط العاطفي والاجتماعي. وهما من أهمّ الأمور في الإسلام.

كما أن فيهما إشعاراً للإنسان بأنه لا ينتهي بالموت، بل له نحو من البقاء يقتضي ثبوت الحق له. وهو مما يحثه على الاستقامة، ليبقى له الذكر الحسن. وربما يأتي مزيد توضيح لذلك.

صلة الرحم

٢ـ صلة الأرحام وعدم قطيعتهم. قال الله عز وجل: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[٣] وقال تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**﴾[٤].

---

(١) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:٢١٥ باب:١٠٣ من أبواب أحكام الأولاد حديث:١. الكافي ج:٢ ص:١٦٢، ١٦٣ كتاب الإيمان والكفر: باب البر بالوالدين حديث:١٨.

(٢) فقه الرضا عليه السلام ص:٣٥٥. بحار الأنوار ج:٧١ ص:٢١.

(٣) سورة النساء الآية: ١.

(٤) سورة محمد الآية: ٢٢- ٢٣.

والنصوص بحرمة قطيعته كثيرة[١]، وفي بعضها أن قطيعة الرحم من الكبائر[٢]. وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تقطع رحمك وإن قطعتك»[٣]... إلى غير ذلك مما هو فوق حدّ الإحصاء.

الدواعي الدنيوية لصلة الرحم

ومن أروع ما ورد في الترغيب في إكرام العشيرة قول أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته المشار إليها آنفاً للإمام الحسن عليه السلام: «وأكرم عشيرتك، فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول»[٤]. فإن فيه من الشدّ العاطفي والتنبيه لتبادل المصالح ما يدعم الحثّ الشرعي، ويشجع على العمل عليه.

وكذا ما تضمن من النصوص الكثيرة أن قطيعة الرحم تبتر العمر ففي حديث أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام: «في كتاب علي عليه السلام: ثلاث خصال لا يموت صاحبهن أبداً حتى يرى وبالهن: البغي وقطيعة الرحم واليمين الكاذبة يبارز الله بها. وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم. وإن القوم ليكونون فجاراً فيتواصلون، فتنمى أموالهم ويثرون. وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها. وتنقل الرحم وإن

---

(١) راجع وسائل الشيعة ج:١٥ ص:٢٠٩ باب:٩٥ من أبواب أحكام الأولاد. وغيرها.

(٢) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢٥٣ باب:٤٦ من أبواب جهاد النفس حديث:٢.

(٣) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:٢١٠ باب:٩٥ من أبواب أحكام الأولاد حديث:٢٣.

(٤) نهج البلاغة ج:٣ ص:٥٧.

نقل الرحم انقطاع النسل»[١].

وفي حديث محمد بن عبيد الله: «قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: يكون الرجل يصل رحمه، فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين، فيصيرها الله ثلاثين سنة. ويفعل الله ما يشاء»[٢].

وفي حديث حذيفة بن منصور: «قال أبو عبد الله عليه السلام: اتقوا الحالقة، فإنها تميت الرجال. قلت: وما الحالقة؟ قال: قطيعة الرحم»[٣].

وفي حديث عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن القوم ليكونون فجرة ولا يكونون بررة، فيصلون أرحامهم، فتنمى أموالهم وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا أبراراً بررة؟!»[٤].

وفي حديث أبي حمزة الثمالي: «قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته: أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء. فقام إليه عبد الله بن الكواء اليشكري، فقال: يا أمير المؤمنين، أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟ قال: نعم ويلك قطيعة الرحم. إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله. وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً، فيحرمهم الله وهم أتقياء»[٥].

وقوله عليه السلام: «إن أهل البيت...» ليس شرحاً وبياناً لما قبله. بل هو

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣٤٧ كتاب الإيمان والكفر: باب قطيعة الرحم حديث:٤. وسائل الشيعة ج:١٥ ص:٢٠٩ باب:٩٥ من أبواب أحكام الأولاد حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٥٠ كتاب الإيمان والكفر: باب صلة الرحم حديث:٣.

(٣) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:٢١٠ باب:٩٥ من أبواب أحكام الأولاد حديث:٤.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١٥٥ كتاب الإيمان والكفر: باب صلة الرحم حديث:٢١.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٣٤٧-٣٤٨ كتاب الإيمان والكفر: باب قطيعة الرحم حديث:٧.

جملة مستأنفة لبيان أثر آخر لقطيعة الرحم غير تعجيل الفناء.

وفي حديث عثمان بن عيسى عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: «قلت له: إن إخوتي وبني عمي قد ضيّقوا عليّ الدار، وألجؤوني منها إلى بيت. ولو تكلمت أخذت ما في أيديهم. قال: فقال لي: اصبر، فإن الله سيجعل لك فرجاً. قال: فانصرفت، ووقع الوباء في سنة إحدى وثلاثين [ومائة]، فماتوا والله كلهم، فما بقي منهم أحد. قال: فخرجت، فلما دخلت عليه قال: ما حال أهل بيتك؟ قال: قلت: قد ماتوا والله كلهم، فما بقي منهم أحد. فقال: هو بما صنعوا بك، وبعقوقهم إياك وقطع رحمهم بتروا. أتحب أنهم بقوا وضيّقوا عليك؟ قال: قلت: إي والله»[1].

عموم حسن صلة الرحم لغير المؤمن

هذا وفي حديث الجهم بن حميد: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: تكون لي القرابة على غير أمري، ألهم عليّ حق؟ قال: نعم. حق الرحم لا يقطعه شيء. وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقان: حق الرحم، وحق الإسلام»[2].

وفي حديث أبي بصير: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يصرم ذوي قرابته ممن لا يعرف الحقّ. قال: لا ينبغي أن يصرمه»[3]. وهما صريحان في عموم حق الرحم لغير المؤمنين.

ويناسبه ما سبق من قريش عند الكلام في عمرة الحديبية من مناشدتهم النبي صلى الله عليه وآله بالله والرحم أن يدخل بلادهم بغير إذنهم، وعند

(١) الكافي ج:٢ ص:٣٤٦-٣٤٧ كتاب الإيمان والكفر: باب قطيعة الرحم حديث:٣.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٥٧ كتاب الإيمان والكفر: باب صلة الرحم حديث:٣٠.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٣٤٤ كتاب الإيمان والكفر: باب الهجرة حديث:٣.

الكلام في موقف ثمامة بن أثال منهم وقطعه الميرة عنهم من كتابتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله إن عهدنا بك أنك تأمر بصلة الرحم.

وعلى ذلك فعلى العاقل الرشيد أن يتجاوز الدواعي الكثيرة التي تدعو للتقاطع، نتيجة كثرة الاحتكاك، وشعور كل منهم أنه نظير للآخرين. وهما يحملان بطبيعتهما على التنافس والحسد القاتل.

حسن الجوار

٣ـ حسن الجوار. وقد أكّد على ذلك الإسلام القويم ونبيه العظيم صلى الله عليه وآله بنحو لافت، قال الله عز وجل: ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا**﴾[1].

وفي حديث طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام: «قرأت في كتاب علي عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه»[2].

وفي حديث عمرو بن عكرمة: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: لي جار يؤذيني، فقال: ارحمه... إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه رجل من الأنصار، فقال: إني اشتريت داراً في بني فلان، وإن أقرب جيراني مني جواراً من لا أرجو خيره ولا آمن شره، قال: فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وسلمان وأبا

(١) سورة النساء الآية: ٣٦.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٦٦٦ كتاب العشرة: باب حق الجوار حديث:٢.

ذر ـ ونسيت آخر، وأظنه المقداد ـ أن ينادوا في المسجد بأعلى أصواتهم بأنه لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه، فنادوا بها ثلاثاً. ثم أومأ بيده إلى كل أربعين داراً من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله»[١].

وفي حديث زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام: «جاءت فاطمة عليها السلام تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بعض أمرها، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله كريسة، وقال: تعلمي ما فيها. فإذا فيها: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»[٢]... إلى غير ذلك.

ويدل على شدّة تأكيد النبي صلى الله عليه وآله على حق الجار ما في حديث عبد الرحمن بن الحجاج عن وصية أمير المؤمنين عليه السلام عند وفاته التي بعثها له الإمام أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، وفيها: «الله الله في جيرانكم، فإن النبي صلى الله عليه وآله أوصى بهم. وما زال رسول الله صلى الله عليه وآله يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم»[٣].

الآثار الدنيوية لحسن الجوار

كما أن من وجوه الحثّ على حسن الجوار بيان آثاره وفوائده الدنيوية. ففي حديث معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: حسن الجوار يعمر الديار، وينسئ في الأعمار»[٤]. ونحوه غير واحد من

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٦٦ كتاب العشرة: باب حق الجوار حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٦٦٧ كتاب العشرة: باب حق الجوار حديث:٦.

(٣) الكافي ج:٧ ص:٥١ كتاب الوصايا: باب صدقات النبي صلى الله عليه وآله وفاطمة والأئمة عليهم السلام حديث:٧.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٦٦٧-٦٦٨ كتاب العشرة: باب حق الجوار حديث:١٠. وقوله عليه السلام: «وينسئ

النصوص.

وفي حديث إبراهيم بن أبي رجاء عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: حسن الجوار يزيد في الرزق»[١]. فهو في ذلك نظير ما تقدم في صلة الأرحام.

وفي حديث الحسن بن عبد الله عن عبد صالح عليه السلام: «قال: ليس حسن الجوار كفّ الأذى، ولكن حسن الجوار صبرك على الأذى»[٢].

حلّ مشكلة الجار من دون مكاشفة

ويظهر من بعضها النهي عن المكاشفة والردّ بالمثل، تجنباً لتضاعف المشاكل، وتعقّد الأمور، بل غاية الأمر إحراج الجار حتى يكفّ عن أذاه إن تيسر ذلك.

ففي حديث سدير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فشكا إليه أذى من جاره، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: اصبر. ثم أتاه ثانية، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: اصبر. ثم عاد إليه فشكاه ثالثة، فقال النبي صلى الله عليه وآله للرجل الذي شكا: إذا كان عند رواح الناس إلى الجمعة فأخرج متاعك إلى الطريق حتى يراه من يروح إلى الجمعة، فإذا سألوك فأخبرهم. قال: ففعل. فأتاه جاره المؤذي له، فقال له: ردّ متاعك. فلك الله علي أن لا أعود»[٣]. وهو يرجع إلى استعمال الحكمة والرفق في حلّ المشكلة، وتجنب العنف.

وقد تقدم عند الكلام في صلة الرحم أن ذلك مما يحفز على تجاوز

في الأعمار» يعني: يؤخرها ويطيل فيها.

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٦٦ كتاب العشرة: باب حق الجوار حديث:٣.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٦٦٧ كتاب العشرة: باب حق الجوار حديث:٩.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٦٦٨ كتاب العشرة: باب حق الجوار حديث:١٣.

المشاكل نتيجة الاحتكاك الذي يعقد الأمور، وكذلك الاطلاع على ما يمتاز به الجار من مال أو جاه أو نحوهما مما يحمل على التنافس والحسد.

حسن الصحبة والمعاشرة

٤ـ حسن الصحبة والمعاشرة مع عموم الناس، فضلاً عن المؤمنين فيما بينهم. وقد استفاضت بذلك النصوص.

ففي حديث أبي الربيع الشامي قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام والبيت غاصّ بأهله، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلس أبو عبد الله عليه السلام وكان متكئاً، ثم قال: يا شيعة آل محمد. اعلموا أنه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صَحِبه ومخالقة من خالقه ومرافقة من رافقه ومجاورة من جاوره ومماحلة من ماحله. يا شيعة آل محمد اتقوا الله ما استطعتم ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

وفي حديث إسحاق بن عمار: «قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: يا إسحاق صانع المنافق بلسانك وأخلص ودّك للمؤمن. وإن جالسك يهودي فأحسن مجالسته»[٢]. ونحوه حديث سعد بن طريف عن أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام[٣].

وفي حديث محمد بن مسلم: «قال أبو جعفر عليه السلام: من خالطت فإن

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٣٧ كتاب العشرة: باب حسن المعاشرة حديث:٢.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق ص:٧٢٧ المجلس:٩١ حديث:٨.

(٣) أمالي الشيخ المفيد ص:١٨٥ المجلس:٢٣ حديث:١٠.

استطعت أن تكون يدك العليا عليهم فافعل»[١]. وفي حديث سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: مجاملة الناس ثلث العقل»[٢].

وفي حديث السكوني عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه»[٣].

ويلفت النظر جداً ما في حديث المفضل بن عمر: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي: من صحبك؟ فقلت له: رجل من إخواني. قال: فما فعل؟ فقلت: منذ دخلت لم أعرف مكانه. فقال لي: أما علمت أن من صحب مؤمناً أربعين خطوة سأله الله عنه يوم القيامة»[٤].

بعض النكات في تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وسيرته

وفي حديث مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام: «أن أمير المؤمنين عليه السلام صاحب رجلاً ذمياً، فقال له الذمي: أين تريد يا عبد الله؟ فقال: أريد الكوفة، فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه أمير المؤمنين عليه السلام. فقال له الذمي: ألست زعمت أنك تريد الكوفة؟ فقال له: بلى. فقال له الذمي: فقد تركت الطريق. فقال له: قد علمت. قال: فلِمَ عدلت معي وقد علمت ذلك؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: هذا من تمام حسن الصحبة،

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٣٧ كتاب العشرة: باب حسن المعاشرة حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٦٤٣ كتاب العشرة: باب التحبب إلى الناس والتودد إليهم حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٦٦٩ كتاب العشرة: باب حسن الصحبة وحق الصاحب في السفر حديث:٣.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي ص:٤١٣ المجلس:١٤ حديث:٧٥. وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٠٣-٤٠٤ باب:٢ من أبواب أحكام العشرة حديث:٨.

أن يشيع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه. وكذلك أمرنا نبينا صلى الله عليه وآله. فقال له الذمي: هكذا قال؟ قال: نعم. قال الذمي: لا جرم إنما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة. فأنا أشهد أني على دينك، ورجع الذمي مع أمير المؤمنين عليه السلام، فلما عرفه أسلم»[١].

وفي حديث جميل بن دراج عنه عليه السلام: «قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقسم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية. قال: ولم يبسط رسول الله صلى الله عليه وآله رجليه بين أصحابه قطّ. وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله صلى الله عليه وآله يده من يده حتى يكون هو التارك. فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه قال بيده فنزعها من يده»[٢]... إلى غير ذلك مما يضيق المقام عن استيعابه. وقد تضمنت كثيراً منه كتب الحديث وسيرة النبي والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين).

التحبب للناس

٥ـ التحبب للناس. ففي حديث أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: إن أعرابياً من بني تميم أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: أوصني. فكان مما أوصاه: تحبب إلى الناس يحبوك»[٣].

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: التودد إلى الناس نصف العقل»[٤]. ومثله حديث موسى بن بكر عن أبي

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٧٠ كتاب العشرة: باب حسن المعاشرة حديث:٥.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٦٧١ كتاب العشرة: باب النوادر حديث:١.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٦٤٢ كتاب العشرة: باب التحبب إلى الناس والتودد إليهم حديث:١.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٦٤٣ كتاب العشرة: باب التحبب إلى الناس والتودد إليهم حديث:٤.

الحسن عليه السلام[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «قلة العيال أحد اليسارين. والتودد نصف العقل»[٢].

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث من لم يكنّ فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يرد به جهل الجاهل»[٣].

وعن الحسن بن الحسين: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البِشْر»[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «خالطوا الناس مخالطة إن متّم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنوا إليكم»[٥].

وفي حديث عبد العظيم الحسني: «قلت لأبي جعفر محمد بن علي الرضا عليه السلام: حدثني بحديث عن آبائك عليهم السلام. قال: ... حدثني أبي عن جدي عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بطلاقة الوجه وحسن اللقاء، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٤٣ كتاب العشرة: باب التحبب إلى الناس والتودد إليهم حديث:٥.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:٣٤.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١١٦ كتاب الإيمان والكفر: باب المداراة حديث:١. وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٠٤ باب:٢ من أبواب أحكام العشرة حديث:٩.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١٠٣ كتاب الإيمان والكفر: باب حسن البشر حديث:١.

(٥) نهج البلاغة ج:٤ ص:٤.

يقول: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم...»[١]... إلى غير ذلك من النصوص.

ومنها ما ورد في ثواب حسن الخلق الذي به يكون التحبب للناس. ففي حديث ذريح عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم»[٢].

وفي حديث السكوني عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[٣].

وفي حديث حبيب الخثعمي عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وتوطأ رحالهم»[٤]. وقريب منها غيرها، وهو كثير.

ويجري هذا المجرى ما في حديث أحمد بن عمر الحلبي: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أي الخصال بالمرء أجمل؟ قال عليه السلام: وقار بلا مهابة. وسماح بلا طلب مكافأة، وتشاغل بغير متاع الدنيا»[٥].

فإن التبذل وترك الوقار يسقط احترام الإنسان، فلا يُنتفع به. كما أن الهيبة تصدّ عن الاختلاط به، والانسجام معه، ليتحبب لهم، فضلاً عن أن ينتفعوا به ويستفيدوا بما يحمله من ثقافة وخُلق.

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص:٥٣١ المجلس: ٦٨ حديث:٩.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٠٠ كتاب الإيمان والكفر: باب حسن الخلق حديث:٥.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٠٠ كتاب الإيمان والكفر: باب حسن الخلق حديث:٦.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١٠٢ كتاب الإيمان والكفر: باب حسن الخلق حديث:١٦.

(٥) أمالي الشيخ الصدوق ص:٣٦٤ المجلس:٤٨ حديث:٨.

إفشاء السلام

ويلحق بذلك النصوص الكثيرة المتضمنة للحثّ على البدء بالسلام. كحديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام»[1]، ونحوه في ذلك غير واحد من النصوص.

وكذا ما تضمن استحباب إفشاء السلام وإطابة الكلام، كحديث ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال: «كان علي عليه السلام يقول: لا تَغضَبوا ولا تُغضِبوا. أفشوا السلام، وأطيبوا الكلام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. ثم تلا عليهم قول الله عز وجل: ﴿**السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ**﴾»[2]. ونحوه في ذلك غيره.

ومثله ما تضمن استحباب التسليم على الصبيان، وأن النبي صلى الله عليه وآله كان يلتزم بذاك، ليكون سنّة من بعده. ففي حديث العباس بن هلال عن علي بن موسى الرضا عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خمس لا أدعهن حتى الممات: الأكل على الحضيض مع العبيد، وركوبي على الحمار موكفاً، وحلبي العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان، لتكون سنة من بعدي»[3]. ونحوه غيره.

وفي هذا إشعار للصبي بالاحترام والكرامة. وذلك يرفع معنوياته

---

(١) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٣٦ باب:٣٢ من أبواب أحكام العشرة حديث:٣.

(٢) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٣٨ باب:٣٤ من أبواب أحكام العشرة حديث:٣. الكافي ج:٢ ص:٦٤٥ كتاب الإيمان والكفر: باب التسليم حديث:٧.

(٣) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٤١ باب:٣٥ من أبواب أحكام العشرة حديث:١.

ويحمله على ضبط النفس وتحمّل المسؤولية، وعلى احترام الآخرين.

بعض الأعراف الاجتماعية

وكذا ما تضمن بعض الأعراف الاجتماعية وهي كثيرة. نذكر منها:

١ـ الوليمة في بعض المناسبات. ففي حديث موسى بن بكر عن أبي الحسن عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا وليمة إلا في خمس: في عرس أو خرس أو عذار أو وكار أو ركاز. فالعرس التزويج. والخرس النفاس بالولد. والعذار الختان. والوكار الرجل يشتري الدار. والركاز الرجل يقدم من مكة»(١).

٢ـ التهنئة بالمولود. ففي حديث رزام: «قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: ولد لي غلام. فقال: رزقك الله شكر الواهب، وبارك لك في الموهوب، وبلغ أشدّه، ورزقك الله برّه»(٢).

٣ـ التعزية بالميت. ففي حديث السكوني عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عزّى حزيناً كسي في الموقف حلة يحبر بها»(٣). والنصوص في كيفية التعزية والحث عليها كثيرة.

٤ـ استحباب اتخاذ الطعام لأهل الميت. ففي حديث حفص بن البختري وهشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: لما قتل جعفر بن أبي طالب أمر رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام أن تتخذ طعاماً لأسماء بنت عميس

---

(١) وسائل الشيعة ج:١٤ ص:٦٥ باب:٤٠ من أبواب مقدمات النكاح وآدابه حديث:٥.

(٢) وسائل الشيعة ج:١٥ ص:١٢٠ باب:٢٠ من أبواب أحكام الأولاد حديث:١.

(٣) وسائل الشيعة ج:٢ ص:٨٧١ باب:٤٦ من أبواب الدفن حديث:١.

ثلاثة أيام، وتأتيها ونساءها وتقيم عندها ثلاثة أيام. فجرت بذلك السنّة أن يصنع لأهل المصيبة طعاماً ثلاثاً»[١].

٥ـ قضاء حقوق الناس بعضهم مع بعض في ذلك حتى النساء. ففي حديث أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: مات [وليد بن] الوليد بن المغيرة، فقالت أم سلمة للنبي صلى الله عليه وآله: إن آل المغيرة قد أقاموا مناحة، فأذهب إليهم؟ فأذن لها، فلبست ثيابها... فندبت ابن عمها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت:

أنعى الوليد بن الوليد أبا الوليد فتى العشيرة
حامي الحقيقة ماجد يسمو إلى طلب الوتيرة
قد كان غيثاً في السنين وجعفراً غدقاً وميرة

فما عاب ذلك عليها النبي صلى الله عليه وآله ولا قال شيئاً»[٢].

وفي حديث عبد الله الكاهلي: «قلت لأبي الحسن عليه السلام: إن امرأتي وامرأة ابن مارد تخرجان في المآتم، فأنهاهما، فتقول لي امرأتي: إن كان حراماً فانهنا عنه حتى نتركه. وإن لم يكن حراماً فلأي شيء تمنعناه؟! فإذا مات لنا ميت لم يجئنا أحد. قال: فقال أبو الحسن عليه السلام: عن الحقوق تسألني. كان أبي يبعث أمي وأم فروة تقضيان حقوق أهل المدينة»[٣]... إلى غير ذلك.

فإن ذلك كله ونحوه يوجب:

---

(١) وسائل الشيعة ج:٢ ص:٨٨٨ باب:٦٧ من أبواب الدفن حديث:١.

(٢) الكافي ج:٥ ص:١١٧ كتاب المعيشة: باب كسب النائحة حديث:٢. تهذيب الأحكام ج:٦ ص:٣٥٨.

(٣) وسائل الشيعة ج:٢ ص:٨٩٠ باب:٦٩ من أبواب الدفن حديث:١.

أولاً: شعور الفرد بالكرامة، لمواساة الناس له، حيث ينظرون بعين الاعتبار لسروره، فيباركون له، ويفرحون لفرحه. وكذا الحال في مصيبته، فيواسونه ويخففون عنه.

وثانياً: ربط المجتمع بعضه ببعض، واستحكام العلاقة بين أفراده. حيث يشعر كل منهم بثبوت حق الآخرين عليه، وأن عليه أن يتفقد مناسباتهم ليؤدي حقوقهم، ويجزي الإحسان بالإحسان.

كما أنه يستفاد مما تقدم وغيره جواز إقامة النياحة والمأتم للميت. وقد تقدم أن في ذلك إشعار للإنسان باحترامه حتى بعد موته، فليس هو عالة على المجتمع يتخلص منه، بل هو فقيد عزيز يبكى عليه.

النهي عن قول الهجر وعن الجزع

غاية الأمر أنه ورد النهي عن قول الهجر والكذب بمدحه بما ليس فيه. ولعله عليه يحمل ما تضمن النهي عن النياحة وأنه من عمل الجاهلية، ومنه ما تقدم في المبحث الثاني في بعض خطب النبي صلى الله عليه وآله.

وكذا ورد النهي عن الجزع المنافي للرضا بما قسم الله. ففي حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال في حديث: «من صبر واسترجع وحمد الله عز وجل فقد رضي بما صنع الله، ووقع أجره على الله. ومن لم يفعل ذلك فقد جرى عليه القضاء وهو ذميم، وأحبط الله أجره»[1]. وهو أمر آخر.

احترام الإنسان بعد موته

كما أنه من المعلوم احترام جسد الإنسان بعد موته بتجهيزه والصلاة

(١) وسائل الشيعة ج:٢ ص:٨٩٧ باب:٧٣ من أبواب الدفن حديث:٧.

عليه وتشييعه. كما يحرم التعدي عليه. وتثبت له الدية بذلك، تنفق في فعل الخير عنه، ليصله ثواب ذلك. على تفاصيل تذكر في الفقه.

وكل ذلك يدل على عدم انتهاء حرمته بانتهاء حياته. ومثله ما تقدم عند الكلام في برّ الوالدين من أن من تمام برّهما برَّهما بعد موتهما.

كما أن في ذلك تذكيراً بالحياة الآخرة، وتركيزاً لها في ذاكرة الإنسان، بحيث تأخذ موقعها المناسب لأهميتها في نفسه. وتكون سبباً لتجَليّ تفاهة الحياة الدنيا في النفس، وأن الإنسان فيها عابر سبيل للآخرة. ويحمله ذلك كله على الانضباط، والارتداع عن الاندفاعات العاطفية من شهوة وغضب وحسد واستكبار وغيرها. ويحمله على التحلي بمكارم الأخلاق مما ينفع الإنسان في دنياه وآخرته. والحديث في ذلك طويل نكتفي منه بما سبق.

إجلال كبير السن

٦ـ الحث على إجلال ذي الشيبة واحترامه وتوقيره. ففي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عرف فضل كبير لسنّه فوقّره آمنه الله من فزع يوم القيامة»[١].

وفي حديث ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم»[٢]. ونحوه غير واحد من النصوص عنه صلى الله عليه وآله وعن أبي عبد الله عليه السلام.

وزاد في بعضها عن أبي عبد الله عليه السلام: «ومن أكرم مؤمناً فبكرامة الله

---

(١) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٦٧ باب:٦٧ من أبواب أحكام العشرة حديث:٩.

(٢) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٦٧ باب:٦٧ من أبواب أحكام العشرة حديث:٨.

بدأ. ومن استخف بمؤمن ذي شيبة أرسل الله إليه من يستخف به قبل موته»[١].

وفي حديث محمد بن علي بن الحنفية: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقّر كبيرنا، ويعرف حقنا»[٢].

وفي مرفوع أحمد بن محمد: «قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ليس منا من لم يوقّر كبيرنا ويرحم صغيرنا»[٣].

وفي حديث أبي الخطاب عنه عليه السلام: «قال: ثلاثة لا يجهل حقهم إلا منافق معروف النفاق: ذو الشيبة في الإسلام، وحامل القرآن، والإمام العادل»[٤].

وفي حديث الجعفريات بسنده عن علي عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: إني لأستحيي من عبدي وأَمَتي، يشيبان في الإسلام ثم أعذبهما»[٥]. وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الشيخ في أهله كالنبي في أمته»[٦] إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة.

أهمية هذا الخُلق

وهذا الخلق ـ مع سموّه ورفعته في نفسه ـ يرفع معنويات الإنسان

---

(١) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٦٧ باب:٦٧ من أبواب أحكام العشرة حديث:٤.

(٢) أمالي الشيخ المفيد ص:١٨ المجلس:٢ حديث:٦.

(٣) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٦٧ باب٦٧ من أبواب أحكام العشرة حديث:٣.

(٤) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٦٧ باب:٦٧ من أبواب أحكام العشرة حديث:٥.

(٥) الجعفريات ص:١٩٧. إرشاد القلوب ج:١ ص:٤١.

(٦) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ص:٢٩٥ الفصل السابع عشر. معجم الشيوخ ج:٢ ص:٧٠٣.

ويشعره باحترامه كإنسان مسلم. وكلما طال عمره كان أولى بالاحترام، لأنه قطع مدة أطول في الإسلام. وليس احترامه لأنه مُنتِج، لينتهي احترامه بتوقف إنتاجه، كالجهاز العاطل، ويبقى عالة على المجتمع ينتظر التخلص منه ساعة بعد ساعة.

وذلك مما يشدّ ارتباطه العاطفي بالمجتمع، ويشجعه على خدمته ما استطاع، لأنه يتوقع شكر المجتمع له، وعدم تجاهله لسابق خدمته.

كما يشجعه على الاستقامة في شبابه وشيبته، احتراماً لنفسه، ويمنعه من التحلل والتسافل في سلوكه، لأن ذلك يوجب استهوان الناس له، ويمنع من إجلاله وتوقيره.

ويشجعه أيضاً على الاستفادة من الأحداث التي تمرّ به في حياته، ونصائح الماضين وتجاربهم، وأخذ العِبَر والدروس منها، ليستفيد ويفيد من يستمع له ويحاول الاستفادة منه في مستقبل عمره.

وبالمناسبة فقد استفدنا كثيراً من الشيوخ في سيرتهم وسلوكهم وإرشاداتهم وتجاربهم وقصصهم ومقروءاتهم. وكان لذلك أعظم الأثر في اتجاهنا وسلوكنا في الحياة. تغمدهم الله برحمته ورضوانه، وجزاهم عنا خير الجزاء.

الاستفادة من تجارب الشيوخ ومعاشرتهم

مضافاً إلى أمر له أهميته. وهو أنه كلما تقدم العمر بالإنسان ازدادت ثقافته وتجاربه، ونضج عقله نتيجة ذلك، وأمكن الاستفادة منه في تقييم الأحداث الطارئة والدعوات المستجدة، وتمييز الحقّ من الباطل فيها.

ويكون حاجزاً عن الاندفاع وراء التنظيرات البراقة والوعود المغرية، التي يستغلها ذوو الأطماع أو الأوهام من أجل كسب الشباب، الذين هم القوة الفاعلة في المجتمع، والأسرع اندفاعاً من دون تدبّر وتبصّر بعواقب الأمور.

فالشيخ الكبير وإن كان أضعف إنتاجاً مادياً في المجتمع، إلا أنه الأقدر على توجيهه ـ إذا كان هو صالحاً ـ نحو الأصلح والأنفع على الأمد البعيد، وتعديل مسيرته والحفاظ على استقامته. وإلى ذلك يشير أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «رأي الشيخ أحبّ إليّ من جَلد [مشهد] الغلام»[1].

وعلى ذلك فالشيوخ ليسوا عالة على المجتمع، ينتظر التخلص منهم بموتهم، كما قد يتوهم، وهو الذي حصل في كثير من المجتمعات في هذه العصور. وإنما هم ـ إذا صلحوا ـ صمام أمان للمجتمع من التدهور والاندفاع غير المدروس.

مع أنهم يكونون بسبب احترامهم موئلاً للعائلة المتكاثرة بالأحفاد والأسباط والأصهار، في جمع شملها، وحلّ مشاكلها، وتخفيف أزماتها، واندفاعها فيما يطرأ عليها من أسباب الخوف والهلع والجزع والفرح والأشر والبطر... إلى غير ذلك، نتيجة التجارب التي مرّت بهم والثقافة العامة التي يحملونها خلفاً عن سلف، وشدّة عاطفتهم على أفراد العائلة، خصوصاً الناشئة منهم.

بل ربما استفاد به في ذلك غير العائلة ممن له علاقة بالرجل أو المرأة الكبيرين اللذين يعرف ذلك عنهما. وعرف ذلك عن الكثير ممن

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٩.

عاصرناهم، أو حكي لنا عنهم.

ومن المعلوم أنه لا يحصل شيء من ذلك إلا مع القيام بحقهم من الإجلال والاحترام الذي تقدم حثّ الشارع الأقدس عليه.

هذا وقد تقدم في وصية النبي صلى الله عليه وآله لجيوشه أن لا يقتلوا الشيخ الفاني. كما ذكر الفقهاء ـ تبعاً للنصوص ـ عدم أخذ الجزية من الشيخ الفاني غير المسلم، بل يرزق من بيت المال. وهذا متمحض في مراعاة الحوافز الإنسانية للرأفة بالضعيف. وهو أمر آخر غير الإجلال والتوقير الذي هو محل الكلام. نعم هو كاشف عن مثالية الدين، وأخذه بعين الاعتبار الحوافز الإنسانية المبتنية على الرأفة بالضعيف، والعون له، والاهتمام به.

احترام علاقة الإيمان

٧ـ احترام علاقة الإيمان بين المؤمنين. فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، وهم أخوة، وأولياء في الله، والله وليّهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً... إلى غير ذلك مما تضمنته الآيات الكريمة والنصوص الشريفة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من آله عليهم السلام.

وهي علقة تزيد على حسن المخالطة والمعاشرة بقدسيتها، لارتباطها بالولاية لله عز وجل. فهي تستلزم المودة والمحبة بين المؤمنين، واهتمام بعضهم ببعض، ومسؤوليته عنه.

وعليها تبتني وحدتهم كأمة تدعو إلى الحق، مهما اختلفت قومياتهم وأوطانهم ولغاتهم وألوانهم ومواقعهم المالية والاجتماعية، إلغاءً لجميع هذه الفوارق وغيرها. واعتبار التركيز عليها عصبية جاهلية ممقوتة ومرفوضة دينياً. ووضوح ذلك يغني عن إطالة الكلام فيه.

التزاور بين المؤمنين

وتأكيداً لهذه العلاقة قد ورد الأمر بالتزاور بين المؤمنين وتفقد بعضهم لبعض. والنصوص في ذلك أكثر من أن تحصى. وقد ذكرها أصحابنا في مواضع كثيرة من كتب الحديث، منها أبواب العشرة من كتاب الحج من كتاب وسائل الشيعة.

ونبدأ بذكر نموذج منها لا يخلو من طرافة. ففي حديث أبي خديجة، وهو من أهل الكوفة: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: كم بينك وبين البصرة؟ فقلت: في الماء خمس إذا طابت الريح، وعلى الظهر ثمان ونحو ذلك.

فقال: ما أقرب هذا. تزاوروا، ويتعاهد بعضكم بعضاً. فإنه لابدّ يوم القيامة من أن يأتي كل إنسان بشاهد يشهد على دينه. وقال: إن المسلم إذا رأى أخاه كان حياة لدينه إذا ذكر الله عز وجل»[1].

فإذا كان التزاور مع هذه المسافة البعيدة والشاقة ـ خصوصاً في تلك العصور ـ مطلوباً فكيف يكون مع قربها وسهولتها؟!.

وفي حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من زار أخاه في بيته قال الله عز وجل له: أنت ضيفي وزائري. عليّ قِراك. وقد أوجبت لك الجنة بحبك إياه»[2].

وفي حديث صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: أيما ثلاثة مؤمنين اجتمعوا عند أخ لهم يأمنون بوائقه، ولا يخافون غوائله، ويرجون ما عنده، إن دعوا الله أجابهم، وإن سألوه أعطاهم، وإن استزادوا زادهم،

---

(١) الكافي ج:٨ ص:٣١٥-٣١٦ حديث:٤٩٦.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٧٦-١٧٧ كتاب الإيمان والكفر: باب زيارة الإخوان حديث:٦.

وإن سكتوا ابتدأهم»[١].

وفي حديث خيثمة: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام أودّعه. فقال: يا خيثمة أبلغ من ترى من موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأن يعود غنيهم على فقيرهم، وقويّهم على ضعيفهم، وأن يشهد حيهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم، فإن لقيا بعضهم بعضاً حياة لأمرنا. رحم الله عبداً أحيا أمرنا. يا خيثمة أبلغ موالينا أنا لا نغني عنهم من الله شيئاً إلا بعمل، وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلا بالورع. وأن أشدّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره»[٢]. ونحوها غيرها، وهو كثير جداً.

حق الزائر والمجالس

كما تضمنت بعض النصوص بيان حق الزائر على المزور. ففي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن من حقّ الداخل على أهل البيت أن يمشوا معه هنيئة إذا دخل وإذا خرج. وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دخل أحدكم على أخيه المسلم في بيته فهو أمير عليه حتى يخرج»[٣].

وفي حديث عبد الله القداح عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: دخل رجلان على أمير المؤمنين عليه السلام، فألقى لكل واحد منهما وسادة، فقعد عليها أحدهما، وأبى الآخر. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: اقعد عليها، فإنه لا يأبى الكرامة إلا

(١) الكافي ج:٢ ص:١٧٨ كتاب الإيمان والكفر: باب زيارة الإخوان حديث:١٤.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٧٦ كتاب الإيمان والكفر: باب زيارة الإخوان حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٦٥٩ كتاب العشرة: باب حق الداخل حديث:١.

حمار. ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[١].

وفي حديث عبد الله العلوي عن أبيه عن جدّه قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: لما قدم عدي بن حاتم إلى النبي صلى الله عليه وآله أدخله النبي صلى الله عليه وآله بيته، ولم يكن في البيت غير خصفة ووسادة من أدم، فطرحها رسول الله صلى الله عليه وآله لعدي بن حاتم»[٢].

ويأتي في الحديث عن التواضع أن عدياً لم يكن قد أسلم بعد، وإنما كان كريماً في قومه. فكيف يكون الحال بمن هو كريم بكرامة الإيمان؟.

ويلحق بذلك أمور:

الأول: ما ورد في المناجاة. ففي حديث أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إذا كان القوم ثلاثة فلا يتناجى اثنان منهم دون صاحبهما، فإن في ذلك ما [مما] يحزنه ويؤذيه»[٣]. ونحوه غيره.

الثاني: ما ورد في كتمان سرّ الجليس. ففي حديث زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: المجالس بالأمانة»[٤]. ونحوه غيره.

وفي حديث عثمان بن عيسى عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: المجالس بالأمانة. وليس لأحد أن يحدث بحديث يكتمه صاحبه إلا بإذنه، إلا أن يكون ثقة، أو ذكراً له بخير»[٥].

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٥٩ كتاب العشرة: باب إكرام الكريم حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٦٥٩ كتاب العشرة: باب إكرام الكريم حديث:٣.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٦٦٠ كتاب العشرة: باب في المناجاة حديث:١.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٦٦٠ كتاب العشرة: باب المجالس بالأمانة حديث:٢.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٦٦٠ كتاب العشرة: باب المجالس بالأمانة حديث:٣.

الثالث: ما ورد في التكاتب. ففي حديث ابن محبوب عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: «التواصل بين الإخوان في الحضر التزاور، وفي السفر التكاتب»[١].

وفي حديث عبد الله بن سنان عنه عليه السلام: «قال: ردّ جواب الكتاب واجب كوجوب ردّ السلام. والبادئ بالسلام أولى بالله ورسوله»[٢].

والظاهر أنه يجزي عن التكاتب في عصورنا التواصل بالهاتف وبوسائل التواصل الاجتماعي الشائعة. حيث يظهر اهتمام الإسلام بالتواصل بين الإخوان بما تيسر. وخيرها التزاور.

عقد المجالس

ومن شؤون التزاور ولواحقه عقد المجالس في المناسبات، خصوصاً الدينية منها. فإنها مدارس تثقيفية. وما أكثر ما انتفعنا بها في مسيرتنا العلمية والاجتماعية.

فينبغي للمؤمنين الاهتمام بعقدها حفاظاً على التواصل بينهم. وتبادل الآراء والمعلومات، ومحاولة التذكير بالمبادئ السامية، والتثقيف بالثقافة السليمة، والاستفادة من التجارب الماضية. وكلّ ذلك له الأثر في تكامل شخصية الإنسان ونضوجه واستقامته. وفي قوة دعوة الحق وفاعليتها وحيويتها وخلودها.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٧٠ كتاب العشرة: باب التكاتب حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٦٧٠ كتاب العشرة: باب التكاتب حديث:٢.

تميز الصديق وأهميته في الرعاية

هذا ويبدو من بعض النصوص تميز الصديق في الموالاة والحقوق، لأهميته. ففي حديث الحسن بن صالح: «سمعت جعفر بن محمد عليهما السلام يقول: لقد عظمت منزلة الصديق، حتى إن أهل النار يستغيثون به ويدعونه قبل القريب الحميم. قال الله تعالى مخبراً: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾»[1].

وفي حديث أبي العباس الفضل بن عبد الملك عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام قال ـ في حديث طويل ـ : «يا فضل، لا تزهدوا في فقراء شيعتنا، فإن الفقير منهم ليشفع يوم القيامة في مثل ربيعة ومضر. ثم قال: يا فضل إنما سمي المؤمن مؤمناً، لأنه يؤمن على الله فيجيز الله أمانه. ثم قال: أما سمعت الله تعالى يقول في أعدائكم إذا رأوا شفاعة المؤمن منكم لصديقه يوم القيامة: ﴿**فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾»[2].

وفي حديث عبيد الله الحلبي عنه عليه السلام قال: «قال: لا تكون الصداقة إلا بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء منها فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة. فأولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة. والثانية: أن يرى زينك زينه، وشينك شينه. والثالثة: أن لا يغيره عليك ولاية ولا مال. والرابعة: أن لا يمنعك شيئاً تناله مقدرته. والخامسة ـ وهي تجمع هذه الخصال ـ : أن لا يسلمك عند النكبات»[3].

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص:٦٠٩-٦١٠ المجلس: ٢٨ حديث:٧.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص:٤٧ المجلس:٢ حديث:٢٦.

(٣) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤١٣-٤١٤ باب:١٣ من أبواب أحكام العشرة حديث:١. الكافي ج:٢ ص:٦٣٩ كتاب العشرة: باب من يجب مصادقته ومصاحبته حديث:٦.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته»[١]... إلى غير ذلك.

إرشادات في الصداقة

وقد ورد في نصوص كثيرة إرشادات لاختيار الصديق، وكيفية التعامل معه، منها ما تقدم. وفي حديث أبي العديس عن صالح: «قال أبو جعفر عليه السلام: اتبع من يبكيك وهو لك ناصح، ولا تتبع من يضحكك وهو لك غاش. وستردون على الله جميعاً فتعلمون»[٢].

وفي حديث أبي الزعلى: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: انظروا من تحادثون، فإنه ليس من أحد ينزل به الموت إلا مثل له أصحابه إلى [في] الله، إن كانوا خياراً فخياراً، وإن كانوا شراراً فشراراً. وليس من أحد يموت إلا تمثلتُ له عند موته»[٣].

وفي حديث عبد الله بن مسكان عن رجل من أهل الجبل لم يسمه قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: عليك بالتلاد[٤]. وإياك وكل محدث لا عهد له ولا أمان ولا ذمة ولا ميثاق. وكن على حذر من أوثق الناس عندك»[٥].

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:٣٣.

(٢) المحاسن ج:٢ ص:٦٠٣-٦٠٤ كتاب المنافع: باب قبول النصح حديث:٣٢. الكافي ج:٢ ص:٦٣٨ كتاب العشرة: باب من يجب مصادقته ومصاحبته حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٦٣٨ كتاب العشرة: باب من يجب مصادقته ومصاحبته حديث:٣.

(٤) التلاد: المال القديم. والمراد بذلك الكناية عن أنه ينبغي فيمن يصاحب أن يصاحب أصيلاً عريقاً في الخير والشرف.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٦٣٨-٦٣٩ كتاب العشرة: باب من يجب مصادقته ومصاحبته حديث:٤.

وفي حديث عبد الله بن سنان: «قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لا تثق بأخيك كل الثقة، فإن صرعة الاسترسال لن تستقال»[١].

وعنه عليه السلام أنه قال: «لا يطلع صديقك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق ربما كان عدواً»[٢].

وفي حديث سماعة: «سمعت أبا الحسن موسى عليه السلام يقول: لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك. ابق منها، فإن ذهابها ذهاب الحياء»[٣].

ولا يسعنا استيعاب ما ورد في المقام من جهات الإرشاد والتوجيه.

لا يعتبر في الولاية الإيمانية الاستقامة في العمل

هذا والذي يظهر من النصوص المختلفة أن ولاية الإيمان لا تتوقف على الاستقامة في العمل. بل معيارها الإسلام وولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام.

وهو مقتضى إطلاق نصوص الموالاة، وجعل الموضوع في بعضها وصف هذا الأمر، وفي بعضها محبّنا، وفي بعضها من تعلق بحبلنا... إلى غير ذلك. بل صرح بالعموم في جملة من النصوص.

منها ما رواه الشيخ الطوسي بسنده عن زيد بن يونس الشحام قال: «قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: الرجل من مواليكم عاق، يشرب الخمر، ويرتكب الموبق من الذنب، نتبرأ منه؟ فقال: تبرأوا من فعله، ولا تتبرأوا

(١) الكافي ج:٢ ص:٦٧٢ باب النوادر من كتاب العشرة حديث:٦.

(٢) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٥٠٢ باب:١٠٢ من أبواب أحكام العشرة حديث:٦.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٦٧٢ باب النوادر من كتاب العشرة حديث:٥.

من خيره، وأبغضوا عمله. فقلت: يسع لنا أن نقول: فاسق فاجر؟ فقال: لا. الفاسق الفاجر الكافر الجاحد لنا ولأوليائنا. أبى الله أن يكون ولينا فاسقاً فاجراً وإن عمل ما عمل. ولكنكم قولوا: فاسق العمل فاجر العمل، مؤمن النفس، خبيث الفعل طيب الروح والبدن.

لا والله لا يخرج ولينا من الدنيا إلا والله ورسوله ونحن عنه راضون، يحشره الله على ما فيه من الذنوب مبيضاً وجهه، مستورة عورته، آمنة روعته، لا خوف عليه ولا حزن.

وذلك أنه لا يخرج من الدنيا حتى يصفى من الذنوب، إما بمصيبة في مال أو نفس أو ولد أو مرض. وأدنى ما يصنع بولينا أن يريه الله رؤيا مهولة، فيصبح حزيناً لما رآه، فيكون ذلك كفارة له، أو خوف يرد عليه من أهل دولة الباطل، أو يشدّد عليه عند الموت. فيلقى الله عز وجل طاهراً من الذنوب آمنة روعته بمحمد وأمير المؤمنين صلى الله عليهما [وآلهما].

ثم يكون أمامه أحد أمرين: رحمة الله الواسعة التي هي أوسع من أهل الأرض جميعاً، أو شفاعة محمد وأمير المؤمنين عليهما السلام، [إن أخطأته رحمة الله أدركته شفاعة نبيه وأمير المؤمنين عليهما السلام]. فعندها تصيبه رحمة الله الواسعة، التي كان أحق بها وأهلها، وله إحسانها وفضلها»[1].

وما عن محمد بن زياد ومحمد بن سيار عن الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليهما السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه ذات يوم: يا عبد الله أحبب في الله وأبغض في الله، ووال في الله وعاد في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان ـ وإن كثرت

(١) بحار الأنوار ج:٢٧ ص:١٣٧-١٣٨.

صلاته وصيامه ـ حتى يكون كذلك... فقال له: وكيف لي أن أعلم أني قد واليت وعاديت في الله عز وجل. ومن وليّ الله حتى أواليه؟ ومن عدوّه حتى أعاديه؟ فأشار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى علي عليه السلام فقال: أترى هذا؟ فقال: بلى. قال: وليّ هذا وليّ الله فواله، وعدوّ هذا عدوّ الله فعاده. ووال وليّ هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعاد عدوّ هذا ولو أنه أبوك وولدك»[1].

وما عن يعقوب بن ميثم التمار مولى علي بن الحسين عليه السلام قال: «دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقلت له: جعلت فداك يا ابن رسول الله. إني وجدت في كتب أبي أن علياً عليه السلام قال لأبي ميثم: أحبب حبيب آل محمد وإن كان فاسقاً زانياً، وأبغض مبغض آل محمد وإن كان صوّاماً قوّاماً. فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾. ثم التفت إليّ وقال: هم والله أنت وشيعتك يا علي. وميعادك وميعادهم الحوض غداً، غرّاً محجلين، مكتحلين متوجين. فقال أبو جعفر: هكذا هو عياناً في كتاب علي عليه السلام»[2].

وفي صحيح الحلبي: «سمعت أبا عبد الله وسأله إنسان، فقال: إني كنت أنيل البهشمية [التيمية] من زكاة مالي حتى سمعتك تقول فيهم، أفأعطيهم أم أكفّ؟ قال: لا، بل أعطهم، فإن الله حرّم أهل هذا الأمر على النار»[3]. فإذا كان سوء تصرفهم بحيث يقول الإمام عليه السلام فيهم ويذمهم لا

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج:١ ص:٢٦١-٢٦٢ باب فيما جاء عن الرضا من الأخبار المتفرقة حديث:٤١. أمالي الشيخ الصدوق ص:٦١ المجلس:٣ حديث:٧.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص:٤٠٥-٤٠٦ المجلس:١٤ حديث:٥٧. عنه بحار الأنوار ج:٢٧ ص:٢٢٠.

(٣) اختيار معرفة الرجال ص:٣٦٨ في أخبار زرارة.

يمنع من تحريمهم على النار فكيف الحال مع من هو دون ذلك ممن ساء تصرفه وعمله؟!.

وبذلك نصوص أخرى كثيرة بهذا المضمون أو بما يقرب منه[1] مما يتضمن أن المؤمن مهما عمل تكفّر ذنوبه بالمكفرات المتقدمة وغيرها، ومنها شفاعة المؤمنين بعضهم لبعض، كما تضمنته نصوص كثيرة، منها ما يأتي عند الكلام في فعل المعروف. وعلى أي حال تكون عاقبة أمر المؤمن الأمن من النار ودخول الجنة.

وفي حديث علي بن الحكم عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كان رجل يبيع الزيت، وكان يحب رسول الله صلى الله عليه وآله حبّاً شديداً. كان إذا أراد أن يذهب في حاجته لم يمض حتى ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. وقد عرف ذلك منه، فإذا جاء تطاول له حتى ينظر إليه. حتى إذا كانت ذات يوم دخل عليه، فتطاول له رسول الله صلى الله عليه وآله حتى نظر إليه، ثم مضى في حاجته، فلم يكن بأسرع من أن رجع.

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قد فعل ذلك أشار إليه بيده: أجلس. فجلس بين يديه، فقال له: ما لك فعلت اليوم شيئاً لم تكن تفعله قبل ذلك؟ فقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق نبياً لغشي قلبي شيء من ذكرك، حتى ما استطعت أن أمضي في حاجتي حتى رجعت إليك. فدعا له، وقال له خيراً.

ثم مكث رسول الله صلى الله عليه وآله أياماً لا يراه. فلما فقده سأل عنه، فقيل: يا رسول الله ما رأيناه منذ أيام. فانتعل رسول الله صلى الله عليه وآله وانتعل معه أصحابه،

---

(١) راجع جامع أحاديث الشيعة ج:٢٠ ص:٣٨٥-٤١٣ باب:١٠٢ من أبواب أحكام العشرة.

وانطلق حتى أتوا سوق الزيت، فإذا دكان الرجل ليس فيه أحد. فسأل عنه جيرته، فقيل: يا رسول الله مات. ولقد كان عندنا أميناً صدوقاً. إلا أنه قد كان فيه خصلة. قال: وما هي؟ قالوا: كان يرهق. يعنون: يتبع النساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: رحمه الله. والله لقد كان يحبني حباً لو كان نخاساً لغفر الله له»[١].

وإلى هذا يرجع قول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «قال الرسول الصادق صلى الله عليه وآله: إن الله يحب العبد، ويبغض عمله، ويحب العمل ويبغض بدنه»[٢]. ونحوه عن أبي جعفر عليه السلام في آخر حديث طويل[٣].

وفي صحيح منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن الله خلق السعادة والشقاء قبل أن يخلق خلقه. فمن خلقه الله سعيداً لم يبغضه الله أبداً. وإن عمل شراً أبغض عمله ولم يبغضه، وإن كان شقياً لم يحبه الله أبداً. وإن عمل صالحاً أحبّ عمله وأبغضه، لما يصيره إليه. فإذا أحبّ الله شيئاً لم يبغضه أبداً، وإذا أبغض شيئاً لم يحبه أبداً»[٤].

لا يرجع ذلك إلى استهوان العمل

ومن الظاهر أن ذلك لا يرجع إلى استهوان العمل، ولا ينافي الردع عن العمل القبيح، بل يرجع إلى تعرض عامله لما يكفره من المِحَن والمصائب والمتاعب في الدنيا، والشفاعة ورحمة الله تعالى الواسعة في الآخرة.

---

(١) الكافي ج:٨ ص:٧٧-٧٨ حديث:٣١.

(٢) نهج البلاغة ج:٢ ص:٤٤.

(٣) أمالي الشيخ الطوسي ص:٤١١ المجلس:١٤ حديث:٧١.

(٤) المحاسن ص:٢٧٩ كتاب مصابيح الظلم: باب السعادة والشقاء حديث:٤٠٥.

بينما تكون هذه الأمور لمتجنب الذنوب سبباً في رفع الدرجات في الآخرة بعد استغنائه عن تكفير السيئات.

كما أن ذنوبهم قد تكفّر ببعض حسناتهم بعد أن كانت حسناتهم مقبولة منهم غير مردودة عليهم، لموالاتهم لأهل البيت (صلوات الله عليهم). كما هو مقتضى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾[١]، وقوله عز وجل: ﴿**فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[٢]، وغيرهما الكثير.

وفي حديث أحمد بن الحسن الحسيني عن الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري عن آبائه: «قال الصادق عليه السلام: إن الرجل ليكون بينه وبين الجنة أكثر مما بين الثرى والعرش، لكثرة ذنوبه، فما هو إلا أن يبكي من خشية الله عز وجل ندماً عليها، حتى يصير بينه وبينها أقرب من جفنه إلى مقلته»[٣].

وفي حديث الحكم بن عتيبة: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إن العبد إذا كثرت ذنوبه، ولم يكن عنده ما يكفرها، ابتلاه الله تعالى بالحزن، فيكفر عنه ذنوبه»[٤].

وفي حديث محمد بن عطية ـ بل معتبره ـ عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الموت كفارة لذنوب المؤمنين»[٥].

---

(١) سورة هود الآية: ١١٤.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٧٠.

(٣) عيون أخبار الرضا ج:٢ ص:٦ باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المنثورة حديث:٤.

(٤) أمالي الشيخ المفيد ص:٢٤ المجلس:٣ حديث:٧.

(٥) أمالي الشيخ المفيد ص:٢٨٣ المجلس:٣٣ حديث:٨.

وفي حديث محمد بن مسلم الثقفي ـ بل معتبره أيضاً ـ: «سألت أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾. فقال عليه السلام: يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يقام بموقف الحساب، فيكون الله تعالى هو الذي يتولى حسابه، لا يطلع على حسابه أحداً من الناس. فيعرّفه ذنوبه. حتى إذا أقر بسيئاته قال الله عز وجل للكتبة: بدلوها حسنات، وأظهروها للناس. فيقول الناس حينئذٍ: أما كان لهذا العبد سيئة واحدة؟!. ثم يأمر الله [عز وجل] به إلى الجنة، فهذا تأويل الآية. وهي في المذنبين من شيعتنا خاصة»(١).

وفي حديث أيوب بن الحُرّ: «قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام ونحن عنده: جعلت فداك، إنا نخاف أن ننزل بذنوبنا منازل المستضعفين. قال: فقال: لا والله، لا يفعل الله ذلك بكم أبداً». ورواه ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عنه عليه السلام(٢).

والمستضعف فيما يظهر من بعض النصوص من المرجَون لأمر الله إما أن يعذبهم بذنوبهم أو يغفر لهم، فيرجع الحديث المتقدم أن المؤمن المذنب مقطوع له بالسلامة.

نعم ذلك لا يقتضي أمن المؤمن من عقاب الله عز وجل **أولاً**: لأن ذلك لا يبلغ حدّ اليقين بعد كثرة نصوص الوعيد بالعقاب، وشدة اختلاف النصوص في المقام. ولاسيما أنه ورد أن عقوبة بعض الذنوب عدم قبول

---

(١) أمالي الشيخ المفيد ص:٢٩٨-٢٩٩ المجلس:٣٥ حديث:٨.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٤٠٦ كتاب الإيمان والكفر: باب المستضعف حديث:٩ وذيله.

الله عز وجل عمل المذنب، ومع عدم قبوله لا يصلح لأن يكفّر الذنوب السابقة.

وثانياً: لأنه قد ينتهي سوء العمل إلى خذلان الله تعالى للعبد، وخروجه عن الدين أو الإيمان، كما حصل لكثير. ولاسيما إذا انتهى الأمر إلى الأمن من مكر الله عز وجل.

وفي حديث أبي ذر الغفاري: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يقبل الحسن والحسين عليهما السلام وهو يقول: من أحب الحسن والحسين عليهما السلام وذريتهما مخلصاً لم تلفح النار وجهه ولو كانت ذنوبه بعدد رمل عالج، إلا أن يكون ذنبه ذنباً يخرجه من الإيمان»[1].

وفي حديث أبي بصير: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء. فإن تاب انمحت. وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه، فلا يفلح بعدها أبداً»[2]... إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة.

وثالثاً: لأن البلاء المكفِّر للذنب قد يكون من الشدّة بحيث تضيق به طاقة الإنسان، فإن الإنسان خلق ضعيفاً. ومنه ما يأتي في بعض النصوص من أن من المكفّرات عذاب القبر. فالعاقل يحذر من ذلك، ولا يندفع في شهوته ويعرّض نفسه لمثل ذلك من مكفّرات الذنوب.

وفي حديث العباس بن هلال الشامي ـ مولىً لأبي الحسن موسى عليه السلام ـ قال: «سمعت الرضا عليه السلام يقول: كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا

---

(١) كامل الزيارات ص:١١٣-١١٤ باب:١٤ حديث:٤.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٢٧١ كتاب الإيمان والكفر: باب الذنوب حديث:١٣.

يعملون أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[1]... إلى غير ذلك.

ونسأل الله سبحانه وتعالى العصمة والتسديد. إنه ولي التوفيق.

بعض الشبهات في المنع من ذلك

وقد يستهجن بعض الناس ذلك، حيث يراه لا يتناسب:

أولاً: مع الآيات والنصوص الكثيرة التي تتضمن الوعيد على الذنوب. بل قد يدعى أنه راجع إلى تعطيل أدلة الوعيد.

وثانياً: مع النصوص الكثيرة المتضمنة لوصف الشيعة بالأمانة والإخلاص والورع، وأنه لا تنال ولاية أهل البيت (صلوات الله عليهم) إلا بالورع والاجتهاد. وقد تقدم بعضها.

وثالثاً: مع شرف الدعوة وقدسيتها، وأن غرضها الأقصى إصلاح المجتمع الإنساني ـ فضلاً عن الإيماني ـ في تعامله وسلوكه.

دفع الشبهات المذكورة

لكن يندفع الأول بأن مقتضى الجمع بين أدلة الوعيد وأدلة المكفرات المذكورة للذنوب، حمل أدلة الوعيد على أن الذنوب منشأ لاستحقاق العقاب، وأن المكفرات المذكورة مانعة منه ومسقطة له.

وتبقى أدلة الوعيد نافذة المضمون في حق غير المؤمن، لعدم المكفر في حقه، لعدم قبول عمله، وعدم الشفاعة له وعدم شمول رحمة الله عز وجل إياه. كما استفاضت بذلك النصوص.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٧٥ كتاب الإيمان والكفر: باب الذنوب حديث:٢٩.

كحديث يعقوب بن شعيب: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل لأحد على ما عمل ثواب على الله موجب إلا المؤمنين؟ قال: لا»[١].

ومرفوع محمد بن الريان بن الصلت عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يقول في خطبته: يا أيها الناس دينكم دينكم، فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره. والسيئة فيه تغفر، والحسنة في غيره لا تقبل»[٢].

وحديث يوسف بن ثابت: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا يضر مع الإيمان عمل، ولا ينفع مع الكفر عمل. ألا ترى أنه قال: ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ... وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾»[٣]. وغيرها.

ولابد من حمل النفع والضرر فيها على الضرر والنفع في الآخرة. لما تظافرت به النصوص من أن الكافر ينتفع في الدنيا بحسنته، والمؤمن يتضرر في الدنيا بسيئته. ولذا يحتاج لأحد المكفرات المذكورة.

ويندفع الثاني بأن مقتضى الجمع بين هذه النصوص ونصوص المكفرات المذكورة حمل هذه النصوص على خلّص الشيعة وخواصهم ممن لا يحتاجون للشفاعة ولا للمكفرات.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٤٦٣ كتاب الإيمان والكفر: باب أن الإيمان لا يضر معه سيئة والكفر لا ينفع معه حسنة حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٤٦٤ كتاب الإيمان والكفر: باب أن الإيمان لا يضر معه سيئة والكفر لا ينفع معه حسنة حديث:٦.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٤٦٤ كتاب الإيمان والكفر: باب أن الإيمان لا يضر معه سيئة والكفر لا ينفع معه حسنة حديث:٣.

ويناسب ذلك ما في حديث خضر بن عمرو عن أبي عبد الله عليه السلام: «سمعته يقول: المؤمن مؤمنان: مؤمن وفى لله بشروطه التي شرطها عليه. فذلك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وذلك من يَشفع ولا يُشفَع له. وذلك ممن لا تصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة. ومؤمن زلت به قدمه، فذلك كخامة الزرع كيفما كفأته الريح انكفأ. وذلك ممن تصيبه أهوال الدنيا والآخرة. ويُشفع له. وهو على خير»[١]. وقريب منه حديث نصير أبي الحكم الخثعمي[٢].

هذا وربما كانت النصوص المتضمنة لوصف الشيعة بما تقدم واردة للترغيب في إصلاح النفس والعمل، وليبقى المؤمن بين الخوف والرجاء، ولا يتكل على الولاية، ويأمن مكر الله تعالى، ونحو ذلك.

ولاسيما أنه قد ظهرت في عصور الإسلام الأولى فِرَق تدعو إلى إلغاء دور العمل، وأن المعيار في الإيمان على العقيدة لا غير، وعرفوا بالمرجئة الذين يقولون: من لم يصل ولم يغتسل من جنابة وهدم الكعبة ونكح أمه فهو على إيمان جبرئيل وميكائيل[٣].

بل أغرق بعض الفرق فأوّلوا ما تضمن الأمر بالعمل بالأمر بالعقيدة، فألغوا دور العمل، بحيث قد تنتهي إلى الإباحية، واستحلال الموبقات دينياً، وأن أدلة الحثّ على العمل وإن كان ظاهرها الحث عليه، إلا أن المراد بها في الباطن العقيدة، في تخريفات وضلال لا حدّ لهما ولا

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٤٨ كتاب الإيمان والكفر: باب في أن المؤمن صنفان حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٢٤٨ كتاب الإيمان والكفر: باب في أن المؤمن صنفان حديث:١.

(٣) الكافي ج:١ ص:٤٠٤ كتاب الحجة: باب ما أمر به النبي صلى الله عليه وآله بالنصيحة لأئمة المسلمين حديث:٢.

ضابط. وقد تصدّى للفريقين أئمة أهل البيت (صلوات الله عليهم) بشدّة.

كما أكدت النصوص الكثيرة الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الأئمة عليهم السلام على أن الإيمان إذعان بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

ففي حديث داود بن سليمان الفرا عن أبي الحسن الرضا عليه السلام عن آبائه: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله الإيمان إقرار باللسان ومعرفة بالقلب وعمل بالأركان»[1].

وفي حديث أبي الصلت الهروي عنه عليه السلام بسنده عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله الإيمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان العقول»[2]. ونحوهما كثير.

وفي حديث محمد بن مارد، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: حديث روي لنا أنك قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت. قال: قلت ذلك. قال: قلت: وإن زنوا أو سرقوا أو شربوا الخمر؟ فقال لي: إنا لله وإنا إليه راجعون. والله ما أنصفونا أن نكون أُخِذنا بالعمل ووضع عنهم. إنما قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره، فإنه يقبل منك»[3].

وعلى كل حال لا مجال لرفع اليد عن أدلة المكفرات المذكورة مع استفاضتها، بل هي فوق الاستفاضة، بحيث يقطع بمضامينها إجمالاً،

---

(١) عيون أخبار الرضا ج:٢ ص:٣١ باب ما جاء عن الرضا من الأخبار المجموعة حديث:١٧.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص:٣٦ المجلس:٢ حديث:٨. أمالي الشيخ المفيد ص:٢٧٥ المجلس:٣٣ حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٤٦٤ كتاب الإيمان والكفر: باب أن الإيمان لا يضر معه سيئة والكفر لا ينفع معه حسنة حديث:٥.

قطعاً قد يبلغ حدّ الضرورة الدينية.

وأما الثالث فهو في الجملة أمر وجداني يتناغم مع العواطف الإيمانية. وكأنه يرجع إليه ما في حديث جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «قال: سمعت جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري يقول: لو نشر سلمان وأبو ذر رحمهما الله لهؤلاء الذين ينتحلون مودتكم أهل البيت لقالوا: هؤلاء الكذابون. ولو رأى هؤلاء أولئك لقالوا: مجانين»[1].

لكنه يبتني على إغفال أهمية دور الجمهور المذكور في خدمة دعوة الحق ونشرها وإيصالها للأجيال بمرور الزمن. فإن كل دعوة دينية أوغير دينية لا يمكن أن تنهض بنفسها وتقوم على ساقها ويسمع صوتها إلا بأن تتبناها جماعة معتد بها تدعو إليها وتحاول نشرها، كما تقدم في الفصل الثاني من المبحث الأول.

ومن الطبيعي أن اقتناع أفراد الجماعة المذكورة بها وتبينهم لها لا يعني إلتزامهم جميعاً بجميع تعاليمها، وتطبيقها بحذافيرها عملاً، بل من يلتزم بها كذلك أقلّ القليل.

ولو اقتصرت جامعية الدعوة عليهم ـ بحيث يخرج عنها من لا يلتزم بها كذلك، ويتبرأ منه ـ فهم أعجز من أن يؤدوا وظيفتهم في التبليغ بالدعوة والإقناع بها، وإبقاء صوتها مسموعاً بمرور الزمن، ويقفوا أمام القوى المعادية الكاسحة.

بل تنتهي الدعوة، وتنقطع سلسلتها بانتهائهم، بموتهم أو قضاء القوى المعادية عليهم، لقلتهم وضعفهم، وعدم الناصر لهم والمدافع عنهم.

---

(١) أمالي الشيخ المفيد ص:٢١٤ المجلس:٢٤ حديث:٥.

فلابد في إبقاء صوت الدعوة مسموعاً من تبني قاعدة شعبية واسعة لها، لتكون القاعدة المذكورة حارسة لها ولدعاتها ـ من ذوي البصائر والالتزام الديني ـ أمام القوى المعادية الكاسحة.

وكما أن لذوي البصائر والالتزام الديني دورهم المشكور في التبليغ بالدعوة والتنظير لها، واستيعاب الأدلة والشواهد عليها، والمحافظة عليها ثقافياً وتطبيقاً، حيث يكونون مرجعاً للجاهل، وموئلاً للمنحرف النادم، وحجة مذكرة على المندفع في انحرافه.

كذلك للقاعدة الشعبية العريضة دورها المشكور في حماية الدعوة ودعاتها، وتبني شعاراتها المذكرة بها، وإبقاء صوتها مسموعاً باستمرار الزمان وتعاقب الأجيال.

على أنهم قد يقومون بجهود أخرى لصالح الدعوة، مالية أو بدنية أو سياسية يعجز عنها أولئك، أو يغفلون عن ثمرتها.

وتثمين جهود الجميع موكول إلى الله عز وجل الذي سبقت رحمته غضبه، فإنه المطلع على السرائر، والعالم بقيمة ما يستحقه كل منهم، فيوفيه جزاءه كاملاً غير منقوص. وربما تختلف موازينه تعالى عما ندركه نحن في تقييم العمل، وما يناسبه من ثواب وجزاء.

قصة المفضل بن عمر

ويشير إلى ما ذكرنا ما رفعه نصر بن الصباح عن محمد بن سنان: «عن عدة من أهل الكوفة كتبوا إلى الصادق عليه السلام، فقالوا: إن المفضل يجالس الشطار، وأصحاب الحمام، وقوماً يشربون الشراب، فينبغي أن تكتب إليه وتأمره ألا يجالسهم.

فكتب إلى المفضل كتاباً وختمه ودفعه إليهم، وأمرهم أن يدفعوا الكتاب من أيديهم إلى يد المفضل. فجاؤوا بالكتاب إلى المفضل ـ منهم زرارة، وعبد الله بن بكير، ومحمد بن مسلم وأبو بصير، وحجر بن زائدة ـ ودفعوا الكتاب إلى المفضل.

ففكه وقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم اشتر كذا وكذا، واشتر كذا. ولم يذكر قليلاً ولا كثيراً مما قالوا فيه. فلما قرأ الكتاب دفعه إلى زرارة، ودفع زرارة إلى محمد بن مسلم حتى دار الكتاب إلى الكل. فقال المفضل: ما تقولون؟ قالوا: هذا مال عظيم حتى ننظر ونجمع ونحمل إليك. لم ندرك، ألا نراك بعدُ ننظر في ذلك. وأرادوا الانصراف. فقال المفضل: حتى تغدوا عندي، فحبسهم لغدائه.

ووجّه المفضل إلى أصحابه الذين سعوا بهم، فجاؤوا، فقرأ عليهم كتاب أبي عبد الله عليه السلام، فرجعوا من عنده، وحبس المفضل هؤلاء ليتغدوا عنده. فرجع الفتيان، وحمل كل واحد منهم على قدر قوتّه ألفاً وألفين وأقل وأكثر، فحضروا، وأحضروا ألفي دينار وعشرة آلاف درهم قبل أن يفرغ هؤلاء من الغداء.

فقال لهم المفضل: تأمروني أن أطرد هؤلاء من عندي. تظنون أن الله تعالى يحتاج إلى صلاتكم وصومكم!»[1].

ولسنا بصدد تصحيح هذه الرواية أو الاستدلال بها. لكنها تحكي عن واقع هذه الفئات إذا آمنوا بالدعوة، وتعلقت قلوبهم بها، وانشدّوا لها

(١) اختيـار معرفة الرجال ج:٢ ص:٦١٩-٦٢٠ في ترجمة المفضل بن عمر. معجم رجال الحديث ج:١٩ ص:٣٢٥-٣٢٦ في ترجمة المفضل بن عمر.

عاطفياً.

وقد أثبتت الأحداث على طول الزمن، وتوالي الفتن والمحن، المواقف المشرّفة لهم في صالح هذه الدعوة المباركة. ودورهم الظاهر في بقائها ووضوح معالمها وتعاليمها.

ومن ثمرات ذلك ـ التي قد لا تكون منظورة ـ أن الخارج عن تعاليم الدعوة من أتباعها في عمله يشعر ـ بسبب وضوح تعاليم الدعوة ـ بخطئه، ويعلم أنه قد أذنب. وهذا الشعور قد ينتهي به أخيراً إلى التراجع والتوبة، كما حصل لكثير.

بينما لو لم تتضح معالم الدعوة وتعاليمها ـ لقلة حملتها وضعفهم ـ فإن الأمر يختلط على الناس، فلا يعرف الحق من الباطل، ولا المطيع من العاصي، ليتراجع العاصي، ويحدّث نفسه بالتوبة.

مضافاً إلى أمرين:

الأول: أن موازين أهمية العمل، ومقدار الثواب أو العقاب عليه، خفيان علينا، ولا يعلمها إلا الله جل شأنه.

ففي صحيح عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام أن العبد من عبادي ليأتيني بالحسنة، فأبيحه جنتي. فقال داود: يا رب وما تلك الحسنة؟ قال: يدخل على عبدي المؤمن سروراً ولو بتمرة. قال داود: يا رب حق لمن عرفك أن لا يقطع رجاءه منك»[1]. وكذلك الحال في السيئات. فكم من سيئة تبدو صغيرة، لكنها تكون سبباً

(١) الكافي ج:٢ ص:١٨٩ كتاب الإيمان والكفر: باب إدخال السرور على المؤمنين حديث:٥.

لغضب الله عز وجل، ولا ينفع معها شيء. والنصوص في ذلك كثيرة.

فربما حصل من هؤلاء حسنات غير هامة بنظرنا، كما قد يصدر من غيرهم من ذوي الالتزام الديني بنظرنا سيئات كذلك. والأمر في القسمين موكول إلى الله تعالى.

الثاني: أن هؤلاء نوعاً يتميزون ـ بسبب قلة التزامهم الديني ـ بأمر له أهميته عند الله عز وجل. وهو بُعدهم عن العُجُب بأعمالهم وبأنفسهم، وشعورهم بالخطأ والتقصير في حقّ الله عز وجل، حتى قد لا يعوّلون على بعض الحسنات لو صدرت منهم.

أما الملتزمون دينياً فكثيراً ما يتعرضون لأمرين:

مخاطر حب الظهور

الأول: حبّ ظهور العمل والمدح عليه بما أنه مقرب إلى الله عز وجل، وأن عامله يؤجر عليه. وذلك من أعظم الآفات المحبطة للعمل.

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «الإبقاء على العمل أشدّ من العمل. إن الرجل ليعمل في السرّ فلا يزال به الشيطان حتى يحدث به أو يظهره، فيسبح [كذا] في العلانية، فيكتب في الرياء»[1].

وفي حديث علي بن أسباط عن بعض أصحابه عن أبي جعفر عليه السلام: «أنه قال: الإبقاء على العمل أشدّ من العمل. قال: وما الإبقاء على العمل؟ قال: يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له، فتكتب له سراً. ثم يذكرها، فتمحى، فتكتب له علانية، ثم يذكرها، فتمحى، وتكتب له

(١) تاريخ اليعقوبي ج:٢ ص:٩٢ في خطب رسول الله ومواعظه وتأديبه بالأخلاق الشريفة.

رياءً»[١].

أما حبّ المدح على العمل بما أنه ناجح مثمر مع قطع النظر عن كونه مقرباً من الله عز وجل فلا يتضح كونه مرجوحاً شرعاً.

نعم إذا كان هو الداعي للعمل، دون التقرب لله تعالى فقد لا يترتب معه الثواب على العمل. والله سبحانه أعلم بذلك.

مخاطر العُجب وحسن الظن بالنفس

الثاني: العُجب وحسن الظن بالنفس. ولاسيما إذا بلغ العاملين ثناء الناس عليهم ومدحهم لهم. وخصوصاً إذا كانت لهم جهود ظاهرة، من مشاريع تبليغية ومنافع عامة ومؤلفات نافعة وغير ذلك من وجوه الخير.

وفي حديث حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كم من مغرور بما قد أنعم الله عليه. وكم من مستدرج بستر الله عليه. وكم من مفتون بثناء الناس عليه»[٢].

والعُجب من أعظم المخاطر. والنصوص الواردة في ذمه كثيرة جداً. وفي حديث عبد العظيم الحسني: «قلت لأبي جعفر محمد بن الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله حدثني بحديث عن آبائك عليهم السلام... فقال: حدثني أبي عن جدي عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: من دخله العجب هلك»[٣].

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٩٦-٢٩٧ كتاب الإيمان والكفر: باب الرياء حديث:١٦.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٤٥٢ كتاب الإيمان والكفر: باب الاستدراج حديث:٤.

(٣) أمالي الشيخ الصدوق ص:٥٣٢ المجلس:٦٨ حديث:٩.

وفي حديث أحمد بن داود عن بعض أصحابنا عن أحدهما عليهما السلام: «قال: دخل رجلان المسجد، أحدهما عابد، والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق والعابد فاسق. وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدِلّاً بعبادته يُدِلّ بها، فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التندم على فسقه، ويستغفر الله عز وجل مما صنع من الذنوب»[١].

وفي حديث يونس عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بينما موسى عليه السلام جالساً إذ أقبل عليه إبليس وعليه برنس ذو ألوان... فقال موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه. قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه.

وقال: قال الله عز وجل لداود عليه السلام: يا داود بشّر المذنبين، وأنذر الصديقين. قال: كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟! قال: يا داود بشّر المذنبين أني أقبل التوبة، وأعفو عن الذنب. وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك»[٢].

كما أنه قد أكّدت النصوص على مدح شعور الإنسان بالتقصير وذمه لنفسه. ومنها حديث الحسن بن الجهم: «سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: إن رجلا في بني إسرائيل عبد الله أربعين سنة، ثم قرب قرباناً، فلم يقبل منه. فقال لنفسه: ما أوتيت إلا منكِ، وما الذنب إلا لكِ، قال: فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: ذمك لنفسك أفضل من عبادتك أربعين سنة»[٣].

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣١٤ كتاب الإيمان والكفر: باب العجب حديث:٦.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣١٤ كتاب الإيمان والكفر: باب العجب حديث:٨.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٧٣ باب الاعتراف بالتقصير حديث:٣.

وفي حديث عبد الرحمن بن الحجاج عنه عليه السلام: «قال: إن الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه، ويعمل العمل فيسره ذلك، فيتراخى عن حاله تلك. فلأن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه»[1]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «سيئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك»[2].

وفي حديث داود بن سليمان عن أبي الحسن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل: يا ابن آدم كلكم ضال إلا من هديت، وكلكم عائل إلا من أغنيت، وكلكم هالك إلا من أنجيت. فاسألوني أكفكم وأهدكم سبيل رشدكم.

فإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفاقة، ولو أغنيته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك. وإن من عبادي من لا يصلحه إلا المرض، ولو أصححت جسمه لأفسده ذلك.

وإن من عبادي لمن يجتهد في عبادتي وقيام الليل لي، فألقي عليه النعاس، نظراً مني له، فيرقد حتى يصبح، ويقوم حين يقوم وهو ماقت لنفسه زارٍ عليها. ولو خليت بينه وبين ما يريد لدخله العجب بعمله، ثم كان هلاكه في عجبه ورضاه من نفسه، فيظن أنه قد فاق العابدين، وجاز باجتهاده حدّ المقصرين، فيتباعد بذلك مني وهو يظن أنه يتقرب إلي.

فلا يتكل العاملون على أعمالهم وإن حسنت، ولا ييأس المذنبون من مغفرتي لذنوبهم وإن كثرت. لكن برحمتي فليثقوا، ولفضلي فليرجوا. وإلى حسن نظري فليطمئنوا. وذلك أني أدبّر عبادي بما يصلحهم. وأنا بهم

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣١٣ كتاب الإيمان والكفر: باب العجب حديث:٤.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٣.

لطيف خبير»[١].

وفي حديث الحسن بن زيد عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام عن آبائه عن علي عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لولا أن الذنب خير للمؤمن من العجب ما خلى الله عز وجل بين عبده المؤمن وبين ذنب أبداً»[٢]... إلى غير ذلك.

ترك الذنب أيسر من طلب التوبة

لكن ذلك لا يعني التشجيع على المعاصي من أجل حصول الشعور بالتقصير. فإن ذلك من مصائد الشيطان الرجيم، أعاذنا الله تعالى من شره. إذ قد لا يوفق معه للتوبة. ولو وفق لها فترك الذنب خير من الذنب مع التوبة.

وفي حديث أبي العباس البقباق: «قال أبو عبد الله عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة. وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً. والموت فضح الدنيا، فلم يترك لذي لبّ فرحاً»[٣].

ويناسب ذلك ما في حديث محمد بن سنان عمن أخبره عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كان عابد في بني إسرائيل لم يقارف من أمر الدنيا شيئاً. فنخر إبليس نخرة فاجتمع إليه جنوده.

فقال: من لي بفلان؟ فقال بعضهم: أنا له، فقال: من أين تأتيه؟ فقال:

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص:١٦٦-١٦٧ المجلس:٦ حديث:٣٠.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص:٥٧١-٥٧٢ المجلس:٢٢ حديث:١٠.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٤٥١ كتاب الإيمان والكفر: باب ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة حديث:١.

من ناحية النساء. قال: لست له. لم يجرب النساء. فقال له آخر: فأنا له. فقال له: من أين تأتيه؟ قال: من ناحية الشراب واللذات. قال: لست له. ليس هذا بهذا. قال آخر: فأنا له. قال: من أين تأتيه؟ قال: من ناحية البِر. قال: انطلق، فأنت صاحبه.

فانطلق إلى موضع الرجل. فأقام حذاه يصلي. قال: وكان الرجل ينام والشيطان لا ينام، ويستريح والشيطان لا يستريح. فتحول إليه الرجل وقد تقاصرت إليه نفسه واستصغر عمله، فقال: يا عبد الله بأي شيء قويت على هذه الصلاة؟ فلم يجبه، ثم أعاد عليه فلم يجبه، ثم أعاد عليه، فقال: يا عبد الله إني أذنبت ذنباً، وأنا تائب منه، فإذا ذكرتُ الذنب قويتُ على الصلاة.

قال: فأخبرني بذنبك حتى أعمله وأتوب، فإذا فعلته قويت على الصلاة. قال: ادخل المدينة فسل عن فلانة البغية فأعطها درهمين ونل منها. قال: ومن أين لي درهمين؟ ما أدري ما الدرهمين. فتناول الشيطان من تحت قدمه درهمين فناوله إياهما.

فقام فدخل المدينة بجلابيبه يسأل عن منزل فلانة البغية، فأرشده الناس، وظنوا أنه جاء يعظها، فأرشدوه فجاء إليها، فرمى إليها بالدرهمين وقال: قومي. فقامت فدخلت منزلها، وقالت: ادخل.

وقالت: إنك جئتني في هيئة ليس يؤتى مثلي في مثلها، فأخبرني بخبرك. فأخبرها، فقالت له: يا عبد الله إن ترك الذنب أهون من طلب التوبة، وليس كل من طلب التوبة وجدها. وإنما ينبغي أن يكون هذا شيطاناً مُثّل لك. فانصرف فإنك لا ترى شيئاً. فانصرف.

وماتت من ليلتها. فأصبحت فإذا على بابها مكتوب: احضروا فلانة

فإنها من أهل الجنة. فارتاب الناس، فمكثوا ثلاثاً لم يدفنوها ارتياباً في أمرها. فأوحى الله عز وجل إلى نبي من الأنبياء ـ لا أعلمه إلا موسى بن عمران عليه السلام[1] ـ أن ائت فلانة فصلّ عليها، ومُرِ الناس أن يصلّوا عليها. فإني قد غفرت لها، وأوجبت لها الجنة، بتثبيطها عبدي فلاناً عن معصيتي»[2].

لا يتسرع الإنسان في تقييم منزلة نفسه ولا غيره

وإنما غرضنا من هذا أنه على الإنسان أن لا يتسرع في تقييم منزلة نفسه ورفعها ويعجب بها، بل عليه أن يستصغر عمله، ويذم نفسه، كما تقدم في بعض النصوص.

كما أنه لا يتسرع في تقييم منزلة غيره، بل يوكل ذلك لله عز وجل. وفي حديث أبي حمزة الثمالي عن زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام: «قال: كان في بني إسرائيل رجل ينبش القبور، فاعتل جار له، فخاف الموت. فبعث إلى النباش، فقال له: كيف كان جواري لك؟ قال: أحسن جوار. قال: فإن لي إليك حاجة. قال: قضيت حاجتك.

قال: فأخرج إليه كفنين. فقال: أحِبّ أن تأخذ أحبهما إليك، وإذا دفنت فلا تنبشني. فامتنع النباش من ذلك، وأبى أن يأخذه. فقال الرجل: أحِبّ أن تأخذه. فلم يزل به حتى أخذ أحبهما إليه.

ومات الرجل فلما دفن قال النباش: هذا قد دفن، فما علمه بأني تركت كفنه أو أخذته؟! لآخذنه. فأتى قبره فنبشه. فسمع صائحاً يقول، ويصيح به: لا تفعل. ففزع النباش من ذلك، فتركه، وترك ما كان عليه.

---

(١) الظاهر أن الشك والتردد من الراوي لا من الإمام عليه السلام.

(٢) الكافي ج:٨ ص:٣٨٤-٣٨٥ حديث:٥٨٤.

وقال لولده: أي أب كنت لكم؟ قالوا: نعم الأب كنت لنا. قال: فإن لي إليكم حاجة. قالوا: قل ما شئت، فإنا سنصير إليه إن شاء الله. قال: فأحبّ إذا أنا متّ أن تأخذوني، فتحرقوني بالنار، فإذا صرت رماداً فدقوني، ثم تعمدوا بي ريحاً عاصفاً، فذرّوا نصفي في البرّ ونصفي في البحر. قالوا: نفعل. فلما مات فعل به ولده ما أوصاهم به.

فلما ذرّوه قال الله جل جلاله للبرّ: اجمع ما فيك. وقال للبحر: اجمع ما فيك. فإذا الرجل قائم بين يدي الله جل جلاله. فقال الله عز وجل: ما حملك على ما أوصيت به ولدك أن يفعلوه بك؟ قال: حملني على ذلك ـ وعزتك ـ خوفك. فقال الله جل جلاله: فإني سأرضي خصومك. وقد آمنت خوفك، وغفرت لك»[١].

وفي حديث سماعة بن مهران عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «أنه قال: إن العبد إذا كثرت ذنوبه، ولم يجد ما يكفرها به، ابتلاه الله عز وجل بالحزن في الدنيا، ليكفرها به. فإن فعل ذلك به وإلا سقم بدنه، ليكفرها به. فإن فعل ذلك وإلا شدّد عليه عند موته، ليكفرها به. فإن فعل ذلك به وإلا عذبه في قبره، ليلقى الله عز وجل يوم يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من ذنوبه»[٢].

وفي حديث جندب الغفاري: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن رجلاً قال يوماً: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله عز وجل: من ذا الذي تألّى[٣] علي أن لا أغفر لفلان؟! فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عمل المتألّي بقوله: لا

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص:٤٠٦-٤٠٧ المجلس:٥٣ حديث:٣.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق ص:٣٧ المجلس:٤٩ حديث:٤.

(٣) التألّي بتشديد اللام: الحلف.

يغفر الله لفلان»[١].

على الإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء

كما أن على الإنسان دائماً أن يكون بين الخوف والرجاء، مع الجدّ في عمل الخير وتجنب الشر، واللجأ إلى الله تعالى في العصمة، وقبول العمل، وحسن الخاتمة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الفقيه كل الفقيه من لم يُقنِط الناسَ من رحمة الله، ولم يؤيسهم من رَوح الله، ولم يُؤمِنهم من مكر الله»[٢].

وفي حديث حماد بن عيسى عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: «قال: كان فيما أوصى به لقمان لابنه أنه قال: يا بني خف الله خوفاً لو جئته ببرّ الثقلين خفت أن يعذبك الله. وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين رجوت أن يغفر الله لك»[٣].

وفي حديث أبي حمزة الثمالي: «قال الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: ارج الله رجاءً لا يجرئك على معصيته [معاصيه]، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته»[٤].

وفي حديث إبراهيم بن زياد الكرخي: «قال الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع

---

(١) أمالي الشيخ الطوسي ص:٥٨ المجلس:٢ حديث:٥٣.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:٢٠.

(٣) وسائل الشيعة ج:١١ ص:١٧٠ باب:١٣ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه حديث:٦.

(٤) وسائل الشيعة ج:١١ ص:١٧٠-١٧١ باب:١٣ من أبواب جهاد النفس وما يناسبه حديث:٧. أمالي الشيخ الصدوق ص:٦٥ المجلس:٤ حديث:٥.

إبليس في رحمته»[١]. وقد طال بنا الكلام.

والمهم أنه بعد دخول الشخص بعقيدته في الأمة المرحومة، وإذعانه بأصولها العقائدية، تثبت له الولاية الجامعة بين المؤمنين.

ولأجل ذلك يقال في الصلاة عليه إذا مات: «اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيراً» فإن المراد بالخير هنا الإقرار بالدين الحق. لا الخير في العمل، وإلا فلا إشكال في وجوب الصلاة على العاصي في عمله.

وأما تقييم منزلته عند الله فلا يعلمه إلا الله عز وجل. وهو أرحم الراحمين. وولي المؤمنين. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وعلى كل حال فبهذه الرابطة الجامعة وبهذه المولاة المقدسة، ثم بتوجيهات الأئمة عليهم السلام وبتسديد الله عز وجل ودعمه الغيبي، ورعاية إمام العصر المنتظر عجل الله فرجه الشريف، بكل ذلك استطاعت هذه الطائفة الثبات، وتحدي العوائق والأعاصير التي واجهتها في مسيرتها الشاقة في تاريخها الطويل.

ونسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت، ويوفقنا لصالح الأعمال، ويتقبل القليل، ويعفو عن الكثير، ويمنّ علينا بحسن العاقبة. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص:٢٧٤ المجلس:٣٧ حديث:٢.

القسم الثاني
ما يبتني على تكامل شخصية الإنسان

ولا يسهل علينا استقصاء مكارم الأخلاق في هذا القسم. ولكن نذكر منها مجموعة لها أهميتها في نفسها، وكثيراً ما يكون لها الدخل في ارتباط المجتمع بعضه ببعض وتماسكه.

الحياء

١ـ الحياء. والنصوص به كثيرة جداً، ففي حديث مدرك بن عبد الرحمن عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الإسلام عريان. فلباسه الحياء...»[١].

وفي حديث علي بن أبي علي اللهبي عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أربع من كن فيه وكان من قرنه إلى قدمه ذنوباً بدلها الله حسنات: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر»[٢].

وفي حديث معاذ بن كثير عن أحدهما عليهما السلام: «الحياء والإيمان مقرونان

(١) وسائل الشيعة ج:١١ ص:١٤١ باب:٤ من أبواب جهاد النفس حديث:٦.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٠٧ كتاب الإيمان والكفر: باب الحياء حديث:٧.

في قَرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه»[١].

وفي حديث أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي عليه السلام: «سمعته يقول: أربع من كن فيه كمل إسلامه، وأعين على إيمانه، ومحصت عنه ذنوبه، ولقي ربه وهو عنه راض، ولو كان مما بين قرنه إلى قدمه ذنوب حطّها الله عنه. وهي: الوفاء بما يجعل لله على نفسه. وصدق اللسان مع الناس. والحياء مما يقبح عند الله وعند الناس. وحسن الخلق مع الأهل والناس...»[٢]... إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة وفي حديث الحسين [الحسن] بن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام أنه رأس المكارم[٣].

وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله يتميز بذلك. فقد تقدم عند الكلام عن حسن الصحبة أنه صلى الله عليه وآله لم يبسط رجليه بين أصحابه قط، ولا ينزع يده ممن صافحه. وعن أبي سعيد الخدري أنه كان يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله حيياً لا يسأل شيئاً إلا أعطاه»[٤].

وفي حديث عجلان عن أبي عبد الله عليه السلام قال في حديث: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه. فأرسلت إليه امرأة ابناً لها، فقالت: انطلق إليه فاسأله، فإن قال لك: ليس عندنا شيء. فقل: أعطني قميصك، قال: فأخذ قميصه فرمى به إليه. فأدبه الله تبارك وتعالى على القصد، فقال: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ**

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٠٦ كتاب الإيمان والكفر: باب الحياء حديث:٤.

(٢) أمالي الشيخ المفيد ص:١٦٦-١٦٧ المجلس:٢١ حديث:١.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٥٥-٥٦ كتاب الإيمان والكفر: باب المكارم حديث:١.

(٤) جامع أحاديث الشيعة ج:١٨ ص:٩٦ باب:٦٩ من إبواب جهاد النفس حديث:١٩.

الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾»[١].

وعن أبي سعيد الخدري: «كان رسول الله أشدّ حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه»[٢].

وقال الشيخ الطبرسي عند ذكر وقعة النبي صلى الله عليه وآله ببني قريظة: «فأقبل علي عليه السلام ومعه المهاجرون... فأشرفوا عليه وسبّوه، وقالوا: فعل الله بك وبابن عمك. وهو واقف لا يجيبهم. فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون حوله تلقاه أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: لا تأتهم يا رسول الله جعلني الله فداك، فإن الله سيجزيهم. فعرف رسول الله أنهم قد شتموه، فقال: أما إنهم لو رأوني ما قالوا شيئاً مما سمعت.

وأقبل ثم قال: يا إخوة القردة. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين. يا عباد الطاغوت اخسؤوا أخسأكم الله. فصاحوا يميناً وشمالاً: يا أبا القاسم ما كنت فحاشاً، فما بدا لك؟!. قال الصادق عليه السلام: فسقطت العنزة من يده، وسقط رداؤه من خلفه، ورجع يمشي إلى ورائه، حياء مما قال لهم صلى الله عليه وآله»[٣].

فإن شتمه صلى الله عليه وآله لهم وخروجه عن سجيته وإن كان طبيعياً في مثل هذا الحال، حيث نكثوا عهدهم معه في ذلك الظرف الحرج، ثم شتموه وهم في موقع الضعف، إلا أن الحياء لم يفارقه، فاستغلوا ذلك فيه وعتبوا عليه، فتراجع عن موقفه بالوجه المذكور.

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٥٥-٥٦ أبواب الصدقة: باب كراهية السرف والتقتير حديث:٧.

(٢) جامع أحاديث الشيعة ج:١٨ ص:٩٧ باب:٦٩ من أبواب جهاد النفس حديث:٢٣.

(٣) إعلام الورى ج:١ ص:١٩٥-١٩٦ في غزوة بني قريظة.

الرفق

٢ـ الرفق. وقد أكد عليه النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من آله عليهم السلام في نصوص كثيرة. وفي حديث معاذ بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الرفق يمن، والخرق شوم»(١).

وفي حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: إن لكل شيء قفلاً، وقفل الإيمان الرفق»(٢).

وفي حديث زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الرفق لم يوضع على شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه»(٣).

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجراً وأحبهما إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه»(٤).

وفي حديثه الآخر عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله يحب الرفق ويعين عليه. فإذا ركبتم الدواب العجف فأنزلوها منازلها. فإن كانت الأرض مجدبة فانحوا عنها، وإن كان مخصبة فأنزلوها منازلها»(٥).

وفي حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لو

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١١٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:٤.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١١٨ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:١.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١١٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:٦.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١٢٠ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:١٥.

(٥) الكافي ج:٢ ص:١٢٠ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:١٢. والمراد أن الأرض إذا كانت مجدبة فأسرعوا بالسير.

كان الرفق خلقاً يرى ما كان مما خلق الله شيء أحسن منه»[١].

وفي مرفوع أبي المقدام عن النبي صلى الله عليه وآله: «إن في الرفق الزيادة والبركة. ومن يحرم الرفق يحرم الخير»[٢].

وفي حديث أحمد بن زياد الكوفي عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسّع الله عليهم في الرزق. والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال. والرفق لا يعجز عنه شيء. والتبذير لا يبقى معه شيء. إن الله عز وجل رفيق يحب الرفق»[٣].

وفي حديث زرارة عنه صلى الله عليه وآله: «قال: دخل يهودي على رسول الله صلى الله عليه وآله وعائشة عنده، فقال: السام عليكم. فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله عليكم. ثم دخل آخر فقال مثل ذلك، فردّ عليه كما ردّ على صاحبه. ثم دخل آخر فقال مثل ذلك، فردّ رسول الله صلى الله عليه وآله كما رد على صاحبيه. فغضبت عائشة فقالت: عليكم السام والغضب واللعنة يا معشر اليهود. يا إخوة القردة والخنازير. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عائشة إن الفحش لو كان ممثلاً لكان مثال سوء. إن الرفق لم يوضع على شيء قطّ إلا زانه، ولم يرفع عنه قطّ إلا شانه. قالت: يا رسول الله أما سمعت إلى قولهم: السام عليكم؟ فقال: بلى. أما سمعتِ ما رددتُ عليهم؟ قلت: عليكم...»[٤]... إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٢٠ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:١٣.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١١٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:٧.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١١٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:٩.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٦٤٨ كتاب العشرة: باب التسليم على أهل الملل حديث:١.

وفي حديث حماد بن بشير عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن الله تعالى رفيق يحب الرفق. فمن رفقه بعباده تسليله أضغانهم ومضادتهم لهواهم وقلوبهم. ومن رفقه بهم أنه يدَعهم على الأمر يريد إزالتهم عنه رفقاً بهم، لكيلا يلقي عليهم عرى الإيمان ومثاقلته جملة واحدة، فيضعفوا. فإذا أراد ذلك نسخ الأمر بالآخر، فصار منسوخاً»[1]. ونحوه غيره.

والمراد بذلك أن من رفق الله تعالى بعباده أنه لم ينزل شرائع الدين جملة واحدة، لئلا يثقل عليهم، بل نزل تدريجاً، فبقوا من بعض الأمور في سعة، ثم نسخ ذلك بالإلزام بالفعل أو الترك، وصار الحال السابق منسوخاً.

الرفق من سمات النبي صلى الله عليه وآله

والظاهر أن هذا الخلق الرفيع مما أعان النبي صلى الله عليه وآله على أن يتجاوز سلبيات المجتمع الذي عاشه وتناقضاته الكثيرة التي تقدم التعرض لها، حتى استطاع أن يجعل منه أمة موحدة قامت بدور هام في نشر الإسلام وإسماع دعوته للشعوب.

قال الله عز وجل: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ...**﴾[2].

ومن ذلك رفقه السياسي في قبوله ببعض التنازلات في صلح الحديبية، الذي تقدم الحديث عنه في المبحث الأول. وتقدم الكلام في نتائجه الهامة لصالح النبي صلى الله عليه وآله والإسلام.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١١٨ كتاب الإيمان والكفر: باب الرفق حديث:٣.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

وكذلك رفقه بقريش حينما امتنع ثمامة بن أثال من دفع الميرة لهم من اليمامة، على ما تقدم التعرض له تبعاً للكلام في صلح الحديبية.

ورفقه صلى الله عليه وآله بمن حاول اغتياله في العقبة، فأمر بكتمان أسمائهم تجنباً لمحاذير فضحهم وعقوبتهم... إلى غير ذلك مما تقدم الكثير منه في الفصل الثاني من المبحث الأول.

قد يحسن استعمال الشدة

نعم قد يكون مقتضى الحكمة الخروج عنه في بعض الموارد، واستعمال الشدة والغلظة فيها، لخصوصية فيها يدركها الحكيم. وقد أشار لذلك أمير المؤمنين صلوات الله عليه في وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام بقوله: «إذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً»[1]. وهي حالة استثنائية.

الحلم

٣ـ الحلم بمعنى ضبط النفس في معالجة الحوادث الطارئة، وتجنب الغضب المؤدي للعجلة أو التهوّر في معالجتها، والثبت في ذلك. وقد أكّدت عليه الآيات الشريفة والنصوص الكثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من آله عليهم السلام.

فقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بالحلم في آيات كثيرة. وقال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ**

(١) نهج البلاغة ج:٣ ص:٥٢ .

(٢) سورة هود الآية: ٧٥.

﴿حَلِيمٍ﴾[١].

وفيما روي من وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي ألا أخبركم بأشبهكم بي خلقاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أحسنكم خلقاً، وأعظمكم حلماً، وأبرّكم بقرابته، وأشدّكم من نفسه إنصافاً»[٢].

وفي حديث أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحب السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردها بحلم، وجرعة مصيبة تردها بصبر»[٣].

وفي حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله يحب الحيي الحليم العفيف المتعفف»[٤].

وفي مرفوع علي بن حفص عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أعزّ الله بجهل قط، ولا أذلّ بحلم قط»[٥].

وفي حديث مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله أوصني... فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: فإني أوصيك إذا أنت همت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك رشداً فأمضه، وإن يك غياً فانته عنه»[٦].

---

(١) سورة الصافات الآية: ١٠١.

(٢) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢١٢ باب:٢٦ من أبواب جهاد النفس حديث:٩.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١١٠ كتاب الإيمان والكفر: باب كظم الغيظ حديث:٩.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١١٢ كتاب الإيمان والكفر: باب الحلم حديث:٨.

(٥) الكافي ج:٢ ص:١١٢ كتاب الإيمان والكفر: باب الحلم حديث:٥.

(٦) الكافي ج:٨ ص:١٤٩-١٥٠ حديث:١٣٠.

وروى السيد الرضي قدس سره عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أول عوض الحليم من حلمه أن الناس أنصاره على الجاهل»[١].

كظم الغيظ

ويلحق بذلك ـ بل هو أهم منه ـ كظم الغيظ. الذي هو عبارة عن حبس الإنسان غيظه في نفسه، وعدم محاولة الردّ، فهو إلى العفو أقرب.

قال الله عز وجل: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٢].

وفي حديث أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام المتقدم: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أحب السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردها بحِلم، وجرعة مصيبة تردها بصبر»[٣]. وفي حديثه الآخر: «قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من جرعة يتجرعها العبد أحبّ إلى الله عز وجل من جرعة غيظ يتجرعها عند ترددها في قلبه، إما بصبر وإما بحلم»[٤]. ونحوهما غيرهما.

وفي حديث معاوية بن وهب عنه عليه السلام: «ما أكل رسول الله صلى الله عليه وآله متكئاً منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبضه تواضعاً لله عز وجل... ولا كافأ رسول الله صلى الله عليه وآله بسيئة قط. قال الله تعالى له: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ**﴾

---

(١) نهج البلاغة ج:٤ ص:٤٧.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٣٣-١٣٤.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١١٠ كتاب الإيمان والكفر: باب كظم الغيظ حديث:٩.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١١١ كتاب الإيمان والكفر: باب كظم الغيظ حديث:١٣.

ففعل...»[١].

وفي حديث مالك بن حصين السكوني: «قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله عز وجل عزاً في الدنيا والآخرة. وقد قال الله عز وجل: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ وأثابه الله مكان غيظه ذلك»[٢].

وفي حديث الوصافي عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة»[٣].

وفي حديث زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال لي: يا زيد اصبر على أعداء النعم، فإنك لن تكافئ من عصى الله فيك بأفضل من أن تطيع الله فيه. يا زيد إن الله اصطفى الإسلام واختاره فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق»[٤]... إلى غير ذلك.

الصبر

٤ـ الصبر. وقد استفاض الحثّ عليه في الكتاب المجيد والسنة الشريفة. قال الله عز وجل: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ**

---

(١) الكافي ج:٨ ص:١٦٤ حديث:١٧٥.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١١٠ كتاب الإيمان والكفر: باب كظم الغيظ حديث:٥.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١١٠ كتاب الإيمان والكفر: باب كظم الغيظ حديث:٧.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١١٠ كتاب الإيمان والكفر: باب كظم الغيظ حديث:٨.

(٥) سورة آل عمران الآية: ١٨٦.

الْأُمُورِ﴾[١].

وفي حديث الفضيل بن يسار عن أبي عبد الله عليه السلام: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد. كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»[٢].

وفي حديث حفص بن غياث: «قال أبو عبد الله عليه السلام: يا حفص إن من صبر صبر قليلاً، وإن من جزع جزع قليلاً. ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وآله فأمره بالصبر والرفق. فقال: **﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾**، وقال تبارك وتعالى: **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [السيئة.خ] **﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾**.

فصبر رسول الله صلى الله عليه وآله حتى نالوه بالعظائم ورموه بها. فضاق صدره، فأنزل الله عز وجل: **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾**.

ثم كذبوه ورموه. فحزن لذلك، فأنزل الله عز وجل: **﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾** فألزم النبي صلى الله عليه وآله نفسه الصبر.

فتعدوا فذكروا الله تبارك وتعالى وكذبوه، فقال: قد صبرت في نفسي

---

(١) سورة لقمان الآية: ١٧.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٨٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الصبر حديث:٥.

وأهلي وعرضي، ولا صبر لي على ذكر إلهي. فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ**﴾. فصبر النبي صلى الله عليه وآله في جميع أحواله.

ثم بُشِّر في عترته بالأئمة، ووصِفوا بالصبر، فقال: جل ثناؤه: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾. فعند ذلك قال صلى الله عليه وآله: الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

فشكر الله عز وجل ذلك له، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾. فقال صلى الله عليه وآله: إنه بشرى وانتقام.

فأباح الله عز وجل له قتال المشركين. فأنزل [الله]: ﴿**اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾ ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾. فقتلهم الله على يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وأحبائه، وجعل له ثواب صبره. مع ما ادخر له في الآخرة.

فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدنيا حتى يقِرّ [الله] له عينه في أعدائه. مع ما يدّخر له في الآخرة»[1].

وقد أثبتناه بطوله لاستعراضه مراحل صبر النبي صلى الله عليه وآله ومعاناته، وعاقبة صبره في الدنيا والآخرة.

وفي حديث عبد الله بن ميمون عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: «قال: قال الفضل بن عباس في حديث: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن استطعت

(١) الكافي ج:٢ ص:٨٨-٨٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الصبر حديث:٣.

أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً»[١].

ولعل المراد باليقين اليقين بأن ما حصل من المكروه الذي يصبر عليه صلاح له في علم الله تعالى، لأن الله عز وجل لا يختار لعبده المؤمن إلا الخير.

ففي حديث ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلا كان خيراً له. وإن قرّض بالمقاريض كان خيراً له. وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له»[٢]، ونحوه غيره.

وفي حديث فضيل بن ميسر: «كنا عند أبي عبد الله عليه السلام، فجاء رجل فشكا إليه مصيبة أصيب بها. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: أما إنك إن تصبر تؤجر، وإلا تصبر يمضي عليك قدر الله الذي قدر عليك وأنت مأزور»[٣]، ونحوه غيره.

وفي ذلك عون على المصيبة وعلى الصبر عليها. من استوعبه خفّت مصيبته، وهان عليه ما يلقاه في معترك الحياة.

وفي حديث أبي بصير عنه عليه السلام: «قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إني لأصبر من غلامي هذا ومن أهلي على ما هو أمرّ من الحنظل. إنه من

---

(١) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢٠٩ باب:٢٥ من أبواب جهاد النفس حديث:٤.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٦٢ كتاب الإيمان والكفر: باب الرضا بالقضاء حديث:٨.

(٣) الكافي ج:٣ ص:٢٢٥ كتاب الجنائز: باب الصبر والجزع والاسترجاع حديث:١٠.

صبر نال بصبره درجة الصائم القائم، ودرجة الشهيد الذي قد ضرب بسيفه قدام محمد صلى الله عليه وآله»[١].

وفي حديث حماد بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم وزير الإيمان العلم، ونعم وزير العلم الحلم، ونعم وزير الحلم الرفق، ونعم وزير الرفق الصبر»[٢].

وفي حديث أبي حمزة: «قال أبو جعفر عليه السلام: لما حضرت أبي علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة ضمني إلى صدره، وقال: يا بني أوصيك بما أوصاني أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به. يا بني اصبر على الحق وإن كان مرّاً»[٣].

وفي حديث الأصبغ: «قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): الصبر صبران: صبر عند المصيبة. حسن جميل. وأحسن من ذلك الصبر عند ما حرّم الله عز وجل عليك. والذكر ذكران: ذكر الله عز وجل عند المصيبة. وأفضل من ذلك ذكر الله عند ما حرّم الله عليك، فيكون حاجزاً»[٤].

والحديث في الصبر طويل جداً لا يسعنا استيفاؤه. وفيما ذكرناه كفاية.

موقع الصبر من الإيمان

نعم يحسن الوقوف على ما تضمنه غير واحد من النصوص ـ منها حديثا الفضيل بن يسار وحفص بن غياث المتقدمان ـ من أن الصبر من

---

(١) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢٠٩ باب:٢٥ من أبواب جهاد النفس حديث:٥.

(٢) الكافي ج:١ ص:٤٨ باب النوادر من كتاب فضل العلم حديث:٣.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٩١ كتاب الإيمان والكفر: باب الصبر حديث:١٣.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٩٠ كتاب الإيمان والكفر: باب الصبر حديث:١١.

الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. فإنه يكشف عن موقعه المهم من الإيمان، حيث يتوقف بقاء الإيمان عليه، كما تتوقف الحياة في الجسد على الرأس.

ولعله لأن حكمة الله عز وجل اقتضت تعرض المؤمن للمِحَن والزلازل والفتن. قال الله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**﴾[1].

ومن الظاهر أن المراد بقرب النصر قربه عند الله عز وجل، لا قربه عند الإنسان بحسب مقاييسه العاجلة. وقد قال الله تعالى: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾[2].

وقد يرى الله تعالى أن صلاح المؤمن في البلاء، فليس له إلا الصبر والرضا بقضاء الله تعالى وقدره والتسليم لأمره، كما في حديث ابن يعفور المتقدم وغيره.

وفي حديث وهب بن وهب القاضي عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله جل جلاله: يا ابن آدم أطعني فيما أمرتك، ولا تعلمني ما يصلحك»[3].

وتقدم عند الكلام في احترام علاقة الإيمان بعض النصوص المتضمنة لذلك وكثيراً ما ظهر حسن عاقبة البلاء على الأمد البعيد. بل حتى على

---

(١) سورة البقرة الآية: ١١٤.

(٢) سورة الحج الآية: ٤٧.

(٣) أمالي الشيخ الصدوق ص:٣٩٨ المجلس:٥٢ حديث:٧.

الأمد القريب نسبياً.

أما الجزع فقد ينتهي بصاحبه لردود فعل وخيمة العاقبة، قد تنتهي بعصيانه، بل كفره. والعياذ بالله.

كما أن الله عز وجل قد يَعِد بالفرج. لكن وعده به لا يقتضي تعجيله، كما يريد المبتلى، الذي قد ينتهي أمره باليأس منه إذا طالت مدة البلاء عليه، كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾[1].

وهذان الأمران يجريان في كل ابتلاء يتعرض له المؤمن صغيراً كان أو كبيراً، خاصاً كان أو عاماً. لكن في الشديد الطويل الأمد تشتد الحاجة لمراعاتهما.

محنة المؤمنين بغيبة الإمام عليه السلام[2]

ومنه ابتلاء المؤمنين بغيبة الإمام المنتظر (عجل الله فرجه الشريف)، ووعدهم القاطع بفرج ظهوره مهما طالت غيبته.

والذي يبدو أن هذا الوعد لا يختص بالمسلمين، بل هو وعد إلهي للأمم في عمق تاريخ الأديان، بظهور مصلح يتمّ على يديه العدل الشامل.

---

(١) سورة يوسف الآية: ١١٠.

(٢) الكلام في ذلك وإن كان يبدو خارجاً عما نحن فيه من الحديث عن خُلُق النبي صلى الله عليه وآله وما تضمنته رسالته الشريفة من الخصال الحميدة، إلا أن شدّة الحاجة إليه مع طول مدة الغيبة وتتابع الفتن والمحن، حملتنا على الاستطراد بذكره، عسى أن ينتفع به المؤمنون في محنتهم. ولاسيما أن الوعد بالغيبة بدأ من النبي صلى الله عليه وآله، كما يأتي بعض النصوص في ذلك. والله سبحانه وتعالى هو المعين المسدد.

كما يظهر من قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[1]. وهو الذي يذكره المنتسبون للأديان السماوية.

وذلك يرجع إلى أنه وعد لا يبتني على التعجيل، بل هو طويل الأمد، حيث انتهى ـ بمقتضى الأدلة ـ بإمامنا الثاني عشر المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

لكن تعلق شيعة أهل البيت بدينهم وفاعليته في أنفسهم، مع ما تعرضوا له من المصائب والكوارث في تاريخهم الطويل، وما تعرضت له البشرية عموماً من صراعات مدمرة، كل ذلك جعلهم يعانون من الترقب والانتظار، ويشتد تركيزهم عليهما. وهو أمر جيد في نفسه قد حثّت النصوص عليه كثيراً، لئلا تغيب أصول الدين العقائدية عن ذاكرة المؤمن.

إلا أنه إذا لم يقترن ذلك بقوة الصبر والتسليم ـ اللذين أكدت النصوص عليهما في خصوص المقام ـ فقد يتعرض المؤمن لأحد أمرين:

الأول: الجزع، ثم اليأس، الذي قد ينتهي بالتخلي عن العقيدة بوجوده عليه السلام. وبذلك يخرج صاحبه عن حدود الإيمان، وتكون عاقبته الخسران الدائم.

نظير ما تضمنته كثير من الآيات الشريفة والنصوص الكثيرة من إنكار الكفار للمعاد والقيامة، لعدم تعيين وقتها وطول المدة عليهم. وكذا إنكارهم العذاب الدنيوي الذي وعدهم به أنبياؤهم ـ كغرق قوم نوح ـ لتأخره وعدم تحديد وقته.

---

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٥.

الثاني: التشبث بالأوهام والدعاوى المضللة لمن يدعي المهدوية، أو ما يشابهها، بأدنى شبهة، من دون تثبت ولا برهان. وهو لا يقِلّ خطراً عن الأول.

ولم يغفل الأئمة (صلوات الله عليهم) ذلك، بل أكدت النصوص الواردة عنهم على أن ظهوره عليه السلام كالساعة يأتي بغتة[١]، وعلى أنه هلك المستعجلون[٢] وكذب الوقاتون[٣].

وفي خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام: «الزموا الأرض، واصبروا على البلاء، ولا تحركوا بأيديكم وسيوفكم في هوى ألسنتكم، ولا تستعجلوا بما لم يعجله الله لكم. فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربه وحقّ رسوله وأهل بيته مات شهيداً، ووقع أجره على الله، واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاته لسيفه. وإن لكل شئ مدة وأجلاً»[٤]... إلى غير ذلك.

فعلى المؤمنين الحذر ثم الحذر من التخلي عن الصبر في هذا الأمر الخطير، ومن الاندفاع وراء الأوهام والدعاوى الضالة من دون تثبت ولا بصيرة، والتغافل عما ورد عنهم عليهم السلام مما تقدم وغيره.

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة ص:٣٧٣. كفاية الأثر ص:٢٧٧. فرائد السمطين ج:٢ ص:٣٣٨.

(٢) الكافي ج:١ ص:٣٦٨ كتاب الحجة: باب كراهية التوقيت حديث:٢. كمال الدين وتمام النعمة ص:٣٧٨. كفاية الأثر ص:٢٨٤. الغيبة للشيخ الطوسي ص:٤٢٦. وغيرها من المصادر.

(٣) الإمامة والتبصرة ص:٩٥. الكافي ج:١ ص:٣٦٨ كتاب الحجة: باب كراهية التوقيت حديث:٣، ٥. الغيبة للنعماني ص:٣٠١. كفاية الأثر ص:٢٩٦. إعلام الورى بأعلام الهدى ج:٢ ص:٢٧٠. الخرائج والجرائح ج:١ ص:١٧٩.

(٤) نهج البلاغة ج:٢ ص:١٣٢-١٣٣.

وقد ورد التحذير الشديد في النصوص من ذلك. ففي حديث علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام: «قال: إذا فقد الخامس من ولد السابع فالله الله في أديانكم لا يزيلكم عنها أحد. يا بني إنه لا بد لصاحب هذا الأمر من غيبة، حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به. إنما هو محنة من الله عز وجل امتحن بها خلقه...»[١].

وفي حديث يمان التمار: «كنا عند أبي عبد الله عليه السلام جلوساً فقال لنا: إن لصاحب هذا الأمر غيبة، المتمسك فيها بدينه كالخارط للقتاد. ثم قال هكذا بيده، فأيكم يمسك شوك القتاد بيده؟! ثم أطرق ملياً. ثم قال: إن لصاحب هذا الأمر غيبة. فليتق الله عبد، وليتمسك بدينه»[٢].

وفي حديث المفضل بن عمر: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إياكم والتنويه. أما والله ليغيبن إمامكم سنيناً من دهركم. ولتُمحصُن، حتى يقال: مات، قتل، هلك. بأي وادٍ سلك؟ ولتدمعن عليه عيون المؤمنين. ولتكفؤن كما تكفأ السفن في أمواج البحر، فلا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه، وكتب في قلبه الإيمان، وأيده بروح منه. ولترفعن اثنتا عشر راية مشتبهة لا يدري أي من أي. قال: فبكيت، ثم قلت: فكيف نصنع؟ فنظر إلى شمس داخلة في الصُفّة. فقال: يا أبا عبد الله ترى هذه الشمس؟ قلت نعم. قال: والله لأمرنا أبين من هذه الشمس»[٣]. وقريب منه حديثه

---

(١) الكافي ج:١ ص:٣٣٦ كتاب الحجة: باب في الغيبة حديث:٢.

(٢) الكافي ج:١ ص:٣٣٥-٣٣٦ كتاب الحجة: باب في الغيبة حديث:١.

(٣) الكافي ج:١ ص:٣٣٦ كتاب الحجة: باب في الغيبة حديث:٣.

والظاهر أن ما تضمنه صدر الحديث من اشتباه الأمر في الرايات الاثني عشر إنما هو في حقّ من لم يرجع إلى تراث أهل البيت عليهم السلام، ولم ينظر في رواياتهم وتعاليمهم، وأصغى

الآخر[١]. والنصوص في ذلك كثيرة لا يسعنا استقصاؤها.

ولعله لذا ورد في بعض النصوص الحث على انتظار الفرج. ففي حديث الحسن بن الجهم عن الإمام الرضا عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج»[٢].

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قال: أفضل عبادة المؤمن انتظار فرج الله»[٣].

وانتظار الفرج يرجع إلى أمرين لهما أهميتهما **الأول**: بقاء قائم آل محمد صلى الله عليه وآله في ذاكرة المؤمن، وعدم نسيانه وما يتبع ذلك من اللجأ إليه في الأزمات، والأمل في رعايته فيها، لأن الانتفاع به في غيبته كالانتفاع بالشمس إذا جللها السحاب. وهذا مما يقوي الإيمان به، والطمأنينة لحسن قضاء الله عز وجل في الأزمات. ولاسيما إذا ظهرت آثار غوثه ورعايته. **الثاني**: الصبر، الذي تقدم أنه من الإيمان كالرأس من الجسد.

مدح الشيعة بالصبر

هذا وقد ورد مدح الشيعة بالصبر. ففي حديث الوشا عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إنا صبّر، وشيعتنا أصبر منّا. قلت:

لتنظيرات الرجال وحساباتهم. وما تضمنه آخره من وضوح أمرهم عليهم السلام وأنه كالشمس إنما هو في حق من اطلع على تراثهم وتفاعل به، وأعرض عن كل ما سواه من التنظيرات والحسابات المتكلفة.

(١) الكافي ج:١ ص:٣٣٨-٣٣٩ كتاب الحجة: باب في الغيبة حديث:١١.

(٢) عيون أخبار الرضا ج:٢ ص:٣٩ باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من الأخبار المجموعة حديث:٨٧.

(٣) كتاب المحاسن ص:٢٩١ باب المحبوبات حديث:٤٤٠.

جعلت فداك كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟ قال: لأنا نصبر على ما نعلم، وشيعتنا يصبرون على ما لا يعلمون»[١].

وفي حديث إسحاق بن جرير: «قال أبو عبد الله عليه السلام... وقالت أمي: قال أبي: يا أم فروة إني لأدعو الله لمذنبي شيعتنا في اليوم والليلة ألف مرة، لأنا نحن فيما ينوبنا من الرزايا نصبر على ما نعلم من الثواب، وهم يصبرون على ما لا يعلمون»[٢].

مدح الشيعة في عصر الغيبة

كما ورد مدح المؤمنين الثابتين على الحق في عصر الغيبة وعدم رؤية الإمام بقوة إيمانهم. وكأنه لثباتهم وعدم تزلزلهم، وقوة إيمانهم بالغيب مع ما يلاقونه من مصائب.

ففي حديث سدير عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: طوبى لمن أدرك قائم أهل بيتي وهو مقتد به قبل قيامه. يأتم به وبأئمة الهدى من قبله، ويبرأ إلى الله عز وجل من عدوهم. أولئك رفقائي وأكرم أمتي عليّ»[٣].

وفي حديث وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي أعجب الناس إيماناً وأعظمهم يقيناً قوم يكونون في آخر الزمان، لم يلحقوا النبي، وحُجِب

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٩٣ كتاب الإيمان والكفر: باب الصبر حديث:٢٥.

(٢) الكافي ج:١ ص:٤٧٢ كتاب الحجة: باب مولد أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام حديث:١.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة ج:١ ص:٢٨٦-٢٨٧ باب ما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله من وقوع الغيبة بالقائم عليه السلام حديث:٣.

عنهم الحجة، فآمنوا بسواد على بياض»[١].

وفي حديث أبي إسحاق السبيعي عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ممن يوثق به: «أن أمير المؤمنين عليه السلام تكلم بهذا الكلام، وحفظ عنه، وخطب به على منبر الكوفة: اللهم إنه لابد لك من حجج في أرضك، حجة بعد حجة على خلقك... ظاهر غير مطاع أو مكتتم يترقب. إن غاب عن الناس شخصهم في حال هدنتهم فلم يغب عنهم قديم مبثوث عملهم. وآدابهم في قلوب المؤمنين مثبتة، فهم بها عاملون.

ويقول عليه السلام في هذه الخطبة في موضع آخر... اللهم فإني لأعلم أن العلم لا يأزر كله، ولا ينقطع مواده، وأنك لا تخلي أرضك من حجة لك على خلقك. ظاهر ليس بالمطاع أو خائف مغمور، كيلا تبطل حجتك، ولا يضل أولياؤك بعد إذ هديتهم. بل أين هم؟ وكم هم؟ أولئك الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً»[٢].

وفي حديث عبد الرحمن بن سالم الأشل عن بعض الفقهاء: «قال: قال أمير المؤمنين: ﴿**إِنَّ أَوْلِيَاء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾. ثم قال: تدرون من أولياء الله؟ قالوا: من هم يا أمير المؤمنين؟ فقال: هم نحن وأتباعنا. فمن تبعنا من بعدنا طوبى لنا، طوبى لنا، وطوبى لهم، وطوباهم أفضل من طوبانا. قيل: ما شأن طوباهم أفضل من طوبانا؟ ألسنا نحن وهم على أمر؟ قال: لا، لأنهم حُمِّلوا ما لم تُحمَلوا عليه، وأطاقوا ما لم

(١) من لا يحضره الفقيه ج:٤ ص:٢٦٥ باب النوادر وهو آخر الكتاب حديث:١.

(٢) الكافي ج:١ ص:٣٣٩ كتاب الحجة: باب الغيبة حديث:١٣.

تطيقوا»[١].

وفي حديث منصور بن الحمق الخزاعي: «أغمي على أمير المؤمنين عليه السلام حين ضربه ابن ملجم (لعنه الله). فأفاق وهو يقول: طوبى لهم وطوبى لكم. وطوباهم أفضل من طوباكم. قال: قلت: صدقت يا أمير المؤمنين. طوباهم [طوبانا ظ] برؤيتك، وطوبانا بالجهاد معك، وطوبانا بطاعتك، ومن هؤلاء الذين طوباهم أفضل من طوبانا؟ قال: هؤلاء شيعتي الذين يأتون من بعدكم، يطيقون ما لا تطيقون، ويحملون ما لا تحملون»[٢].

وفي حديث المفضل بن عمر: «سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ قال عليه السلام: ﴿**وَالْعَصْرِ**﴾ عصر خروج القائم. ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ يعني: أعداءنا ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ يعني: بآياتنا ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ يعني: بمواساة الإخوان ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ**﴾ يعني: بالإمامة ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ يعني في الفترة»[٣].

وقد تقدم عند الكلام في الإيمان بالغيب قول رشيد الهجري لابنته قنوة: «سيجيء قوم بعدنا بصائرهم في دينهم أفضل من اجتهاد أوليهم».

ولنختم ذلك بما ورد في حديث اللوح المتضمن لأسماء الأئمة الاثني عشر وفيه بعد ذكر الإمام الحسن العسكري: «ثم أكمل ذلك بابنه

---

(١) تفسير العياشي ج:٢ ص:١٢٤. من سورة يونس حديث:٣٠.

(٢) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار ج:١ ص:١٧٣-١٧٤ الفصل:٥ في ذكر ما جاء في فضائل علي عليه السلام.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة ج:٢ ص:٦٥٦ باب:٥٨ حديث:١.

[م ح م ح. الكافي] رحمة للعالمين. عليه كمال موسى وبهاء عيسى وصبر أيوب. ستذل أوليائي في زمانه، ويتهادون رؤوسهم كما تتهادى رؤوس الترك والديلم، فيقتلون ويحرقون، ويكونون خائفين مرعوبين وجلين. تصبغ الأرض بدمائهم، ويفشو الويل والرنين في نسائهم. أولئك أوليائي حقاً. بهم أدفع كل فتنة عمياء حندس، وبهم أكشف الزلازل وأرفع عنهم الآصار والأغلال. ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾»[1].

فعلى المؤمنين التدرّع بالصبر أمام الفتن والشبه والحيرة والشدّة في محنة الغيبة، التي لا يزالون يعيشونها، ولا يعلم أمدها إلا الله عز وجل، أو من شاء هو أن يعلمه.

ونسأله تعالى العصمة والتسديد والثبات على الحق، والتَثبّت أمام الصراع الدائم بين أدلة الحق الواضحة الكافية في قيام الحجة، والشبهات وتأجج العواطف التي يتعرض فيها الإنسان للانزلاق في مهاوي الهلكة، والغفلة أو التغافل عن أدلة الحق المشار إليها.

العفو

٥ـ العفو. وقد استفاضت في الحثّ عليه الآيات الكريمة والنصوص الشريفة وقد وصف الله عز وجل نفسه بالعفو والمغفرة في آيات كثيرة. وقال تعالى: ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾[2].

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة ج:٢ ص:٣١٠-٣١١ باب:٢ ذكر النص على القائم في اللوح... حديث:١، واللفظ له. الكافي ج:١ ص:٥٢٨ باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم عليهم السلام.

(٢) سورة الشورى الآية: ٤٣.

وفي حديث عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته: ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة: العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من حرمك»[١].

وفي حديث السكوني عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يعزكم الله»[٢].

وفي حديث حمران عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: الندامة على العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة»[٣].

وفي حديث ابن فضال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: ما التقت فئتان قط إلا نصر أعظمهما عفواً»[٤].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «والعفو زكاة الظفر»[٥]. وقال عليه السلام: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»[٦]. وقال عليه السلام: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة»[٧].

وعرف عن النبي صلى الله عليه وآله العفو وقبول عذر المعتذر وإن علم بكذبه،

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٠٧ كتاب الإيمان والكفر: باب العفو حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٠٨ كتاب الإيمان والكفر: باب العفو حديث:٥.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٠٨ كتاب الإيمان والكفر: باب العفو حديث:٦.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١٠٨ كتاب الإيمان والكفر: باب العفو حديث:٨.

(٥) نهج البلاغة ج:٤ ص:٤٨.

(٦) نهج البلاغة ج:٤ ص:٤.

(٧) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٤.

حتى استخفّ به المنافقون، ونعتوه بأنه أذن يعني: يسمع من كل أحد، ويقبل منه. فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ الله لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[١].

قال علي بن إبراهيم: «فإنه كان سبب نزولها ان عبد الله بن نفيل كان منافقاً، وكان يقعد لرسول الله صلى الله عليه وآله فيسمع كلامه، وينقله إلى المنافقين وينمّ عليه، فنزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد إن رجلاً من المنافقين ينمّ عليك وينقل حديثك إلى المنافقين. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله من هو؟ فقال الرجل الأسود الكثير شعر الرأس ينظر بعينين كأنهما قدران، وينطق بلسان شيطان. فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره. فحلف أنه لم يفعل. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: قد قبلت منك، فلا تقعد. فرجع إلى أصحابه فقال: إن محمداً أذن. أخبره الله أني أنمّ عليه وأنقل أخباره فقبل، وأخبرته أني لم أفعل ذلك فقبل...»[٢].

ومن ذلك عفوه صلى الله عليه وآله عن المشركين من قريش بعد فتح مكة مع شدّة إيذائهم له وللمسلمين قبل الهجرة وبعدها. بل حاله في العفو أظهر من ذلك.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «متى أشفي غيظي إذا غضبت. أحين أعجز عن الانتقام، فيقال لي: لو صبرت، أم حين أقدر عليه، فيقال لي: لو عفوت؟»[٣].

---

(١) سورة التوبة الآية: ٦١.

(٢) تفسير القمي في تفسير الآية المتقدمة ص:٣٠٠.

(٣) نهج البلاغة ج:٤ ص:٤٥.

وهذا الخلق يكشف عن نبل صاحبه، وشرف نفسه، وقوتها، حيث يسيطر على عواطفه وشفاء غيظه بالانتقام. ثم هو محفّز للمعتدي على تراجعه عن عدوانه. نظير فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة للعباد وقبولها منهم.

التواضع

٦ـ التواضع. قال الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[2]. وهو من خُلق الأنبياء والأئمة ووصاياهم، ومنهم سيدهم نبينا العظيم صلى الله عليه وآله.

وفي حديث مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: أرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت له جالس على التراب، وعليه خلقان الثياب. قال: فقال جعفر عليه السلام: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال.

فلما رأى ما بنا وتغير وجوهنا قال: الحمد لله الذي نصر محمداً وأقرّ عينه. ألا أبشركم؟ فقلت: بلى أيها الملك. فقال: إنه جاءني الساعة من نحو أرضكم عين من عيوني هناك، فأخبرني أن الله عز وجل قد نصر نبيه محمداً صلى الله عليه وآله، وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان وفلان. التقوا بواد يقال له: بدر كثير الأراك. لكأني أنظر إليه، حيث كنت أرعى لسيدي هناك، وهو رجل من بني ضمرة.

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٣٧-٣٨.

(٢) سورة لقمان الآية: ١٨.

فقال له جعفر: أيها الملك فمالي أراك جالساً على التراب وعليك هذه الخلقان؟ فقال له: يا جعفر إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام أن من حق الله على عباده أن يحدثوا له تواضعاً عندما يحدث لهم من نعمة. فلما أحدث الله عز وجل لي نعمة بمحمد صلى الله عليه وآله أحدثت لله هذا التواضع.

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه: إن الصدقة تزيد صاحبها كثرة، فتصدقوا يرحمكم الله. وإن التواضع يزيد صاحبه رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله. وإن العفو يزيد صاحبه عزاً، فاعفوا يعزكم الله»(١).

وفي حديث عمر بن أبي المقدام عنه عليه السلام: «قال: فيما أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: يا داود كما أن أقرب الناس من الله المتواضعون، كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون»(٢).

وفي حديث معاوية بن عمار عنه عليه السلام: «سمعته يقول: إن في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبر وضعاه»(٣).

وفي حديث ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: ما من عبد إلا وفي رأسه حَكَمَة، وملك يمسكها. فإذا تكبر قال له: اتضع وضعك الله. فلا يزال أعظمَ الناس في نفسه، وأصغرَ الناس في أعين الناس. وإذا تواضع رفعه الله عز وجل. ثم قال: انتعش نعشك الله. فلا

---

(١) الكافي ج٢ ص١٢١ كتاب الإيمان والكفر: باب التواضع حديث:١. أمالي الشيخ المفيد ص:٢٣٨-٢٣٩ المجلس:٢٨ حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٢٣-١٢٤ كتاب الإيمان والكفر: باب التواضع حديث:١١.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٢٢ كتاب الإيمان والكفر: باب التواضع حديث:٢.

يزال أصغرَ الناس في نفسه، وأرفعَ الناس في أعين الناس»[١].

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وأن تسلم على من تلقى، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً، وأن لا تحب أن تُحمَد على التقوى»[٢].

تواضع النبي صلى الله عليه وآله والأنبياء عليهم السلام

وفي حديث علي بن المغيرة: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن جبرئيل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فخيّره وأشار عليه بالتواضع، وكان له ناصحاً. فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل أكلة العبد، ويجلس جلسة العبد، تواضعاً لله تبارك وتعالى. ثم أتاه عند الموت بمفاتيح خزائن الدنيا، فقال: هذه مفاتيح خزائن الدنيا، بعث بها إليك ربك، ليكون لك ما أقلت الأرض، من غير أن ينقصك شيئاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: في الرفيق الأعلى»[٣]. والنصوص في تواضعه صلى الله عليه وآله وتواضع الأنبياء والأئمة عليهم السلام ووصاياهم به كثيرة.

تأثير التواضع في نفوس الأتباع

وبهذا ملكوا قلوب أتباعهم وأثّروا في المؤمنين منهم، فوالوهم، وثبتوا على موالاتهم، بل ضحّوا في سبيل ذلك بالغالي والنفيس.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣١٢ ب كتاب الإيمان والكفر: باب الكبر حديث:١٦. والحَكَمَة: ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه يمنعه من مخالفة راكبه.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٢٢-١٢٣ كتاب الإيمان والكفر: باب التواضع حديث:٦.

(٣) الكافي ج:٨ ص:١٣١ حديث:١٠١.

وإلى هذا يشير حديث معاوية بن وهب: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اطلبوا العلم، وتزينوا معه بالحلم والوقار. وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم. ولا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطلكم بحقكم»[1].

ومرفوع محمد بن سنان: «قال عيسى بن مريم عليه السلام للحواريين: لي إليكم حاجة اقضوها لي. فقالوا: قضيت حاجتك يا روح الله. فقام فغسل أقدامهم. فقالوا: كنا أحق بهذا منك. فقال: إن أحقّ الناس بالخدمة العالم. إنما تواضعتُ هكذا لكي ما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم. ثم قال عيسى عليه السلام: بالتواضع تعمر الحكمة، لا بالتكبر. وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل»[2].

حديث عدي بن حاتم

وذكر عدي بن حاتم الطائي قدومه على رسول الله صلى الله عليه وآله وهو لا يدري أنه ملِك أو نبي، ثم إسلامه لما رأى منه. قال: «فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم. فقام رسول الله صلى الله عليه وآله، فانطلق بي إلى بيته. فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها. قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملِك. قال: ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى إذا دخل بي في بيته تناول وسادة من أدم محشوة

(١) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢١٩ باب:٣٠ من أبواب جهاد النفس حديث:١. أمالي الشيخ الصدوق ص:٤٤٠ المجلس:٥٧ حديث:٩.

(٢) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٢١٩ باب:٣٠ من أبواب جهاد النفس حديث:٢.

ليفاً، فقذفها إلي، فقال: اجلس على هذه. قال: فقلت: بل أنت فاجلس عليها. فقال: بل أنت. فجلست عليها، وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأرض. قال: فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملِك...»[1].

ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ذي طوى عند فتح مكة وقف على راحلته وهو معتجر ببرد خزّ أحمر وقد وضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه به من الفتح، حتى إن أسفل لحيته ليمسنّ واسطة الرحل[2]. وقد تقدم عند التعرض لفتح مكة.

وصف ضرار أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية

وفي حديث ضرار لمعاوية في وصف أمير المؤمنين عليه السلام حينما أراد منه أن يصفه له، قال: «ما أصف منه؟ كان والله شديد القوى، بعيد المدى، يتفجر العلم من أنحائه، والحكمة من أرجائه، حسن المعاشرة، سهل المباشرة، خشن المأكل، قصير الملبس، غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه. وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألنا، ويبتدئنا إذا سكتنا. ونحن مع تقريبه لنا أشدّ ما يكون صاحب لصاحب هيبة، لا نبتدئه الكلام لعظمته. يحب المساكين، ويقرب أهل الدين... فبكى معاوية، وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك. فكيف حزنك عليه؟ قال: حزن من ذبح

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج:٤ ص:١٠٠١-١٠٠٢ أمر عدي بن حاتم، واللفظ له. تاريخ دمشق ج:٦٩ ص:٢٠٠-٢٠١ في ترجمة سفانة بنت حاتم الطائية. السيرة النبوية لابن سيد الناس ج:٢ ص:٢٨٧-٢٨٨ قدوم عدي بن خاتم الطائي. السيرة الحلبية ج:٣ ص:٢٥٨. وغيرها من المصادر.

(٢) الكامل في التاريخ ج:٢ ص:٢٤٦-٢٤٧ ذكر فتح مكة. والاعتجار: لفّ العمامة على الرأس.

ولدها في حجرها»[١].

التواضع هو المناسب لواقع الإنسان

على أن التواضع في نفسه هو المناسب لواقع الإنسان في ضعفه وافتقاره في أصل وجوده، ثم في بقائه ومعاناته في حياته في حاجاته البدنية، وإفرازاته المستقذرة، وتعرضه للطوارئ الخارجية، ونهايته وقهره بالموت الذي لا مفر له منه.

وقد أشار لذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه»[٢]، وبقوله: «مسكين ابن آدم مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة»[٣].

المتكبر يعاني من عقدة نقص

وفي حديث عبد الله بن بكير: «قال أبو عبد الله عليه السلام: ما من أحد يتيه إلا من ذلة يجدها في نفسه». وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «قال: ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه»[٤].

ومرجع ذلك إلى أن المتكبر يعاني من عقدة نقص في نفسه. فهو يحاول أن يتدارك هذا النقص ويسدّه بالتجبر والتكبر والتعالي والغطرسة. وقد

---

(١) شرح نهج البلاغة ج:١٨ ص:٢٢٥-٢٢٦.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٠٤.

(٣) نهج البلاغة ج:٤ ص:٩٨.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٣١٢ كتاب الإيمان والكفر: باب الكبر حديث:١٧ وذيله.

يزيد على ذلك بالتعدي والظلم لمن هو أضعف منه.

وهو المعلوم من حال كثير من الطغاة والجبابرة، حيث عرف عنهم خسة النسب، ودناءة الحسب، والتخلي عن مكارم الأخلاق، وغير ذلك من جهات النقص.

تفضيل الله تعالى للعبد لا يقتضي تكبره

هذا وإذا فضّل الله عز وجل العبد على غيره بجهة مادية أو معنوية فهو تعالى: **أولاً**: قادر على سلب ذلك منه متى شاء. **وثانياً**: يُحب منه التواضع، ويَكره منه التكبر. فمقضى العقل والرشد أن يشكر النعمة بتواضعه، كما تقدم من النجاشي، ولا يكفرها بتكبره، فتحور وتنقلب نقمة، ويعرضها للزوال.

وفي قضية إبليس عبرة للمعتبرين. فإنه لو تمّ له ما ادعاه من فضيلة على آدم عليه السلام في منشأ خلقه، فقد خسر ذلك بتكبره ومخالفة أمر الله عز وجل، كما حبط عمله وعبادته الطويلة الأمد، وصار لعنة الله عز وجل ولعنة خلقه إلى يوم الدين. ثم هو بعد ذلك في عذاب الله من الخالدين.

مفردات تواضع النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام

ولذا كان النبي صلى الله عليه وآله كثيراً ما يشيد بمقامه، وأنه أفضل الأنبياء وأفضل الخلق، لأنه أول من أقر لله عز وجل[1] وغير ذلك. لكنه كثيراً ما

(١) الكافي ج:٢ ص:١٠، ١٢ كتاب الإيمان والكفر: باب أن رسول الله أول من أجاب وأقرّ لله عز وجل بالربوبية حديث:١، ٣.

يقول أيضاً: «ولا فخر»[١]. يريد بذلك أن ينبه على أن ذكره لهذه الأمور لأنها حقائق دينية عليه بيانه لها بمقتضى وظيفته كنبي مرسل، من دون فخر وتبجح، ليبقى محافظاً على تواضعه لله عز وجل الذي هو مقتضى عبوديته. وعليه كان عمله في مجلسه ومعاشرته مع الناس وفي مأكله ومشربه وملبسه، كما تقدم، ويأتي بعض مفردات ذلك.

وعلى ذلك يجري حديث الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تبارك وتعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً...»[٢].

وقريب من ذلك حديث هارون بن الفضل: «رأيت أبا الحسن علي بن محمد في اليوم الذي توفي فيه أبو جعفر عليه السلام. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. مضى أبو جعفر عليه السلام. فقيل له: وكيف عرفت؟ قال: لأنه تداخلني ذلة لله لم أكن أعرفها»[٣].

ومرجع الجميع إلى أن الله عز وجل إذا منح الإنسان كرامة ـ من نبوة أو إمامة أو غيرها ـ فمن شأنها أن تزيد في خضوعه له وذله بين يديه

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة ج:٧ ص:٤٠٩ كتاب الفضائل: باب ما أعطى الله تعالى محمداً صلى الله عليه وآله، ج:٨ ص:٣٣٨ كتاب الأوائل: باب أول ما فعل ومن فعله. مسند أحمد بن حنبل ج:١ ص:٥، ٢٨١، ٢٩٥، ج:٣ ص:٢، ١٤٤، ج:٥ ص:١٣٧. مسند الدارمي ج:١ ص:١٩٥ باب ما أعطي النبي صلى الله عليه وآله من الفضل. الغيبة للنعماني ص:٩٣. الأمالي للصدوق ص:٢٥٤ المجلس:٣٥ حديث:١. وغيرها من المصادر الكثيرة جداً.

(٢) عيون أخبار الرضا ج:٢ ص:٢١٧ باب ما جاء عن الرضا عليه السلام.

(٣) الكافي ج:١ ص:٣٨١ كتاب الحجة: باب في أن الإمام متى يعلم أن الأمر قد صار إليه حديث:٥، واللفظ له. بصائر الدرجات ص:٤٨٧ باب:٢١ حديث:٣، ٥. وأبو الحسن هنا هو الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام. وأبو جعفر هو الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام.

وشكره له تعالى بتواضعه وطاعته له. ولا يتبجح ويستكبر عن طاعته، كما صدر من إبليس، فتحل عليه لعنة الله تعالى وطرده له عن ساحة رحمته. كما أن عليه أن يتواضع شكراً لله عز وجل إذا تفضل عليه بنعمه الدنيوية من صحة أو مال أو جاه أو غيرها، شكراً لتلك النعم.

ونسأله سبحانه وتعالى العصمة والسداد، وهو أرحم الراحمين.

شكر النعمة

٧ـ الشكر. ومن المعلوم التأكيد عليه في الكتاب المجيد والسنة الشريفة. وقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بالشكر في عدد من الآيات الكريمة.

وقال عز وجل: ﴿**وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾[١]. وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[٢].

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع»[٣].

وفي حديثه الآخر عنه عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما فتح الله على عبد

(١) سورة النمل الآية: ٤٠.

(٢) سورة إبراهيم الآية: ٧.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٩٤ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:١.

باب شكر فخزن عنه [عليه] باب الزيادة»[١].

وفي حديث عبد الله بن مسكان عنه عليه السلام: «قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان في سفر يسير على ناقة له، إذا [إذ.ظ] نزل فسجد خمس سجدات. فلما أن ركب قالوا: يا رسول الله إنا رأيناك صنعت شيئاً لم تصنعه؟ فقال: نعم استقبلني جبرئيل عليه السلام فبشرني ببشارات من الله عز وجل، فسجدت لله شكراً لكل بشرى سجدة»[٢].

وفي حديث هشام بن أحمر: «كنت أسير مع أبي الحسن عليه السلام في بعض أطراف المدينة إذ ثنى رجله عن دابته، فخرّ ساجداً، فأطال وأطال. ثم رفع رأسه وركب دابته. فقلت: جعلت فداك قد أطلت السجود. قال: إنني ذكرت نعمة أنعم الله بها عليّ، فأحببت أن أشكر ربي»[٣].

وفي حديث أبي بصير: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله له بها الجنة. ثم قال: إنه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمّي، ثم يشرب فينحيه وهو يشتهيه، فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه، فيحمد الله. فيوجب الله عز وجل بها له الجنة»[٤].

وفي حديث ميسّر عنه عليه السلام: «قال: شكر النعمة اجتناب المحارم.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٩٤ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٩٨ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٢٤.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٩٨ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٢٦.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٩٦-٩٧ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:١٦.

وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين»[١].

وفي حديث أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: تقول ثلاث مرات إذا نظرت إلى المبتلى من غير أن تُسمِعه: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، ولو شاء فعل. قال: من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبداً»[٢].

وفي حديث خالد بن نجيح عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إذا رأيت الرجل وقد ابتلي وأنعم الله عليك فقل: اللهم إني لا أسخر ولا أفخر. ولكن أحمدك على عظم نعمائك عليّ»[٣].

وقد أشار قوله في هذا الحديث: «لا أسخر» إلى ما عليه بعض الناس من السخرية بالمبتلى، والاستهوان به وجعله أضحوكة، مع الغفلة عن أن الله تعالى لم يبتله بما ابتلاه استهواناً به واحتقاراً له. فاللازم على من يراه أن يعتبر به، ويشكر الله على العافية من ذلك البلاء، وإذا تيسر له عونه وسدّ خلّته قام بذلك. ويأتي إن شاء الله عند الكلام في المعروف أن إسماع الأصم من غير تضجر صدقة. كما أن الله عز وجل قد يغضب له، ويبتلي من يسخر به بنظير ابتلائه أو أشد منه. ونسأل الله عز وجل العصمة والتسديد.

وعنه عليه السلام: «قال: فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام يا موسى اشكرني حقّ شكري. فقال: يا رب، وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى، الآن شكرتني

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٩٥ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:١٠.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٩٧ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٢٠.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٩٨ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٢٢.

حين علمت أن ذلك مني»[١].

وفي هذا الحديث الشريف ونحوه تنبيه على أنه لا ينبغي للمطيع أن يعجب بطاعته ويمنّ بها على الله عز وجل أو على الناس، بل عليه أن يشكر الله تعالى على توفيقه لتلك الطاعة.

الشكر من صفات النبي صلى الله عليه وآله

هذا وقد عرف عن رسول الله صلى الله عليه وآله الشكر لله تعالى وللناس، ففي حديث أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها. فقالت: يا رسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة، ألا أكون عبداً شكوراً؟! قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه. فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿**طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾»[٢]. ونحوه غيره.

وشكره صلى الله عليه وآله لله عز وجل في عبادته وأدعيته وأحاديثه أظهر من أن يذكر. وكذا الحال في شكره لمن أحسن إليه من الناس.

شكر من حصلت النعمة بسببه

هذا وكما تضمنت الآيات الكريمة والنصوص الشريفة الحثّ على شكر الله عز وجل تضمنت أن شكر النعمة لا يكفي فيه شكر الله تعالى، بل لابد معه من شكر من جرت النعمة على يده. قال الله تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاءُ**

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٩٨ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٢٧.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٩٥ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٦.

الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[١].

وفي حديث علي بن سالم: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: آية في كتاب الله سبحانه. قلت: ما هي؟ قال: **﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾** جرت في المؤمن والكافر، والبرّ والفاجر. من صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به. وليست المكافاة أن يصنع كما صنع به، بل يرى مع فعله لذلك أن له الفضل المبتدأ»[٢].

وفي حديث عبد الله بن إسحاق الجعفري عنه عليه السلام: «قال: مكتوب في التوراة: اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك. فإنه لا زوال للنعماء [من نعمائي] إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كُفِرت. الشكر زيادة في النّعم وأمان من الغِيَر»[٣].

وفي حديث عمار الدهني: «سمعت علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إن الله يحب كل قلب حزين، ويحب كل عبد شكور. يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا رب، فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره. ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس»[٤].

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أتى إليه معروف فليكافِ به، فإن عجز فليثن عليه. فإن لم يفعل فقد

---

(١) سورة الرحمن الآية: ٦٠.

(٢) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٥٣٧ باب:٧ من أبواب فعل المعروف حديث:٣.

(٣) الكافي ج:٢ ص:٩٤ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٣.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٩٩ كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر حديث:٣٠.

كفر النعمة»[١].

وعنه عليه السلام: «قال: لعن الله قاطعي سبل المعروف. قيل: وما قاطعو سبل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إليه المعروف فيكفره، فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره»[٢].

وهذا يرجع إلى الاعتراف لذي الفضل بفضله. وفي ذلك حثّ على الإحسان، وتشجيع عليه، بنحو يوجب الرغبة فيه، وشيوعه في المجتمع.

على أن الإحسان بنفسه صفة حميدة تكشف عن نبل المحسن وطيب نفسه. كما يشير لذلك حديث معاوية بن عمار: «قال أبو عبد الله عليه السلام: اصنعوا المعروف إلى كل أحد. فإن كان أهله، وإلا فأنت أهله»[٣]. ونحوه غيره. وبذلك يستحق صاحبه التكريم.

شكر نعمة الإيمان

هذا وكلما عظمت النعمة كان الشكر اللازم عليها أعظم. وحيث كانت الهداية للدين والتوفيق له أعظم النعم وأجلّها فاللازم على المؤمن أن يكثر من شكر الله عز وجل، ولا يغفل عنه. وعندها تهون الابتلاءات والمتاعب والمصاعب.

وفي حديث أحمد بن عمر الحلبي أنه قال: «دخلت على الرضا عليه السلام بمنى، فقلت له: جعلت فداك، كنا أهل بيت غبطة وسرور ونعمة. وإن

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٣٣ كتاب الزكاة: باب من كفر المعروف حديث:٣.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٣٣ كتاب الزكاة: باب من كفر المعروف ح:١.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٢٧ كتاب الزكاة: باب فضل المعروف حديث:٩.

الله قد أذهب بذلك كله حتى احتجنا إلى من كان يحتاج إلينا. فقال لي: يا أحمد ما أحسن حالك، يا أحمد بن عمر، فقلت له: جعلت فداك، حالي ما أخبرتك. فقال لي: يا أحمد أيسرّك أنك على بعض ما عليه هؤلاء الجبارون، ولك الدنيا مملوءة ذهباً؟ فقلت له: لا والله يا بن رسول الله. فضحك، ثم قال: ترجع من ههنا إلى خلف، فمن أحسن حالاً منك وبيدك صناعة لا تبيعها بملء الدنيا ذهباً.

ألا أبشرك؟ قلت: نعم، فقد سرني الله بك وبآبائك. فقال لي [قال. ظ] أبو جعفر عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿**وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا**﴾ لوح من ذهب فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم. لا إله إلا الله. محمد رسول الله. عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ ومن يرى الدنيا وتغيرها بأهلها كيف يركن إليها؟ وينبغي لمن غفل عن الله[1] أن لا يستبطئ الله في رزقه ولا يتهمه في قضائه. ثم قال: رضيت يا أحمد؟ قال: قلت: عن الله وعنكم أهل البيت عليهم السلام»[2].

وكما يلزم شكر الله عز وجل على التوفيق للدين الحق، يلزم شكر من جرت على يديه هذه النعمة، وكان السبب فيها. وأولهم نبينا العظيم ثم آله الطاهرون (صلوات الله عليهم أجمعين)، وبعدهم علماؤنا العاملون الذين حافظوا على الحقيقة وجاهدوا في سبيل إسماع الناس لها، وآباؤنا الماضون الذين هيؤوا لنا البيئة الصالحة لتقبلها.

---

(١) الظاهر أن الصحيح: «عقل عن الله»، كما تضمنه حديث علي بن أسباط عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في بيان ما كتب في كنز اليتيمين. الكافي ج:٢ ص:٥٩ باب فضل اليقين حديث:٩.

(٢) اختيار معرفة الرجال ج:٢ ص:٨٥٩. بحار الأنوار ج:٦٩ ص:٤٥-٤٦.

القناعة والاعتماد على النفس

٨ـ القناعة والاستغناء عن الناس والاعتماد على النفس والثقة بالله تعالى. ففي حديث عمرو بن هلال: «قال أبو جعفر عليه السلام: إياك أن تُطمح بصرك إلى من هو فوقك. فكفى بما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿**وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ**﴾ وقال: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾. فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنما كان قوته الشعير وحلواه التمر ووقوده السعف إذا وجده»[١].

وفي حديث محمد بن عرفة عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «قال: من لم يقنعه من الرزق إلا الكثير لم يكفه من العمل إلا الكثير. ومن كفاه من الرزق القليل فإنه يكفيه من العمل القليل»[٢].

وفي حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أراد أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يد غيره»[٣].

وفي حديث محمد بن عيسى الكندي عن جعفر بن محمد عليهما السلام: «قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد، أخبرني بعمل يحبني الله عليه، فقال: يا أعرابي ازهد في الدنيا يحبك الله عز وجل، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»[٤].

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٣٧-١٣٨ كتاب الإيمان والكفر: باب القناعة حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص: ١٣٨ كتاب الإيمان والكفر: باب القناعة حديث:٥.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٣٩ كتاب الإيمان والكفر: باب القناعة حديث:٨.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي ص:١٤٠ المجلس:٥ حديث:٤١، واللفظ له. وسائل الشيعة ج:٦ ص:٣١٥ باب:٣٦ من أبواب الصدقة حديث:٩.

وفي حديث عمار الساباطي عنه عليه السلام: «قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ليجتمع في قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم. فيكون افتقارك إليهم في لين كلامك وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عِرضك وبقاء عزّك»[١].

وفي حديث محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): اتبعوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه قال: من فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه باب فقر»[٢].

وفي حديث أبي بصير عنه عليه السلام: «قال: جاءت فخذ من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فسلموا عليه فردّ عليهم السّلام. فقالوا: يا رسول الله: لنا إليك حاجة. فقال: هاتوا حاجتكم. قالوا: إنها حاجة عظيمة. فقال: هاتوها ما هي؟ قالوا: تضمن لنا على ربك الجنة. قال: فنكس رسول الله صلى الله عليه وآله رأسه، ثم نكت في الأرض. ثم رفع رأسه فقال: أفعل ذلك بكم على أن لا تسألوا أحداً شيئاً. قال: فكان الرجل منهم يكون في السفر، فيسقط سوطه، فيكره أن يقول لإنسان: ناولنيه. فراراً من المسألة، فينزل فيأخذه. ويكون على المائدة، فيكون بعض الجلساء أقرب إلى الماء منه، فلا يقول: ناولني حتى يقوم فيشرب»[٣].

وفي حديث إبراهيم بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى أحب شيئاً لنفسه وأبغضه لخلقه: أبغض لخلقه

---

(١) وسائل الشيعة ج:٦ ص:٣١٣ باب:٣٦ من أبواب الصدقة حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٤ ص:١٩ كتاب الزكاة: باب من سأل من غير حاجة حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٢١ كتاب الزكاة: باب كراهية المسألة حديث:٥.

المسألة، وأحب لنفسه أن يُسأل. وليس شيء أحب إلى الله عز وجل من أن يُسأل. فلا يستحيي أحدكم أن يسأل الله من فضله ولو بشسع [شسع] نعل»[١].

التعفف عن السؤال

وفي حديث سالم بن مكرم عنه عليه السلام: «قال: اشتدت حال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله. فقالت له امرأته: لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله فسألته. فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله. فلما رآه النبي صلى الله عليه وآله قال: من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله. فقال الرجل: ما يعني غيري. فرجع إلى امرأته فأعلمها، فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله بشر، فأعلِمه. فأتاه، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله. حتى فعل الرجل ذلك ثلاثاً.

ثم ذهب الرجل فاستعار معولاً، ثم أتى الجبل، فصعده، فقطع حطباً، ثم جاء به فباعه بنصف مدّ من دقيق، فرجع به فأكله، ثم ذهب من الغد، فجاء بأكثر من ذلك فباعه.

فلم يزل يعمل ويجمع حتى اشترى معولاً، ثم جمع حتى اشترى بكرين وغلاماً، ثم أثرى حتى أيسر.

فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فأعلمه كيف جاء يسأله، وكيف سمع النبي صلى الله عليه وآله، فقال النبي صلى الله عليه وآله: قلت لك: من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله»[٢].

وفي حديث مالك بن عطية عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال علي بن

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٢٠-٢١ كتاب الزكاة: باب كراهة المسألة حديث:٤.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٣٩ كتاب الإيمان والكفر: باب القناعة حديث:٧.

الحسين عليهما السلام: ضمنت على ربي أنه لا يسأل أحد من غير حاجة إلا اضطرته المسألة يوماً إلى أن يسأل من حاجة»[١].

وتقدم في حديث محمد بن مسلم عنه عليه السلام: «قال: قال أمير المؤمنين (صلوات الله عليه): اتبعوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه قال: من فتح على نفسه باب مسألة فتح الله عليه باب فقر»[٢].

وفي حديثه الآخر: «قال أبو جعفر عليه السلام: يا محمد لو يعلم السائل ما في المسألة ما سأل أحد أحداً. ولو يعلم المعطي ما في العطية ماردّ أحد أحداً»[٣]... إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة.

الشكوى للمؤمن مع شدة الحاجة

نعم ورد الأمر بالشكاية للمؤمن والاستعانة به مع شدّة الحاجة. ففي حديث حريز عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إذا ضاق أحدكم فليُعلِم أخاه، ولا يعين على نفسه»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «قال: من شكا الحاجة إلى مؤمن فكأنما شكاها إلى الله. ومن شكاها إلى كافر فكأنما شكا الله»[٥]. وهي حالة استثنائية.

ولا يبعد حمل ذلك على ما إذا انسدت السبل أمام المؤمن، أو على ما إذا كانت الشكوى له ولو من أجل الاستعانة برأيه.

---

(١) الكافي ج:٤ ص:١٩ كتاب الزكاة: باب من سأل من غير حاجة حديث:١.

(٢) الكافي ج:٤ ص:١٩ كتاب الزكاة: باب من سأل من غير حاجة حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٢٠ كتاب الزكاة: باب كراهية المسألة حديث:٢.

(٤) الكافي ج:٤ ص:٤٩ باب النوادر حديث:١٣.

(٥) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٠٠.

الحث على العمل والتكسب

ولا يعني ما سبق من حسن القناعة الخمول وترك العمل لاكتساب المال. فقد ورد مدح الغنى والحثّ مؤكداً على العمل لكسب المال من حلّه.

ففي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم العون على تقوى الله الغنى»(١).

وفي حديث عبد الأعلى عنه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: سلوا الله الغنى في الدنيا والعافية، وفي الآخرة المغفرة والجنة»(٢).

وفي حديث أسباط بن سالم: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فسألَنا عن عمر بن مسلم ما فعل؟ فقلت: صالح، ولكنه قد ترك التجارة. فقال أبو عبد الله عليه السلام: عَمَل الشيطان ـ ثلاثاً ـ. أما علم أن رسول الله صلى الله عليه وآله اشترى عِيراً أتت من الشام، فاستفضل فيها ما قضى دينه، وقسّم في قرابته. يقول الله عز وجل: ﴿**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**﴾ إلى آخر الآية.

يقول القصّاص: إن القوم لم يكونوا يتّجرون. كذبوا. ولكنهم لم يكونوا يدَعُون الصلاة في ميقاتها. وهو أفضل ممن حضر الصلاة ولم يتجر»(٣).

وفي حديث علي بن عبد العزيز: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ما فعل عمر بن مسلم؟ قلت: جعلت فداك أقبل على العبادة وترك التجارة. فقال:

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٧١ كتاب المعيشة: باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة حديث:١.

(٢) الكافي ج:٥ ص:٧١ كتاب المعيشة: باب الاستعانة بالدنيا على الآخرة حديث:٤.

(٣) الكافي ج:٥ ص:٧٥ كتاب المعيشة: باب ما يجب من الاقتداء بالأئمة عليهم السلام في التعرض للرزق حديث:٨.

ويحه أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له. إن قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لما نزلت ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة، وقالوا: قد كفينا. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله فأرسل إليهم، فقال: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: يا رسول الله تُكُفّل لنا بأرزاقنا، فأقبلنا على العبادة. فقال: إنه من فعل ذلك لم يستجب له. عليكم بالطلب»[1].

وفي حديث أيوب أخي أديم بياع الهروي قال: «كنا جلوساً عند أبي عبد الله عليه السلام إذ أقبل العلاء بن كامل فجلس قدام أبي عبد الله عليه السلام، فقال: ادع الله أن يرزقني في دَعة. فقال: لا أدعو لك. اطلب كما أمرك الله عز وجل»[2]. والنصوص في ذلك أكثر من أن تذكر.

النهي عن الفراغ والكسل

ويلحق بذلك ـ بل هو من تتمته ـ ما تضمن النهي عن الفراغ والكسل والضجر والنوم. ففي حديث أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن الله عز وجل يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ»[3].

وفي حديث سماعة عن أبي الحسن موسى عليه السلام: «قال: إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تعمل، وإن ضجرت لم تعط الحقّ»[4].

وفي حديث عمر بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إياك والضجر

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٨٤ كتاب المعيشة: باب الرزق من حيث لا يحتسب حديث:٥.

(٢) الكافي ج:٥ ص:٧٨ كتاب المعيشة: باب الحث على الطلب والتعرض للرزق حديث:٣.

(٣) وسائل الشيعة ج:١٢ ص:٣٦ باب ١٧ من أبواب مقدمات التجارة حديث:١.

(٤) وسائل الشيعة ج:١٢ ص:٣٨ باب:١٩ من أبواب مقدمات التجارة حديث:١.

والكسل. إنهما مفتاح كل سوء. إنه من كسل لم يؤد حقاً، ومن ضجر لم يصبر على حق»[١]... إلى غير ذلك. ومرجع ذلك إلى الحث على العمل والإنتاج، على اختلاف ما ينتجه الإنسان ويحسنه، من مال أو علم أو غيرهما.

وقد اختصر ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «قيمة كل امرئ ما يحسنه». قال السيد الرضي قدس سره معقباً عليه: «وهذه الكلمة التي لا تصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة»[٢].

وقريب منها ما تقدم في المبحث الثاني عن النبي صلى الله عليه وآله من قوله في حديث طويل: «وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً. وأقل الناس قيمة أقلهم علماً».

الإجمال في طلب الرزق

نعم أكدت النصوص في الحثّ على الإجمال في طلب الرزق. ففي حديث أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع: ألا إن الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله عز وجل وأجملوا في الطلب. ولا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله. فإن الله تبارك وتعالى قسّم الأرزاق بين خلقه حلالاً، ولم يقسّمها حراماً. فمن اتقى الله عز وجل وصبر أتاه رزقه من حلّه. ومن هتك حجاب الستر، وعجل فأخذه من غير حله، قُصّ به من رزقه الحلال، وحوسب عليه يوم القيامة»[٣].

---

(١) وسائل الشيعة ج:١٢ ص:٣٩ باب:١٩ من أبواب مقدمات التجارة حديث:٣.

(٢) نهج البلاغة ج:٤ ص:١٨.

(٣) الكافي ج:٥ ص:٨٠ كتاب المعيشة: باب الإجمال في الطلب حديث:١.

وفي حديث ابن فضال عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيّع، ودون طلب الحريص الراضي بدنياه، المطمئن إليها. ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف، ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكتسب ما لابد منه. إن الذين أعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم»[1]. والنصوص في ذلك كثيرة جداً.

عدم استغلال المشتري

ولعل من الإجمال في طلب الرزق عدم استغلال حال المشتري والإجحاف به، كما تضمنته بعض النصوص. ففي حديث أبي جعفر الفزاري: «دعا أبو عبد الله عليه السلام مولى له يقال له مصادف، فأعطاه ألف دينار، وقال له: تجهز حتى تخرج إلى مصر، فإن عيالي قد كثروا.

قال: فتجهز بمتاع، وخرج مع التجار إلى مصر. فلما دنوا من مصر استقبلتهم قافلة خارجة من مصر، فسألوهم عن المتاع الذي معهم ما حاله في المدينة، وكان متاع العامة. فأخبروهم أنه ليس بمصر منه شيء، فتحالفوا وتعاقدوا على أن لا ينقصوا متاعهم من ربح الدينار ديناراً. فلما قبضوا أموالهم وانصرفوا إلى المدينة، فدخل مصادف على أبي عبد الله عليه السلام ومعه كيسان في كل واحد ألف دينار، فقال: جعلت فداك. هذا رأس المال، وهذا الآخر ربح. فقال: إن هذا الربح كثير، ولكن ما صنعته في المتاع؟ فحدثه كيف صنعوا وكيف تحالفوا. فقال: سبحان الله تحلفون على قوم مسلمين ألا تبيعوهم إلا ربح الدينار ديناراً. ثم أخذ الكيسين، فقال: هذا رأس

(١) الكافي ج:٥ ص:٨١ كتاب المعيشة: باب الإجمال في الطلب حديث:٨.

مالي، ولا حاجة لنا في هذا الربح. ثم قال: يا مصادف مجادلة السيوف أهون من طلب الحلال»[١]. وقوله: «وكان متاع العامة» يريد به أنه ما يحتاجه عامة الناس، وليس متاعاً للخاصة والمترفين من أهل المال أو السلطان أو نحوهم.

الاقتصاد في الإنفاق

وكما أكدت النصوص على الإجمال في طلب الرزق، كذلك أكدت الآيات الكريمة والنصوص الشريفة على الاقتصاد في المأكل والملبس والإنفاق.

قال الله عز وجل: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[٣]. وقال عز اسمه: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾[٤].

وفي حديث أبي حمزة عن علي بن الحسين عليهما السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث منجيات. فذكر الثالث القصد في الغنى والفقر»[٥].

وفي حديث بريد بن معاوية عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال علي بن الحسين (صلوات الله عليهما): لينفق الرجل بالقصد وبلغة الكفاف.

---

(١) الكافي ج:٥ ص:١٦١-١٦٢ باب الحلف في الشراء والبيع حديث:١.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٣١.

(٣) سورة الفرقان الآية: ٦٧.

(٤) سورة الإسراء الآية: ٢٩.

(٥) الكافي ج:٤ ص:٥٣ كتاب الزكاة: باب فضل القصد حديث:٥.

ويقدم منه فضلاً لآخرته. فإن ذلك أبقى للنعمة، وأقرب إلى المزيد من الله عز وجل، وأنفع في العافية [العاقبة]»[١].

وفي حديث عبد الله بن أبان: «سألت أبا الحسن الأول عليه السلام عن النفقة على العيال. فقال: ما بين المكروهين: الإسراف والإقتار»[٢].

وفي حديث هشام بن المثنى: «سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾. فقال: كان فلان بن فلان الأنصاري ـ سمّاه ـ وكان له حرث. وكان إذا أخذ يتصدق به، ويبقى هو وعياله بغير شيء. فجعل الله ذلك سرفاً»[٣].

الاقتصاد في الأكل واللباس

وفي حديث صالح النيلي عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن الله عز وجل يبغض كثرة الأكل. وقال أبو عبد الله عليه السلام: ليس لابن آدم بدّ من أكلة يقيم بها صلبه. فإذا أكل أحدكم طعاماً فليجعل ثلث بطنه للطعام، وثلث بطنه للشراب، وثلث بطنه للنفس. ولا تسمنوا. تسمّن الخنازير للذبح»[٤].

وفي حديث أبي الجارود: «قال أبو جعفر عليه السلام: ما من شيء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مملوء»[٥].

وفي حديث عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كان رسول

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٥٢ كتاب الزكاة: باب فضل القصد حديث:١.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٥٥ كتاب الزكاة: باب كراهة السرف والتقتير حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٥٥ كتاب الزكاة: باب كراهة السرف والتقتير حديث:٥.

(٤) الكافي ج:٦ ص:٢٦٩ كتاب الأطعمة: باب كراهية كثرة الأكل حديث:٩.

(٥) الكافي ج:٦ ص:٢٧٠ كتاب الأطعمة: باب كراهية كثرة الأكل حديث:١١.

الله صلى الله عليه وآله يلطع القصعة ويقول: من لطع قصعة فكأنما تصدق بمثلها»[١].

وفي حديث ياسر الخادم. قال: «أكل الغلمان يوماً فاكهة ولم يستقصوا أكلها، ورموا بها. فقال لهم أبو الحسن عليه السلام: سبحان الله، إن كنتم استغنيتم فإن أناساً لم يستغنوا. أطعموه من يحتاج إليه»[٢].

وفي حديث الفضل بن كثير المدائني عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: دخل عليه بعض أصحابه فرأى عليه قميصاً فيه قبّ قد رقعه، فجعل ينظر إليه. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما لك تنظر؟ فقال: قبّ ملقى في قميصك. قال: فقال لي: اضرب يدك إلى هذا الكتاب فاقرأ ما فيه. وكان بين يديه كتاب أو قريب منه. فنظر الرجل فيه، فإذا فيه: لا إيمان لمن لا حياء له، ولا مال لمن لا تقدير له، ولا جديد لمن لا خَلِق له»[٣].

وليس المراد بذلك لبس المرقوع عند الخروج للناس. بل لبسه داخل البيت وعند التبذل، لأنه صالح للانتفاع حينئذٍ.

ففي حديث إسحاق بن عمار عنه عليه السلام: «قال: أدنى الإسراف إراقة فضل الإناء وابتذال ثوب الصون وإلقاء النوى»[٤].

والمراد بإراقة فضل الإناء أن من يشرب في الإناء أو يغسل به قد يفضل عن حاجته شيء من الماء فيصبه في الأرض مع أنه صالح للانتفاع.

---

(١) الكافي ج:٦ ص:٢٩٧ كتاب الأطعمة: باب نوادر الأطعمة والأشربة حديث:٤.

(٢) الكافي ج:٦ ص:٢٩٧ كتاب الأطعمة: باب نوادر الأطعمة والأشربة حديث:٨.

(٣) الكافي ج:٦ ص:٤٦٠ كتاب الزي والتجمل: باب لبس الخلقان حديث:٣. والقَب: ما يدخل في جيب القميص من الرقاع.

(٤) الكافي ج:٦ ص:٤٦٠ كتاب الزي والتجمل: باب لبس الخلقان حديث:١.

والمراد بإلقاء النوى عدم الانتفاع به مع أنه كان صالحاً للانتفاع كعلف للحيوان أو وقود للنار. والمراد بابتذال ثوب الصون أن ثوب التجمل عند الخروج للناس قد يستعمل داخل الدار عند التبذّل، فلا يصلح للتجمل بسبب ما يصيبه فيها.

وقد أكثرنا من ذكر النصوص، وما لم نذكره أكثر بكثير. والجميع يرجع إلى الانضباط والاعتدال في كسب المال، وسدّ حاجة صاحبه وغيرها من وجوه انتفاعه به، ومنها انتفاعه به في آخرته، على ما يأتي في فعل المعروف.

لكن مع الأسف قد يبلغ الإسراف في الأكل ببعض الناس حدّ الجشع، بل ببعضهم حدّ الإضرار بالبدن، بل التدمير له. وما أكثر ما كان الأكل والخروج عن الضوابط الصحية سبباً في موت الإنسان.

وأما التبذير وترك ما هو صالح للانتفاع حتى قد يكون من النفايات وفي المزابل فهو من الشيوع بحدّ يخشى من أن يكون سبباً لكفر النِعَم ويؤدي إلى زوالها. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ترك المراء

٩ـ ترك المراء. وهو تخاصم الإنسان مع غيره لإثبات صحة ما يعتقده وخطأ الآخر في اعتقاد خلافه. فان اختلاف الناس في وجهات نظرهم وفيما يعتقدون أمر طبيعي. كما أن اهتمام الإنسان بإثبات ما يعتقده وإبطال ما يخالفه أمر طبيعي أيضاً.

والخصومة في ذلك، إما أن تكون اهتماماً بالحقيقة التي يعتقدها من أجل أن ينتفع الآخرون بها، خصوصاً إذا كانت مقدسة بنظره، وإما أن

تكون حباً في غلبته للخصم، وإظهار التفوق عليه.

وعلى ذلك فطرفا الخصومة **تارة**: يكونان في مقام تحرّي الحقيقة والاستماع لوجهة نظر الآخرين وحجتهم، والانصياع لمقتضى الدليل والحجة مهما كان. **وأخرى**: يكونان أو أحدهما مصرّاً على ما يعتقده غير مستعد للتنازل عنه، والخصومة لمجرد الغلبة.

أما في الأول فالاحتجاج والجدل جيد في نفسه، بل هو من أشرف وجوه الثقافة، لوضوح حسن الوصول للحقيقة والإيصال إليها. ولعله عليه ينزل مثل قوله تعالى: ﴿**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1].

أما في الثاني فلا فائدة في الجدال حتى من المحقّ. بل هو مثار للضغائن والعداء، كما تأتي الإشارة إليه في بعض النصوص. لإن المخصوم قد يشعر بالإحراج والفشل والوهن بعد أن لم يكن مستعداً للتنازل عن وجهة نظره وما يعتقده مهما كلفه من ثمن. وذلك قد ينتهي للعداء.

وقد يتعصب جماعة كل من الطرفين لصاحبهم، وتتحول إلى فتنة وخيمة العاقبة. وقد يستغلها عدوّ الطرفين معاً لصالحه.

وذلك هو المراء المنهي عنه شرعاً. وقد يشير إليه قوله تعالى: ﴿**وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[2]. حيث يظهر منه الأمر بقطع الخصومة، وإيكال الأمر لله تعالى، ليكون هو الحكم يوم القيامة.

---

(١) سورة النحل الآية: ١٢٥.

(٢) سورة الحج الآية: ٦٧-٦٩.

وفي حديث مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: ثلاث من لقي الله عز وجل بهن دخل الجنة من أي باب شاء: من حسن خلقه، وخشي الله في المغيب والمحضر، وترك المراء وإن كان محقاً»(١).

وفي حديثه الآخر عنه عليه السلام: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: إياكم والمراء والخصومة، فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان، وينبت عليهما النفاق»(٢).

وتقدم في حديث السكوني أن تركه من التواضع، ويأتي قريباً عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «وأورع الناس من ترك المراء وإن كان محقاً»(٣).

وفي حديث عمار بن مروان: «قال أبو عبد الله عليه السلام: لا تمارَيَنَّ حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقليك [يغلبك]، والسفيه يؤذيك»(٤).

وفي حديث الحسن بن الحسين الكندي عنه عليه السلام: «قال: قال جبرئيل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله: إياك وملاحاة الرجال»(٥).

وفي حديث إسماعيل بن أبي زياد عنه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة، وبيت في وسط الجنة،

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٣٠٠ كتاب الإيمان والكفر: باب المراء والخصومة ومعاداة الرجال حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣٠٠ كتاب الإيمان والكفر: باب المراء والخصومة ومعاداة الرجال حديث:١.

(٣) أمالي الشيخ الصدوق ص:٧٣ المجلس:٦ حديث:٤.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٣٠١ كتاب الإيمان والكفر: باب المراء والخصومة ومعاداة الرجال حديث:٤. ومعنى القِلى: البغض.

(٥) الكافي ج:٢ ص:٣٠١ كتاب الإيمان والكفر: باب المراء والخصومة ومعاداة الرجال حديث:٦.

وبيت في رياض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محقاً»[1]... إلى غير ذلك من النصوص.

المراء قد يجرّ للنفاق وتركه مقتضى الورع

وقد تقدم في بعضها أنه يورث النفاق، وأن تركه مقتضى الورع. ولعله لأن الاهتمام بالغلبة قد ينتهي بالإنسان إلى أن يستدل بالوجوه الباطلة، ويسلك الطرق غير المشروعة، فيكون تجنب الخصومة حذراً من ذلك مقتضى الورع. كما قد ينتهي الأمر بالمخاصِم من أجل الغلبة إلى الاهتمام بالغلبة، دون الحق الذي يخاصم من أجله، وهو مبدأ النفاق.

فعلى المؤمنين أعزهم الله تعالى أن يأخذوا بتعاليم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ويتجنبوا المراء. ويقتصروا على المجادلة التي يهتم فيها جميع الأطراف بالبحث عن الحقيقة واتباع الدليل الكافي في إثباتها.

قد يستفيد العدو من المراء

على أنه يبدو في هذه الأيام أن هناك أيدٍ خفية تحاول زرع الفتن من طريق مثل هذه الخصومات، واستغلالها لصالح قوى الشرّ التي تحاول تدمير المجتمعات.

فقد حدثني بعض المبلغين ممن يقيم في الخارج أنه عرض عليه من قِبَل بعض المؤسسات غير الإسلامية أن أي شيء عندكم ضد المسلمين السنة فنحن مستعدون لأن نساعدكم عليه مالياً.

قال: فكان جوابي أن ذلك أمر يخصنا، ونحن في غِنىً عن دعم غيرنا،

---

(١) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٥٦٨ باب:١٣٥ من أبواب أحكام العشرة حديث:٧.

ونرفض تدخل غيرنا في شؤوننا، أو ما يرجع إلى ذلك.

فاللازم الحذر من ذلك، وسدّ الطريق أمام هذه الأيدي ممن يحاول الصيد في الماء العَكِر، وإفشال مشروعها الخطير بتجنب الخصومات غير المثمرة، بل المضرة. والله عز وجل هو الموفق والمعين والمسدد.

مداراة الناس وخطابهم على قدر عقولهم

١٠ـ مداراة الناس وخطابهم على قدر عقولهم. وهو مما أكدت عليه النصوص كثيراً، كحديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث من لم يكنَّ فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلُق يداري به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل»(١).

وفي حديث عمر بن يزيد عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما كاد جبرئيل عليه السلام يأتيني إلا قال: يا محمد اتق شحناء الرجال وعداوتهم»(٢).

وحديث عبد الله بن سنان عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض»(٣).

وحديث مسعدة بن صدقة عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مداراة الناس نصف الإيمان، والرفق بهم نصف العيش. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: خالطوا الأبرار سِرّاً وخالطوا الفجار جهاراً، ولا تميلوا عليهم فيظلموكم...»(٤).

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١١٦ كتاب الإيمان والكفر: باب المداراة حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:٣٠١ كتاب الإيمان والكفر: باب المراء والخصومة ومعاداة الرجال حديث:٥.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١١٧ كتاب الإيمان والكفر: باب المداراة حديث:٤.

(٤) الكافي ج:٢ ص:١١٧ كتاب الإيمان والكفر: باب المداراة حديث:٥.

وفي حديث حبيب السجستاني عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: في التوراة مكتوب ـ فيما ناجى الله عز وجل الله به موسى بن عمران ـ : يا موسى أكتم مكتوم سرّي في سريرتك، وأظهر في علانيتك المداراة عني لعدوي وعدوك من خلقي. ولا تستسِب لي عندهم بإظهار مكتوم سري، فتشرك عدوك وعدوي في سبي»(١).

وكأن المراد به أن إظهار مكتوم السرّ الذي يتنفر منه العدو قد يوجب جرأة العدو على صاحب السرّ، فيسبه، فيكون كاشف السرّ مشاركاً في جريمة السبّ، لأنه السبب المثير للعدو. فهو نظير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾(٢).

وفي حديث الحسن بن علي بن فضال عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام: «ما كلّم رسول الله صلى الله عليه وآله العباد بكنه عقله قط. وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»(٣).

وفي حديث عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنا أمرنا ـ معاشر الأنبياء ـ أن نكلم الناس بقدر عقولهم. قال: وقال النبي صلى الله عليه وآله: أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض»(٤)... إلى غير ذلك.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١١٧ كتاب الإيمان والكفر: باب المداراة حديث:٣.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٠٨.

(٣) الكافي ج:١ ص:٢٣ كتاب العقل والجهل حديث:١٥. ورواه الشيخ الصدوق عن سليمان الديلمي عنه عليه السلام أمالي الشيخ الصدوق ص:٥٠٤ المجلس:٦٥ حديث:٦.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي ص:٤٨١ المجلس:١٧ حديث:١٩. بحار الأنوار ج:٢ ص:٦٩.

وقد تقدم في الفصل الثاني من المبحث الأول عند الكلام في الإيمان بالغيب أنه ليس من السهل الإيمان به إلا بنحو من التدرج، وأن البيئة التي عاش فيها النبي صلى الله عليه وآله لم تكن مهيأة للإيمان بكثير مما آمن به الشيعة بعد ذلك، وصار من المتسالم عليها عندهم، بل عند غيرهم أيضاً.

كما يأتي في حديث صفة النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يصبر للغريب على الجفوة في المسألة، ويتغافل عما لا يشتهي، فلا يستوحش منه جليسه.

وبهذا استطاع صلى الله عليه وآله أن يتعايش مع ذلك المجتمع البدائي، ويهيمن عليه، ويستفيد منه على ما فيه من سلبيات، كما تقدم.

وعلى المؤمن الرشيد أن يتأسى بنبيه صلى الله عليه وآله وبأئمته عليهم السلام، فلا يخاطب الناس بما لا يناسب عقولهم، ويداريهم، حذراً من مضاعفات الخروج عن ذلك.

الوظيفة مع من لا يتقبل الحقيقة

نعم ليس له أن يضلّهم ببيان خلاف الواقع. بل إن كان الطرف الآخر في مقام طلب الحقيقة أبداها له بالوجه المناسب لقابليته وعقله، ولا يبديها على حقيقتها وواقعها بنحو لا يتناسب مع مداركه، حيث قد يوجب ذلك تنفره منها، أو إنكاره لها، فيكون هو سبباً لتعنته وضلاله.

وإن لم يكن الطرف الآخر في مقام طلب الحقيقة فيتجنبه ولا يخاصمه ولا يماريه. وإن احتك هو به وافقه تقية إن خاف شره.

وإليه يشير حديث مسعدة بن صدقة المتقدم، وحديث أبي بصير: «قال أبو جعفر عليه السلام: خالطوهم بالبرّانية وخالفوهم بالجوّانية إذا كانت

الإمرة صبيانية»[١]، وغيرهما.

وإن لم يخف شرّه أقرّ له بالحقيقة، وامتنع من المراء معه ومخاصمته. لما سبق من النهي الشديد عن المراء والخصومة حتى للمحق.

نعم إذا تيسر له جواب ذو وجوه لا يتنافى بعضها مع عقيدته، أو جواب حق يناسب عقيدة السائل من دون أن ينافي الحق الذي يعتقده هو أجابه به، مداراة له وتجنباً لشره.

نظير ما ورد في حديث علي بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «يا فاطمة إن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك. فجاء صندل، فقال لجعفر بن محمد عليهما السلام: يا أبا عبد الله إن هؤلاء الشباب يجيؤوننا عنك بأحاديث منكرة. فقال له جعفر عليه السلام: وما ذاك يا صندل؟ قال: جاءنا عنك أنك حدثتهم أن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها! قال: فقال جعفر عليه السلام: يا صندل، ألستم رويتم فيما تروون أن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضب عبده المؤمن، ويرضى لرضاه؟ قال: بلى. قال: فما تنكرون أن تكون فاطمة عليها السلام مؤمنة يغضب الله لغضبها، ويرضى لرضاها! فقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته»[٢].

مع أن المراد بحديث أن المؤمن يغضب الله عز وجل لغضبه ويرضى لرضاه، ما إذا كان محقاً. أما المراد بحديث غضب فاطمة ورضاها أنها

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٢٠ كتاب الإيمان والكفر: باب التقية حديث:٢٠.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق ص:٤٦٥ المجلس:٦١ حديث:١. أمالي الشيخ الطوسي ص:٤٢٧ المجلس:١٥ حديث: ١١. إلا أنه ذكر أن الذي جاء للإمام الصادق عليه السلام اسمه سندل.

معصومة لا تغضب إلا لباطل ولا ترضى إلا بحق. نظير غضب النبي صلى الله عليه وآله ورضاه، لأنها من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. إلا أن صندل غفل عن ذلك، فاقتنع بجواب الإمام الصادق عليه السلام.

ونظيره ما عن أبي الصلت الهروي، قال: «قال المأمون يوماً للرضا عليه السلام: يا أبا الحسن أخبرني عن جدك أمير المؤمنين بأي وجه هو قسيم الجنة والنار؟ وبأي معنى؟ فقد كثر فكري في ذلك. فقال له الرضا عليه السلام: يا أمير المؤمنين ألم ترو عن أبيك عن آبائه عن عبد الله بن عباس أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: حب علي إيمان وبغضه كفر؟ فقال: بلى. فقال الرضا عليه السلام: فقسمة الجنة والنار إذا كانت على حبه وبغضه فهو قسيم الجنة والنار. فقال المأمون: لا أبقاني بعدك يا أبا الحسن. أشهد أنك وارث علم رسول الله صلى الله عليه وآله».

قال أبو الصلت الهروي: «فلما انصرف الرضا عليه السلام إلى منزله أتيته فقلت له: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ما أحسن ما أجبت به أمير المؤمنين! فقال الرضا عليه السلام: يا أبا الصلت إنما كلمته حيث هو. ولقد سمعت أبي يحدّث عن آبائه عن علي عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا علي أنت قسيم الجنة يوم القيامة. تقول للنار: هذا لي، وهذا لك»[1].

والمتحصل مما سبق أن على المؤمن الرشيد أن يداري الناس في أمور الدنيا والآخرة، ويحسن التعامل معهم والبعد عن الخصومات وإثارة المشاكل وإيقاع نفسه وإخوانه المؤمنين في المآزق ما وجد لذلك سبيلاً.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج:١ ص:٩٢ باب ما جاء عن الرضا عليه السلام من العلل حديث:٣٠.

تجنب الإنسان ما لا يعنيه

١١ـ عدم دخول الإنسان فيما لا يعنيه. وقد استفاضت النصوص بذلك، حيث يأتي في حديث صفة النبيﷺ أنه كان يخزن لسانه إلا عما يعنيه، وأنه ترك نفسه مما لا يعنيه. وقد تقدم في المبحث الثاني قولهﷺ: «طوبى لمن أنفق القصد، وبذل الفضل، وأمسك قوله عن الفضول وقبيح الفعل»(١).

وفي حديث جعفر بن إبراهيم: «سمعت أبا عبد اللهعليه السلام يقول: قال رسول اللهﷺ: من رأى موضع كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه»(٢).

وفي حديث يونس بن ظبيان عن الصادق جعفر بن محمدعليهما السلام: «أنه قال: الإشهار [الاشتهار] بالعبادة ريبة. إن أبي حدثني عن أبيه عن جده عن عليعليهم السلام أن رسول اللهﷺ قال: أعبد الناس من أقام الفرائض... وأكرم الناس أتقاهم، وأعظم الناس قدراً من ترك ما لا يعنيه، وأورع الناس من ترك المراء وإن كان محقاً...»(٣).

وفي حديث هشام بن سالم عنهعليه السلام: «قال: قال رسول اللهﷺ لرجل أتاه: ألا أدلّك على أمر يُدخلك الله به الجنة؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: أنِل مما أنالك الله. قال: فإن كنت أحوج ممن أنيله؟ قال: فانصر المظلوم. قال: وإن كنت أضعف ممن أنصره؟. فقال: فاصنع للأخرق. يعني أشر عليه.

---

(١) الكافي ج:٨ ص:١٦٩ حديث:١٩٠.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١١٦ كتاب الإيمان والكفر: باب الصمت وحفظ اللسان حديث:١٩.

(٣) أمالي الشيخ الصدوق ص:٧٢-٧٣ المجلس:٦ حديث:٤.

قال: فإن كنت أخرق ممن أصنع له؟ قال: فاصمت لسانك إلا من خير. أما يسرك أن تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرّك إلى الجنة؟!»[١].

وفي حديث سليمان بن جعفر الجعفري: «سمعت موسى بن جعفر عليهما السلام يقول: حدثني أبي عن أبيه عن سيد العابدين علي بن الحسين عن سيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: مرّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام برجل يتكلم بفضول الكلام، فوقف عليه، ثم قال: إنك تملي على حافظيك كتاباً إلى ربك. فتكلم بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك»[٢].

وفي حديث أبي زياد الفقيمي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من حسن إسلام المرء تركه الكلام فيما لا يعنيه»[٣].

وفي حديث أبي عبيدة الحذاء: «سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أسرع الخير ثواباً البِر، وأسرع الشر عقاباً البغي. وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمي عنه من نفسه، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه»[٤].

وفي حديث أبي ولّاد الحنّاط عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إن المعرفة بكمال دين المسلم تركه الكلام فيما لا يعنيه.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١١٣-١١٤ كتاب الإيمان والكفر: باب الصمت وحفظ اللسان حديث:٥.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق ص:٨٥ المجلس:٩ حديث:٤.

(٣) أمالي الشيخ المفيد ص:٣٤ المجلس:٤ حديث:٩.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي ص:١٠٧ المجلس:٤ حديث:١٧.

وقلّة مرائه، وحلمه وصبره، وحسن خُلقه»[١].

وفي حديث عبيد الله بن عبد الله عنه عليه السلام: «أنه قال لأصحابه: اسمعوا مني كلاماً هو خير لكم من الدّهُم الموقفة: لا يتكلم أحدكم بما لا يعنيه. وليدع كثيراً من الكلام فيما يعنيه حتى يجد له موضعاً، فرب متكلم في غير موضعه جنى على نفسه بكلامه...»[٢]... إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة.

وهذا الخلق الرفيع من الأهمية بمكان:

أولاً: لتجنب تضييع الوقت وصرف الطاقة من دون فائدة. والوقت والطاقة هما رأس مال الإنسان، فينبغي أن لا يضيعهما من دون مكسب ينفعه في دنياه أو آخرته. ويكفي الإنسان الاهتمام بما يعنيه صارفاً له عما لا يعنيه، كما يشير إليه ما تقدم عن أمير المؤمنين عليه السلام.

وثانياً: لأن دخول الإنسان فيما لا يعنيه كثيراً ما يضرّه، بل قد يضرّ بالمجتمع. حيث قد يعكس عنه صورة سيئة، وقد يتوهم بسببه تبنيه لمواقف هو بعيد عنها. كما قد يجر للخصومات والمشاكسات التي قد تنتهي للعداوات والانشقاقات والفتن. وقد تقدم في المراء ما ينفع في المقام.

ونسأل الله سبحانه وتعالى العصمة والتسديد.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:٢٤٠ كتاب الإيمان والكفر: باب المؤمن وعلاماته وصفاته حديث:٣٤.

(٢) أمالي الشيخ الطوسي ص:٢٢٤-٢٢٥ المجلس:٨ حديث:٤١. وقال في لسان العرب: «الأدهم الأسود. يكون في الخيل والإبل وغيرهما.. والعرب تقول: ملوك الخيل دُهمها».

فعل المعروف

١٢ـ فعل المعروف. قال الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

وقد استفاضت النصوص بالحثّ على المعروف. ففي حديث أبي حمزة: «قال أبو جعفر عليه السلام: إن الله عز وجل جعل للمعروف أهلاً من خلقه، حبّب إليهم فعاله، ووجّه لطلّاب المعروف الطلب إليهم، ويسّر لهم قضاءه، كما يسّر الغيث للأرض المجدبة، ليحييها ويحيي به أهلها. وإن الله جعل للمعروف أعداء من خلقه بغّض إليهم المعروف وبغّض إليهم فعاله، وحظر على طلّاب المعروف الطلب إليهم، وحظر عليهم قضاءه، كما يحرم الغيث على الأرض المجدبة، ليهلكها ويهلك أهلها. وما يعفو الله أكثر»[٢].

وفي حديث معاوية بن وهب عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كل معروف صدقة»[٣].

وفي حديث عبد الأعلى عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كل معروف صدقة. وأفضل الصدقة صدقة عن ظهر غنى. وابدأ بمن تعول.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦١-٢٦٢.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٢٥ كتاب الزكاة: باب المعروف حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٢٦ كتاب الزكاة: باب فضل المعروف حديث:٢.

واليد العليا خير من اليد السفلى. ولا يلوم الله على الكفاف»[١].

وفي حديث السكوني عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الخَلْق عيال الله، فأحب الخَلْق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سروراً»[٢].

وفي حديث سيف بن عميرة: «حدثني من سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله من أحبّ الناس إلى الله؟ قال: أنفع الناس للناس»[٣].

وفي حديث أبي البختري عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إسماع الأصم من غير تضجر صدقة هنيئة»[٤].

وفي مرسل جعفر بن أحمد بن علي القمي عن النبي صلى الله عليه وآله: «إسماع الأصم من الصدقة»[٥].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إماطَتك الأذى عن الطريق صدقة، وإرشادك الرجل صدقة، وعيادتك المريض صدقة، واتباعك الجنازة صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وردك السلام صدقة»[٦].

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٢٦ كتاب الزكاة: باب فضل المعروف حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٦٤ كتاب الإيمان والكفر: باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم حديث:٦.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٦٤ كتاب الإيمان والكفر: باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم حديث:٧.

(٤) وسائل الشيعة ج:٨ ص:٤٩٣ باب:٩١ من أبواب أحكام العشرة حديث:٤.

(٥) جامع الأحاديث ص:٦٧، واللفظ له. كنز العمال ج:٦ ص:٤١٠. الجامع الصغير للسيوطي ج:١ ص:١٥٧.

(٦) مستدرك الوسائل ج:٧ ص:٢٤٣ باب:٤٠ من أبواب الصدقة حديث:٣.

وفي حديث محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إن من عبادي لمن يتقرب إليّ بالحسنة فأحكمه في الجنة. قال موسى: يا رب وما تلك الحسنة؟ قال: يمشي مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته قضيت أم لم تقض»(١).

وفي حديث ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كل معروف صدقة. والدال على الخير كفاعله. والله عز وجل يحب إغاثة اللهفان»(٢).

وفي حديث أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: إن أعرابياً من بني تميم أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: أوصني، فكان فيما أوصاه به أن قال: يا فلان، لا تزهدَنَّ في المعروف عند أهله»(٣).

وفي حديث عبد الله بن الوليد عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أول من يدخل الجنة المعروف وأهله، وأول من يرد عليّ الحوض»(٤).

وفي حديث عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: صنائع المعروف تقي مصارع السوء»(٥).

وفي حديث السكوني عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن البركة أسرع إلى البيت الذي يمتار منه المعروف من الشفرة في سنام البعير أو من

---

(١) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٥٧٨ باب:٢٥ من أبواب فعل المعروف حديث:٨.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٢٧ كتاب الزكاة: باب فضل المعروف حديث:٤.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٢٧-٢٨ كتاب الزكاة: باب فضل المعروف حديث:١٠.

(٤) الكافي ج:٤ ص:٢٨ كتاب الزكاة: باب فضل المعروف حديث:١١.

(٥) الكافي ج:٤ ص:٢٨ كتاب الزكاة: باب أن صنائع المعروف تدفع مصارع السوء حديث:١.

السيل إلى منتهاه»[١].

وفي حديث أبي عبد الله البرقي عن بعض أصحابنا رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة. يقال لهم: إن ذنوبكم قد غفرت لكم، فهِبوا حسناتكم لمن شئتم»[٢].

وعن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس، واصطناع الخير إلى كل برّ وفاجر»[٣].

وفي حديث حاتم عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: تصغيره، وتستيره، وتعجيله. فإنك إذا صغّرته عظّمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تممته، وإذا عجّلته هنّأته. وإن كان غير ذلك سخّفته ونكّدته»[٤].

مثالية النبي صلى الله عليه وآله في فعل المعروف

وللنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وبعض خاصة المسلمين مواقف مثالية في ذلك. نقتصر منها على هذا الحديث الذي يتضمن موقفاً للنبي صلى الله عليه وآله لافتاً للنظر حقيقاً بالذكر وإن كان طويلاً لما يتضمنه من نكات متعددة في

(١) الكافي ج:٤ ص:٢٨-٢٩ كتاب الزكاة: باب أن صنائع المعروف تدفع مصارع السوء حديث:٢.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٢٩ كتاب الزكاة: باب أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة حديث:٢.

(٣) وسائل الشيعة ج:١١ ص:٥٢٨-٥٢٩ باب:٣ من أبواب فعل المعروف حديث:٥.

(٤) الكافي ج:٤ ص:٣٠ كتاب الزكاة: باب تمام المعروف حديث:١.

خُلقه صلى الله عليه وآله وسلوكه زائداً على فعل المعروف، حقيقة بالإعجاب، وبأن تدعو المؤمنين للتأسي به صلى الله عليه وآله فيها.

ففي صحيح أبان الأحمر عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وقد بليَ ثوبه ـ فحمل إليه اثني عشر درهماً. فقال: يا علي خذ هذه الدراهم فاشتر لي ثوباً. قال علي عليه السلام: فجئت إلى السوق فاشتريت قميصاً باثني عشر درهماً، وجئت به إلى رسول الله، فنظر إليه، فقال: يا علي قميص دونه يكفيني [يا علي غير هذا أحب إليّ. خ ل]. أترى صاحبه يقيلنا؟ فقلت: لا أدري. فقال: انظر. فجئت إلى صاحبه، فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قد كرِه هذا، يريد ثوباً دونه، فأقلنا فيه. فردّ عليّ الدراهم، وجئت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

فمشى معي إلى السوق ليبتاع قميصاً. فنظر إلى جارية قاعدة على الطريق تبكي. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ما شأنك؟ قالت: يا رسول الله إن أهل بيتي أعطوني أربعة دراهم لأشتري لهم بها حاجة، فضاعت، فلا أجسر أن أرجع إليهم. فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة دراهم، وقال: ارجعي إلى أهلك.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى السوق، فاشترى قميصاً بأربعة دراهم، ولبسه، وحمد الله، وخرج، فرأى رجلاً عرياناً يقول: من كساني كساه الله من ثياب الجنة. فخلع رسول الله صلى الله عليه وآله قميصه الذي اشتراه، وكساه السائل.

ثم رجع إلى السوق فاشترى بالأربعة التي بقيت قميصاً آخر، فلبسه وحمد الله ورجع إلى منزله، فإذا بالجارية قاعدة على الطريق. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ما لك لا تأتين أهلك؟ قالت: يا رسول الله

إني قد أبطأت عليهم، وأخاف أن يضربوني، فقال لها رسول الله: مُرّي بين يديّ ودُلّيني على أهلك. فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وقف على باب دارهم.

ثم قال: السلام عليكم يا أهل الدار، فلم يجيبوه. فأعاد السلام، فلم يجيبوه. فأعاد السلام، فقالوا: عليك السلام يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال لهم: ما لكم تركتم إجابتي في أول السلام والثاني؟. قالوا: يا رسول الله، سمعنا سلامك فأحببنا أن نستكثر منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن هذه الجارية أبطأت عليكم فلا تؤاخذوها. فقالوا: يا رسول الله هي حرّة لمشاك. فقال رسول الله: الحمد لله. ما رأيت اثني عشر درهماً أعظم بركة من هذه. كسا الله بها عريانين، وأعتق بها نسمة»[1].

وفي تتمة الحديث في المعروف ينبغي التنبيه على أمور:

النهي عن المنّ بالمعروف

الأول: قال الله عز وجل: ﴿**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...**﴾[2].

وفي حديث إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى كَرِه لي ست خصال، وكرهتها للأوصياء من ولدي وأتباعهم من بعدي. منها المنّ بعد الصدقة»[3].

---

(١) أمالي الشيخ الصدوق ص:٣٠٩-٣١١ المجلس:٤٢ حديث:٥.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٦٣-٢٦٤.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٢٢ كتاب الزكاة: باب المن حديث:١.

وعنه عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أسدى إلى مؤمن معروفاً، ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل صدقته...»[1]. ونحوه غيره.

المعروف قبل المسألة

الثاني: في حديث مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام: «أن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) بعث إلى رجل بخمسة أوساق من تمر البغيبغة. وكان الرجل ممن يرجو نوافله ويؤمِّل نائله ورفده. وكان لا يسأل علياً عليه السلام ولا غيره شيئاً. فقال رجل لأمير المؤمنين عليه السلام: والله ما سألك فلان، ولقد كان يجزئه من الخمسة الأوساق وسق واحد. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: لا كثّر الله في المؤمنين ضِربك. أعطي أنا وتبخل أنت! لله أنت! إذا أنا لم أعط الذي يرجوني إلا بعد المسألة، ثم أعطيه بعد المسألة، فلم أعطه ثمن ما أخذت منه. وذلك لأني عرّضته أن يبذل لي وجهه، الذي يعفّره في التراب لربي وربه عند تعبده له، وطلب حوائجه إليه. فمن فعل هذا بأخيه المسلم وقد عرف أنه موضع لصلته ومعروفه، فلم يُصدِق الله عز وجل في دعائه له، حيث يتمنى له الجنة بلسانه، ويبخل عليه بالحطام من ماله. وذلك أن العبد قد يقول في دعائه: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات. فإذا دعا لهم بالمغفرة فقد طلب لهم الجنة. فما أنصف من فعل هذا بالقول، ولم يحققه بالفعل»[2].

وقد تضمن هذا الحديث أن المعروف الخالص هو المعروف للغير من

---

(١) تفسير القمي ج:١ ص:٩١ في تفسير قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى**...﴾.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٢٢-٢٣ كتاب الزكاة: باب من أعطى بعد المسألة حديث:١.

دون أن يسأل. أما بعد المسألة فيكون عوضاً عما بذل السائل من ماء وجهه وذلّ مسألته. ونحوه في ذلك جملة من النصوص لا نطيل الكلام بذكرها.

الصدقة تدفع النحس والشر

الثالث: وفي حديث علي بن أسباط عمن رواه عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كان بيني وبين رجل قسمة أرض. وكان الرجل صاحب نجوم. وكان يتوخى ساعة السعود فيخرج فيها، وأخرج أنا في ساعة النحوس. فاقتسمنا، فخرج لي خير القسمين. فضرب الرجل يده اليمنى على اليسرى، ثم قال: ما رأيت كاليوم قط. قلت: ويل الآخر، وما ذاك؟ قال: إني صاحب نجوم، أخرجتك في ساعة النحوس، وخرجت أنا في ساعة السعود، ثم قسمنا، فخرج لك خير القسمين.

قلت: ألا أحدثك بحديث حدثني به أبي. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سرّه أن يدفع الله عنه نحس يومه فليفتتح يومه بصدقة يذهب الله بها عنه نحس يومه. ومن أحب أن يذهب الله عنه نحس ليلته فليفتتح ليلته بصدقة يدفع الله عنه نحس ليلته. وإني أفتتحت خروجي بصدقة. فهذا خير لك من علم النجوم»[1]. والنصوص في ذلك كثيرة جداً. نقتصر منها على ما ذكرنا.

صدقة السرّ

الرابع: ورد تأكّد الفضل في صدقة السرّ. قال الله عز وجل: ﴿**إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**

(١) الكافي ج:٤ ص:٦-٧ كتاب الزكاة: باب أن الصدقة تدفع البلاء حديث:٩.

وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[١].

وفي حديث عمار: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا عمار الصدقة والله في السرّ أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك والله العبادة في السرّ أفضل منها في العلانية»[٢].

وفي حديث ابن القداح عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صدقة السرّ تطفي غضب الرب»[٣]. ونحوهما غيرهما.

وفي حديث المعلى بن خنيس: «خرج أبو عبد الله عليه السلام في ليلة قد رشّت، وهو يريد ظلة بني ساعدة... فإذا أنا بجراب أعجز عن حمله من خبز فقلت: جعلت فداك أحمله على رأسي. فقال: لا. أنا أولى به منك، ولكن امض معي، قال: فأتينا ظلة بني ساعدة، فإذا نحن بقوم نيام، فجعل يدسّ الرغيف والرغيفين حتى أتى على آخرهم... فقال: ... إن صدقة الليل تطفي غضب الرب وتمحو الذنب العظيم، وتهوّن الحساب، وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر.

إن عيسى ابن مريم عليه السلام لما أن مرّ على شاطئ البحر رمى بقرص من قوته في الماء. فقال له بعض الحواريين: يا روح الله وكلمته، لِمَ فعلت هذا، و إنما هو من قوتك؟ قال: فقال: فعلت هذا لدابّة تأكله من دواب الماء، وثوابه عند الله عظيم»[٤].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٧١.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٨ كتاب الزكاة: باب فضل صدقة السر حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٧ كتاب الزكاة: باب فضل صدقة السر حديث:١.

(٤) الكافي ج:٤ ص٨-٩ كتاب الزكاة: باب صدقة الليل حديث:٣.

حسن المعروف حتى للحيوان والأمر بالرفق به

الخامس: يدل الحديث السابق على عموم حسن المعروف للحيوان. ومثله حديث ضريس بن عبد الملك عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: إن الله تبارك وتعالى يحب إبراد الكبد الحرى. ومن سقى كبدا حرى من بهيمة أو غيرها أظله الله يوم لا ظِلّ إلا ظلّه»(١).

وفي حديث مسمع عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: أفضل الصدقة إبراد كبد حرّى»(٢).

وفي حديث الجعفريات بإسناده عن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام: «قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله يتوضأ إذ لاذ به هرّ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله أنه عطشان، فأصغى إليه الإناء حتى شرب منه الهرّ، ثم توضأ بفضله»(٣).

وبالإسناد نفسه عن علي عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للدابة على صاحبها ست خصال: يعلفها إذا نزل، ويعرض عليها الماء إذا مرّ به، ولا يضربها إلا على حق، ولا يحمّلها ما لا يطيق، ولا يكلفها من السير إلا طاقتها، ولا يقف عليها فواقاً»(٤).

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٥٨ كتاب الزكاة: باب سقي الماء حديث:٦.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٥٧ كتاب الزكاة: باب سقي الماء حديث:٢.

(٣) الجعفريات ص:١٣ باب سؤر الهر حديث:١. ورواه في البحار عن نوادر الراوندي ج:١٦ ص:٢٩٣ باب مكارم أخلاقه وسيره وسننه صلى الله عليه وآله حديث:١٦٠.

(٤) الجعفريات ص:٨٥ باب ما يجب للدابة على صاحبها من الحق حديث:٢. الفَواق: ما بين الحلبتين، ومدته قصيرة. وهو كناية عن عدم إطالة الراكب الوقوف بالدابة وهو راكب عليها، لأن ذلك يتعبها. نظير ما يأتي في الحديث الثاني من عدم اتخاذ ظهورها كراسياً.

وبالإسناد نفسه عن علي عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تتخذوا ظهور الدواب كراسياً. فرب دابة مركوبة خير من راكبها، وأطوع لله، وأكثر ذكراً»[١].

وبالإسناد نفسه عنه عليه السلام: «قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ على قوم قد نصبوا دجاجة حيّة، وهم يرمونها، فقال: من هؤلاء لعنهم الله؟!»[٢].

وفي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: «أن النبي صلى الله عليه وآله أبصر ناقة معقولة وعليها جهازها، فقال: أين صاحبها؟ مروه فليستعد غداً للخصومة»[٣].

وفي حديث حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: إن امرأة عذبت في هِرّة ربطتها حتى ماتت عطشاً»[٤].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «قال: بينما امرأة تمشي بفلاة من الأرض إذا اشتدت [إذ اشتد.ظ] عليها العطش، فنزلت بئراً، فشربت ثم صعدت، فوجدت كلباً يأكل الثرى من العطش، فقالت: لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذي بلغ بي. ثم نزلت البئر، فملأت خُفّها وأمسكته بفيها، ثم صعدت فسقته. فشكر الله لها ذلك، وغفر لها، فقالوا: يا رسول الله أوَ لنا في البهائم أجر؟ قال: نعم في كل كبد رطبة أجر»[٥]... إلى غير ذلك.

---

(١) الجعفريات ص:٨٥ باب ما يجب للدابة على صاحبها من الحق حديث:٣.

(٢) الجعفريات ص:٨٣-٨٤ باب صبر البهائم حديث:١.

(٣) المحاسن ج:٢ ص:٣٦١ كتاب السفر باب الرفق بالدابة وتعهدها حديث:٩٠.

(٤) بحار الأنوار ج:٦٢ ص:٦٤ باب الكلاب وأنواعها وصفاتها.. حديث:٢٣.

(٥) بحار الأنوار ج:٦٢ ص:٦٤ باب الكلاب وأنواعها وصفاتها.. حديث:٢٤.

بل قد تضمن بعض النصوص النهي عن قطع الشجر. كصحيح أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أراد أن يبعث سرية دعاهم، فأجلسهم بين يديه، ثم يقول: سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله. لا تغلوا، ولا تمثّلوا، ولا تغدروا. ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة. ولا تقطعوا شجراً، إلا أن تضطروا إليها...»[1]. ونحوه غيره.

أهمية سقي الماء

السادس: ورد الحثّ على سقي الماء. ففي حديث معاوية بن عمار عنه عليه السلام: «قال: من سقى الماء في موضع يوجد فيه الماء كان كمن أعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء كان كمن أحيا نفساً، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً»[2].

وفي حديث أبي البلاد عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: علمني عملاً أدخل به الجنة. فقال: أطعم الطعام، وأفش السلام. قال: فقال: لا أطيق ذلك. قال: فهل لك إبل؟ قال: نعم. قال: فانظر بعيراً واسق عليه أهل بيت لا يشربون الماء إلا غِبّاً. فلعله لا ينفق بعيرك، ولا ينخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة»[3].

وفي حديث طلحة بن زيد عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال أمير

---

(١) الكافي ج:٥ ص:٢٧ باب وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام في السرايا حديث:١.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٥٧ كتاب الزكاة: باب سقي الماء حديث:٣.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٥٧-٥٨ كتاب الزكاة: باب سقي الماء حديث:٥. وقوله صلى الله عليه وآله: «لا يشربون الماء إلا غِباً» كناية عن قلة شربهم للماء، بأن يشربوا يوماً ولا يشربوا يوماً.

المؤمنين (صلوات الله عليه): أول ما يبدأ به في الآخرة صدقة الماء. يعني: في الأجر»[١]... إلى غير ذلك.

أهمية إطعام الطعام

السابع: ورد في نصوص كثيرة الحثّ على إطعام الطعام. مثل ما تقدم في حديث أبي البلاد. وفي حديث حماد بن عثمان: «قال أبو عبد الله عليه السلام: من الإيمان حسن الخلق وإطعام الطعام»[٢].

وفي حديث عبد الله بن القاسم الجعفري عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خيركم من أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلّى والناس نيام»[٣].

وفي حديث هشام بن الحكم عنه عليه السلام: «قال: مِن أحبّ الأعمال إلى الله عز وجل إشباع جوعة المؤمن، أو تنفيس كربته، أو قضاء دينه»[٤].

وفي حديث عبد الله بن ميمون عن جعفر عن أبيه عليهما السلام: «أن النبي صلى الله عليه وآله قال: الرزق أسرع إلى من يطعم الطعام من السكّين في السنام»[٥]... إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة.

أهمية فعل المعروف وآثاره

وفي ختام الحديث عن فعل المعروف نقول: هذا الخلق **أولاً**: يكشف

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٥٧ كتاب الزكاة: باب سقي الماء حديث:١.

(٢) الكافي ج:٤ ص:٥٠ كتاب الزكاة: باب فضل إطعام الطعام حديث:٢.

(٣) الكافي ج:٤ ص:٥٠ كتاب الزكاة: باب فضل إطعام الطعام حديث:٣.

(٤) الكافي ج:٤ ص:٥١ كتاب الزكاة: باب فضل إطعام الطعام حديث:٧.

(٥) الكافي ج:٤ ص:٥١ كتاب الزكاة: باب فضل إطعام الطعام حديث:١٠.

عن نبل صاحبه وشرف نفسه، لاهتمامه بخدمة الناس كأفراد، وكمجتمع. وفي حديث علي بن جعفر عن أخيه أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «قال: أخذ أبي بيدي، ثم قال: يا بني إن أبي محمد بن علي عليه السلام أخذ بيدي كما أخذت بيدك، وقال لي: إن أبي علي بن الحسين عليهما السلام أخذ بيدي، وقال: افعل الخير إلى كل من طلبه منك، فإن كان من أهله فقد أصبت موضعه، وإن لم يكن من أهله كنت أنت من أهله. وإن شتمك رجل عن يمينك، ثم تحوّل إلى يسارك فاعتذر إليك فاقبل عذره»[1].

وثانياً: يخدم المجتمع الإنساني خدمة هامة. حيث لا يناط حصول المعروف للمحتاج بجهة خاصة تابعة للسلطة أو لمؤسسة أخرى، ليكون محدوداً بقدر ما تعينه تلك الجهة، ولا يزيد عليه.

مضافاً إلى أنه يكون مورداً للاستغلال والتحايل والالتفاف على ذي الحاجة من قبل الوسائط المنفذة. كما نراه عياناً في كثير من مشاريع الخير الرسمية وشبه الرسمية.

كما أنه يكون في مأمن من استغلال الجهات السياسية له، واستفادتها منه لمصالحها وإن أضرّت بهدفه الأساسي المعلن.

أما هذا الخلق فهو نابع من ضمير كل إنسان بعد اطلاعه وعلمه بموضع المعروف، وعلى قدر إنسانيته وقدرته والوسائل المتيسرة له.

كما أنه لا يختص بجهات خاصة من المعروف، بل يعمّ كلما تيسر للإنسان من معروف مادي أو معنوي وإن قلّ، كإزالة الأذى عن الطريق والسلام على من يمرّ عليه، والدلالة على الخير... إلى غير ذلك.

---

(١) الكافي ج:٨ ص:١٥٢-١٥٣ حديث:١٤١.

وربما تكون بعض جهات الخير مما تحصل الحاجة إليه صدفة بوجه غير منضبط، ومثل ذلك لا يمكن لجهة رسمية أو غير رسمية تعيين من يقوم به. ولا يتيسر القيام به إلا لمن صادفه إذا كان من سجيته فعل المعروف.

وبذلك يتم التكافل في المجتمع بنسبة عالية، خصوصاً في الأزمات الخانقة، المثيرة للعاطفة، والمحفّزة لضمير الإنسان النبيل.

ويشير إلى ذلك ما في حديث إسماعيل بن عبد الخالق: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إن من بقاء المسلمين وبقاء الاسلام أن تصير الأموال عند من يعرف فيها الحق، ويصنع [فيها] المعروف. فإن من فناء الاسلام و فناء المسلمين أن تصير الأموال في أيدي من لا يعرف فيها الحق، ولا يصنع فيها المعروف»(١).

الدواعي المؤكدة في الحثّ على فعل المعروف

ويؤكد في الحثّ على ذلك ما سبق من ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، وأنهم إخوة، وفي حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وآله: «قال: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً. ثم شبك بين أصابعه»(٢).

وفي حديث المفضل بن عمر: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم. وإذا ضرب على رجل منهم عِرق سَهر له الآخرون»(٣). ونحوه غيره.

---

(١) الكافي ج:٤ ص:٢٥ كتاب الزكاة: باب المعروف حديث:١.

(٢) صحيح البخاري ج:٧ ص:٨٠ كتاب الأدب: باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٦٥ كتاب الإيمان والكفر: باب أخوة المؤمنين بعضهم لبعض حديث:١.

إدخال السرور على المؤمن

ومنه النصوص الكثيرة المتضمنة للحث على إدخال السرور على المؤمن وتفريج كربته، كحديث أبي حمزة الثمالي: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من سرّ مؤمناً فقد سرّني، ومن سرّني فقد سرّ الله»(١).

وحديث علي بن أبي علي عن أبي عبد الله عن أبيه عن علي بن الحسين (صلوات الله عليهم): «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال السرور على المؤمنين»(٢).

وفي حديث ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: من أدخل السرور على مؤمن فقد أدخله على رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن أدخله على رسول الله صلى الله عليه وآله فقد وصل ذلك إلى الله. وكذلك من أدخل عليه كرباً»(٣).

وحديث ذريح المحاربي: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أيما مؤمن نفس عن مؤمن كربة وهو معسر يسّر الله له حوائجه في الدنيا والآخرة. قال: ومن ستر على مؤمن عورة يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا والآخرة. قال: والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه. فانتفعوا بالعِظة، وارغبوا في الخير»(٤).

وفي حديث المفضل عنه عليه السلام: «قال لي: يا مفضل اسمع ما أقول لك.

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٨٨ كتاب الإيمان والكفر: باب إدخال السرور على المؤمنين حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٨٩ كتاب الإيمان والكفر: باب إدخال السرور على المؤمنين حديث:٤.

(٣) الكافي ج:٢ ص:١٩٢ كتاب الإيمان والكفر: باب إدخال السرور على المؤمنين حديث:١٤.

(٤) الكافي ج:٢ ص:٢٠٠ كتاب الإيمان والكفر: باب تفريج كرب المؤمن حديث:٥.

واعلم أنه الحق، وافعله، وأخبر به عليّة إخوانك. قلت: جعلت فداك، وما عليّة إخواني؟ قال: الراغبون في قضاء حوائج إخوانهم. قال: ثم قال: ومن قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله عز وجل له مائة ألف حاجة. من ذلك أولها الجنة. ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه الجنة بعد أن لا يكونوا نصاباً». وكان المفضل إذا سأل الحاجة أخاً من إخوانه قال له: أما تشتهي أن تكون من عليّة الإخوان؟[1]. والنصوص بهذه المضامين أكثر من أن تحصى، على اختلافها في وجوه الحثّ والتشجيع.

الاهتمام بأمور المسلمين

وكذا ما في عدة نصوص من الحثّ على الاهتمام بأمور المسلمين والمؤمنين، وأن من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم. ففي حديث السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[2]. ونحوه غيره.

وفي حديثه الآخر عنه عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنسك الناس نسكاً أنصحهم جَيباً[3]، وأسلمهم قلباً لجميع المسلمين»[4].

---

(١) الكافي ج:٢ ص:١٩٢-١٩٣ كتاب الإيمان والكفر: باب قضاء حاجة المؤمن حديث:١.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٦٣ كتاب الإيمان والكفر: باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم حديث:١.

(٣) يقال: رجل ناصح الجيب. أي: أمين لا غش فيه.

(٤) الكافي ج:٢ ص١٦٣-١٦٤ كتاب الإيمان والكفر: باب الاهتمام بأمور المسلمين والنصيحة لهم ونفعهم حديث:٢.

الحب في الله والبغض في الله

ومثله ما استفاضت به النصوص من التأكيد على الحبّ في الله والبغض في الله. ففي حديث عمرو بن مدرك الطائي عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: أي عرى الايمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. وقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لكل ما قلتم فضل، وليس به. ولكن أوثق عرى الايمان الحبّ في الله، والبغض في الله. وتوالي [تولي] أولياء الله، و التبرّي من أعداء الله»[1].

وفي حديث سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شُعب الايمان. ألا ومن أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله»[2]. ونحوهما غيرهما. وهو كثير جداً.

ثمرة جميع ما سبق

وهذه الأمور بمجموعها مع الأخلاق المتقدمة تبني مجتمعاً منتجاً متماسكاً موحداً، يصمد أمام الزوابع والأعاصير التي تتعرض لها البشرية عامة، وما يتعرض له المجتمع الإيماني خاصة من مؤامرات الأعداء ومحاولاتهم الحثيثة في اكتساحه والتخلص منه.

وقد رأينا ذلك عياناً في أزمات وأعاصير كثيرة مرت بالمؤمنين

---

(١) الكافي ج:٢ ص١٢٥-١٢٦ كتاب الإيمان والكفر: باب الحب في الله والبغض في الله حديث:٦.

(٢) الكافي ج:٢ ص:١٢٥ كتاب الإيمان والكفر: باب الحب في الله والبغض في الله حديث:٣.

في عصورنا. وعلم الله عز وجل ما كان عليه الحال في العصور الطويلة السابقة.

ولنكتف بهذا المقدار في ذكر المبادئ التي حملها النبي صلى الله عليه وآله وجرى عليها بنفسه، أو جرى عليها أهل البيت عليهم السلام وحثوا عليها.

ولا يسعنا استقصاء جميع المبادئ التي تضمنتها رسالته الشريفة، حيث يصعب استقصاؤها أولاً، وطال بنا الكلام بحدّ قد ينتهي للملل ثانياً. وقد تضمنت النصوص السابقة كثيراً منها لم نتعرض له بعنوان يخصه ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتب الحديث المتداولة.

الوسطية في التعاليم الدينية

والأمر الحقيق بالإعجاب والتنبيه فيما سبق وغيره من التعاليم الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أنها بعيدة عن الإغراق والإفراط، بل تبتني على الوسطية والاعتدال في السلوك والعمل.

فكما ورد الحثّ على برّ الوالدين، ورد حثّ الوالدين على الرفق بالولد، والاهتمام بأمره وتكريمه وغض النظر عن خطئه. وكما ورد التأكيد على حق الزوج على الزوجة، ورد التأكيد على حقها عليه ورعايته وغفرانه لذنبها. وكما ورد التأكيد على القناعة، ورد الحثّ على التجارة والعمل. وكما ورد الحثّ على طلب المال، ورد الحثّ على الإجمال في طلبه... إلى غير ذلك مما ذكرناه سابقاً، ويتضح بالتأمل، والنظر في التراث الإسلامي الرفيع.

أهمية التواصل مع التراث الإسلامي

وبهذه المناسبة فوصيتنا للمؤمنين وفقهم الله ـ خصوصاً المثقفين النشيطين منهم ـ أن يتواصلوا مع تراث الإسلام العريق، من الكتاب المجيد والسنة الشريفة. فكتب أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام صارت سهلة التناول. كما يسهل فهمها، لوضوح بيانها غالباً. على أن كثيراً منها ما يكون قد طبع طبعة محققة تتضمن شرحاً لما أشكل من مفرداتها ومضامينها.

فإن التواصل مع التراث **أولاً**: له أعظم الأثر في الحصانة من التنظيرات المرتجلة التي قد تنتهي بالمسلم للانحراف تدريجاً، ثم الخروج عن الحق من حيث لا يشعر.

وقد ورد عنهم (صلوات الله عليهم): أن «من أخذ دينه من كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه وآله زالت الجبال قبل أن يزول، ومن أخذ دينه من أفواه الرجال ردّته الرجال»[1].

وذلك أن من يعيش تراث النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فكأنه عاش معهم وعرف اتجاههم. وإذا شذّت رواية عن ذلك سهل عليه تأويلها أو معرفة دواعي صدورها من تقية أو غيرها. أما إذا لم يتواصل مع تراثهم عليهم السلام فقد يستغلها المنحرفون، ويخدع الآخذ عنهم بتفسيرهم لها، ويجري معهم في انحرافهم.

هذا إذا كان المنحرفون ينتسبون للطائفة. أما إذا كانوا أجانب عنها فالأمر أخطر، والحاجة للتواصل مع التراث الإسلامي آكد. والله سبحانه وتعالى هو المسدد العاصم.

---

(١) الكافي ج:١ ص:٧ خطبة الكتاب.

وثانياً: له أعظم الأثر في صلاح النفس واستقامة سلوك الإنسان تدريجاً. لما تضمنته من توجيهات تربوية نفسية وعملية سديدة وفطرية يسعد بها ويطمئن إليها، لشعوره بصدورها من عين صافية وناصح حكيم صادق يتفاعل معها ويجسدها عملاً، وشفيق مخلص يهمه إصلاح الناس ويجهد في نصحهم.

الملتزم بدينه يفرض احترامه على الآخرين

كما أنا نلفت أنظار إخواننا المؤمنين أعزهم الله عز وجل إلى أن الإنسان الذي يحترم نفسه، ويلتزم بدينه، ويحافظ على ما تضمنه من مكارم الأخلاق ومحمود الخصال، يفرض احترامه على الآخرين حتى المتحللين منهم، حيث يشعرون بقوة شخصيته واعتزازه بواقعه. مع شعورهم في قرارة أنفسهم بشرف ذلك الواقع وحسنه.

وقد لمسنا ذلك عياناً ممن تواصلنا معهم، وتيسر لنا الحديث معهم. وبلغنا كثير من مفرداته من إخواننا المؤمنين الذين يتواصلون مع تلك الفئات. فعلى المؤمنين وفقهم الله تعالى أن يرعوا ذلك خصوصاً في المجتمعات المتحللة.

ولو فرض أن تعرضوا للسخرية من بعض المتحللين ـ ممن لا يحترم نفسه ـ فلا ينبغي أن يمنعهم ذلك من اعتزازهم بواقعهم الكريم، ومضيهم فيه وإصرارهم عليه.

كما قال الله عز وجل حاكياً عن نبيه نوح (على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام): ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ**

﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[1].

وصية للمغتربين

وقد يزيد الحال في المغتربين في تلك المجتمعات. فقد تحدثنا مع جماعة منهم وممن يتواصل معهم، وحمّلناهم للمغتربين المذكورين عامة رسالة شفوية، مفادها أنكم إذا انصهرتم في تلك المجتمعات وجاريتموهم في سلوكهم لم ينظروا إليكم إلا مواطنين من الدرجة الثانية، وقد أحسنوا إليكم، حيث آووكم، وقبلوا بكم، وهيئوا لكم فرص العمل والعيش في بلادهم. مع أنهم في الحقيقة في حاجة لهم لتكثير الأيدي العاملة، لأنهم أصبحوا يعانون من نقصها.

أما إذا تميزتم عنهم بالتزامكم وتماسككم وتجمعاتكم وشعائركم وحسن مخالطتهم ومعاشرتهم وتحليتم بمكارم الأخلاق التي حثّ عليها دينكم العظيم، فإنهم سوف ينظرون إليكم باحترام وينشدّون إليكم. بل قد يستمعون لكم ويستفيدون منكم. وتكونون سبباً لهدايتهم وسعادتهم. وقد بلغنا ولمسنا الكثير من ذلك.

والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق والتسديد. وهو أرحم الراحمين.

الإيمان بالله تعالى يخفف وقع الأزمات والمصائب

هذا ويحسن التنبيه لأمر له أهميته. وهو أن الأزمات والمشاكل والمآسي والمصائب التي يمرّ بها الفرد والمجتمع في هذه الحياة الفانية يخفّ وقعها على المتدين المؤمن بقدرة الله تعالى وعدله وحكمته، وحسن اختياره

---

(١) سورة هود الآية: ٣٨.

لعبده المؤمن.

حيث يرى أنه مرعيّ من قبل الله عز وجل، وأن ذلك ـ في علم الله عز اسمه ـ صلاح له في الدنيا والآخرة. ولا يذهب هدراً، ولا يكون خسارة، بل هو في عاقبة الأمر ربح له.

فهو نظير الآلام التي يعاني منها الإنسان نتيجة عملية جراحية تحت إشراف طبيب حاذق، حيث يكون وقعها أخفّ في نفس صاحبها من الآلام الطارئة من دون رعاية مأمونة.

وهذا يزيد المبتلى مناعة وطاقة إزاء الأزمات والمصائب والمصاعب المذكورة، ويخففها عليه كثيراً، ويرفع معنوياته، ويقوي نفسه.

على أن الأمل يبقى أمامه مفتوحاً بالتوجه إلى الله تعالى والتوكل عليه ودعائه واللجأ إليه، والاستشفاع بأوليائه وأصفيائه صلوات الله عليهم.

كما أن للنهي الشديد دينياً عن الإغراق في الجزع والحثّ المؤكد على الصبر واحتساب المصائب مهما عظمت، بانتظار الخلف في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة، والتأسي بمصائب النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وشيعتهم، كل ذلك له أعظم الأثر في تخفيف وقع المصائب والحدّ من ردود الفعل العنيفة التي يتعرض لها المصاب والمبتلى.

ولذا لا تبدو ظاهرة الانتحار في المجتمع المتدين مهما عظمت المشاكل، واكفهرت الأجواء، وتواترت المصائب والمتاعب.

ولاسيما مع النهي الشديد عنه في الكتاب المجيد والسنة الشريفة. قال الله عز وجل: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ**

﴿ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢]... إلى غير ذلك.

بينما تبدو هذه الظاهرة في المجتمعات غير المتدينة لأتفه الأسباب، ومنها الملل والشعور بتفاهة الحياة.

وهنا تبدو أهمية الدين والعقيدة وفاعليتهما في حفظ نظام المجتمع، وفي تخطي المشاكل ومواجهة المصاعب والمصائب.

حوار مع بعض المثقفين الأجانب

ومن الطريف ما جرى بيننا وبين بعض ذوي الاختصاص من الباحثين في فرع التربية من المثقفين الأجانب[٣]. حيث قلت له في مقام المقارنة بين مجتمعنا ومجتمعاتهم: إنا نملك بواسطة الدين حاجزاً نفسياً عن التورط في الجريمة، لشعورنا بأن الله تعالى محيط بنا عالم بأعمالنا وخفايانا ونوايانا. وذلك يؤدي طبيعياً إلى إلتزامنا بأداء ما علينا واجتناب ما حرمه الله تعالى علينا نسبياً وإن لم يكن هناك مانع أو رقيب من قانون أو شاهد أو غير ذلك.

أما أنتم فتفقدون ذلك، ولا يمنعكم من الجريمة إلا القانون، بمقدار فاعليته، فهو المحرك لكم لأداء ما عليكم، والانتهاء عما منعكم، من دون وازع داخلي نفسي.

---

(١) سورة النساء الآية: ٢٩-٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٩٥.

(٣) كان ذلك في شعبان سنة ١٤٤٠هـ.

فأنتم في ذلك كالميت سريرياً الذي تحرّكه الأجهزة بمقدار فاعليتها، ونحن كالحي الذي تحرّكه حياته نحو ما يصلحه.

كما أن عقيدتنا تمنحنا قوة داخلية وحصانة أمام المصائب والمآسي التي تمرّ بنا في معترك الحياة، لشعورنا بأن الله تعالى رؤوف رحيم، وأن بعينه ما يجري، ولا يختار لنا إلا الخير، وهو القادر على تغيير ما بنا من سوء، وتعويضنا عما فات، فنلجأ إليه في ذلك، ونأمل منه الخلف والعوض.

ولذا لم تحصل فينا ظاهرة الانتحار على شدّة المصائب والكوارث التي تعرضنا لها من النظام السابق. أما أنتم فظاهرة الانتحار فيكم شايعة لأتفه الأسباب.

وبدلاً من أن يجرح ذلك شعور الشخص المذكور أو يكابر. فقد تقبَّل ذلك مني، وقال: إذا كان النظام السابق قد قتلكم، فإن الذين سلبونا العقيدة وجردونا منها قتلونا. وقد أخبرني بعض من كانت له علاقة به أنه ذكر ذلك له أيضاً.

وأكّد قناعته بحديثنا معه بزيارة له أخرى مع جماعة من الفريق الذي يعمل معه[1]، من أجل أن يستمعوا لحديثنا، ويتعرفوا على وجهة نظرنا. وقد تفاعلوا بحديثا حول الارتباط العائلي وارتباط المجتمع بعضه ببعض، حتى انتهى الأمر ببعضهم إلى الحسرة، ثم البكاء، لفقدهم ذلك.

وذلك منه ومنهم، مع خبرتهم وموقعهم الثقافي في بلادهم، يكشف عن الواقع المأساوي الذي تعاني منه تلك المجتمعات، يدركه منهم من أدركه، ويغفل عنه من غفل.

---

(١) كان ذلك في شوال سنة ١٤٤٠هـ.

كما يظهر به أهمية النعمة التي تحيط بنا بسبب قِيَمنا وديننا وما يستتبعه من معالم ومواسم مذكرة تجدّد فاعلية العقيدة.

وقد بلغنا عن بعض السلفيين ممن نشط في أيام النظام السابق في التبشير بدعوته أنهم يقولون: إنا نبني طول السنة، حتى إذا جاء شهرا محرم وصفر إنهار بناؤنا، ورجعنا من حيث بدأنا.

كما ذكر نظير ذلك بعض المؤمنين رحمه الله ممن كان يحاور المسؤولين في النظام السابق في توجيه تحرشهم ومنعهم للمراسم المعهودة في الشهرين المذكورين، مع أنه يثير حفيظة الجمهور عليهم، ويضرّ بهم شعبياً.

وكان في حسابهم أنهم بذلك يستطيعون أن يغيروا ثقافة البلد. لكن انشداد المؤمنين لثقافتهم وتجذرها في نفوسهم جعل المنع المذكور محفزاً على التمسك بها بنحو أحرج المسؤولين وشعروا بخطئهم، فيما بلغنا، وظهر ذلك من بعض مواقفهم.

وكان من نتائج ذلك اندفاع المؤمنين بعد سقوط النظام بنحو أدهش العالم، وكشف عن قوة تلك الثقافة. ولله عز وجل أمر هو بالغه. ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾[1].

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والفضل في ذلك لأنبياء الله ورسله وأوصيائهم، الذين هم الواسطة بين الله عز وجل وبين عباده. ولاسيما سيدهم وخاتمهم (**محمد**) نبينا العظيم وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين. الذين بقي أثر تعاليمهم وجهودهم

(١) سورة إبراهيم الآية: ٢٤-٢٥.

حتى اليوم.

ونسأل الله تعالى أن يعصمنا في مهاوي الهلكات، ويسددنا في ظلمات الفتن والأزمات إنه أرحم الراحمين وولي المؤمنين. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مميزات النبي صلى الله عليه وآله وصفته وخلقه

تتميم:

ويحسن بنا في ختام الحديث عن مبادئ النبي صلى الله عليه وآله **أولاً**: ذكر ما ورد فيما يختص به صلى الله عليه وآله من مميزات عن غيره من الناس.

ففي حديث سالم بن أبي حفصة العجلي عن أبي جعفر عليه السلام: «قال: كان في رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة، لم تكن في أحد غيره: لم يكن له فيء. وكان لا يَمُرّ في طريق فيُمَر فيه بعد يومين أو ثلاثة إلا عُرِف أنه قد مَرّ فيه، لطيب عَرفه[1]، وكان لا يمرّ بحجر ولا بشجر إلا سجد له»[2].

وفي حديث إسماعيل بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام: «قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رُئي في الليلة الظلماء رُئي له نور كأنه شقة قمر»[3].

وهناك خصال أخر لا يسعنا ذكرها.

وثانياً: ذكر ما ورد في صفته في بدنه وتكامله، بنحو يوحي بقوة شخصيته، وفي حسن خلقه ومعاشرته ومبدئيته. وهما من أسباب هيمنته

---

(١) العَرف: الرائحة.

(٢) الكافي ج:١ ص:٤٤٢ كتاب الحجة: باب مولد النبي صلى الله عليه وآله حديث:١١.

(٣) الكافي ج:١ ص:٤٤٦ كتاب الحجة: باب مولد النبي صلى الله عليه وآله حديث:٢٠.

وتأثيره. كما حاولنا إيضاح معنى بعض غريب ألفاظ الحديث الوارد في ذلك.

وقد ورد بعض هذه المضامين في نصوص متفرقة كثيرة تقدم بعضها، إلا أن الرواية الآتية أجمع. وتنفرد بكثير من المضامين الشريفة.

واخترنا في ذلك ما ورد من رواية الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا عن آبائه (صلوات عليهم أجمعين). فقد روى الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه، قال: حدثنا أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري، قال: أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن منيع، قال: حدثني إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام بمدينة الرسول صلى الله عليه وآله، قال: حدثني علي بن موسى بن جعفر بن محمد عن موسى بن جعفر بن محمد عن آبائه عن علي بن الحسين عليه السلام:

«قال: قال الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام: سألت خالي هند بن أبي هالة عن حِلية رسول الله صلى الله عليه وآله ـ وكان وصّافاً للنبي صلى الله عليه وآله ـ فقال:

كان رسول الله فخماً مُفخّماً[1]، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب[2]. عظيم الهامة رجِل الشعر[3]،

(١) ذكر بعضهم أن المراد به أنه كان مهاباً عظيماً معظماً في النفوس، وليس المراد به أنه ضخم الجسم كثير اللحم.

(٢) المشذب الطويل النحيف البدن.

(٣) رجَلَ الشعرُ ـ بفتح الجيم ـ تكسره، فهو بين المجعد والمسترسل السبط، وصاحبه رجِل الشعر بالكسر.

إذا انفرقت عقيقته فرق[١]، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّره[٢]، أزهر اللون، واسع الجبين[٣]، أزجّ الحاجبين سوابغ[٤] في غير قرن[٥]. بينهما عرق يدره الغضب[٦]. أقنى العرنين[٧]. له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم[٨]. كثّ اللحية، سهل الخدين[٩]، ضليع الفم[١٠]، أشنب[١١] مفلج الأسنان[١٢]، دقيق المسربة[١٣]، كأن عنقه جيد دمية[١٤] في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً متماسكاً[١٥]، سواء البطن والصدر[١٦]،

---

(١) العقيقة الشعر. وفرقه تقسيمه في جانبي الرأس حتى يظهر وسط الناصية. وكأنه لتأكيد أن ترجل شعره وتكسره لا يبلغ حد التجعيد، لأن الشعر المجعد لا يفرق.

(٢) لبيان أنه إذا تركه يطوّله كثيراً بحيث يغطي أذنيه، ولا يزيد على ذلك.

(٣) المراد بالجبين هنا الجبهة، وسعتها من موجبات هيبة صاحبها.

(٤) يعني: رقيق الحاجبين في طول من دون زوائد في شعرهما.

(٥) يعني: بينهما بياض خال من الشعر، ولا اتصال بينهما.

(٦) يعني: بين حاجبيه عرق يبرز إذا غضب.

(٧) العرنين الأنف. وقِناه ارتفاع وسطه مع ضيق منخريه.

(٨) يعني: يحسبه الناظر إليه لأول وهلة من دون تأمل شامخاً متكبراً لهيبته.

(٩) يعني: مستقيم الخدين لا بروز فيهما.

(١٠) يعني: عظيم الفم. وهي صفة مدح عند العرب. وكأنه لاحترام الرجل عندهم بكلامه وقوة بيانه.

(١١) الشنب في الفم طيبه وعذوبة ريقه.

(١٢) يعني: تتباعد أسنانه وتنفرج ولا تلتصق بعضها ببعض.

(١٣) المسربة هي الشعر الممتد من اللبة في أعلى الصدر إلى السرة.

(١٤) قال في لسان العرب في شرح ذلك: «الدمية: الصورة المصورة، لأنه يتنوق في صنعتها ويبالغ في تحسينها».

(١٥) يعني: ضخم الجسم من دون أن يكون مسترخي اللحم.

(١٦) يعني: معتدل الجسم ضامر البطن لا تبرز بطنه عن صدره.

بعيد ما بين المنكبين[١]، ضخم الكراديس[٢]، أنور المتجرد[٣]، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط[٤]، عاري الثديين والبطن وما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين[٥]، رحب الراحة[٦]، شثن الكفين والقدمين[٧]، سائل الأطراف[٨]، سبط العظام[٩]، خمصان الأخمصين[١٠]، فسيح القدمين ينبو عنهما الماء[١١].

إذا زال زال تقلّعاً[١٢]، يخطو تكفّياً[١٣]، ويمشى هوناً[١٤]، ذريع

---

(١) وذلك راجع إلى ضخامة أعلاه وسعته.

(٢) الكراديس المفاصل ومجامع العظام ورؤسها.

(٣) يعني: أن ما تجرد من بدنه منير لصفائه وجماله. وكان المتعارف عندهم الاكتفاء في الثياب بالأزار والرداء وهو يستلزم انكشاف كثير من البدن وظهوره.

(٤) وهو المسربة وقد تقدم أنه كان دقيق المسربة.

(٥) الزند هو المفصل بين الكف والذراع. والمظنون أن المراد بطوله الكناية عن طول الذراع.

(٦) يعني: كبير الراحة والعرب تمدح الرجل بسعة كفه.

(٧) يعني: ضخم الكفين والقدمين كثير لحمهما وفي أصابعهما غلظ.

(٨) يعني: معتدل الأطراف لا طويلة ولا قصيرة.

(٩) وذلك باعتدالها من دون تعقد أو اعوجاج.

(١٠) الأخمص ما ارتفع من وسط القدمين عن الأرض، كأنه قوس. والمراد بخمصانه شدة ارتفاعه وتقوسه. وبذلك يسهل المشي على الإنسان ويقوى عليه.

(١١) الظاهر أنه تأكيد لخمصانهما، يعني: أن ما بين طرفي كل من قدميه فسحة لا تصيب الأرض، ولا يصلها الماء إذا كان على الأرض.

(١٢) الظاهر أن المراد بذلك أنه إذا مشى رفع رجليه بوضوح وقوة، كما يقلع المزارع الزرع من الأرض.

(١٣) الظاهر أن المراد به أنه يضع رجله بقوة كأنه ينكفئ على الأرض ويسقط.

(١٤) يعني: لا يسرع في مشيته كالمستعجل.

المشية[١]، إذا مشى كأنما ينحط من صبب[٢]. وإذا التفت التفت جميعاً[٣].

خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلّ نظره الملاحظة[٤]. يبدر من لقيه بالسلام.

قال: قلت: صف لي منطقه. فقال: كان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه[٥]. يتكلم بجوامع الكلم فصلًا، لا فضول فيه ولا تقصير.

دمِثاً[٦] ليس بالجافي ولا بالمهين[٧]. تعظم عنده النعمة وإن دقّت[٨]، لا يذم منها شيئاً. غير أنه كان لا يذم ذَوَاقاً ولا يمدحه[٩].

ولا تغضبه الدنيا وما كان لها. فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له.

---

(١) الظاهر أن المراد به سعة خطاه يفصل بين قدميه إذا خطا فصلاً بيّناً.

(٢) الصبب الانحدار. قال ابن الأثير: «الانحدار من صبب والتقلع من الأرض قريب بعضه من بعض. أراد أنه كان يستعمل التثبت، ولا يبين منه في هذا الحال استعجال ومبادرة شديدة».

(٣) يعني: ولا يلتفت برأسه ويميل رقبته. وذلك أهيب له، وأظهر في احترامه لمن يلتفت إليه.

(٤) فُسّر في كلام غير واحد من اللغويين بأنه النظر للشيء بمؤخر العين. وكأنه من أجل أن يراقبه من دون أن يلفت انتباه الغير.

(٥) الظاهر أن المراد به أنه يفصح بكلامه. لأن أشداق الفم زواياه وطرفاه نظير ما سبق من قوله: «ضليع الفم».

(٦) الدمَث سهولة الخُلُق.

(٧) قد تقرأ بفتح الميم. يعني: ليس بالحقير. وقد تقرأ بضم الميم. يعني: لا يجفو أحداً ولا يهينه.

(٨) يعني: مهما صغرت النعمة فهي عنده عظيمة تشكر.

(٩) الظاهر أن الذَوَاق هنا بالتخفيف من الذوق، بمعنى أنه إذا ذاق شيئاً لم يظهر إعجابه به ولا ذمه له.

وإذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث قارب يده اليمنى من اليسرى فضرب بإبهامه اليمنى راحة اليسرى. وإذا غضب أعرض بوجهه وأشاح[١]، وإذا فرح غضّ طرفه. جلّ ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام[٢].

قال الحسن عليه السلام: فكتمتُ هذا الخبر عن الحسين عليه السلام زماناً[٣]، ثم حدثتُه فوجدته قد سبقني إليه، وسأله عما سألته عنه.

فوجدته قد سأل أباه عن مدخل النبي صلى الله عليه وآله ومخرجه ومجلسه وشكله، فلم يدع منه شيئاً.

قال الحسين عليه السلام: سألت أبي عليه السلام عن مدخل رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال: كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك[٤]. فإذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله تعالى[٥]، وجزء لأهله، وجزء لنفسه. ثم جزّأ جزء [نفسه.ظ] بينه وبين الناس[٦]، فيرد ذلك بالخاصة على العامة[٧]، ولا يدخر عنهم منه شيئاً.

---

(١) الظاهر أن يعرض بوجهه منكمشاً حال غضبه من دون كلام يجرح الطرف الآخر.

(٢) كناية عن شدة بياض أسنانه وصفائها وجمالها.

(٣) الظاهر أن المراد بكتمانه عن الحسين عليه السلام مجرد عدم ذكره له، من دون اهتمام بستره عنه، إذ لا منشأ ظاهر لذلك. ولا سيما أن الحسين عليه السلام يتيسر له سؤال هند ابن أبي هالة عن ذلك، ولم يوص الحسن عليه السلام هند بعدم بيانه له.

(٤) كأن المراد بذلك أن الله عز وجل لم يمنعه أن يجعل بعض وقته لنفسه خاصة.

(٥) يذكر الله تعالى فيه ويتعبد فيه.

(٦) الظاهر أن المراد تقسيمه صلى الله عليه وآله الجزء الذي لنفسه بينه وبين ملاقاة الخاصة.

(٧) لا يبعد أن يكون المراد أن هذا الجزء من وقته يؤثر به الخاصة، ويميزهم به على العامة.

وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل ويشغلهم فيما أصلحهم وأصلح الأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي.

ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب. وأبلغوني حاجة من لا يقدر على إبلاغ حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يقدر على إبلاغها ثبّت الله قدميه يوم القيامة. لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره[١]. يدخلون رواد[٢]، ولا يفترقون إلا عن ذواق[٣]، ويخرجون أدلة فقهاء.

فسألته عن مخرج رسول الله صلى الله عليه وآله كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخزن لسانه إلا عمّا يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم. ويحذَرُ الناسَ ويحترسُ منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه[٤]. ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عمّا في الناس، ويحسّن الحسن ويقويه، ويقبّح القبيح ويوهنه.

معتدل الأمر غير مختلف[٥]، لا يغفل، مخافة أن يغفلوا أو يميلوا. ولا يقصر عن الحق، ولا يجوزه. الذين يلونه من الناس خيارهم أفضلهم عنده وأعمّهم نصيحة للمسلمين، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة.

---

(١) كالنميمة ممن يلتقي به والغيبة ونحوهما مما لا يرجع إلى بيان حاجة الآخرين.

(٢) الرائد من يسبق جماعته ليختار لهم منزلاً حسناً.

(٣) يعني: عن منفعة يكسبونها منه صلى الله عليه وآله ويلتذون بها.

(٤) الظاهر أن المراد به أنه لا يمنع أحداً بشاشته وحسن خلقه حتى لو كان حذراً منه.

(٥) يعني: مستقيماً على الاهتمام بالخير للناس، ولا يخرج عن ذلك.

قال: فسألته عن مجلسه، فقال: كان صلى الله عليه وآله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر. ولا يوطّن الأماكن[١]، وينهى عن إيطانها. وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك. ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه.

من جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف عنه[٢]. من سأله حاجة لم يرجع إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس منه خلقه وصار لهم أباً رحيماً وصاروا عنده في الحق سواء.

مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم[٣]، ولا تثنى فلتاته[٤]، متعادلين متواصلين بالتقوى متواضعين، يوقّرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

فقلت: كيف كان سيرته في جلسائه؟ فقال: كان دائم البِشر، سهل الخلُق، ليّن الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب ولا مزّاح ولا مدّاح. يتغافل عما لا يشتهي فلا يؤيس منه[٥]. ولا

---

(١) يعني: لا يخص بمكان أحداً من الناس تشريفاً له، بل كلٌّ يجلس حيث ينتهي به المجلس، كما يأتي توضيحه.

(٢) يعني: من أطال الجلوس عنده صبر عليه، ولم يضجر منه، ولا يقوم هو صلى الله عليه وآله عنه وينهي المجلس، بل ينتظره حتى يقضي وطره، وإن أطال. وكأنه إلى نظير ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾. سورة الأحزاب الآية: ٥٣.

(٣) الظاهر أن المراد بذلك عدم انتهاك الحُرَم في مجلسه، لأن أبَنَ ـ لغة ـ بمعنى عاب.

(٤) الظاهر أنه لا يظهر في أثناء أحاديثهم في المجلس فلتات مكتومة تكشف عن سوء.

(٥) كأن المراد أنه إذا أخطأ أحد جلسائه وصدر منه ما لا يشتهي لم يجبهه صلى الله عليه وآله، ليئيس منه ويترك

يخيب فيه مؤمليه.

قد ترك نفسه من ثلاث[١]: المراء والإكثار وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيّره، ولا يطلب عثراته ولا عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا. ولا يتنازعون عنده الحديث. وإذا تكلم عنده أحد انصتوا له حتى يفرغ من حديثه. يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون[٢] منه.

ويصبر للغريب على الجفوة في المسألة والمنطق[٣]. حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم[٤]. ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه. ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ[٥]، ولا يقطع على أحد كلامه حتى يجوزه، فيقطعه بنهي أو قيام[٦].

مجلسه، أو الحديث معه. بل يتغافل عنه، ليتراجع عن خطئه ويعود لمجلسه.

(١) الظاهر أنه إنما ذكر الثلاث ولم يلحقها بعلامة التأنيث في الموضعين لأنه أراد الخصال.

(٢) هذا من شأن حسن المخالطة والمعاشرة.

(٣) فإن الغريب الذي لم يتعود مجلسه ولم يعرف آداب مجالسته قد يكون بطبعه خشناً جافياً، فيصبر ﷺ على ذلك منه، ولا يردعه حتى يستوفي حاجته ومسألته. وذلك من حسن خلقه، وسعة صدره.

(٤) وذلك أن أصحابه لا يكثرون مسألته هيبة له، فيحاولون أن يستجلبوا صاحب الجفوة، ليطيل في مسألته، كي يستفيدوا بسببه.

(٥) يعني: لا يقبل من أحد أن يثني عليه ابتداء من دون سابق إحسان منه ﷺ إليه، وإنما يقبل الشكر ممن سبق منه ﷺ الإحسان إليه.

(٦) بيان لكيفية قطع كلام المخاطب له، حيث يكون إما بردعه ونهيه أو بالقيام عنه وإنهاء مجلسه. وكان ﷺ لا يفعل شيئاً منهما، بل يصبر عليه.

قال: فسألته عن سكوت رسول الله صلى الله عليه وآله. فقال عليه السلام: كان سكوته على أربع: الحلم[١] والحذر والتقدير والتفكر. فأما التقدير ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس[٢]. وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى. وجمع له الحلم في الصبر، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه.

وجمع له الحذر في أربع: أخذه الحسن ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاده الرأي في إصلاح أمته، والقيام فيما جمع لهم من خير الدنيا والآخرة. صلوات الله عليه وآله الطاهرين»[٣].

نكات هذا الحديث

والتدبر في هذا الحديث وما تضمنه من صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلوكه في نفسه ومع الناس ـ خصوصاً ما ورد منه عن أمير المؤمنين عليه السلام ـ يكشف:

أولاً: عن قوة شخصيته صلى الله عليه وآله وهيبته وهيمنته على من يعاشره ويخالطه. فهم ـ مع حسن خلقه ولين جانبه ـ لا يتكلمون إذا تكلم، ولا يتنازعون بمحضره، ولا يكثرون من سؤاله، بل يأنسون بالغريب إذا أطال معه، ليستفيدوا منه بسببه.

وثانياً: عن انضباطه صلى الله عليه وآله في تقسيم وقته، وعدم تضييعه لشيء منه. فلكل جزء من الوقت ما عينه له مما ينتفع هو به أو ينفع غيره.

وثالثاً: عن صبره صلى الله عليه وآله وسعة صدره وتحمله جفوة الجافي وخشونة

---

(١) يعني: بالصبر على ما لا يرضيه من دون استنكار وردع وتضجر.

(٢) فلا يخالف بين الناس في النظر والاستماع، فينظر للجميع ويستمع لهم، ولا يميز بعضهم على بعض.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ج:١ ص٢٨٢-٢٨٥ باب ما جاء عن الرضا عليه السلام في صفة النبي صلى الله عليه وآله.

الجليس، فلا يَجبَه جليسه، ولا يَظهر عليه ضجره منه.

ورابعاً: عن محافظته على حق جميع جلسائه وعدله بينهم، بحيث لا يظهر عليه تفضيل بعضهم على بعض، لينفر منه المفضول أو يستوحش من ذلك في نفسه.

وخامساً: عن تواضعهﷺ مع جلسائه، فيأبى اختيار صدر المجلس، بل يجلس حيث انتهى به المجلس، ليكون أسوة لمن يجالسه، ولا يحثهم على ذلك من دون أن يفعله بنفسه.

وسادساً: عن مواساته لجلسائه، فيضحك مما يضحكون ويتعجب مما يتعجبون، فلا يشعرون بخطئهم، وأن ما صدر منهم في غير محله، ولو لعدم مناسبته لمجلسهم مع النبيﷺ ومنافاته لمقتضى الأدب معه... إلى غير ذلك.

ويكشف عن معاناتهﷺ في حياته في حالة الدعة، فضلاً عن جهده في تبليغ رسالته وما عاناه ممن جاهره بالعداء، أو كان معه من الجهلة والسذج والمنافقين. فجزاه الله تعالى خير جزاء المحسنين، وصلى عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً.

ولنكتف بهذا المقدار من الحديث عن شخص نبينا العظيمﷺ ومبادئه التي يحملها لخير البشرية. ونرجو أن نكون بذلك قد أدّينا شيئاً من حقه، شكراً لهﷺ ثم لله عز وجل الذي هدانا على يديه، وأسعدنا بالتوفيق للدخول في أمته المرحومة.

ونسأله تعالى المزيد من التوفيق والتسديد، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا، ويحشرنا في زمرتهﷺ ويرزقنا شفاعته في الآخرة. إنه خير

مسؤول وأكرم مأمول.

وكان ذلك آخر نهار الأربعاء السادس من شهر محرم الحرام سنة ألف وأربعمائة واثنتين وأربعين للهجرة النبوية على صاحبها وآله أفضل السلام والتحية في النجف الأشرف على مشرفه الصلاة والسلام.

بقلم العبد الفقير (محمد سعيد) عفي عنه خلف المرحوم المبرور آية الله (السيد محمد علي الطباطبائي الحكيم) قدس سره. والحمد لله تعالى على تيسيره وتسهيله وله الشكر دائماً سرمداً. وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين، وسلّم تسليماً كثيراً.

كما تمّ تجديد النظر فيه مع بعض الإضافات له التي نرجو أن تكون مفيدة نافعة بتوفيق الله عز وجل ضحى الاثنين الثاني من شهر رجب المبارك من السنة المذكورة. بقلم مؤلفه الفقير حامداً مصلياً مسلماً.

المصادر والمراجع

فهرست المحتويات

المصادر والمراجع

* **القرآن الكريم.**

١. **الإتقان في علوم القرآن:** عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، طبع ونشر دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان، تحقيق: سعيد المندوب.

٢. **إتحاف الورى بأخبار أم القرى:** محمد بن محمد بن محمد القرشي الهاشمي المكي (ت ٨٨٥ هـ)، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ، طبع ونشر جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ـ مكة المكرمة، تحقيق وتصحيح: فهيم محمد شلتوت.

٣. **إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات:** محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان.

٤. **إثبات الوصية:** أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي الهذلي (ت ٣٤٦ هـ)، الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ، أنصاريان ـ قم.

٥. **الأحاديث الطوال:** أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢ م، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٦. **الأحاديث المختارة:** أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد الحنبلي المقدسي (ت٦٤٣هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، نشر مكتبة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

٧. **الاحتجاج:** أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٥٦٠هـ)، طبع

ونشر منشورات دار النعمان للطباعة والنشر ـ النجف الأشرف ١٩٦٦م، تحقيق: السيد محمد باقر الخرسان.

٨. **الأخبار الطوال**: أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت٢٨٢هـ) الطبعة الأولى ١٩٦٠م، نشر دار إحياء الكتب العربي ـ عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، تحقيق: عبد المنعم عامر.

٩. **الاختصاص**: الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ)، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، نشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، تحقيق: علي أكبر الغفاري ـ السيد محمود الزرندي.

١٠. **اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)**: الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ)، مطبعة بعثت ـ قم ١٤٠٤هـ، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، تحقيق: مير داماد الاسترابادي، السيد مهدي الرجائي.

١١. **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**: الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) طبع ونشر دار المفيد، الطبعة الثانية ١٩٩٣م، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث.

١٢. **إرشاد القلوب**: الحسن بن محمد الديلمي (ت القرن الثامن الهجري) الطبعة الثانية ١٤١٥هـ، نشر: انتشارات الشريف الرضي.

١٣. **الاستذكار**: ابن عبد البر النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ)، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، طبع ونشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: سالم محمد عطا ـ محمد علي معوض.

١٤. **الاستغاثة**: أبو القاسم الكوفي علي بن أحمد بن موسى (ت ٣٥٢ هـ)، الطبعة المعتمدة على موقع مكتبة أهل البيت عليهم السلام في الشبكة المعلوماتية.

١٥. **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: عز الدين علي بن أبي الكرم بن الأثير (ت٦٣٠هـ)، نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان. انتشارات إسماعيليان ـ طهران.

١٦. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، نشر دار الجيل ـ بيروت، تحقيق: علي محمد البجاوي.

١٧. **الإصابة في تمييز الصحابة**: ابن

حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد عوض.

١٨. **إعجاز القرآن**: أبو بكر محمد بن الطيب (ت٤٠٣هـ)، الطبعة الثالثة، طبع ونشر دار المعارف ـ مصر، تحقيق: السيد أحمد صقر.

١٩. **إعلام الورى بأعلام الهدى**: الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) طبعة ربيع الأول ١٤١٧ه، ستارة ـ قم، نشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المشرفة.

٢٠. **الأغاني**: أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) طبعة دار إحياء التراث.

٢١. **الإفصاح في إمامة أمير المؤمنين عليه السلام**: الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م، نشر دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان، تحقيق: مؤسسة البعثة ـ قم المقدسة.

٢٢. **إقبال الأعمال**: علي بن موسى بن طاووس (ت ٦٤٤ هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، طبع ونشر مكتب الإعلام الإسلامي، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني.

٢٣. **الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله والثلاثة الخلفا**: أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي الأندلسي (ت ٦٣٤ هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠ م، طبع ونشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

٢٤. **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف .. (إكمال الكمال)**: ابن ماكولا (ت ٤٧٥ هـ)، دار الكتاب الإسلامي، طبع ونشر الفاروق الحديثة للطباعة والنشر ـ القاهرة.

٢٥. **أمالي الصدوق**: الشيخ الصدوق (ت٣١٨هـ) الطبعة الأولى١٤١٧هـ، نشر مؤسسة البعثة، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم.

٢٦. **أمالي الطوسي**: محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، طبع ونشر دار الثقافة ـ قم، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة.

٢٧. أمالي المحاملي (برواية ابن يحيى البيع): أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبي المحاملي (ت٣٣٠هـ) الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، نشر المكتبة الإسلامية، دار ابن القيم، ١٤١٢هـ، تحقيق: د.إبراهيم القيسي.

٢٨. أمالي المرتضى: السيد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ١٤٠٣ هـ، تحقيق: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي.

٢٩. أمالي المفيد: الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، الطبعة الثانية ١٩٩٣م، المطبعة الإسلامية، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ـ قم المقدسة، تحقيق: الحسين أستاد ولي، علي أكبر غفاري.

٣٠. الإمامة والتبصرة من الحيرة: ابن بابويه القمي (ت٣٢٩هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، نشر وتحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام ـ قم المقدسة.

٣١. الإمامة والسياسة: أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، طبع دار الأضواء للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، منشورات دار الأضواء، تحقيق وتصحيح: علي شيري.

٣٢. إمتاع الأسماع بما للنبي صلى الله عليه وآله من الأحوال ..: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي.

٣٣. أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار الفكر ـ بيروت، تحقيق: د.سهيل زكار، د.رياض زركلي، بإشراف مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٤. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: المولى محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، الطبعة الثانية المصححة ١٩٨٣م، طبع ونشر مؤسسة الوفاء بيروت ـ لبنان.

٣٥. البحر الزخار المعروف بـ(مسند البزار): أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي البزار (ت ٢٩٢ هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله.

٣٦. البدء والتاريخ: مطهر بن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧ هـ) مدينة باريز ١٩١٦م.

٣٧. البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، تحقيق: علي شيري.

٣٨. بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: عماد الدين أبو جعفر محمد بن أبي القاسم الطبري (ت ٥٢٥ هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني.

٣٩. بصائر الدرجات: محمد بن حسن بن فروخ الصفار (ت٢٩٠هـ) طبع مطبعة الأحمدي ـ طهران، ١٤٠٤هـ نشر مؤسسة الأعلمي ـ طهران، تحقيق: ميرزا محسن كوجه باغي.

٤٠. البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، الطبعة الأولى ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٦م، نشر المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر، تحقيق وتقديم: المحامي فوزي عطا.

٤١. تاريخ الإسلام: أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ) نشر دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، تحقيق: د.عمر عبد السلام تدمري.

٤٢. تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ..: ابن خلدون المغربي (ت٨٠٨هـ)، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث ـ بيروت ـ لبنان.

٤٣. تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٤٤. تاريخ الخلفاء: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق لجنة من الأدباء، توزيع دار التعاون/

عباس أحمد الباز ـ مكة المكرمة.

٤٥. تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، نشر دار الفكر بيروت ـ لبنان ١٩٩٥م، دراسة وتحقيق: علي شيري.

٤٦. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك): محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م، نشر مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

٤٧. تاريخ مختصر الدول: غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري (ت ٦٨٥ هـ)، نشر دار الميسرة، بيروت ـ لبنان.

٤٨. تاريخ المدينة المنورة: عمر بن شبة النميري (ت٢٦٢هـ) الطبعة الثانية ١٤١٠هـ، مطبعة قدس ـ قم، نشر دار الفكر، تحقيق: فهيم محمد شلتوت.

٤٩. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي، نشر دار صادر ـ بيروت.

٥٠. التبيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، نشر مكتب الإعلام الإسلامي، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي.

٥١. تجارب الأمم: أبو علي مسكويه الرازي (ت ٤٢١ هـ) الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م، نشر: دار سروش للطباعة والنشر، تحقيق: الدكتور أبو القاسم إمامي.

٥٢. تحف العقول عن آل الرسول: ابن شعبة الحراني (ق٤)، طبعة ١٤٠٤هـ، نشر مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، تحقيق: علي أكبر الغفاري.

٥٣. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: محمد بن عبد الرحمن المباركفوري (ت١٣٥٣هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥٤. تخريج الأحاديث والآثار: أبو محمد عبد الله بن يوسف الزيلعي (ت٧٦٢هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، طبع ونشر دار ابن خزيمة ـ الرياض، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد.

٥٥. تذكرة الحفاظ: أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)،

نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، صحح على نسخة في مكتبة الحرم المكي، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي.

٥٦. التذكرة الحمدونية في التاريخ والأدب والنوادر والأشعار: محمد بن الحسن ابن حمدون البغدادي (ت٥٦٢هـ)، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، نشر دار صادر للطباعة والنشر، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس.

٥٧. تذكرة الخواص: يوسف بن فرغلي المعروف بسبط ابن الجوزي (ت٦٥٠هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، مطبعة أمير ـ قم، نشر منشورات الشريف الرضي ـ قم.

٥٨. تفسير ابن أبي حاتم: ابن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ)، طبع ونشر صيدا ـ المكتبة العصرية، تحقيق: أسعد محمد الطيب.

٥٩. تفسير البغوي (معالم التنزيل): الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت٥١٦هـ)، طبع ونشر دار المعرفة ـ بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك.

٦٠. تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن): أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت٤٢٧هـ)، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، طبع ونشر دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور.

٦١. تفسير جوامع الجامع: أمين الإسلام الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، نشر وتحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم.

٦٢. تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل): علاء الدين علي بن محمد البغدادي (ت ٧٢٥ هـ) نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ضبط وتصحيح: عبد السلام محمد علي شاهين.

٦٣. تفسير الرازي (التفسير الكبير): محمد بن عمر الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ)، الطبعة الثالثة.

٦٤. تفسير السمعاني: منصور بن محمد السمعاني (ت٤٨٩هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، طبع ونشر دار الوطن ـ الرياض، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم.

٦٥. تفسير الطبري (جامع البيان

عن تأويل آي القران): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، طبعة ١٤١٥هـ، نشر دار الفكر ـ بيروت، تحقيق: صدقي جميل العطار.

٦٦. **تفسير العياشي**: محمد بن مسعود بن عياش السمرقندي (ت٣٢٠هـ)، نشر المكتبة العلمية الإسلامية ـ طهران، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي.

٦٧. **تفسير القرآن**: عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، نشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ـ الرياض، تحقيق: الدكتور مصطفى مسلم محمد.

٦٨. **تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)**: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، طبعة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، نشر دار المعرفة ـ بيروت، تقديم: د.يوسف عبد الرحمن المرعشلي.

٦٩. **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٩٨٥م، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني.

٧٠. **تفسير القمي**: علي بن إبراهيم القمي (ق ٤)، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ، نشر مؤسسة دار الكتاب ـ قم، تعليق: السيد طيب الموسوي الجزائري.

٧١. **التفسير الكبير (تفسير القرآن العظيم)**: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م، نشر دار الكتاب الثقافي ـ أربد ـ الأردن.

٧٢. **الكشاف عن حقائق التنزيل..**: محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، عباس ومحمد ومحمود الحلبي وشركائهم ـ خلفاء، ١٣٨٥/ ١٩٦٦م.

٧٣. **تفسير مقاتل بن سليمان**: مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، طبع ونشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: أحمد فريد.

٧٤. **تفسير المراغي**: أحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ)، الطبعة الأولى، نشر دار الفكر لبنان ـ بيروت.

٧٥. **التنبيه والإشراف**: أبو الحسن

علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، نشر دار صعب بيروت ـ لبنان.

٧٦. **تنزيه الأنبياء**: الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، نشر دار الأضواء ـ بيروت.

٧٧. **تهذيب الأحكام**: الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ) الطبعة الثالثة ١٣٩٠هـ، مطبعة خورشيد، نشر دار الكتب الإسلامية، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، تصحيح: الشيخ محمد الآخوندي.

٧٨. **التوحيد**: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت٣٨١هـ) نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم ـ إيران، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني.

٧٩. **الثقات**: أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي (ت٣٥٤هـ)، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ، طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن، الهند بإشراف د. محمد عبد المعيد خان، نشر مؤسسة الكتب الثقافية.

٨٠. **ثواب الأعمال وعقاب الأعمال**: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت٣٨١هـ)، الطبعة الثانية ١٣٦٨ش، المطبعة أمير، منشورات الشريف الرضي ـ قم المقدسة، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان.

٨١. **جامع الأحاديث**: أبو محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي (القرن الرابع الهجري)، الطبعة الثانية ١٤٢٩ هـ، تصحيح وتعليق: السيد محمد الحسيني النيشابوري.

٨٢. **جامع أحاديث الشيعة**: السيد حسين الطباطبائي البروجردي (ت ١٣٨٣ هـ)، طبع ١٣٩٩ هـ المطبعة العلمية ـ قم.

٨٣. **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير**: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ) الطبعة الأولى ١٤٠١ه، نشر دار الفكر ـ بيروت.

٨٤. **الجعفريات (الأشعثيات)**: رواية محمد بن محمد بن الأشعث الكوفي، الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣ م، إصدار شعبة التحقيق قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية، تحقيق: مشتاق صالح المظفر.

٨٥. جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ابن دريد) (ت ٣٢١ هـ)، الطبعة الأولى ١٣٤٥ هـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد، نشر مكتبة المثنى ـ بغداد.

٨٦. جمهرة خطب العرب: أحمد زكي صفوت، الطبعة الأولى ١٩٣٣م، المكتبة بيروت ـ لبنان.

٨٧. جواهر العقدين في فضل الشرفين: علي بن عبد الله الحسني السهمودي (ت ٩١١ هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، مطبعة العامي بغداد، دراسة وتحقيق: الدكتور موسى بناي العليلي.

٨٨. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ)، الطبعة الأولى، نشر: دار أم القرى للطباعة والنشر ـ القاهرة.

٨٩. الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي (ت٥٧٣هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، المطبعة العلمية، نشر وتحقيق مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام ـ قم المقدسة.

٩٠. خصائص الأئمة: أبو الحسن محمد بن الحسين الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، طبع: ١٤٠٦ هـ، نشر مجمع البحوث الإسلامية مشهد ـ إيران، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد هادي الأميني.

٩١. الخصال: الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ) نشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ـ قم المقدسة، ١٤٠٣هـ، تحقيق: علي أكبر الغفاري.

٩٢. الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) نشر دار الفكر بيروت ـ لبنان.

٩٣. الدرر في اختصار المغازي والسير: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت٤٦٣هـ) الطبعة المعتمدة على موقع مكتبة أهل البيت عليهم السلام في الشبكة المعلوماتية.

٩٤. دعائم الإسلام: نعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي (ت٣٦٣هـ) نشر دار المعارف ـ مصر ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي.

٩٥. دلائل النبوة: أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني

(ت ٥٣٥ هـ)، تحقيق: مساعد بن سليمان الراشد الحميد، نشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع.

٩٦. **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق وتعليق: الدكتور عبد المعطي قلعجي.

٩٧. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المعروف بـ(تفسير الآلوسي)**: أبو الفضل شهاب الدين محمود الألوسي (ت١٢٧٠هـ) الطبعة المعتمدة على موقع مكتبة أهل البيت عليهم السلام في الشبكة المعلوماتية.

٩٨. **روضة الواعظين**: محمد بن الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ)، منشورات الرضي ـ قم، تقديم: السيد محمد مهدي حسن الخرسان.

٩٩. **السنة**: أبو بكر عمرو بن أبي عاصم (ت ٢٨٧ هـ)، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، نشر المكتب الإسلامي بيروت ـ لبنان.

١٠٠. **سنن ابن ماجة**: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ)، نشر دار الفكر ـ بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

١٠١. **سنن أبي داود**: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، نشر دار الفكر، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام.

١٠٢. **سنن الترمذي (الجامع الصحيح)**: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت٢٧٩هـ)، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، نشر دار الفكر ـ بيروت، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.

١٠٣. **سنن الدارقطني**: أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (ت٣٨٥هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تعليق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى.

١٠٤. **سنن الدارمي**: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت٢٥٥هـ)، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ، مطبعة الاعتدال ـ دمشق، طبع بعناية: محمد أحمد دهمان.

١٠٥. **السنن الكبرى**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ـ الهند، نشر دار الفكر.

١٠٦. **السنن الكبرى**: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت٣٠٣هـ)، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن.

١٠٧. **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ)، الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

١٠٨. **السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)**: علي بن برهان الدين الحلبي (ت١٠٤٤هـ) طبع ونشر دار المعرفة ـ بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٠٩. **السيرة النبوية**: أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ)، نشر دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، تحقيق: مصطفى عبد الواحد.

١١٠. **السيرة النبوية**: عبد الملك بن هشام الحميري (ت٢١٨هـ)، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ، مطبعة المدني، نشر مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ـ مصر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.

١١١. **السيرة النبوية (عيون الأثر)**: محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ)، طبع عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان.

١١٢. **شرح نهج البلاغة**: ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ)، الطبعة الأولى ١٩٥٩م، نشر دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

١١٣. **شعب الإيمان**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.

١١٤. **شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في الآيات النازلة في أهل البيت**: عبيد الله بن أحمد الحاكم الحسكاني (ق٥)، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، نشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، تحقيق:

الشيخ محمد باقر المحمودي.

١١٥. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، شرح وتعليق: محمد حسين شمس الدين.

١١٦. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: أبو حاتم محمد بن حبان التميمي (ت٣٥٤هـ)، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

١١٧. **صحيح البخاري**: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، نشر دار الفكر ـ بيروت ١٤٠١هـ، طبعت بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستانبول.

١١٨. **صحيح مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، نشر دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

١١٩. **الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة**: أحمد بن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ)، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، نشر مكتبة القاهرة ـ مصر، تقديم وتعليق: عبد الوهاب عبد اللطيف.

١٢٠. **الطبقات الكبرى**: محمد بن سعد البصري (ت٢٣٠هـ)، طبع ونشر دار صادر ـ بيروت.

١٢١. **الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف**: رضي الدين علي بن موسى ابن طاووس الحسني (ت٦٦٤هـ)، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، طبع الخيام ـ قم.

١٢٢. **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**: تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي ت ٨٣٢ هـ الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ، نشر: دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، تحقيق وتعليق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد عطا.

١٢٣. **علل الدارقطني**: أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (ت٣٨٥هـ) الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، طبع ونشر دار طيبة ـ الرياض، تحقيق: د.محفوظ الرحمن زين الله السلفي.

١٢٤. **علل الشرائع**: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت٣٨١هـ)، طبع ونشر المكتبة

الحيدرية ـ النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم.

١٢٥. عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار: ابن البطريق يحيى بن الحسن الأسدي الحلي (توفي في ٦٠٠هـ تقريب) طبع وتحقيق: جامعة المدرسين ـ قم،١٤٠٧هـ، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم.

١٢٦. عيون الأخبار: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، مطبعة دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، ضبط وتعليق وتقديم: الدكتور يوسف الطويل.

١٢٧. عيون أخبار الرضا: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت٣٨١هـ)، طبع ونشر مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان ١٩٨٤م، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي.

١٢٨. عيون المعجزات: حسين بن عبد الوهاب من علماء القرن الخامس الهجري، نشر المطبعة الحيدرية ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

١٢٩. غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤ هـ) الطبعة الأولى ١٣٨٤ هـ، نشر دار الكتاب العربي ـ بيروت، تحقيق: محمد بن المعيد خان.

١٣٠. الغيبة: الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ)، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، المطبعة بهمن، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم المقدسة، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني والشيخ علي أحمد ناصح.

١٣١. الغيبة: محمد بن إبراهيم النعماني (ت٣٦٠هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، المطبعة مهر، نشر أنوار الهدى ـ قم المقدسة، تحقيق: فارس حسون كريم.

١٣٢. الفائق في غريب الحديث: محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) الطبعة الأولى ١٩٩٦م، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، تحقيق: إبراهيم شمس الدين.

١٣٣. فاجعة الطف: المؤلف، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨م، نشر

دار الهلال.

١٣٤. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، الطبعة الثانية، طبع ونشر دار المعرفة ـ بيروت.

١٣٥. فتح القدير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) الطبعة المعتمدة على موقع مكتبة أهل البيت عليهم السلام في الشبكة المعلوماتية.

١٣٦. الفتن: نعيم بن حماد المروزي (ت٢٢٩هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، نشر دار الفكر ـ بيروت١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، تحقيق: د.سهيل زكار.

١٣٧. الفتوح: أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت٣١٤هـ/ ٩٢٦م) الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، طبع ونشر دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ـ لبنان، تحقيق: علي شيري.

١٣٨. فتوح البلدان: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٧٩هـ)، مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٥٦م، نشر مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، تحقيق: د.صلاح الدين المنجد.

١٣٩. الفصول المهمة في أصول الأئمة: محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، نشر مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا عليه السلام، تحقيق وإشراف: محمد بن محمد الحسين القائيني.

١٤٠. الفصول المهمة في معرفة الأئمة: علي بن محمد بن أحمد المالكي الشهير بابن الصباغ (ت٨٥٥هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، مطبعة سرور، نشر دار الحديث ـ قم، تحقيق: سامي الغريري.

١٤١. الفضائل: أبو الفضل سديد الدين شاذان بن جبرائيل القمي ت حدود ٦٦٠ هـ طبع عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، من منشورات المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

١٤٢. فقه الرضا: علي بن بابويه (ت ٣٢٩ هـ) الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ، نشر المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام ـ مشهد المقدسة تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

١٤٣. الفقيه والمتفقه: أبو بكر أحمد

بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٢هـ)، نشر دار ابن الجوزي ـ السعودية ١٤٢١هـ، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي.

١٤٤. **في رحاب العقيدة**: المؤلف، الطبعة الثامنة ١٤٣٣ هـ/ ٢٠١٢م، نشر مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية.

١٤٥. **قرب الإسناد**: أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري (ت٣٠٤هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، نشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

١٤٦. **قصص الأنبياء**: قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣هـ) الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، تحقيق: غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني.

١٤٧. **الكافي**: الشيخ الكليني (ت٣٢٩هـ)، الطبعة الخامسة، نشر دار الكتب الإسلامية ـ طهران ١٣٨٨هـ، تصحيح وتعليق: علي أكبر غفاري.

١٤٨. **كامل الزيارات**: الشيخ جعفر بن محمد بن قولويه القمي (ت٣٦٧هـ) طبع مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، نشر مؤسسة نشر الفقاهة، تحقيق: الشيخ جواد قيومي.

١٤٩. **الكامل في التاريخ**: محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، نشر دار صادر، دار بيروت، ١٩٦٥م.

١٥٠. **كتاب سليم بن قيس الهلالي**: أبو صادق سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي (توفي في القرن الأول)، تحقيق: الشيخ محمد باقر الأنصاري الزنجاني.

١٥١. **كشف الغمة في معرفة الأئمة**: علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت٦٩٣هـ) طبع ونشر دار الأضواء ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

١٥٢. **كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام**: الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (ت٧٢٦هـ)، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، تحقيق: حسين الدركاهي.

١٥٣. **كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر**: علي بن محمد الخزاز القمي الرازي (ت٤٠٠هـ)، طبع الخيام ـ قم ـ ١٤٠١هـ، نشر انتشارات بيدار، تحقيق: السيد عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري الخوئي.

١٥٤. **كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب**: أبو الفضل جلال

الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ) طبع ١٣٢٠ هـ، نشر: دار الكتاب العربي.

١٥٥. كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالبعليه السلام: محمد بن يوسف بن محمد القرشي الكنجي الشافعي (ت٦٥٨هـ)، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، منشورات المطبعة الحيدرية ـ النجف، تحقيق: محمد هادي الأميني.

١٥٦. كمال الدين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ)، طبع ١٤٠٥هـ، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم المقدسة، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري.

١٥٧. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي المتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ١٩٨٩م ـ بيروت، تحقيق: الشيخ بكري حياني والشيخ صفوة السف.

١٥٨. كنز الفوائد: أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ) الطبعة الثانية ١٣٦٩ ش، نشر مكتبة المصطفوي ـ قم المقدسة.

١٥٩. لسان العرب: محمد بن مكرم ابن منظور المصري (ت٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ، قم المقدسة.

١٦٠. مآثر الإنافة في معالم الخلافة: أحمد بن عبد الله القلقشندي (ت ٨٢١ هـ)، طبع ١٩٦٤م، نشر وزارة الإرشاد والأنباء الكويت، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج.

١٦١. متشابه القرآن ومختلفه: محمد بن علي بن شهرآشوب المازندراني (ت ٥٨٨ هـ)، طبع ١٣٢٨ هـ، طبع: جابخانة شكت سهامى، نشر: مكتبة البو ذر جمهري المصطفوي بطهران.

١٦٢. المجازات النبوية: الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، نشر: مكتبة بصيرتي ـ قم، تحقيق وشرح: الدكتور طه محمد الزيني.

١٦٣. مجمع البحرين: فخر الدين الطريحي ت ١٠٨٥ هـ الطبعة الثانية ١٣٦٢ ش، نشر: مرتضوي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني.

١٦٤. مجمع البيان في تفسير القرآن:

أمين الإسلام الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، نشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائين.

١٦٥. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد:** علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٨٠٧هـ)، طبعة ١٩٨٨هـ، نشر دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

١٦٦. **المحاسن:** أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت٢٧٤هـ)، نشر دار الكتب الإسلامية ـ طهران ١٣٧٠هـ، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني.

١٦٧. **المحبر:** محمد بن حبيب البغدادي (ت٢٤٥هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٣٦١هـ، تحقيق: محمد حميد الله.

١٦٨. **مختصر تفسير القمي:** عبد الرحمن بن محمد العتائقي الحلي، (حياً إلى ٧٩٠ هـ) الطبعة الأولى ١٤٣٢ هـ، نشر مؤسسة علمي فرهنكي دار الحديث، تحقيق: محمد جواد الحسيني جلالي.

١٦٩. **المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء):** أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي الدويني صاحب حماة (ت٧٣٢هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

١٧٠. **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول:** المولى محمد باقر المجلسي (ت ١١١١ هـ)، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، نشر دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

١٧١. **مروج الذهب ومعادن الجوهر:** أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٥هـ)، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م، نشر: دار الهجرة قم ـ إيران.

١٧٢. **المسترشد في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:** محمد بن جرير بن رستم الطبري الإمامي (ق ٤)، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، مطبعة سلمان الفارسي ـ قم، نشر مؤسسة الثقافة الإسلامية لكوشانبور، تحقيق: أحمد المحمودي.

١٧٣. **المستدرك على الصحيحين:** أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، نشر دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، طبعة مزيدة بإشراف: د.يوسف

عبد الرحمن المرعشلي.

١٧٤. مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: المحقق النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ)، الطبعة الأولى المحققة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، نشر وتحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

١٧٥. مسند ابن الجعد: علي بن الجعد الجوهري (ت٢٣٠هـ)، برواية أبي القاسم البغوي (ت٣١٧هـ) الطبعة الثانية١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر.

١٧٦. مسند أبي داود الطيالسي: سليمان بن داود الطيالسي (ت٢٠٤هـ)، نشر دار المعرفة ـ بيروت.

١٧٧. مسند أبي عوانة: أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائيني (ت٣١٦هـ) الطبعة الأولى، نشر دار المعرفة ـ بيروت، ١٩٩٨م، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي.

١٧٨. مسند أبي يعلى: أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي (ت٣٠٧هـ)، نشر دار المأمون للتراث ـ دمشق، تحقيق: حسين سليم أسد.

١٧٩. مسند أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، نشر دار صادر، بيروت ـ لبنان.

١٨٠. مسند الحميدي: عبد الله بن الزبير الحميدي (ت٢١٩هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

١٨١. مسند الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت٢٥٥هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، نشر دار المغني الرياض، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني.

١٨٢. مسند الشاميين: سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، الطبعة الثانية١٤١٧هـ، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي.

١٨٣. مسند الشهاب: القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي (ت ٤٥٤ هـ) الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي.

١٨٤. **مسند أبي داود الطيالسي**: سليمان بن داود بن الجارود الفارسي البصري ت ٢٠٤ هـ نشر: دار المعرفة ـ بيروت.

١٨٥. **مسند عبد بن حميد (المنتخب من مسند عبد بن حميد)**: عبد بن حميد بن نصر (ت٢٤٩هـ)، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، نشر عالم الكتب ـ مكتبة النهضة العربية، تحقيق: صبحي السامرائي ومحمود محمد خليل الصعيدي.

١٨٦. **مشكاة الأنوار في غرر الأخبار**: أبو الفضل علي الطبرسي (توفي أوائل القرن السابع)، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، نشر: دار الحديث، تحقيق: مهدي هوشمند.

١٨٧. **مصادقة الإخوان**: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت٣٨١هـ)، نشر مكتبة الإمام صاحب الزمان العامة، إشراف: السيد علي الخراساني الكاظمي.

١٨٨. **المصنف**: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (ت٢٣٥هـ)، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، نشر دار الفكر، بيروت ـ لبنان، تحقيق وتعليق: سعيد اللحام.

١٨٩. **المصنف**: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ)، منشورات المجلس العلمي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

١٩٠. **معاني الأخبار**: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت٣٨١هـ) طبع انتشارات إسلامي، ١٣٦١هـ، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم المقدسة، تحقيق: علي أكبر الغفاري.

١٩١. **معاني القرآن الكريم**: أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ)، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، نشر جامعة أم القرى، تحقيق: محمد علي الصابوني.

١٩٢. **المعتصر من المختصر من مشكل الآثار**: القاضي أبو المحاسن يوسف بن موسى الحنفي (ت ٤٧٤ هـ) نشر عالم الكتب ـ بيروت ومكتبة المتنبي ـ القاهرة ومكتبة سعد الدين ـ دمشق.

١٩٣. **المعجم الأوسط**: سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، طبعة ١٤١٥هـ، نشر دار الحرمين، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد

الحسن بن إبراهيم الحسيني.

١٩٤. معجم البلدان: ياقوت الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، طبع ١٩٧٩م، نشر دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان.

١٩٥. معجم الشيوخ: أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ)، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، نشر: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع ـ دمشق.

١٩٦. المعجم الصغير: سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٩٧. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، الطبعة الثانية، نشر دار إحياء التراث العربي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

١٩٨. معجم رجال الحديث: السيد أبو القاسم الخوئي (ت ١٤١٣هـ) الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٩٩. معرفة السنن والآثار: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ)، طبع ونشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: سيد كسروي حسن.

٢٠٠. المغازي: محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ)، طبع: ١٤٠٥ هـ، نشر: دانش إسلامي، تحقيق: د.مارسدن جونس.

٢٠١. مقتل الحسينعليه السلام: أبو المؤيد الموفق بن أحمد الخوارزمي (ت ٥٦٨ هـ)، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ نشر أنوار الهدى ـ قم، تحقيق: الشيخ محمد السماوي.

٢٠٢. مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ)، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، نشر منشورات المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشرف، تقديم وإشراف: كاظم المظفر.

٢٠٣. مكارم أخلاق النبي والأئمةعليهم السلام: أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣ هـ)، نشر العتبة العباسية المقدسة، تحقيق: السيد حسين الموسوي.

٢٠٤. المناقب: الموفق بن أحمد الخوارزمي (ت٥٦٨هـ)، الطبعة الثانية ١٤١١هـ، طبع ونشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، تحقيق: الشيخ مالك المحمودي.

٢٠٥. مناقب آل أبي طالب: أبو جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهرآشوب (ت٥٨٨هـ)، طبع المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف.

٢٠٦. المناقب والمثالب: أبو حنيفة النعمان بن محمد المغربي (ت ٣٦٣ هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، تحقيق: ماجد بن أحمد العطية.

٢٠٧. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) طبع ونشر دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ـ مصطفى عبد القادر عط.

٢٠٨. من لا يحضره الفقيه: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت٣٨١هـ)، الطبعة الثانية، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ـ قم، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري.

٢٠٩. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت٨٧٤هـ)، الطبعة الثانية ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ مصر.

٢١٠. نصب الراية تخريج أحاديث الهداية: جمال الدين الزيلعي (ت ٧٦٢ هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، نشر: دار الحديث القاهرة، اعتنى به: أيمن صالح شعبان.

٢١١. نظم درر السمطين في فضائل المصطفى ..: جمال الدين محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي (ت ٧٥٠ هـ)، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

٢١٢. النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين ابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ)، الطبعة الرابعة ١٣٦٤ش، نشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع ـ قم، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي.

٢١٣. نهاية الإرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣ هـ)، طبعة دار الكتب، نشر: المؤسسة المصرية العام للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٢١٤. **نهج البلاغة**: الشريف الرضي (ت٤٠٤هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، نشر دار المعرفة ـ بيروت، شرح: الشيخ محمد عبده.

٢١٥. **نهج الإيمان**: زين الدين علي بن يوسف بن جبر (في القرن السابع)، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، طبع: ستاره ـ قم، نشر: مجتمع إمام هادي عليه السلام ـ مشهد، تحقيق: السيد أحمد الحسيني.

٢١٦. **النوادر**: أبو رضا فضل الله بن علي الحسني الراوندي (ت ٥٧١ هـ)، الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ، طبع ونشر: دار الحديث ـ قم، تحقيق: سعيد رضا علي عسكري.

٢١٧. **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار**: محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٥هـ)، نشر دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٣م.

٢١٨. **الوافي بالوفيات**: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)، الطبعة ٢٠٠٠م، نشر دار إحياء التراث بيروت ـ لبنان، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى.

٢١٩. **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**: محمد بن الحسن الحر العاملي (ت١١٠٤هـ)، الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ، نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، تحقيق: الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي.

٢٢٠. **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**: علي بن أحمد السمهودي (ت٩١١هـ)، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، منشورات محمد علي بيضون، طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ.

٢٢١. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان (ت٦٨١هـ)، نشر دار الثقافة ـ بيروت، تحقيق: د.إحسان عباس.

٢٢٢. **ينابيع المودة لذوي القربى**: سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (ت١٢٩٤هـ)، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، نشر دار الأسوة، تحقيق: السيد علي جمال أشرف الحسيني.

فهرست المحتويات

مقدمة في سبب تأليف الكتاب ٥

تمهيد: في الحديث عن نجاح النبي صلى الله عليه وآله في مشروعه ٩

ينبغي التعرض لأمرين:

الأمر الأول: في تحديد وظيفة الأنبياء والمرسلين ١٠

الاختلاف وغلبة الباطل سنة بشرية. ١٠

اختلاف المسلمين وقلة المهتدين منهم ١١

الوعد الإلهي بغلبة الحق أخيراً. ١٣

الرسالاتُ الدينية لا تغيّرُ السننَ البشرية ١٣

على الأنبياء الاهتمام بإصلاح البشر ١٤

وجوب إقامة حكم الله على ولي الأمر ١٥

الأمر الثاني: لا ينبغي فصل النبي صلى الله عليه وآله عن أهل البيت عليهم السلام ١٦

تأكيد الأئمة عليهم السلام على رفعة مقام النبي صلى الله عليه وآله وحديث تكسير الأصنام ١٩

جهود خواص أصحاب النبي صلى الله عليه وآله والأئمة ٢٢

تميز الأئمة عليهم السلام ٢٣

الكلام ضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في جهده المادي إدارياً ٢٧

وفيه فصول:

الفصل الأول: في جهود النبي صلى الله عليه وآله لصالح الإسلام بكيانه العام ٢٩

محافظة الإسلام على اللغة العربية. ٣٠
خلود اللغة العربية بالإسلام ٣٠
سموّ شخصية النبيﷺ ٣١
اعتراف المشركين بصدقهﷺ حجة عليهم ٣١
شواهد إيمان المشركين بصدقه في دعوته ٣٢
الكلام في جهود النبيﷺ لصالح الإسلام في مقامين:
المقام الأول: فيما حققه وهو في مكة من حين تحمّله رسالة ربه إلى هجرته ٣٦
موقف أبي طالب وأبي لهب ٣٧
إصرار النبيﷺ على دعوته وتجاهله للمثبطات ٣٨
تعيين وصيه في بدء الدعوة. ٣٩
الهجرة للحبشة ٤٠
محاولة قريش إقناع النجاشي بإرجاع المسلمين ٤٠
تعقد الأمور على قريش ٤٢
حديث عتبة بن ربيعة مع النبيﷺ ٤٤
تفكير قريش جدياً في حلّ مشكلتهم مع النبيﷺ ٤٥
إصرار أبي طالب على دعم النبيﷺ ونصره وانبهاره به ٤٦
بعض شواهد إيمان أبي طالبعليه السلام ٤٧
المواجهة بين قريش وبني هاشم ٤٨
وهن قريش أمام النبيﷺ. ٤٨
جرأة قريش على النبيﷺ بعد وفاة أبي طالب ٤٩
أمره النبيﷺ المؤمنين بالصبر. ٥٠
عرض النبيﷺ نفسه على قبائل العرب ٥٠
الهجرة للمدينة ٥٢
محصّلة جهود النبيﷺ قبل الهجرة ٥٢

تبني الأنصار الدعوة مع شعورهم بفداحة الثمن. ٥٤
وصية أبي طالب للنبي ﷺ بالهجرة ٥٥
المقام الثاني: في جهود النبي ﷺ بعد الهجرة المباركة ٥٦
وقد مرّ بمرحلتين:
المرحلة الأولى: ثبات المسلمين أمام التحديات ٥٦
معاناة الأمة من أمرين:
الأمر الأول: مشكلة اليهود ٥٦
عقدة الحسد والتكبر عند اليهود. ٥٨
عقد المعاهدات مع قبائل اليهود. ٥٩
الأمر الثاني: مشكلة الانقسامات الداخلية في المسلمين. ٥٩
انفجار مشكلة الانقسامات في المسلمين بوفاة النبي ﷺ ٦٠
عدم احتجاج أبي بكر أو مؤيديه ممن حضر السقيفة بنص النبي ﷺ: «الأئمة من قريش» (هامش) ٦١
الحرب الأولى: حرب بدر ٦٣
وهي نقطة تحول للمسلمين:
أولاً: رفع معنويات المسلمين. ٦٣
ثانياً: كسر شوكة قريش. ٦٥
ثالثاً: كشف حال المسلمين. ٦٦
التنبيه لمفاد آية الإثخان ٦٨
رابعاً: تدخل الغيب في الحرب. ٦٩
خامساً: أصبح المسلمون قوة يحسب لها حسابها ٧٠
الحرب الثانية: حرب أحد ٧٠
ما استفاده المسلمون من حرب أحد أمران:
أحدهما: استسهال الإقدام على الحرب واحتمال الموت بأمل الفخر بالانتصار . . ٧١

ثانيها: كشف واقع المسلمين ٧٣
انتهاء الأمر ببعض المسلمين إلى الردة ٧٤
غزوة بدر الموعد ٧٦
الحرب الثالثة: حرب الأحزاب ٧٨
كتاب أبي سفيان للنبيﷺ وجوابه له ٧٩
حسم المعركة بقتل أمير المؤمنينﷺ عمرو بن ودّ ٨٠
انسحاب المشركين بتوجيه الله تعالى الريح عليهم ٨٢
القضاء على بني قريظة ٨٤
وصية ابن حواش لليهود ٨٥
ثمرة غزوة الأحزاب أمور أربعة:
أولها: ظهور قوة الإسلام ٨٦
ثانيها: القضاء على بني قريظة ٨٧
ثالثها: غنيمة المسلمين ٨٧
رابعها: ظهور النفاق والتخاذل من جماعة كبيرة ٨٧
المرحلة الثانية: مرحلة توسّع الإسلام وتثبيت قوته ٨٩
عمرة الحديبية ٨٩
بيعة الرضوان ٩٠
قريش تستعطف النبيﷺ ٩١
صلح الحديبية ٩٢
إعطاء قريش النبيﷺ ثلاثة أمور ٩٢
اشتراط قريش أن من جاءهم ممن مع النبيﷺ لم يردّوه عليه، ومن جاء النبيﷺ منهم من غير إذن وليه ردّه عليهم ٩٣
إنكار بعض المسلمين على النبيﷺ ٩٤
عصيان المسلمين أمر النبيﷺ بالتحلل من العمرة ٩٥

قصة ثمامة بن أثال الحنفي ٩٧
خفة ضغينة قريش على النبي صلى الله عليه وآله إزاء تسامحه في صلح الحديبية ٩٨
مبادرة النبي صلى الله عليه وآله بعد الصلح وفرض هيبته في المنطقة بأمرين:
الأول: حرب خيبر ٩٩
الثاني: كتب النبي صلى الله عليه وآله للملوك ١٠٠
حديث هرقل مع أبي سفيان ١٠١
قدوم وفود العرب ومنهم وفد نجران على النبي صلى الله عليه وآله ١٠٣
الخروج للمباهلة ١٠٥
قبول الوفد بالجزية ١٠٦
تنبيه هام حول المباهلة ١٠٦
تميز أهل البيت عليهم السلام بالمباهلة ١٠٧
غزوة مؤتة واحتكاك النبي صلى الله عليه وآله بالروم ١١١
مناجاة النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام يوم الطائف (هامش) ١١١
فتح مكة ١١٢
محاولة أبي سفيان تجديد العهد والزيادة في المدة ١١٤
كتاب حاطب لقريش يخبرهم بعزم النبي صلى الله عليه وآله على المسير إليهم ١١٥
لقاء العباس أبا سفيان ١١٧
إرعاب أبي سفيان كسر معنويات قريش ١١٩
كيفية دخول النبي صلى الله عليه وآله مكة ١١٩
إحسان النبي صلى الله عليه وآله لقريش وعفوه عنهم ١٢٠
غزوة هوازن وثقيف ١٢١
خروج هوازن لمواجهة المسلمين ١٢٢
انهزام المسلمين وثبات النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم ١٢٣
تدخل الغيب وتراجع المسلمين وانهزام هوازن ١٢٤

غنيمة النبيﷺ أموال هوازن وذراريهم.. ١٢٤
حصار الطائف .. ١٢٥
إعطاء النبيﷺ غنائم هوازن للمؤلفة قلوبهم .. ١٢٥
إسلام هوازن وإرجاع السبايا لهم .. ١٢٦
ثمرة حرب حنين .. ١٢٦
الاحتكاك بالروم في غزوة تبوك.. ١٢٧
مكاسب الإسلام في غزوة تبوك.. ١٢٨
معاناة النبيﷺ من قريش والمنافقين .. ١٣٠
محاولة المنافقين قتل النبيﷺ وقضية العقبة.. ١٣١
موقف النبيﷺ من الفرس .. ١٣٤
سرية طيء.. ١٣٤
توفي النبيﷺ وقد هيأ المسلمين للاحتكاك بالفرس والروم .. ١٣٥
انشغال السلطة بعد النبيﷺ بالحروب الداخلية.. ١٣٧
تشجيع أمير المؤمنينعليه السلام على غزو الروم .. ١٣٧
إخبار النبيﷺ بامتداد رقعة الاسلام .. ١٣٨
إيمان الشعوب بالإسلام .. ١٤٢
اعتناق المغول الفاتحين الإسلام .. ١٤٤
محاولة الاستعمار في العصر الحديث القضاء على الإسلام .. ١٤٥
فشل الاستعمار في المحاولة.. ١٤٦
ظهور سلبيات الثقافة المادية .. ١٤٦
احترام الثقافة الإسلامية في الغرب .. ١٤٧
الفصل الثاني: في جهود النبيﷺ لصالح الإسلام الحق .. ١٤٩
توهم فشل النبيﷺ في مشروعه.. ١٥٠
توهم ضعف إدارة النبيﷺ .. ١٥٠

التشنيع على الشيعة في دعوى انحراف السلطة. ١٥١
الجواب عن الشبهات المذكورة بأمور:
الأول: تحديد الوظيفة الأهم للنبي صلى الله عليه وآله ١٥٢
الثاني: ما يمتاز به النبي صلى الله عليه وآله عن بقية الأنبياء عليهم السلام ١٥٤
دعوى أن النبي صلى الله عليه وآله كان في تقية ١٥٥
دفع الدعوى المذكورة ١٥٦
الثالث: شروط قيام الدعوة وإسماع صوتها ١٦١
الرابع: ظروف ظهور الإسلام. ١٦٤
صلوح شعب الجزيرة العربية لنشر الإسلام. ١٦٦
تعقد الأمور في شعب الجزيرة العربية. ١٦٦
حقد قريش على الإسلام وبني هاشم. ١٦٨
عدم انسجام موقف الوحي من الخلافة مع واقع قريش ١٦٩
أهمية احترام بني هاشم لأنه مظهر من مظاهر احترام النبي صلى الله عليه وآله (هامش) ١٦٩
موقف قريش من أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله. ١٧١
موقف الأنصار من أجل غنائم هوازن. ١٧٢
خطورة الرد على النبي صلى الله عليه وآله (هامش) ١٧٣
تعرض الأنصار للخذلان بردهم على النبي صلى الله عليه وآله (هامش) ١٧٣
موقف ذي الخويصرة من النبي صلى الله عليه وآله (هامش) ١٧٤
مظاهر خذلان الأنصار (هامش) ١٧٥
احتياط أم سلمة لنفسها (هامش) ١٧٩
فارق السن بين أمير المؤمنين عليه السلام وغيره ١٨٠
خشونة أمير المؤمنين عليه السلام في ذات الله ١٨١
تقدم أهل البيت عليهم السلام يبتني على اصطفائهم ورفعة مقامهم. ١٨٢
موت كثير من أهل البصائر وتكاثر غيرهم. ١٨٥

الرواية بمفاتحة بعض قريش النبيﷺ في الأمر ١٨٦
اهتمام النبيﷺ بالتبليغ ١٨٨
تعقد الأمور على النبيﷺ ١٨٨
تقييم أمير المؤمنينعليه السلام للأوضاع ١٩٠
اقتصار النبيﷺ على التبليغ من دون إصرار على تنفيذه ١٩١
الاستفادة من التبليغ على الأمد البعيد ١٩٢
خطبة النبيﷺ في مرضه ١٩٣
الخامس: تناسب موقف النبيﷺ مع القرآن ١٩٤
الموقف الحاسم من مسجد الضرار ١٩٧
السادس: تسهيل أمر التبليغ ١٩٩
السابع: القضاء على الوثنية ١٩٩
وأسسها أربعة:
أولها: تركيز عقيدة التوحيد ١٩٩
ثانيها: حفظهﷺ للقرآن من الضياع والتحريف ٢٠٠
عدم ذكر الأئمةعليهم السلام بأسمائهم في القرآن ٢٠٢
استفادت السلطة من القرآن المجيد ٢٠٣
منع السلطة من تفسير القرآن ٢٠٤
ثمرات حفظ القرآن ٢٠٦
ثالثها: تركيز نبوتهﷺ واحترام سنته ٢٠٧
رابعها: الإيمان بالغيب كحقيقة يترتب عليها العمل ٢٠٩
إكمال الأئمةعليهم السلام لدور النبيﷺ ٢١١
المشروع بتمام مراحله للنبيﷺ ٢١٢
عظمة شخصية النبيﷺ وأهل بيتهعليهم السلام ٢١٣
تتميم فيه أمور:

أولها: مميزات النبي صلى الله عليه وآله عن بقية الأنبياء عليهم السلام ٢١٦
ثانيها: عدم اختلاف أمته في حياته بخلاف سائر الأمم ٢١٦
ثالثها: ما حدث في الإسلام يناسب الطبيعة البشرية ٢١٧
رابعها: موقف الأئمة عليهم السلام من الجهاد ٢١٨
دعم أمير المؤمنين عليه السلام السلطة في حروب الإسلام الأولى ٢١٨
بيان خواص أصحابه عليه السلام الحقيقة عند خروجهم للجهاد ٢١٩
موقف الأئمة عليهم السلام من الجهاد بعد انتشار الإسلام ٢٢١
خامسها: مخادعة المنافقين ٢٢٣
المبحث الثاني: في إنجاز النبي صلى الله عليه وآله الثقافي البياني ٢٢٩
تميز الثقافة البيانية الإسلامية مضموناً وأسلوباً ٢٢٩
تميز خطب النبي صلى الله عليه وآله:
أولاً: بصياغتها البيانية الفريدة ٢٣٠
ثانياً: بمضامينها الجليلة ٢٣٠
شبهة نسبة هذه الثقافة لأهل البيت عليهم السلام دون النبي صلى الله عليه وآله ٢٣٣
دفع الشبهة المذكورة ٢٣٣
معاناة المجتمع بعد النبي صلى الله عليه وآله من أمرين:
الأول: الترهل والترف والتوجه لكسب المال ٢٣٥
الثاني: التشويه والتحريف للمفاهيم الدينية ٢٣٥
خطبتا الزهراء عليها السلام في بيان رفعة مقام النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام والإنكار على الظالمين ٢٣٦
نماذج من خطب النبي صلى الله عليه وآله وكلامه ٢٣٨
١ـ خطبته صلى الله عليه وآله في مسجد الخيف ٢٣٨
٢ـ خطبته صلى الله عليه وآله يوم فتح مكة ٢٣٨
٣ـ خطبته صلى الله عليه وآله في فضل شهر رمضان ٢٣٩

٤ـ حديث الشقي من شقي في بطن أمه .. ٢٤١
٥ـ خطبته ﷺ: يا أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم.. ٢٤٢
٦ـ خطبته ﷺ: إن الله ليس بينه وبين أحد قرابة .. ٢٤٢
٧ـ خطبته ﷺ: طوبى لعبد طاب كسبه وحسنت خليقته .. ٢٤٣
٨ـ خطبته ﷺ: اذكروا الموت فإنه آخذ بنواصيكم .. ٢٤٣
٩ـ خطبته ﷺ: ما لي أرى حب الدنيا قد غلب على كثير من الناس .. ٢٤٣
١٠ـ موعظته ﷺ لقيس بن عاصم.. ٢٤٤
١١ـ خطبته ﷺ: أعبد الناس من أقام الفرائض .. ٢٤٥
١٢ـ خطبته ﷺ: أكثر ذكر الموت يسلّك عن الدنيا.. ٢٤٦
١٣ـ كتابه ﷺ إلى معاذ يعزيه بابنه .. ٢٤٧
١٤ـ خطبته ﷺ: إن الله لا يطاع جبراً.. ٢٤٧
١٥ـ خطبته ﷺ: من نقله الله من ذل المعاصي إلى عز الطاعة.. ٢٤٨
١٦ـ خطبته ﷺ عندما تهيأ للخروج إلى غزوة تبوك .. ٢٤٨
١٧ـ ما تضمنته خطبته في يوم الغدير .. ٢٥٠
اهتمام النبي ﷺ بتعليم الكتابة.. ٢٥١
ثقافة القرآن تشهد لما سبق .. ٢٥٢
المقارنة بين النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام.. ٢٥٣
تعرف الأجانب على النبي ﷺ من طريق الإسلام الفاتح.. ٢٥٣
المؤسسة الدينية في الإسلام الفاتح واجهة للسلطة .. ٢٥٤
ظهور الإرهاب في بعض فرق المسلمين .. ٢٥٤
تراث أهل البيت عليهم السلام مغيّب عن العالم .. ٢٥٥
انفتاح العالم أخيراً على شيعة أهل البيت.. ٢٥٦
إعجاب العالم بشيعة أهل البيت لا يسري للنبي ﷺ.. ٢٥٧
على المبلغين تأكيد أن التشيع تصحيح في الإسلام لا تجديد فيه .. ٢٥٨

المبحث الثالث: فيما يحمله النبي صلى الله عليه وآله من مبادئ سامية ٢٦٣
موقف النبي صلى الله عليه وآله من جارية أنصارية ٢٦٥
منهج البحث ٢٦٦
الفصل الأول: فيما تتفق فيه الثقافات ٢٦٩
منها: الوفاء بالعهد ٢٦٩
شواهد شدّة اهتمام الإسلام بالوفاء بالعهد ٢٧١
ومنها: أداء الأمانة ٢٧٥
الآثار الوضعية لأداء الأمانة ٢٧٦
ومنها: الصدق ٢٧٧
صدق الداعية بتفاعله مع ما يدعو إليه ويطبقه على نفسه ٢٨٠
غياب الواقعية والتدخل الغيبي عن ذاكرة العالم ٢٨٢
حديث لنا مع رموز دينية ٢٨٣
ومنها: وفاء الدين ووجوب قضائه مع القدرة ٢٨٥
وظيفة العاجز عن الوفاء مع الدائن ٢٨٦
مثالية النبي صلى الله عليه وآله في أمر الدَّين ٢٨٧
الفصل الثاني: فيما تقتضيه الفطرة الإنسانية السليمة ٢٨٩
والكلام في قسمين:
القسم الأول: ما يبتني على ارتباط المجتمع وتماسكه ٢٩٢
١ـ بر الوالدين ٢٩٢
الوجه في إلحاق برّ الوالدين بالتوحيد ٢٩٣
عموم برّ الوالدين للكافرين ٢٩٦
حقوق الولد على الوالدين ٢٩٧
فقرات من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده ٢٩٩
ويحسن التنبيه لأمور:

الأول: منزلة الجد ٣٠٠
الثاني: استمرار حق الوالدين بعد موتهما ٣٠١
الثالث: تعميم حق الوالدين لأرحامهما وصديقهما ٣٠٢
٢ـ صلة الرحم ٣٠٣
الدواعي الدنيوية لصلة الرحم ٣٠٤
عموم حسن صلة الرحم لغير المؤمن ٣٠٦
٣ـ حسن الجوار ٣٠٧
الآثار الدنيوية لحسن الجوار ٣٠٨
حلّ مشكلة الجار من دون مكاشفة ٣٠٩
٤ـ حسن الصحبة والمعاشرة ٣١٠
بعض النكات في تعاليم النبيﷺ وسيرته ٣١١
٥ـ التحبب للناس ٣١٢
إفشاء السلام ٣١٥
بعض الأعراف الاجتماعية ٣١٦
النهي عن قول الهجر وعن الجزع ٣١٨
احترام الإنسان بعد موته ٣١٨
٦ـ إجلال كبير السن ٣١٩
أهمية هذا الخُلق ٣٢٠
الاستفادة من تجارب الشيوخ ومعاشرتهم ٣٢١
٧ـ احترام علاقة الإيمان ٣٢٣
التزاور بين المؤمنين ٣٢٤
حق الزائر والمجالس ٣٢٥
عقد المجالس ٣٢٧
تميز الصديق وأهميته في الرعاية ٣٢٨

إرشادات في الصداقة. ٣٢٩
لا يعتبر في الولاية الإيمانية الاستقامة في العمل ٣٣٠
لا يرجع ذلك إلى استهوان العمل ٣٣٤
بعض الشبهات في المنع من ذلك ٣٣٨
دفع الشبهات المذكورة ٣٣٨
قصة المفضل بن عمر ٣٤٣
تعرض الملتزمون دينياً لأمرين:
الأول: مخاطر حب الظهور ٣٤٦
الثاني: مخاطر العُجب وحسن الظن بالنفس ٣٤٧
ترك الذنب أيسر من طلب التوبة. ٣٥٠
لا يتسرع الإنسان في تقييم منزلة نفسه ولا غيره ٣٥٢
على الإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء ٣٥٤
القسم الثاني: ما يبتني على تكامل شخصية الإنسان ٣٥٦
١ـ الحياء. ٣٥٦
٢ـ الرفق. ٣٥٩
الرفق من سمات النبي صلى الله عليه وآله ٣٦١
قد يحسن استعمال الشدة ٣٦٢
٣ـ الحلم ٣٦٢
كظم الغيظ ٣٦٤
٤ـ الصبر ٣٦٥
موقع الصبر من الإيمان ٣٦٩
محنة المؤمنين بغيبة الإمام عليه السلام ٣٧١
مدح الشيعة بالصبر. ٣٧٥
مدح الشيعة في عصر الغيبة ٣٧٦

٥ـ العفو ٣٧٩
٦ـ التواضع ٣٨٢
تواضع النبي صلى الله عليه وآله والأنبياء عليهم السلام ٣٨٤
تأثير التواضع في نفوس الأتباع ٣٨٤
حديث عدي بن حاتم ٣٨٥
وصف ضرار أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية ٣٨٦
التواضع هو المناسب لواقع الإنسان ٣٨٧
المتكبر يعاني من عقدة نقص ٣٨٧
تفضيل الله تعالى للعبد لا يقتضي تكبره ٣٨٨
مفردات تواضع النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ٣٨٨
٧ـ شكر النعمة ٣٩٠
الشكر من صفات النبي صلى الله عليه وآله ٣٩٣
شكر من حصلت النعمة بسببه ٣٩٣
شكر نعمة الإيمان ٣٩٥
٨ـ القناعة والاعتماد على النفس ٣٩٧
التعفف عن السؤال ٣٩٩
الشكوى للمؤمن مع شدة الحاجة ٤٠٠
الحث على العمل والتكسب ٤٠١
النهي عن الفراغ والكسل ٤٠٢
الإجمال في طلب الرزق ٤٠٣
عدم استغلال المشتري ٤٠٤
الاقتصاد في الإنفاق ٤٠٥
الاقتصاد في الأكل واللباس ٤٠٦
٩ـ ترك المراء ٤٠٨

المراء قد يجرّ للنفاق وتركه مقتضى الورع ٤١١
قد يستفيد العدو من المراء ٤١١
١٠ـ مداراة الناس وخطابهم على قدر عقولهم ٤١٢
الوظيفة مع من لا يتقبل الحقيقة ٤١٤
١١ـ تجنب الإنسان ما لا يعنيه ٤١٧
١٢ـ فعل المعروف ٤٢٠
مثالية النبي صلى الله عليه وآله في فعل المعروف ٤٢٣
وينبغي التنبيه على أمور:
الأول: النهي عن المنّ بالمعروف ٤٢٥
الثاني: المعروف قبل المسألة ٤٢٦
الثالث: الصدقة تدفع النحس والشر ٤٢٧
الرابع: صدقة السرّ ٤٢٧
الخامس: حسن المعروف حتى للحيوان والأمر بالرفق به ٤٢٩
السادس: أهمية سقي الماء ٤٣١
السابع: أهمية إطعام الطعام ٤٣٢
أهمية فعل المعروف وآثاره ٤٣٢
الدواعي المؤكدة في الحثّ على فعل المعروف ٤٣٤
إدخال السرور على المؤمن ٤٣٥
الاهتمام بأمور المسلمين ٤٣٦
الحب في الله والبغض في الله ٤٣٧
ثمرة جميع ما سبق ٤٣٧
الوسطية في التعاليم الدينية ٤٣٨
أهمية التواصل مع التراث الإسلامي ٤٣٩
الملتزم بدينه يفرض احترامه على الآخرين ٤٤٠

وصية للمغتربين ٤٤١
الإيمان بالله تعالى يخفف وقع الأزمات والمصائب ٤٤١
حوار مع بعض المثقفين الأجانب ٤٤٣
تتميم: مميزات النبيﷺ **وصفته وخلقه** ٤٤٧
المصادر والمراجع ٤٦١
فهرست المحتويات ٤٨٥